مكتبة 498



رواية

خابيير ماريّاس

فكِّرْ فيَّ غداً أثناء المعركة

ترجمها عن الإسبانية علي إبراهيم الأشقر

المتوسط

أُخذ عنوان هذه الرواية من مسرحية ريتشارد الثالث لشكسبير، حيث تحل لعنة شبح الملكة آنا على الملك الذي قتلها. لكن أحداث الرواية تدور في مدريد، وفي أيامنا هذه. وعلى لسان فيكتور فرانش، كاتب سيناريو للسينما والتلفزيون، ويترزق من كتابة المقالات له ولغيره. يتعرف فيكتور على مارتا. امرأة متزوجة تدعوه إلى بيتها حين يسافر زوجها إلى لندن للعمل. بعد أن ينام ابنها وبعد أولى القبلات بينهما، تصاب مارتا بوعكة صحية مفاجأة لتموت بعدها خلال دقائق بين ذراعي فيكتور.

يهرب ولكنه يظل عالقا في خيوط تتشابك مع حياة (لا عشيقته)، وأسير اكتشاف ماضيها، فيقرر اكتشافه ويمضي في متاهة من الأسرار لتتكشف له تدريجيا حالات لا تصدق وشخصيات تبدو غير واقعية، ولا أحد يبدو ما هو عليه.

الرواية هي رحلة تنقيب في أسرار القلب البشري، مليئة بالمفاجآت والدراما والانعطافات. وماريّاس بارع في المقارنة والتفصيل، أكثر من الصحافة الصفراء، ليظهر لنا الجانب الآخر من الحياة، الخفي والمتنكر. يقص علينا الخداع مُظهرا آلية حركته. باختصار ترُينا هذه الرواية الواقع الوهمي الذي غرقنا فيه.

منشورات المتوسط

فكِّرْ فيَّ غداً أثناء المعركة

مكتبة | 498

حقوق النسخ والتأليف © 2018 منشورات المتوسط - إيطاليا.

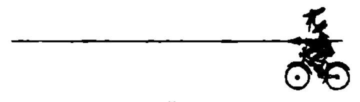
مكتبة t.me/ktabrwaya

٩ ٨ ٢٠١٩

Mañana en la batalla piensa en mí *by* "Javier Marías"
copyright © Javier Marías, 1994
Arabic copyright © 2018 by **Almutawassit Books**.

المؤلف: خابيير مارياس / المترجم: علي إبراهيم أشقر
عنوان الكتاب: فكر فيّ غداً أثناء المعركة
الطبعة الأولى: ٢٠١٨.
تصميم الغلاف والإخراج الفني: الناصري

ISBN: 978-88-85771-70-3



منشورات المتوسط

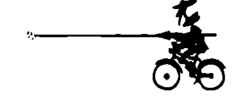
ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:
Alzaia Naviglio Pavese. 120/ 20142 Milano / Italia
العراق / بغداد / شارع المتنبي / محلة جديد حسن باشا / ص.ب 55204.
www.almutawassit.org / info@almutawassit.org

خابيير ماريّاس

فكِّرْ فيَّ غداً أثناء المعركة

ترجمها عن الإسبانية: علي إبراهيم أشقر

مكتبة | 498



المتوسط

مكتبة t.me/ktabrwaya

لا يفكّر أحد قطّ في أنه قد يجد نفسه وامرأةً ميّتة بين ذراعَيْه، وأنه لن يرى وجهها، وإنما سيذكر اسمها. لا يفكّر أحد في أنّ أحداً قد يموت في لحظة بعيدة كلّ البُعد عن أن تكون موائمة، وإن كان ذلك يحدث كلّ آن، ونحسب أنْ لن يموت قربنا أحد إلا إذا كان موته مرتقَباً. فكثيراً ما تخفى الأحداث أو الظروف علينا. وكثيراً ما يُخجل الأحياءَ أو مَنْ يموت، إن كان على وعي، شكلُ الموت الممكن ومظاهره وسببُهُ أيضاً. سواءٌ أكان عسر هضم من أكل المحار أم لفافة مشتعلة عند النوم، فتحرق الملاءات، أو ما هو أسوأ من ذلك، صوف بطانية، أم انزلاقاً في الحمّام، أو على سقّاطة قفل ملقاة، ثمّ السقوط على القفا، أم صاعقة تقصم شجرة في جادّة كبيرة، وهذه الشجرة تسحق أو تحصد عند سقوطها رأسَ أحد المارّة الذي قد يكون أجنبياً؛ سواءٌ أكان الموت والمرء لابس جورَبَيْه، أم في محلّ حلاقة واضعاً مريلة كبيرة، أم في ماخور، أم في عيادة طبيب أسنان، أم عند أكل سمك، فيعترض الحلقَ عَظْمٌ، ثمّ الموت بالغُصّة كالأطفال الذين لا تكون أمهّاتهم قربهم، ليُدخلنَ إصبعاً، فينقذنهم؛ الموت وقد حُلق نصف الوجه، وما يزال الخدّ الآخر مملوءاً بالرغوة، فتظل اللّحية متنافرة حتّى نهاية الأزمان، إذا لم يتنبّه أحد لذلك، ويُكمل العمل بدافع شفقة جمالية؛ حتّى لا أذكر لحظات في الوجود هي أقلّها نبلاً، وأخفاها، لحظات لا يذكرها أحد بعد عصر المراهقة، إذْ لا توجد حجّة لذكرها بعد ذلك، وإنْ وُجد مَنْ يُنعشها، ليجعل ظريفاً ما ليس بظريف قطّ. لكنّ هذا (الموت) موت رهيب، يقال

عن بعض الميتات؛ لكن (هذا) موت مضحك، يقال أيضاً وسط القهقهات. ترِد القهقهات، لأن الحديث يدور حول عدوّ، قُضي أمره أخيراً، أو حول أحدٍ ما بعيد، أحدٍ ما واجهنا ذاتَ مرّة، أحد يسكن الماضي البعيد منذ مدّة طويلة، كأن يكون إمبراطوراً رومانياً، أو أحد أجداد الأجداد، أو بالحَريّ أحد ما متسلِّط، يُرى في موته الفظّ الذي نتمنّاه في أعماقنا للناس جميعاً ونحن منهم، عدالةً ما تزال حَيّة، ما تزال بشرية؛ ما أفرحني بهذا الموت! ما أحزنني له! ما أحفاني به! أمّا الضحك، فحسبنا أن يكون الميّت إنساناً مجهولاً، نقرأ عن كارثته المضحكة لا محالة في الصحف. يا للمسكين! يقال وسط الضحكات؛ الموت كتمثيلية، أو كمشهد يُعلَن عنه، والقصص كلها التي تُروى، أو تُقرأ، أو تُسمع، يُنظَر إليها على أنها مسرحية، فهناك دائماً درجة من اللاواقعية في ذلك الذي نُعلم به وكأنّ شيئاً لا يحدث البتّة، حتّى الذي يحدث لنا، ولا ننساه. حتّى الذي لا ننساه.

هناك درجة من اللاواقعية في ما حدث لي، وفوق ذلك لم يُختَتم بعد، أو ربّما كان يجب عليّ أن أستعمل زمناً آخر للفعل - زمن الماضي المطلق، وليس القريب - كما استعمله الكلاسيكيون في لغتنا عند القَصّ، وأقول: ما قد كان حدث لي، وإن لم يُختَتم الحدث. وربّما كان أثار فيّ الضحك عند قَصّه. لكني لا أؤمن بذلك، لأنه لمّا يصبحْ بعيداً، وميّتتي لا تقطن الماضي منذ مدّة طويلة، وهي، بلا ريب، لم تكن متسلّطة ولا عدوّة؛ لا أستطيع القول إنها كانت مجهولة، وإن كانت معرفتي بها ضئيلة، لمّا ماتت بين ذراعيّ، في حين زادت معرفتي بها الآن. لحسن الحظّ أنها لم تكن قد تعرّت بعد، أو لم تتعرّ عرياً كاملاً، بل كنّا بالضبط في سبيلنا لنتعرّى، كلٌّ منّا يُعرّي الآخر، كما يحدث عادة في المرّة الأولى، أعني ما يحدث في الليالي الافتتاحية التي تتّخذ مظهر الفعل المُرتجَل، أو تتراءى عفوية إنقاذاً للحياء، ومن ثمّ، القدرة على اكتساب إحساس بحتمية الأمر،

وهكذا يُطرح الإثم الممكن جانباً، فالناس يؤمنون بالمقدور، وبتدخّل الجنّ، إذا ناسبهم ذلك. وكأنّ للناس جميعاً مصلحة بالقول إذا حان الحين: "أنا لم أسعَ إلى ذلك، ولم أُرده" إذا ما انجلت الأمور عن سوء، أو كانت وخيمة، أو إذا تاب المرء، أو تبيّن أنه ألحق الضرر بنفسه. "أنا لم أسعَ إلى ذلك، ولم أُرده". ربّما وجب عليّ أن أقول الآن، إذ أعلم أنها ماتت، وأنها قد ماتت على شكل غير ملائم بين ذراعَي من غير أن تعرفني تقريباً، وما كان ينبغي لي أن أكون إلى جانبها من غير حقّ. قد لا يصدّقني أحد لو قلتُ هذا القول، ومع ذلك، لا أهتمّ له كثيراً، لأني أنا مَنْ يقصّ القصّة، ويُسمَع لي، أو لا يُسمَع لي: هذا هو كل شيء. أقول الآن إذاً، أنا لم أسعَ إلى ذلك، ولم أُرده. وهي لا تستطيع أن تقول ما أقول، ولا أن تقول شيئاً آخر، ولا أن تُكذّبني؛ وكان آخر ما قالته: "يا ربّي! ومَنْ للطفل؟!" أمّا أوّل ما قالته: "لستُ على ما يُرام، لا أدري ماذا يحدث لي"، أعني أوّل شيء بعد قَطع عمليّة التّعرّي، فقد كنّا وصلنا مخدعها، وكنّا شبه مستلقيَيْن، شبه كاسيَيْن، شبه عاريَيْن. وانسحبتْ بغتة، وغطّت شَفَتَيّ وكأنّها لا تريد أن تُقبّلهما من غير أن تنتقل من مداعبة أو لمسة حنان أخرى، ونحّتْني بلطف بقفا يدها، واستلقتْ على جنبها، وقد أولتْني ظهرها، ولمّا سألتُها: "ماذا بكِ؟" فأجابتْني: "لستُ على ما يُرام. لا أدري ماذا يحدث لي. فرأيتُ حينئذ قفا عنقها الذي لم أكن رأيتُه قطّ، وقد ارتفع شعرها قليلاً، وتجعّد قليلاً، وتبلّل بالعَرَق قليلاً، ولم يكن الطقس حارّاً. قفا تسع عشري(*) تجري عليها أخاديد أو خيوط من الشَّعْر الأسود الملتصق كدم في سبيله، ليجفّ أو كطين، أو كرقبة مَن انزلق في الحمّام. وما يزال لديه فسحة من الوقت، ليُغلق الصنبور، ذلك كله كان سريعاً جدّاً، ولم يفسح المجال لصنع شيء. لم يفسح المجال لطلب طبيب (لكنْ، أيّ طبيب يُطلَب في الساعة الثالثة

*) نسبة إلى القرن 19.

فجراً. والأطبّاء حتّى في ساعة الغداء لا يذهبون إلى البيوت)، ولا لإعلام جارٍ (لكنْ، أيّ جارٍ إذا كنتُ لا أعرف الجيران، ولم أكن في بيتي، وما كنتُ قطّ من قبلُ في ذلك البيت الذي أنا مَدعوّ إليه، وأنا الآن دخيل، حتّى لم أدخل ذلك الشارع، وإنما كنتُ مرّات قليلة في الحيّ منذ مدّة بعيدة)، ولا إلى مخابرة الزوج (لكنْ، كيف يمكنني مخابرة الزوج، وفوق ذلك هو على سفر، حتّى إني لا أعرف اسمه كاملاً)، ولا إلى إيقاظ الطفل (ولأيّ شيء أوقظ طفلاً، بُذل جهد كبير، كيما ينام؟)، ولا إلى أن أحاول تقديم العون لها، فقد أحسّتْ بالمرض فجأة، وفكّرتُ في البداية، أو فكّرنا، أن العشاء أثقل عليها لكثرة ما تخلّله من تقطّع، أو فكّرتُ أنا وحدي، أنها ربّما اكتأبت، أو ندمت، أو ساورها خوف، والأشياء الثلاثة تتّخذ غالباً شكل الانقباض والمرض: الخوف والكآبة والندم خاصّة، إذا تزامن هذا الأخير والأفعال التي تُثيره، الأفعال كلها في آن واحد؛ نعم، ولا، وربمّا، وفي أثناء ذلك، تتابعت كلّها أو زالت، والتعاسة هي في أنكَ لا تعرف، ولكنكَ مُلزَمٌ بالعمل، فلا بدّ لنا من إعطاء الزمن مضموناً، الزمن الذي يضغط ويتابع جريانه من غير انتظار لنا، فنحن نسير أبطأ منه: التعاسة في اتّخاذ قرار من غير علم، والعمل من غير علم، وبالتالي نترقّب ترقّباً، وأكبر كارثة وأكثرها شيوعاً أن نترقّب ما يأتي بعد ذلك، نراها بالطبع على أنها كارثة صغرى، لكنها بمرأى منّا جميعاً كل يوم. هي شيء، يعتاده المرء اعتياداً، فلا يلتفت إليه كثيراً. أحسّت بالمرض، ولا أجرؤ على تسميتها. مارتا هذا ما كان اسمها، وتيبّث كنيتها، قالت إنها أحسّت **باضطراب**، وسألتُها: "أيّ نوع من الاضطراب؟ في المعدة؟ أم في الرأس؟"، "لا أدري. هو **اضطراب** رهيب في أنحاء **جسمي** كله. أحسّ بنفسي أموت". ذلك **الجسم** الذي أخذ يصبح ملك يَدَي؛ يدان تجريان في الاتّجاهات كلّها، **يدان تضغطان** أو تداعبان، أو تتحرّيان وتضربان أيضاً (أوه، كان ذلك من غير إرادة منّي،

من غير قصد، ربمّا من غير انتباه)، حركات آليّة تقوم أحياناً بها اليدان اللتان تتقرّيان كامل جسم ما تزالان لا تعرفان إن كان يلذّ لهما، ثمّ يعاني هذا الجسم فجأة الاضطراب، وعكة هي أشدّ الوعكات غموضاً، تشمل الجسم كلّه، كما قالت هي، وكان آخر ما قالتْه: "أحسّ بنفسي أموت"، لم تقل ذلك تفصيلاً، وإنما جملة جاهزة. هي ما كانت تُصدِّق الأمر، ولا أنا أيضاً، وفوق هذا كانت قالت: "لستُ أدري ماذا يحدث لي". وألححتُ عليها، لأن السؤال طريقة في تجنُّب العمل، ليس السؤال فقط، وإنما الكلام والقَصّ يُبعد القبلات، ويمنع الضرب واتّخاذ إجراءات، والتّخلّي عن الأمل. وماذا كان بوسعي أن أعمل خاصّة في بداية الأمر، لمّا كان كل شيء يبدو عارضاً حسب قواعد ما يجري، وما لا يجري، قواعد تتحطّم أحياناً؛ "لكنْ، ألديكِ رغبة في التّقيّؤ؟" هي لم تجب بالكلمات، وإنما أومأت نافية بحركة من رقبتها التي عليها ما يشبه الدم الجافّ أو الطين، وكأنّ النطق يُثقل عليها. نهضتُ من السرير، ودرتُ حوله، وركعتُ قربها، لأرى وجهها، ووضعتُ يدي على زندها (اللمس يواسي، ولنذكر يد الطبيب). كانت عيناها مغمضتَيْن، وقد أطبقتْ عليهما بأهدابها الطويلة، وكأنّما يؤذيها ضوء المنضدة الليلية الذي لم نُطفئه (لكني كنتُ أفكّر في إطفائه سريعاً، وكنتُ شككتُ قبل مرضها في أن أُطفئه أو أتركه حتّى حين. كنتُ أريد أن أرى، بل كنتُ في سبيلي لأرى ذلك الجسد الجديد الذي كان سيلذّ لي يقيناً، فلم أُطفئه). وتركتُه مشعلاً، وقد يكون ذا نفع لنا الآن نظراً إلى حالتها الطارئة، إلى مرضها أو انحطاط قواها، أو الخوف أو الندم؛ "أتريدين أن أستدعي طبيباً؟" وفكّرتُ في أرقام هواتف الطوارئ التي لا أترقّب أن تجيب، وتبدو كخيال الظلّ في اللائحة الهاتفية. ورفضتْ مرّة أخرى بحركة من رأسها، وسألتُ: "أين موضع الألم؟" فأشارتْ من غير رغبة إلى منطقة غير محدّدة، تشمل الجذع والمعدة وأسفل المعدة، في الواقع تشمل

الجسم كله ما عدا الرأس والأطراف. كانت معدتها مكشوفة، أمّا الصدر، فلم يكن كذلك كله، كانت ما تزال تضع على ثدييها حاملة الثديَيْن من غير حمّالة، وإن كان دبّوسها قد فُكّ، كانت أثراً من آثار الصيف، وتشبه القسم الأعلى من (بكيني)، وكانت ضيّقة عليها، وربّما لبستْها قديمة إلى حدّ ما، لأنها كانت بانتظاري هذه الليلة، وكان كل شيء قد أُعدّ خلافاً للمظاهر والمصادفات التي اختُلقت بعناية، كيما تقودنا إلى سريرها ذاك (أعَلم أن بعض النساء يستعملنَ مقاييس صغرى لإبراز أثدائهنّ). كنتُ فككتُ الدبّوس، لكن قطعة القماش لم تسقط، لأن مارتا كانت ما تزال تثبّتها بذراعيها، أو بإبطيها ربّما من غير رغبة الآن: "أزال الألم عنكِ؟"، "لا، لا أدري. ربّما لم يزل". قالت مارتا تييّث بصوت أصبح غير ناعم، وإنما صار مشوّهاً جرّاء الألم أو القلق، لأني في الحقيقة ما كنتُ أعلم إن كانت تتألّم. "انتظر قليلاً، أكاد لا أستطيع الكلام"، أضافتْ. والمرض يبعث على الكسل، ومع ذلك، قالت شيئاً آخر، فهي لم تكن على درجة كبيرة من المرض حتّى تغفل عنّي، أو أنها كانت محترمة في كل ظرف، وإن كان الظرف حالة نزع. ففي تعاملي الضئيل معها، بدت لي شخصاً محترماً (لكنّا ما كنّا نعلم حينئذ أنها في سبيلها لتموت): "مسكين!" قالت، "ما كنتَ تحسب هذا الحساب. ما أرهب هذه الليلة!" ما كنتُ أحسب حساب شيء، أو ربّما نعم، كنتُ أحسب حسابها هي. والليل لمّا يصبح رهيباً حتّى تلك الساعة، وإن كان مضجراً قليلاً، ولم أعلم إن كانت تحدس بما سوف يحدث لها عمّا قليل، أو أنها تشير إلى الانتظار المرهق بسبب الطفل الذي لا ينام. فنهضتُ ودرتُ حول السرير مرّة أخرى، واستلقيتُ على الجانب الذي كنتُ أشغله من قبل، أي على الجانب الأيسر مفكّراً (رأيتُ قفا رقبتها المتيبّسة المخطّطة المتشنّجة، كأنّما أُصيبت بالبرد): "لعلّ من الخير لي أن أنتظر، ولا أسألها خلال فترة ما، وأدعها هادئة، لأرى

إن كان يزول عنها الألم، ولا أُلجئها إلى الإجابة عن أسئلة، ولا أُعاين كل بضع ثوان، إن كان تحسَّن وضعها قليلاً، أو ساء قليلاً. فالتفكير في المرض يُفاقمه، كما هو الحرص عليها حرصاً مفرطاً في دقّته".

نظرتُ صوب جدران ذلك المخدع التي لم أمعن النظر فيها لمّا دخلتُ، بل كان نظري معلّقاً بالمرأة التي كانت تقودني من يدي، وكانت حينئذ منتعشة أو خجلة، والآن متوعّكة أشدّ التّوعّك. كان في المخدع مرآة بطول القامة كاملة، تقف إزاء السرير، وكأنّ المخدع حجرة في فندق. (زوجان كان يسرّهما أن يتراءيا في المرآة قبل الخروج إلى الشارع وقبل الاضطجاع. وما عدا ذلك، كل ما فيه يشي بمخدع زوجي، يتّسع لشخصين، وفيه آثار، خلّفها زوج على المنضدة الليلية الموجودة إلى جانبي. أما هي، فقد انزلقت منذ البدء صوب الجانب الذي ربّما تشغله كل ليلة وكل صباح، كأنّه أمر آليّ لا يقبل الجدل): وآلة حاسبة، وفتّاحة رسائل، وقناع لطرد ضوء المحيط، وبعض القطع النقدية، ومنفضة متّسخة، ومنبّه مع مذياع، أما الفراغ السفلي، فيشغله صندوق من التبغ، بْقيت فيه علبة واحدة، وزجاجة كولونيا خاصّة بالرجال من طرز (لو)، ربّما أُهديت إليه، وربّما كانت الهدية من مارتا نفسها بمناسبة عيد ميلاد حديث، وروايتان أُهديتا إليه أيضاً. (أو ليستا كذلك، لكني لا أحسبهما شراء)، وأنبوب من دواء ريدوكسون فوّار، وإناء فارغ، ربمّا لم يُتح له الوقت لرفعه قبل الانطلاق في سفره، وملحق صحيفة، يتضمّن برنامج تلفزة، لم يره، لأنه اليوم في سفر. كان التلفاز عند قَدَمَي السرير إلى جانب المرآة، وهذا يشي بأنها عائلة مرفّهة، وخطر لي خلال لحظة معيّنة أن أشغّله بجهاز التّحكّم عن بعد، لكن الجهاز كان على المنضدة الأخرى، أي منضدة مارتا، وكان ينبغي لي أن أدور حول السرير مرّة أخرى، أو أزعجها ببسط ذراعَي فوق رأسها، وفي ما عساني أفكّر إن كان ما داهمها كآبة أو خوف؟ وبسطتُ ذراعَي، وأخذتُ جهاز التّحكّم،

فلم تنتبّه، وإن احتكّ شَعْرها بكُمّ قميصي المشمور. على الجدار الأيسر نسخة من لوحة فنّيّة، فيها شيء من الحذلقة، وأعرفها جيّداً. إنها للرّسّام برتولوميوده فينيتزيا، رسمها في فرانكفورت. اللوحة تمثّل امرأة، تحمل الغار، وتضع طرحة على رأسها، وقد استرخت ذوائبها المعقوصة، والتاج على جبينها وقبضة من الأزاهير المختلفة في يدها المرفوعة، وصدرها مكشوف (بالحَريّ من غير ستر)؛ في الجدار الأيمن خزن غاصّة بالملابس، وبيضاء اللّون كالجدار. قد تكون في داخلها الثياب أو معظم الثياب التي لم يأخذها الزوج معه في سفره إلى لندن. "سيغيب مدّة بسيطة"، كما أعلمتْني مارتا خلال العشاء. يوجد أيضاً كرسيّان، عليهما ثياب، لم تُجمَع، ربّما كانت ثياباً متّسخة، أو ربمّا غُسلَت حديثاً، ولمّا تُكوَ، فضوء منضدة مارتا الليلية يضيئها جيّداً. أحد الكرسيَّيْن استُعمل شمّاعة، عُلّقت عليها ثياب رجل، وهي بنطال، ما يزال فيه النطاق والإبزيم الغليظ (وقد فُتح السّحّاب مثل كل البناطيل إذا خُلعت)، وزوج من القمصان فاتح الألوان مفكوك الأزرار تشي بأن الزوج كان منذ قليل في ذلك المكان، ولعلّه نهض منه ذلك الصباح، نهض عن الوسادة التي أستندُ بمتني إليها، ولعلّه عزم على ألا يبدّل بناطيله على عجل، وربمّا رفضت مارتا أن تكويها له. فتلك الثياب ما تزال تحمل رائحته؛ ورأيت جورَبَيْن أسوَدَيْن وتنّورَتَيْن لمارتا تييّث، لم تكونا من طراز التّنّورة التي ما تزال ترتديها، وإنما هي من طراز يتماشى و(الموضة)، ولعلّها كانت تجرّبهما متردّدة حتّى دقيقة واحدة قبل أن أطرق الباب، فقد لا يعرف المرء قطّ أن يختار أُبّهته من أجل مواعيد الغرام (أنا لم أكن أعاني مشاكل في ذلك، ولم أكن على ثقة بأن الموعد غرامي، وكانت ثيابي رتيبة). كانت التّنّورة التي اختارتها قد تجعدّت على شكل كبير في الوضع الذي اتّخذته. كان جسمها تثنّى، ورأيتُها تضغط بشدّة بإبهاميها على سائر أصابعها الأُخرى. وانكمشت ساقاها، وكأنّهما

تبذلان جهداً لتهدئة معدتها وصدرها، أو تريدان كبحهما بهذا الضغط. وهذا الوضع جعل سروالها مكشوفاً، وكشفت هذه السراويل بدورها عن ردفيها جزئياً، لأنها كانت صغيرة المقياس. وفكّرتُ في أن أسحب التّنّورة، وأنزلها بشكل من الخجل المباغت، ولكيلا تتجعّد كثيراً، لكني لم أستطع أن أتجنّب الإعجاب بما كنتُ أرى. وكان من المشكوك فيه أن أتابع النظر، إذا لم يتحسّن وضع مارتا التي ربّما تنبّهت إلى هذه التجاعيد، لأنها أخذت بالظهور على التّنّورة من وقت سابق، فلا أهمّيّة للثياب في الليالي الافتتاحية، سواء أكانت الثياب التي تُخلَع أم الثياب التي تظلّ، نعم، هناك أهمّيّة للجسد الجديد المجهول: ربّما، لهذا السبب لم تكوِ شيئاً حتّى الآن ممّا كان معلّقاً، لأنها كانت تعلم على كل حال أنها ستضطرّ في اليوم التالي إلى أن تكوي أيضاً التّنّورة التي ارتدتْها هذه الليلة. وإن أيّاً من التّنّورتَيْن ستتجعّد ليلة تستقبلني وتتلطّخ، وتُدعَك، وتصبح خارج الاستعمال مؤقّتاً في أمثال هذه الحالة.

خفّضتُ صوت التلفاز بجهاز التّحكّم قبل أن أشغّله، وظهرت الصورة كما أردتُ من غير صوت. أمّا هي، فلم تلتفت إلى شيء من ذلك، على الرغم من زيادة الإضاءة في الحجرة فوراً. ظهر على الشاشة فريد ماك موري والترجمة مكتوبة. وهو فيلم قديم، يُقدَّم آخر الليل. استعرضتُ الأقنية، وعدتُ إلى ماك موري بالأبيض والأسود، وإلى وجهه القليل الذكاء. كان ذلك لمّا لم أستطع تفادي التفكير، وإن كان لا يفكّر أحد قطّ في النظام الذي تُحكى فيه الأفكار، أو تُكتب، وفكّرتُ: "ماذا أصنع هنا؟ أنا في بيت لا أعرفه، وفي مخدع فرد، لم أره قطّ، ولا أعرف عنه سوى اسمه الأوّل الذي ذكرتْه زوجته على شكل طبيعي لا يُطاق مرّات عدّة خلال السهرة. وهو مخدعها أيضاً، لذلك أنا موجود هنا ساهراً عليها في مرضها بعد أن نزعتُ عنها بعض ثيابها، ولامستْ يدي بدنها، نعم، هي أعرفها، وإن

تكن معرفتي بها ضئيلة، فقد بدأت منذ أسبوعين فقط، وهي ثالث مرّة أراها في حياتي. هتف لها زوجها منذ ساعتَين، لمّا كنتُ في بيته أتعشّى، هتف ليقول إنه وصل لندن سالماً، وإنه تعشّى في مطعم بومباي براسّوري عشاء رائعاً، وإنه يتأهّب ليأوي إلى السرير في حجرته في الفندق، وإن عملاً كثيراً ينتظره في اليوم التالي، وإنه في رحلة عمل قصيرة". ولم تقل له زوجته مارتا إني هنا أتناول العشاء معها، وهذا ما جعلني على شيء من اليقين أن ذلك العشاء كان عشاء غرامياً، وإن كان الطفل ما يزال حينئذ مستيقظاً. وقد سأل الزوج عن هذا الطفل بلا ريب، فقد أجابتْه مارتا إن الطفل على وشك أن ينام. وأرجّح أن الزوج قال لها: "أعطنيه، كيما أسلّم عليه"، لأن مارتا قالت: "خير له ألا تسلّم عليه، فهو أرق جدّاً، وإذا كلّمتَه، فسوف يزداد نرفزة، ولن تجد أحداً يدفعه إلى النوم". ذلك كله كان محالاً من وجهة نظري، لأن الطفل وهو في الثانية من عمره على زعم أمّه، كان يتكلّم بشكل بدائي، لا يُفهَم إلا بمشقّة، وكان على مارتا أن تسدّد له، وتترجم، والأمّهات أولى الهدّافات في العالم والمترجمات اللاتي يفسّرن، ثمّ يصغنَ ما لم يصبح لغة بعد، ويفسّرنَ أيضاً الإيماءات ومظاهر الخوف، ومعاني البكاء المختلفة إذا كان البكاء مفكّكاً، ولا يعادل الكلمات، أو ينبذها، أو يعيقها، وربمّا كان الأب يفهمه أيضاً، ولذلك طلب أن يكلّم بالهاتف ذلك الطفل الذي كان يتكلّم الوقت كله والمصّاصة في فمه ممّا يفاقم من صعوبة نطقه. لقد قلتُ له ذات مرّة لمّا كانت مارتا غائبة عنّا لبضع دقائق في المطبخ، وظللنا أنا وهو وحدنا في الصالون الذي هو غرفة معيشة أيضاً، أنا جالس إلى المائدة والمنشفة على حضني، وهو على الصوفا والأرنب القرزم في يده، ناظرَيْن كلينا إلى التلفاز الشغّال، هو مواجهة وأنا بمؤخّر طرفي: "بالمصّاصة لا أفهمكَ". فأخرجها طائعاً، وأمسك بها في يده بحركة فيها شيء من الأناقة (في اليد الأخرى، كان

يمسك الأرنب القزم)، وردّد بفمه الخالي ما كان يرغب في قوله من غير نجاح أيضاً. وعدم سماح مارتا للطفل بتناوُل الهاتف زادني يقيناً على يقين. لأن الطفل بشبه كلامه المعوق، قد يستطيع على الرغم من كل شيء أن يدلّ أباه على وجود شخص يتناول العشاء في البيت. وأدركتُ بعد قليل أنه كان يلفظ المقاطع الأخيرة من الكلمات التي تزيد على مقطعين اثنين، حتّى هذه كان يلفظها على شكل غير مفهوم (فقال: "رب" بدلاً من شارب، و"آتا" بدلاً من كورياتا، و"صاصة" بدلاً من مصّاصة و"ليه" بدلاً من فيليه، إذ ظهر على الشاشة عمدة ذو شاربين وأنا بلا شاربين، وقدّمت لي مارتا على العشاء لحم فيليه إيرلندياً)، وكان من الصعب حلّ هذه الشيفرة حتّى لو علم الأب ذلك. لكن هذا الأب ربّما يكون ألِف هذه اللغة، وشحذ حاسّته في تفسير لغة بدائية، يتكلّمها متكلّم وحيد، لن يلبث بعد ذلك أن يهجرها سريعاً. كان الطفل يستعمل قليلاً من الأفعال، لذلك كان يشقّ عليه تشكيل جُمل، بل كان يستعمل على وجه خاصّ أسماء وبعض النعوت، وكان كل شيء عنده له طابع الهتاف والتّعجّب. لقد جهد ألا ينام، بينما نحن نتعشّى، أو لا نتعشّى، فأنا كنتُ أنتظر عودة مارتا بعد ذهابها إلى المطبخ، وعنايتها المفرطة الصبورة بالطفل. كانت الأمّ وضعت في تلفاز الصالون - وهو أوّل جهاز أراه في البيت حتّى ذلك الحين - شريطاً ذا صور متحرّكة، لترى إن كانت أضواء الشاشة تبعث فيه النعاس. لكن الطفل كان يقظاً، وأبى أن يذهب إلى السرير، وهو بجهله العالم أو بمعرفته الهشّة به، كان يعلم أكثر ممّا أعلم، فكان يراقب أمّه، ويراقب هذا المَدعوّ الذي لم يره قطّ من قبلُ في هذا البيت، وكان يقوم بحراسة مكان والده. مرّت عليّ لحظات عدّة، أردتُ فيها أن أنصرف، فكنتُ أحسّ بأني دخيل أكثر ممّا أنا مَدعوّ. وكان إحساسي بأني دخيل يزداد كلّما اكتسبتُ اليقين من أن ذلك الموعد كان غرامياً، وأن الطفل يعلم ذلك على شكل غريزي

كالقطط، وكان يحاول منعه بحضوره مكافحاً النعاس الذي يقتله، وجالساً بهدوء على الصوفا إزاء الصور المتحرّكة التي ما كان يفهمها، وإن كان يعرف الأشخاص، لأنه كان يشير من حين لآخر بسبّابته إلى الشاشة. وقد وُفّقتُ إلى فهمه، على الرغم من المصّاصة، لأني كنتُ أرى ما كان يراه، فكان يقول: "تيتّان!" أو "طان!" وكانت الأمّ تُعرِض عنّي مولية اهتمامها له، فتُترجم أو تؤكّد له كيلا تظلّ كلمة واحدة من كلماته المستجدّة البسيطة من غير احتفاء أو صدى. "نعم، هما تانتان والقبطان، يا حياتي". أنا كنتُ قرأتُ تانتان صغيراً في كُتُب كبيرة الحجم، أمّا أطفال اليوم، فيرونه يتحرّك، ويسمعونه يتكلّم بصوت مضحك، لذلك لم أجد بدّاً من أن أشرد بذهني عن المحادثة المجزّأة وعن العشاء المتقطّع كثيراً، ليس لأني كنتُ أعرف الأشخاص فقط، وإنما أعرف مغامراتهم والجزيرة السوداء، وكنتُ أتابعها قليلاً بلا رغبة من مقعدي إلى المائدة من حين لآخر.

كان عناد الطفل بألا ينام ما جعلني على اقتناع بما كان ينتظرني (لو نام هو، ولو أردتُ أنا). كانت مراقبة الأمّ نفسها وخوفها الغريزي ذاته ما نمّ عنها أكثر ممّا نمّ عنها صمتها في أثناء محادثتها زوجها في لندن (أعني الصمت عن وجودي)، أو انتظارها لي، وقد رتّبتْ نفسها غاية الترتيب، وأفرطتْ في زينتها، وتوردّتْ وجنتاها كثيراً، كيما تكون في البيت آخر النهار (أو ربّما كانت منوّرة). ظهور الخوف يبعث أفكاراً لدى مَنْ أُصيب بالخوف، أو لدى مَنْ يبثّ الخوف، والحيطة المتّخذة حيال ما لم يحدث يجلب الحدث، والشكوك تقرّر ما لم يُبتّ فيه قطّ، وتحركّه، والخوف من الخطر والترّقّبُ يدفع إلى ملء الفجوات التي يخلقانها، ويعمّقانها، شيء ما ينبغي له أن يطرأ إذا أردنا تبديد الخوف، والخير في أن نسعى به إلى غايته. فالطفل يتّهم أمّه بأرقه، والأمّ تتّهم نفسها بتساهلها؛ (خير لنا أن نقضي حفلتنا بسلام)، ربّما هكذا كانت تفكّر، أو أنها فكّرتْ هكذا منذ البدء؛

(فإذا ما أُثيرت حفيظة الطفل هلكنا)، وكلتا الحالتَين تزيل كلّ فعالية، تنتج عن التمويه الذي لا مفرّ منه في الليالي الافتتاحية دائماً، ممّا يفسح المجال للقول في وقت لاحق، إنّ أحداً لم يسعَ إلى شيء، ولم يرد شيئاً: وأنا لم أسعَ وراء شيء، ولم أردْه. بل كنتُ أتّهم نفسي أيضاً، ليس بسبب جهد الطفل ألا يستسلم للنوم، وإنما بسبب موقفه منّي وطريقته في النظر إليّ مليّاً: فلم يدنُ منّي في أيّة لحظة كثيراً، وكان ينظر إليّ بمزيج من عدم التصديق والحاجة أو الرغبة في الثقة. وقد تجلّت هذه الرغبة خاصّة لمّا كان يخاطبني بمفرداته التّعجبيّة والمعزولة عن بعضها والغامضة دائماً تقريباً، يخاطبني بصوته القويّ الذي لا يُصدّق أن يصدر عمّن كان في مثل حجمه. لقد أراني أشياء قليلة، لكنه لم يتخلّ عن أرنبه القزم؛ "الطفل على حقّ، وحسناً فعل"، كنتُ أفكّر، "لأنه ما إن ينام حتّى احتلّ مكان والده المألوف خلال هنيهة من الزمن، ليس أكثر من هنيهة. هو كان يحسّ بذلك إحساساً مسبقاً، ويريد أن يحمي هذا المكان الذي هو ضمانة له، لكنه، إذْ يجهل العالم، ولا يدري أنه يدري، فقد مهّد لي الطريق بخوفه الشفّاف، ودلّني على القرائن التي تعوزني. فهو بعد كل شيء، وعلى الرغم من أنه لا يعرف شيئاً، يعرف أمّه خيراً منّي لأنها العالم الذي يعرفه خير معرفة، وهو في نظره ليس سرّاً. وبفضله لن أتردّد، إن أردتُ الأمر هكذا". وراح يضطجع شيئاً فشيئاً مدفوعاً بعامل النعاس، وانتهى إلى أن تكوَّم على الصوفا جرماً دقيقاً قياساً إلى تلك القطعة من الأثاث - كالنملة في علبة كبريت فارغة، لكن النملة تتحرّك فيها -. وظلّ ينظر إلى الفيديو مستنداً بوجهه إلى الوسائد والمصّاصة في فمه كتذكار أو شعار من سنّه الصغيرة جدّاً، وقد طوى ساقيه في وضع النوم، أو مقاربة النوم فاتحاً عينَيْه للغاية، فما كان يسمح لنفسه بإطباقهما، ولو للحظة واحدة، وكانت الأمّ تنحني من حين لآخر من مقعدها، لترى إن كان ابنها قد أغفى، كما كانت ترغب

فيه، إذْ كانت المسكينة تريد أن تُبعده عنها، وإن يكن حياتها، كانت المسكينة تودّ أن نبقى معاً وحيدين لمدّة لا خطر فيها (لكنّي أقول "المسكينة" الآن، ولم أفكّر حينئذٍ في قوله، وربمّا كان ينبغي لي أن أفعل). أنا ما كنتُ أسألها، ولا أُبدي أيّ تعليق حول الموضوع، فما كان يعجبني أن أبدو قلقاً وخالياً من الشكوك، وفوق ذلك، كانت هي تُعلمني على شكل طبيعي كل مرّة بعد أن تنحني فوقه: "هوّي! ما تزال عيناه مفتوحتَيْن كالصحن!" وجود ذلك الصبيّ هيمن على كل شيء، على الرغم من هدوئه. كان طفلاً هادئاً، ويبدو أنه حسن الطبع، لا يكاد يثير الضجر، لكنه ما كان يريد بأيّ شكل أن يدعنا وحدنا، ما كان يريد بأي شكل أن يغيب عن هذا المكان، وما كان يريد بأيّ شكل أن تبتعد عنه أمّه التي تتّخذ الآن ذات الوضع الذي اتّخذه ابنها على الصوفا الكبيرة قياساً لحجمه، بينا كان يقاوم التعب، أما هي، فكانت تقاوم المرض أو الخوف أو الكآبة أو الندم، ولا تبدو جرماً دقيقاً على سريرها ذاته، ولم تكن وحيدة، بل أقف أنا إلى جانبها وجهاز التّحكّم بيدي من غير أن أعرف ما أنا صانع. وقلتُ لها: "أتريدين أن أذهب؟"، "لا تذهب، بل انتظر قليلاً، فلا بدّ للألم من أن يزول عنّي. لا تتركني!" أجابت مارتا تييّث، ثمّ التفتت بوجهها صوبي بالنّيّة أكثر ممّا هو بالفعل: ولم تبلغ أن تراني، لأنها لم تلتفت التفاتة كافية، بل على العكس من ذلك، دخل مجال رؤيتها التلفازُ الشغّال، ووجه ماك موري الأبله الذي أخذتُ أقرنه بوجه الزوج الغائب بينا كنتُ أفكّر فيها وفيما حدث وفيما لم يحدث، وفيما كنتُ أحضّر له حتّى ذلك الحين. فلِمَ لا يهتف الآن إذا كان مسهداً في لندن؟ فقد يخفّف عنها لو رنّ الهاتف الآن، وأمسكتُ بالسمّاعة، وشرحتُ للزوج بصوت ضعيف أنها مريضة جدّاً، وأنها لا تدري ماذا يحدث لها. وسوف يتحمّل هو الأمر وإن كان بعيداً، وسأجد نفسي مُعفى من كل مسؤولية، وأكفّ عن أن أكون شاهداً

(مسؤولية مَن يُوفّق في النجاة فقط، ولا شيء آخر)، ربمّا استطاع هو أن يهتف إلى طبيب، أو إلى جار (نعم، هو يعرفهم، لأنهم جيرانه، وليسوا جيراني)، أو إلى أخت له، أو بنت حميّ، ليستفيقوا من نومهم مذعورين، ويصلوا في منتصف الليل إلى بيته، ليُسعفوا زوجه المريضة. وأنصرف في أثناء ذلك، وقد أعود في ليلة أخرى، إن اقتضى الحال، في ليلة، لا نحتاج فيها إلى مساعٍ ومقدّمات أُخرى، قد أزورها غداً مساء في مثل هذه الساعة، إذا كنتُ مطمئناً إلى أن الطفل قد نام. أمّا أنا، فلن أنام، لكن الزوج قد يكون عاد قبل الأوان: "أتريدين أن أهتف لزوجكِ؟" سألتُ مارتا، "على الأغلب، سيُطمئنكِ كلامه، وليْعلمْ أنكِ لستِ على ما يرام".، نحن لا نطيق ألا يكون أقرباؤنا على علْم بآلامنا، لا نطيق أن يظلّوا يحسبوننا سعداء إلى هذا الحدّ أو ذاك، إذا أصبحنا غير سعداء بغتة، هناك أربعة أشخاص أو خمسة في حياة كل امرئ ينبغي لهم أن يكونوا على علْم بكل ما يحدث لنا فوراً، لا نطيق أن يظلّوا يؤمنون لحظة واحدة أخرى بما أصبح غير موجود، كأنْ يحسبوننا متزوّجين، إذا أمسينا أرامل، أو أن لنا آباء إذا صرنا يتامى، وفي صحبة إذا هُجرنا، أو بصحّة إذا أصبحنا مرضى، أو أن يحسبونا أحياء إذا متنا. لكن تلك الليلة كانت ليلة غريبة خاصّة على مارتا تييّث، كانت بلا ريب أغرب ليلة في تاريخ وجودها. والتفتت إليّ بوجهها التفاتة أكبر، ورأيتُ ذلك الوجه مباشرة، كما قد تكون رأت وجهي، منذ لحظة فقط، كانت تُبدي لي نقرتها التي تزداد تعرُّقاً وصلابة. وخيوط الشعر التي تجري فوقها تزداد تلبّداً، أو كأنّها بُلّلت بالطين، كانت تولّيني ظهرها العاري الخالي من أيّة علامات. لمّا استدارت استدارة كاملة، رأيتُ عينيها غائرتَيْن حتّى يبدو محالاً أن تريا شيئاً، وقد غطّتهما تقريباً الجفون الطويلة، ولا أدري إن كانت الغرابة التي لمحتُها في نظرتها تعود إلى أنها قد نسيتْني مؤقّتاً، أو أنها لم تعرفني، أو تعود إلى سؤالي وتعليقي، أو ربمّا لإحساسها

الآن بشيء، لم تحسّ به قطّ من قبل. أفترض أنها كانت تُحتضر، ولم أتنبّه إليها، لأن الاحتضار أمر طارئ على الناس جميعاً. "أأنتَ مجنون؟"، قالت لي، "كيف أهتف له؟ لسوف يقتلني". لمّا استدارت، انزلقت حاملة الثديَيْن التي كانت تضغط عليها إرادياً أو لا إرادياً بذراعيها أو بإبطيها، وسقطت على الفراش، وصار جذعها عريان، ولم تفعل شيئاً لتغطيّه: أفترض أنها كانت تُنازع، وأنا لم أتنبّه لذلك. وأضافت مبيّنة أنها تستطيع أن تتذكّرني، وأنها لم تفقد وعيها: "آي، يا مسكين! لقد شغّلتُ التلفاز، لأنك ضَجِرٌ، ارفع الصوت إن شئتَ. ماذا ترى؟" لمّا قالت لي ذلك وكأنّه صادر من أعماقها، وضعتْ إحدى يديها على ساقي إشعاراً بمداعبة، لم تستطع إتمامها؛ ثمّ سحبتْها راجعة إلى وضعها موليَة ظهرها ومنكمشة كأنّها طفلة، أو كطفلها الذي يرقد أخيراً غافلاً عنّي وعنها في حجرته، يقيناً هو يضطجع في مهد، ولستُ أدري إن كان أطفال السنة الثانية تقريباً، يتعرّضون لخطر التدحرج خلال الليل والسقوط على الأرض، إن ناموا في أسِرَّة، كما يفعل الكبار، أم ينامون بالتالي في مهود، حيث يكونون آمنين: "هو فيلم عتيق لفريد ماك موري"، أجبتُها (هي كانت أصغر منّي، وسألتُ نفسي إن كانت تعلم مَنْ هو ماك موري؟)، "لكني لا أراه". وكذلك الزوج ينام أيضاً في لندن غافلاً عنها، جاهلاً بوجودي، فلِمَ لا يستيقظ قلقاً؟ لِمَ لا يهجس؟ لِمَ لا يهتف باحثاً عن عزاء في مدريد، عن عزاء في بيته، ليعثر هنا بصوت قلق آخر أعظم من قلقه، قلق يجعله ينبذ قلقه ذاته؟ لِمَ لا يُنقذنا؟ لكن كل شيء كان منتظماً في منتصف الليل لدى كل الأشخاص أو الوجوه الممكنة التي جاءتها الأخبار متأخّرة: لدى الطفل القريب جدّاً والجاهل بالعالم الذي يعيش فيه تحت سقف واحد، لدى الأب البعيد في الجزيرة التي ينام فيها عادة بهدوء؛ لدى بنات حميّه أو الأخوات اللاتي قد يكنّ حالمات الآن بالمستقبل المجرّد في هذه المدينة التي لا تهدأ

قطّ، والتي يصعب النوم فيها - نوم يأتي مغالبة، وليس عادة قطّ؛ منتظمة لدى طبيب ما مُتعب مُنهَك ربّما كان بمستطاعه أن يُنقذ حياة، لو انتُزع تلك الليلة من كوابيسه؛ لدى الجيران في ذلك البناء، الجيران القانطين مفكّرين نياماً في اليوم التالي الذي يزداد اقتراباً، ويتقلّص الوقت كيما يستيقظوا ويتراؤوا في المرآة، ويغسلوا أسنانهم، ويُشغِّلوا المذياع؛ ها كم يوماً آخر: ما أتعسه! هاكم يوماً آخر، ما أسعده! أمّا أنا ومارتا، فلم تكن أمورنا منتظمة، أنا لم أكن غافلاً، ولا غارقاً في النوم، وقد كان فات الوقت طويلاً. قلتُ من قبلُ إن كل شيء جرى سريعاً جدّاً، وأنا أعلم أنه هكذا كان، لكنني إذا تذكّرتُه، بدا بطيئاً بطء حضوري له، فقد كان لديّ إحساس بأن الزمن كان يجري، ومع ذلك، كان يجري ببطء شديد في الساعات (في ساعة منضدة مارتا الليلة، وفي ساعة معصمي)، أنا كنتُ أرغب في أن أدعه يجري من غير عجل قبل كل جملة أو حركة منّي، ولم أستطع، فإذا مضت دقيقة واحدة بين جملي وحركاتي تقريباً، أو بين حركة واحدة، أو جملة منّي، فإنيّ أحسبها عشراً، أو على الأقلّ خمساً. ولربّما كانت تحدث في أنحاء أُخرى من المدينة أمور ليست كثيرة سواءٌ أكانت فوضى أم منتظمة: فكانت تُسمَع عربات من مسافة معيّنة، لأن ذلك الشارع المسمّى كونده ديلاثيميرا ظلّ بمنأى عن ضرورات حركة السير. أمّا ما أعلمه عن حقّ، فهو وجود مشفى قريب جدّاً، واسمه مشفى (النور)، حيث ممرّضات مناوبات يغفون، وقد أسندنَ رؤوسهنّ إلى قبضاتهنّ، هي مجرّد إغفاءة بسيطة، تنشأ كيما تتحطّم. جالسات على كراسيّ غير مريحة، وقد صالبنَ سوقهنّ عبر جواربهنّ البيض ذات العقد عند خطّ الدرز، بينما طالب في مكان آخر يضع نظّارة على عينَيْه، وربّما يقرأ سطوراً في الحقوق أو الفيزياء أو الصيدلة، من أجل امتحان الغد الذي لا يجدي، وينسى كل ما فيه بعد الخروج من قاعة الامتحان؛ أو ربّما كانت عاهرة في منطقة أخرى بعيدة

عن هنا، تقع عند نهاية سفح شارع الأخوَيْن بيكر، وتخطو ثلاث خطوات أو أربع خطوات حذرة متردّدة صوب الشارع الرئيس، كلّما خفّضت عربة من سيرها، أو توقّفت عند الإشارة الضوئية لابسة أبهى حللها ذات ليلة ثلاثاء باردة، كيما تُرى من قرب أو من بعيد؛ وربّما كانت العاهرة رجلاً شابّاً متنكّراً، يجرّ كعبي حذائه العاليَيْن بحكم العادة التي لمّا تتجذّر، فتقودها خطاها، ويتردّد هو في زيارات متباعدة إلى داخل عربات معدّة كيلا تترك أثراً على أحد، أو كيلا تتراكب في ذاكرتهما المبهمة الكئيبة الهشّة؛ أو ربّما كانا عاشقين، يودّعان بعضهما البعض، ولا يحسبان حساب ساعة، يعودان وحيدَيْن، كل منهما في سرير، وأحدهما منهَك، والآخر سليم، لكنهما ما يزلان يتمتّعان ببعضهما، ويتبادلان القبل والباب مفتوح، وقد يكون هو الراحل أو هي - بينما ينتظر هو أو هي المصعد الذي لبث ساعة من غير أن يطلبه أحد، أي منذ عودة المستأجرين الطوّافين من إحدى العلب الليلية، قُبَل مَنْ يذهب صوب الباب يقطفها ممّنْ ظلّ في مكانه، تختلط مع قُبل أوّل أمسِ، وقُبَل ما بعد غدٍ، لأن الليلة الافتتاحية المشهودة كانت ليلة واحدة فحسب، سرعان ما ضاعت وقد ابتلعتها الأسابيع والشهور المكرورة التي تحلّ محلّها؛ وقد تكون ناشبة في مكان ما مشادّة، فتطير زجاجة في الهواء، أو يمسك بها أحدٌ من عنقها، وكأنّها مقبض خنجر، ويضربها على منضدة مَنْ أساء إليه، فلا تتحطّم الزجاجة وإنما بلّور المنضدة، وإن تطاير زبد البيرة كالبول؛ وقد تُرتكَب جريمة اغتيال أيضاً أو قَتْل، لأنه لم يخطّط له، وإنما يطرأ طروءاً فقط جرّاء مناقشة أو لكمة أو صرخة أو احتكاك أو اكتشاف ما أو شعور مباشر بالخديعة، وعلم ومعرفة بها، وسماع ورؤية لها، والموت يجلبه أحياناً الجانب الإيجابي النشيط، ويُبعده أو ربّما يؤجّله الجهل والسأم، ولهذه الحالة، يوجد خير جواب دائماً: "لا أدري، هذا لا يعنيني، سنرى فيما بعد"، وما علينا غير الانتظار والنظر،

فلا يعني أحد شيئاً حتّى لا يعنيه ما يفعله أو يقرّره أو يراه أو يعانيه، وكل دقيقة تذوب على شكل أسرع أو أبطأ، وبدرجة من اللاواقعية في ازدياد دائماً، وكل شيء يرحل صوب تلاشيه، كلّما مرّت الأيّام، بل حتّى الثواني التي تبدو أنها تدعم الأشياء، وهي في الواقع تلغيها: فيتلاشى حلم الممرّضة وسهر الطالب اللامجدي، وتُزدَرَى أو لا تُلمَح عروض العاهرة التي قد تكون فتى مقنّعاً ومريضاً، وتُنكَر قبلات العاشقين في ختام أشهر معدودات أو أسابيع عدا ما تجلبه معها من غير إعلان ليلة الختام أو الوداع السّارّ أو الفَظّ، ويُجدّد بلّور المنضدة، ويزول النزاع زوال الدخان الذي لفّه ليلتها، وإن يكن فاعل الشرّ ما يزال يصنع الشرّ؛ واختُزل الاغتيال أو القتل ببساطة، وكأنّه يرتبط برابطةٍ (وهناك روابط أخرى كثيرة)، رابطة تافهة سطحية بالجرائم التي نُسيت، وبالتي لا ثبات لها، وبالجرائم التي تُحضّر، وبالتالي ستقع، إنما كيلا تقع فحسب. ولسوف تحدث أمور في لندن، وفي العالم كله، أمور لا شأن لنا بها أبداً، لا أنا ولا مارتا، وفي ذلك نحن متشابهان، والتوقيت هنا يسبق التوقيت هناك ساعة، لعلّ الزوج لم يعرف طعم النوم في الجزيرة أيضاً، وإنمّا يرعى الأرق ناظراً من النافذة الشتوية المنزلقة في الفندق المسمّى ويلبراهام أوتيل، صوب الأبنية المحاذية، أو صوب حجرات أخرى، معظمها مظلم في الفندق الذي تُشكّل كتلته زاوية قائمة مع جناحيه الخلفيَّيْن اللذين لا يُشاهدان من الشارع، ويلبراهام بالاس اسمه، ناظراً صوب تلك الحجرة التي رأى فيها مساء خادمة سوداء، تُرتّب أسرّة النزلاء المغادرين، من أجل النزلاء الذين لمّا يِفدوا، أو ربمّا يراها الآن في حجرتها المسنّمة ذاتها، وهي من أعلى الحجرات في الفندق وأوسعها وأوطئِها سقفاً مخصصّة للمستخدمين الذين لا بيوت لهم، تخلع ثيابها بعد يوم عمل، تخلع العصابة والحذاء والجوربين وصدرتها وزيّها الرسمي، وتغسل وجهها وإبطيها في مغسلة، وقد يرى أيضاً امرأة

شبه كاسية، شبه عريانة، لكنه خلافاً لي، لم يمسسْها، ولم يعانقها، ولا شأن له بها، وهي الأخرى تغتسل قليلاً قبل أن تضطجع، تغتسل عضواً عضواً على الطريقة البريطانية في مغسلة من مغاسل الغرف البريطانية البائسة التي يتعيّن على نزلائها الخروج إلى الممشى، ليتقاسموا الحمّام مع نزلاء الطابق الآخرين. لا أدري، هذا لا يعنيني، سنرى، أو بالحريّ، لن نعرف أبداً. مارتا الميّتة لن تعرف أبداً شيئاً عن زوجها في لندن تلك الليلة بينا كانت تُنازع إلى جانبي، وإذا ما عاد، لن تكون على قيد الحياة كيما تستمع إلى القصّة التي صمّم على أن يرويها لها، قصّة ربّما كانت مُختلَقَة، وكل شيء يسير نحو تلاشيه ويضيع، وقليل من الأشياء يُخلِّف أثراً، خاصّة إذا لم تتكرّر، إذا كانت تحدث لمرّة واحدة، ولا تحدث مرّة أخرى، شأنها شأن الأمور التي تضرب أطنابها بيُسر كبير، وتتكرّر يومياً، وتتراصف، لأنها هي أيضاً لا تُخلِّف أثراً.

لكني ما كنتُ أعرف حينئذ إلى أيّ صنف من الأحداث تنتمي زيارتي الأولى، تلك الليلة، شارع كونده ديلاثيميرا، الشارع الغريب، كنتُ أفكّر في أن أنصرف ولا أعود، فما أسوأ حظّي! لكنْ، كان بمستطاعي أيضاً أن أعود في اليوم التالي الذي صار اليوم الحاضر حسب السّاعات؛ وسواء أكنتُ أعود أم لا أعود، فربّما يتلاشى أثر تلك الليلة الافتتاحية، أو على الأصحّ الفريدة، ما إن أخرج من هنا، ويرتفع النهار، "وجودي هنا سيمّحي غداً صباحاً"، فكّرتُ، "وإذا ما أصبحتْ مارتا بخير، واستردّتْ عافيتها، فسوف تجلي أطباق عشائنا الفارغة، وسَتكوي تنّوراتها، وتُهوّي الملاءات حتّى تلك التي لم ألمسها، ولن ترغب في تذكّر نزوتها ولا إخفاقها، ولسوف تفكّر في زوجها في لندن باطمئنان، وتتمنّى عودته، ولسوف تنظر من النافذة للحظة بينا تستعيد نظام العالم، وتُوطّده - في قبضة أمس مَنفضة تبغٍ لمّا تُفرغ - وإن ظلّت في عينيها بقيّة من شرود، هذه البقيّة التي تضعف

لحظة بعد أخرى، تعود إليّ وإلى قبلاتي القليلة بعد أن يكون محا المرض أو الخوف أو الندم ذكراها وإغراءها وأثرها. وجودي الجليّ هنا جدّاً سينكَر غداً بإيماءة من الرأس أو فتح صنبور، وسيكون في نظرها كأنّه لم يكن، وكأنّي لم آتِ، لأنه حتّى الزمن الذي يرفض أن يمضي، ينتهي بأن يمضي، وتبتلعه البلاليع، وبالتالي حسبي أن أتصوّر إطلالة النهار حتّى أجد نفسي خارج هذا البيت، ولربّما سأكون خارجه قريباً جدّاً، وإن يكن ليلاً، عابراً شارع الملكة فيكتوريا، وسائراً شيئاً يسيراً في شارع الجنرال رود ريغو لأسلوَ قبل أن أستقلّ سيّارة أجرة. ربّما يلزمني فقط أن تنام مارتا، حينئذ سأجد لنفسي سبباً وعذراً كيما أنصرف". وفُتح بغتة باب الحجرة الذي أبقتْه مارتا موارباً، كيما تستطيع سماع الطفل إذا استيقظ وبكى. "لن يستيقظ مهما يحدث"، كانت قالت: "لكني أكون بذلك أكثر طمأنينة". ورأيتُ الطفل مستنداً إلى شقّ الباب، ومعه أرنبه القزم الذي لا يفارقه، ويضع مصّاصته في فمه، ويرتدي منامته، لذلك استيقظ من غير أن يبكي هاجساً بتلف عالمه. كان ينظر إلى أمّه، وينظر إليّ انطلاقاً من بساطة أحلامه التي ربمّا لمّا تفارقْه تماماً، من غير أن ينطق بكلمة واحدة من كلماته المعدودات الناقصات. ولم تلتفت مارتا إلى شيء - كانت عيناها مطبقتَيْن بإحكام، وأجفانها الطويلة مسدلة.، وإن قمتُ بحركة سريعة مذعورة لتزرير قميصي التي لمّا أبلغ، فأخلعها، لكنها هي كانت فكّتْ أزرارها (أزرار كثيرة حينئذ، وهي كثيرة الآن لتزريرها)، فلا بدّ لمارتا تييّث من أن تكون مريضة جدّاً حتّى لا تلتفت إلى وجود ابنها في حجرتها في منتصف الليل، أو حتّى لا تلمحه، لأنها ما كانت تنظر صوبه، ولا إلى أيّ جانب آخر. ولم أدرِ مدى لحظات، إن كان الطفل ينوي الدخول صارخاً، أو صعود السرير إلى جانب أمّه المريضة، أو ينفجر باكياً، ليلفت انتباهها - انتباهها المركّز الآن على ذاتها فقط، وعلى جسدها المتمرّد عليها. نظر صوب التلفاز، ورأى ماك موري

الذي كان في هذا المشهد، كما كان في مشاهد أخرى منذ هنيهة، بصحبة بربارا نويك امرأة ذات وجه ينطق بالشرّ، وقليل اللطف. وقد يكون خاب ظنّه بالأبيض والأسود أو بغياب الصوت، أو لأن الأمر يتعلّق بماك موري وستانويك عوضاً عن تانتان وهدّوك، أو أشياء أخرى بارزة من الرسوم المتحرّكة، لأنه لم يمعن النظر في الشاشة، كما يفعل الأطفال الآخرون، إذا ما نظروا إليها، بل أشاح عنها فوراً ملتفتاً مرّة أخرى صوب مارتا. وشعرتُ بالخجل، إذْ فكّرتُ أنه بسبب من خطئي يرى أمّه عريانة، وكانت عريانة إلى حدٍّ ما، وقد سقطت حاملة الثديَيْن، ولم تفعل شيئاً لتسترهما - حتّى وإن يكن أَلِف هذا الوضع، فقد كان صغيراً جدّاً، فلا يأبه أبواه بذلك. بل هناك أيضاً آباء يرون في تقاسم عريهم مع عري ذويهم المحتوم والشائع كثيراً، إذا كانوا صغاراً ضرباً من التنفيس عن النفس والصّحّة. لكني شعرتُ بالخجل، على الرغم من هذا التفكير العصري، والتقطتُ بتعثّر كبير حاملة الثديَيْن، من حيث كانت على الفراش، كأنّها غنيمة محاولاً ستر ثديي صاحبتها على شكل عجِل ورديء. ولم أوفّق إلى ذلك، لأنني تنبّهتُ إلى أن هذه الحركة واحتكاك القماش بجسم مارتا قد يوقظانها، إن كانت نائمة، أو يجعلانها تنظر على كل حال. وفكّرتُ أن من الخير لها ألا تعلم أن الصبي رآنا، إن هو سمح بذلك، أي إذا ظلّ من غير أن يبكي أو يصعد السرير أو يقول شيئاً ما. لا يبدو أنه يرقد في مهد، أو أ نه يرقد فيه فعلاً، لكنّ قضبانه جدّ منخفضة، أو هي بالارتفاع المطلوب، كيلا يتدحرج في أثناء النوم، لكنها ليست بالقدر الذي يحول بينه وبين النهوض منه، إن احتاج إلى ذلك. وهكذا ظللتُ مدى ثوانٍ وحاملة الثديَيْن ذات المقياس الصغير بيدي، وكأنّها تذكار ضئيل هزيل، وكأنّني أريد أن أُبرز فتحي الذي لم أستطع إنجازه، بل كان العكس تماماً: فقد رأيتُها تلك اللّحظات على أنها برهان على نزوتي وإخفاقي، كما هي برهان على نزوتها وإخفاقها. كان الطفل

مستيقظاً، لأنه كان يقف في الباب وعيناه مفتّحتان، لكنه في الواقع، شبه نائم، أو هذا ما قلتُه لنفسي. نظر ناحية الحاملة مدفوعاً بحركتي، فأخفيتُها فوراً، ودعكتُها بيدي التي أنزلتها حتّى الفراش، ووضعتُها وراء ظهري. لا يبدو عليه أنه عرفني معرفة كاملة، يقيناً بدا له وجهي على شكل لا يختلف كثيراً عمّا تبدو له أشكال وجوه شخوص الفيديو الصبيانية، أو وجوه كلاب أحلامه، سوى أنه لمّا يطلقْ عليّ اسماً أو ربّما فعل، لأن مارتا لفظت اسمي مرّات عدّة خلال العشاء، ولربّما كان يعرفه، لكنّ لسانه ما كان يطاوعه وهو وسط صراع بين النوم والسّهد. وما كان لسانه يطاوعه في شيء، ولم أجد على عينَيْه أيّ تعبير، أي أني لم أجد تعبيراً معروفاً من تلك التي يُطلق عليها الكبار في العادة اسماً، كالحيرة والوَهْم والخوف واللامبالاة والاضطراب والغضب؛ أمّا تقطيبته البسيطة، فتعود إلى استيقاظه المضطرب، وليس لشيء آخر، أو هذا ما قلتُه لنفسي. ونهضتُ بحذر، ودنوتُ منه ببطء مبتسماً قليلاً قائلاً له بصوت خفيض جدّاً، يكاد يكون همساً: "ينبغي لكَ أن تذهب لتنام مرّة أخرى، فقد تأخّر الوقت كثيراً. هيّا يجب أن تعود إلى السرير". ووضعتُ يدي من ارتفاع قامتي على متنه - اليد الأخرى كانت ما تزال تمسك بالحاملة، وكأنّها منشفة مستعملة - . وقد سمح لي أن ألمسه، حينئذ وضع يده على ذراعي، ثمّ دار نصف دورة طائعاً، ورأيتُه يختفي في الممشى بخطى عَجِلة قصيرة في طريقه إلى حجرته، ووقف قبل أن يدخل الحجرة، والتفت صوبي، وكأنّه يأمل أن أرافقه، فربّما كان يحتاج إلى شاهد، يراه يضطجع، ويكون على يقين من أنّ أحداً ما يعرف مكان نومه. وتتبّعتُه إلى هناك من غير أن أُثير ضوضاء، فكنتُ أسير على رؤوس أصابع قَدَمَيّ، لأنني كنتُ ما أزال أنتعل الحذاء، وأحسبني لن أخلعه بعد ذلك. ووقفتُ في باب حجرته التي يرقد فيها، والتي ظلّت معتمة، لأن الطفل لم يُشعل الضوء، وربّما لا يعرف أن يُشعله، وإن كانت حصيرة

النافذة مرفوعة، وبالتالي كان يدخل من تلك النافذة ضوء الليل الأصفر المحمرّ، نافذة ذات ألواح، وليست منزلقة. ولمّا تحقّق من أني سأرافقه آوى إلى مهده مرّة أخرى بصحبة الأرنب دائماً. - كان مهداً من خشب، وليس من معدن، وقضبانه منخفضة الارتفاع، كما كنتُ أخمّن. - أحسبني ظللتُ هناك دقائق معدودات، وإن لم أنظر إلى الساعة، لمّا غادرت حجرة مارتا، ولا عند عودتي إليها. ظللتُ حتّى تيقّنتُ من أن الطفل قد غرق في النوم مرّة أخرى، وهذا ما عرفتُهُ من تنفُّسه، ولأنني اقتربتُ منه للحظة، كيما أرى وجهه. ولمّا تقدّمتُ، ارتطم رأسي بشيء، لم يُلحق بي ضرراً، ولمحتُ حينئذ في العتمة طائرات لعب معلّقة بخيوط، تتدلّى من السقف، وعلى ارتفاع، لا يبلغه الطفل. فتراجعتُ، وعدتُ إلى العتبة، ووقفتُ في زاوية مستنداً إلى شقّ الباب، كما فعل هو من قبل دون أن يجرؤ على أن يطأ حجرة أمّه، ممّا أتاح لي أن أميّزها بانعكاس الضوء الشتيت عليها. رأيتُ أنها من كرتون أو من معدن، أو ربمّا كانت مجسّمات ملوّنة، كانت كثيرة جدّاً، وقديمة على كل حال. كانت طائرات عتيقة، تعمل بالمراوح، وتعود يقيناً إلى طفولة الأب البعيدة، الأب الموجود في لندن، والذي انتظر إلى أن رزُق بابن، ليعرضها مرّة أخرى، ويعيدها إلى مكانها الملائم، إلى حجرة طفل. بدا لي أني أرى فيها طراز سباتفاير، وميسّر شميث 109 - ونيوروبوت بجناحين، وكامل، وميغ راتا (الجرذ) أيضاً، كما سمّى الروس هذه الطائرة في أثناء الحرب الأهلية في ذلك البلد، وكذلك: زيرو اليابانية، ولا نكستر وربمّا B - 51 H. موستانغ ذات الشدقين الباسمين، كأنّهما شدقا قرش دُهنا في الجانب السفلي من الخطم. وكان بينها طائرة بثلاثة أجنحة، قد تكون من طراز فوكر، وربمّا كانت حمراء اللون، وفي هذه الحالة، قد تكون طائرة البارون فون ريشتوفن: طائرات مطاردة وقاذفة من الحربين العالميتَيْن الأولى والثانية مختلطة بعضها ببعض. بعضها يعود

إلى أيّام حربنا الأهلية، وبعضها إلى حرب كوريا. وأنا كان عندي منها لمّا كنتُ طفلاً، لم أكن أملك منها الكثير. فكم أغبطه! لذلك كنتُ أتعرّف إليها مرتسمة على سقف النافذة المرقّط الضارب إلى الصفرة، كما كنتُ أتعرّف إليها طائرة في سماء طفولتي، ذلك أني كنتُ رأيتُها. كنتُ أوقفتُ بيدي الطائرة التي جعلها رأسي تتأرجح، وفكّرتُ في فتح النافذة التي كانت مغلقة، وبالتالي ما كان يهبّ منها نسيم، يجعلها تتحرّك أو تتأرجح، لكنها، مع ذلك، كانت تعاني حركة ذهاب وإياب خفيّة - هو تأرجح عطالة، تأرجح وقور - لا تستطيع تجنّبه الأشياءُ الخفيفة المعلّقة بخيوط، وكأنّها تستعدّ جميعاً لتشنّ كسلى من فوق رأس الطفل وجسمه معركة ليليّة مضنية مصغّرة، شبحية ومحالة وقعت مع ذلك مرّات عدّة في الماضي، أو ربمّا ما تزال تقع كل ليلة خارج الزمن، إذا ما نام الطفل والزوج ومارتا آخر الأمر حالماً كل منهم بوطأة الاثنين الآخرين. وفكّرتُ: "فكِّرْ فيّ غداً، أثناء المعركة"، أو على الأصحّ، تذكّرتُ تلك العبارة.

لكنهم لم يناموا تلك الليلة، على الأرجح، لم ينمْ أحد منهم، أو لم ينمْ نوماً كاملاً، نوماً متواصلاً، وكما يجب: الأمّ شبه عريانة وخارج السرير ومريضة بصحبة رجل، يسهر عليها ويعرفها معرفة عابرة، والطفل غير متدثّر الآن جيّداً (فقد أوى إلى السرير وحيداً، ولم أجرؤ على سحب أغطيته وملاءاته الصغيرة، لأدثّره)، والأب، مَن يعلم مع مَنْ تعشّى، كانت مارتا قالت بعد أن وضعت سمّاعة الهاتف بهيئة تنمّ عن اهتمام وغيرة خفيفة -حاكّة صدغها قليلاً بسبّابتها: هي وإن لم تكن وحيدة، كانت ما تزال في كونده ديلاثيميرا مثل سائر الليالي - (قال لي إنه تعشّى عشاءً رائعاً في مطعم هندي، اسمه بومباي براسّوري. أتعرفه؟" نعم، أنا أعرفه، وقد أُعجبت به كثيراً، وتعشّيتُ مرّتَيْن في قاعاته الضخمة ذات الديكور من طراز كولونيالي، ويقف عند المدخل عازفة بيانو، تلبس ثياب سهرة، وخَدَم ورؤوساء خَدَم يقدّمون فروض الاحترام، وفي سقفه مراوح ضخمة ذات أذرع، تدور صيفاً وشتاء، إنه مكان استعراضي إلا أنه غالٍ قياساً للمطاعم في إنكلترا، لكن دخوله ليس حكْراً على أحد، يقدّم فيه عشاء صداقة واحتفال أو تجارة، أكثر ممّا هو عشاء حميم أو غرامي، اللهم إلا إذا أريد إغواء شابة غِرّة، أو من طبقة دنيا، أو أحد ما يمكن أنْ يُدهَش بالسيناريو، ويسكر على شكل مضحك ببيرة هنديّة، أحد ما لا حاجة تُحوِج إلى نقله إلى أيّ مكان آخر وسيط قبل ركوب عربة، وبلوغ الفندق أو الشقّة، أحد ما لا داعي يدعو إلى أن يُكلّم بعد العشاء ذي التوابل اللاذعة، وإنما حسبُه

أن يُمسَك برأسه، ويُقبَّل، ويُعرَّى، ويُلمَس، ويُحاط باليَدَيْن بهذا الرأس المبتاع الهشّ بحركة، تشبه عملية التتويج أو الخنق. مرض مارتا جعلني أفكّر في أشياء مشؤومة. وإني وإنْ كنتُ أتنفّس وأشعر بتحسّنِ حالي واقفاً في عتبة حجرة الطفل ناظراً إلى الطائرات في العتمة متذكّراً على شكل غامض ماضيّ البعيد، فقد فكّرتُ في وجوب عودتي إلى المخدع، لأرى حالها، أو أحاول أن أُعينها، ربمّا أعرّيها تعرية كاملة، ذلك بغرض وضعها على السرير فحسب، وتدثيرها، وجلب النوم إلى جفونها، نوم لعلّه بشيء من حسن الحظّ قد غلبها في أثناء غيابي البسيط عنها. وذهبتُ إليها.

لكن الأمر لم يكن كذلك. لمّا دخلتُ مرّة أخرى، رفعتْ بصرها، وبعينين غائرتَيْن معتكرتَيْن، نظرت إليّ من وضعها المنكمش الساكن. أمّا التغيير الوحيد، فكان سَتْر عريها بذراعيها، وكأنّها أحسّت بالخجل أو البرد. وقلتُ لها: "ألا تريدين أن تستلقي على السرير؟ بهذا الوضع سوف تُصابين بالبرد". فقالت، "لا، لا تُحركّني، أرجوكَ، لا تُحركّني ولو ميليمتراً واحداً". وأضافت فوراً: "أين كنتَ؟"، "ذهبتُ إلى الحمّام. هذا الألم لا يزول عنكِ، ولا بدّ لنا من صنع شيء، سوف أهتف إلى طوارئ الإسعاف". لكنها كانت ما تزال غير راغبة في أن تُحرَّك، وتُزعَج وتُشغل. (لا، لا تفعل شيئاً، لا تفعل شيئاً، بل انتظرْ). يقيناً ما كانت تريد أصواتاً، ولا حركة قربها، وكأنمّا ساورتها خشية كبيرة حتّى آثرت الشلل المطلق على الأشياء كلها، والبقاءَ على الأقلّ في موقف ووضع، يتيحان لها مواصلة الحياة من غير تعرّض لخطر التغيير، مهما يكن صغيراً، تغيير قد يحطّم استقرارها المؤقّت والهشّ جدّاً، أو سكينتها المخيفة، ويثير فيها الذعر. هذا ما يصنعه الذعر، ويقود من يعانيه إلى الهلاك. فيجعله يحسب وهو في قبضة المرض والخطر أنه مع ذلك في أمان، كالجندي الذي يظلّ قابعاً في خندقه هادئاً جدّاً، وحابساً نفَسه تقريباً، وإن كان يعلم أنه عمّا قريب سيُقتَحَم؛ أو كعابر السبيل الذي

لا يريد أن يجري، إذا أحسّ بخطى تتعقّبه في ساعات متأخّرة من الليل في شارع مظلم مهجور؛ أو العاهرة التي لا تطلب عوناً أو نجدة بعد أن تندسّ في سيّارة، تُغلق منافذها آليّاً، وتتنبّه إلى أنه ما كان لها أن تدخل ها هنا محتبسة مع ذلك الفرد ذي اليَدَيْن الضخمتَيْن (ربّما لا تطلب نجدة، لأنها لا تحسب ذلك حقّاً من حقوقها)؛ أو كالأجنبي الذي يرى الشجرة التي شقّتها الصاعقة، تهوي فوق رأسه، ولا يتنحّى جانباً، وإنما ينظر إليها تسقط ببطء فوق الجادّة؛ أو كالرجل الذي يرى شخصاً آخر، يُقبل صوب منضدته حاملاً سكّيناً، فلا يتزحزح، ولا يدافع عن نفسه، لأنه يحسب في قرارة نَفْسه أن ذلك لا يمكن أن يحدث له حقّاً، وأن هذا السّكّين لن يُغرز في بطنه، ولا يمكن للسّكّين أن يكون هدفه بطنه وحشاه، أو كالطيّار الذي يرى مطاردة عدوّة ركبت ظهره، فلا يحاول محاولة أخيرة للهرب من مجال رؤيتها بحركة بهلوانية إيماناً منه بأن الطائرة المعادية، وإن كانت تملك المزايا كلها، لسوف تخطئ الهدف، لأنه هو الهدف هذه المرّة: "فكِّرْ فيّ غداً، أثناء المعركة، وليسقطْ سيفك المفلول". يبدو أن مارتا معلّقة بكل ثانية، وهي تحصيها ثانية ثانية، معلّقة بالاستمرار ذاك الذي لا يهبنا الحياة فقط، وإنما الإحساس بالحياة، ذاك الذي يجعلنا نفكّر ونقول لأنفسنا: "ما أزال أفكّر، أو ما أزال أتكلّم، ما أزال أقرأ، أو ما أزال أرى فيلماً، إذاً، أنا حيّ؛ أستعرض صفحة الجريدة، وأكرع مرّة أخرى جرعة من جعتي، أو أُكمل كلمة أخرى في حقل الكلمات المتقاطعة، ما أزال أنظر وأميّز أشياء - أميّز رجلاً يابانياً، أميّز مضيفة جوّيّة - وهذا يعني أن الطائرة التي أسافر فيها لم تسقط، وأدخّن لفافة، وهذا ما صنعتُهُ منذ لحظات، وأحسب أني سأنجح في إتمام تدخينها، وأُشعل لفافة أخرى، وهكذا يتواصل كل شيء حتّى لا أستطيع صنع شيء معاكس لذلك، لأني لستُ على استعداد لقَتْل نفسي، ولا أريد أن أصنع شيئاً، ولن أصنعه؛ فهذا الرجل ذو اليَدَيْن

مكتبة t.me/ktabrwaya

الضخمتَيْن جدّاً يداعب عنقي، ولمّا يُحكمِ الخناق عليه، ولئن كان يداعبني بجفاء ملحقاً بي ضرراً خفيفاً، فإني ما أزال أحسّ بيَدَيْه الغليظتَيْن القاسيتَيْن على وجنتي وعلى صدغَيّ، على صدغَيّ البائسَيْن - ذلك أن أصابعه مثل مفاتيح البيانو، ما أزال أسمع خطى ذلك الشخص الذي يريد أن يسلبني في الظلام، أو ربّما كنتُ مخطئاً. فلعلّها خطى أحد مسالم، لا يستطيع أن يسير على عجل، فيتقدّمني، ولربّما وجب عليّ أن أمنحه الفرصة لتحقيق ذلك، فأُخرج نظّارتي، وأقف لأنظر إلى واجهة محلّ، لكني قد أكفّ عن سماع الخطى حينئذ، على أن ما يُنقذني أن أظلّ أسمعها؛ ما أزال هنا في خندقي والحَرْبة منصوبة، وعليّ أن أستعملها قريباً، إذا كنتُ لا أريد أن أرى نفسي وقد اخترقتني حراب العدوّ: لكنْ، لمّا يحنِ الحين، لمّا يحنْ، أمَا وإنّ الحين لم يحنْ، فإن الخندق يُخفيني ويَقيني، وإن كنّا في حقل رمي مفتوح، وأحسّ بالبرد في أذنيّ اللتَيْن لا تبلغ الخوذة، فتسترهما؛ وهذا السّكّين الذي يقترب مشهراً، لا يصل هدفه، وأظل جالساً إلى منضدتي، ولا يتمزّق شيء، وما أزال أشرب جرعة، ثمّ جرعة أخرى فأخرى من جعتي خلافاً لكل مظهر؛ أما وإنّ الشجرة لم تسقط، حتّى وإن جُذمت وهوت، فلن تسقط على رأسي، ولن تحصد أغصانها رأسي، ذلك غير ممكن، لأنيّ في هذه المدينة، في هذه الجادّة عَرَضَاً، وربّما كان من السهل جدّاً ألا أكون فيها؛ وما أزال أرى العالم من علٍ، أراه من طائرتي طراز سباتفاير البحرية، ولمّا أعانِ الإحساس بالهبوط والتثاقل والدوار والسقوط والجاذبية والثقل الذي ينتابني إذا ما أُطلقت النار، وأصابتْني الميسّر شميث التي صرتُ في مجال رميها؛ لكنْ، لمّا يحنِ الحين، لمّا يحنْ، إذاً، أستطيع متابعة التفكير في المعركة ومشاهدة منظر الطبيعة واضعاً خططاً للمستقبل؛ وأنا - مارتا المسكينة - ما أزال أحسّ بضوء التلفاز الذي ما يزال يبثّ، ما أزال أحسّ بهذا الرجل الموجود إلى جانبي مرّة أخرى، ويصحبني، وإذا ظلّ إلى

جانبي، فربمّا لا أموت، فلْيظلَّ هنا، ولا يصنعْ شيئاً، ولا يكلّمني، ولا يهتف إلى أحد، ولا يتغيّر شيء، وليمنحني قليلاً من الحرارة، ويعانقني. أنا بحاجة إلى أن أكون هادئة، لئلا أموت، وإذا كانت كل ثانية مطابقة لسابقتها، فلن يساورني إحساس بأن أتغيّر، فلْتظلّ الأضواء مشعلة هنا وفي الشارع، وليظلّ التلفاز يبثّ فيلماً قديماً لفريد ماك موري، بينا أموت. لا أستطيع أن أتخلّى عن الوجود بينا كل الأشخاص الآخرين والأشياء الأُخَر تظلّ هنا، وتظلّ حَيّة، وتتابع قصّة أخرى على الشاشة سيرتها. لا أجد معنى لبقاء تنّوراتي حَيّة على الكرسي، إذا لم ألبسها، ولا لكُتُبي ترقد فوق الرفوف، إذا كنتُ لن أنظر إليها، ولا لأقراطي وعقودي وخواتمي لابثة في علبها، بانتظار دورها الذي قد لا يحلّ. وفرشاة أسناني التي ابتعتها هذا المساء نفسه قد يكون مصيرها القمامة، لأني دشّنتها، وكل الأشياء الصغيرة التي راكمها المرء طوال حياته سيكون مصيرها القمامة غرضاً بعد غرض، وأو ربمّا اقتُسمت، وهي كثيرة جدّاً حتّى يصعب تصوّر ما يقتنيه المرء لشخصه، ويتّسع له بيت، لذلك لا يعمل أحد جدولاً بما يقتنيه، اللهم إلا إذا كان سيوصي، أي إذا كان يفكّر بلا جدوى ما يقتنيه، والتّخلّي عنه وشيكاً. وأنا لم أوصِ، وليس لديّ أشياء كثيرة أخلّفها، ولم أفكّر قطّ كثيراً في الموت الذي يأتي كما يبدو، ويأتي في لحظة واحدة، فيلوي عنق كل شيء، ويصيب كل شيء، وما كان نافعاً ويُشكّل جانباً من تاريخ أحدٍ ما، يصبح في تلك اللحظة الفريدة غيرَ مجدٍ وخلواً من التاريخ، ولا يعرف أحد لماذا وكيف أومتى ابتيعت تلك اللوحة، أو ذلك الثوب، أو مَنْ أهدى إليّ هذا الدبّوس، ومن أين جاءت هذه الحقيبة أو هذا المنديل أو مَنْ جاءني بهما، وأيّ سفر أو أيّ غياب جلبهما، وفيما إن كانا جزاء على انتظار أو عُراضة غزو، أو تهدئةً لضمير معذّب، كل ما له معنى، ويترك أثراً، يفقد في لحظة واحدة معناه وأثره، وكل مقتنياتي تصبح متيبّسة فجأة، وعاجزة عن الكشف

عن ماضيها وأصلها، ولسوف يجمعها أحد ما، وقد تُقرّرُ أخواتي أو صديقاتي قبل أن يصررنها أو يضعنها في حقائب بلاستيكية، الاحتفاظ بشيء ما منها للذكرى وللمنفعة، أو الحفاظ على الدبّوس، لكي يستطيع ابني متى كبر أن يهديه إلى امرأة ما، لمّا تولدْ يقيناً. وهناك أشياء أخرى لا يرغب أحد فيها، لأنها كانت تصلح لي وحدي كملقط الشَّعْر، أو زجاجة عطر الكولونيا المفتوحة، وقميصي الداخلية، وبرنسي وإسفنجتي، وحذائي وكراسيّ المصنوعة من أغصان الصفصاف وموضع كره إدواردو، وغسولي وأدويتي ونظّارتي الشمسية ودفاتري وبطاقاتي وقصاصاتي وكُتُب كثيرة أقرؤها وحدي، ومجموعات أصدافي وأسطواناتي القديمة ولعبتي التي أحتفظ بها من عهد الطفولة، أسدي الصغير، وربمّا وجب دفع أجر لنقلها، إذْ أصبحنا لا نجد تجّار أغراض مستعملة حريصين أو لطفاء، كما كانوا أيّام طفولتي؛ فما كانوا يتقزّزون من شيء، وكانوا يطوفون الشوارع معرقلين حركة السير البطيئة يومئذ، بمشاهدها من عربات تجرّها البغال. يبدو شيئاً لا يُصدّق أني بلغتُ أن أرى هذا المشهد منذ مدّة ليست بعيدة، فأنا ما أزال شابّة، ولمّا يمضِ زمن طويل، كانت العربات تنمو نمُوّاً غريباً بكل ما كانت تجمعه وتحمله حتّى يبلغ ارتفاع حافلة مفتوحة الأبواب من طابقين كحافلات لندن، سوى أنها كانت زرقاء اللون، وتلتزم جانب الطريق الأيمن، وكلّما ارتفعت كومة الأغراض، أصبح تأرجح العربة التي تجرّها بغلة وحيدة متعبة ملحوظاً، حتّى تتراقص تراقصاً، وكان يبدو أن غنيمة المطّرحات من برّادات مبعوجة وكراتين وصناديق وسجّادات أقدام مطويّة وكراسي محطّمة ومهترئة، ستنهار في كل خطوة مُلقية بالطفلة الغجرية التي كانت تُتوَّج على شكل لا يتبدّل الكومة محقّقة التوازن فيها، وكأنّها شعار تجار البالة أو شفيعتهم، كانت فتاة متّسخة شقراء غالباً، تجلس عكس اتّجاه العربة، وقد تدلّت ساقاها خارجها، وكانت من عُلوّها المكتسب أو قمّتها

تتأمّل العالم باتّجاه الخلف، وكانت تنظر إلينا - نحن الفتيات ذوات الزّيّ الموحّد، إذا تخطّيناها ـ. وكنّا ننظر إليها بدورنا، ونحن نعانق حقائبنا، ونمضغ العلك، من الطابق الثاني في الحافلة في طريقنا إلى المدرسة، أو في أثناء عودتنا منها في المساء أيضاً، وكنّا ننظر إلى بعضنا البعض بحسد متبادل، ونحن نقارن بين حياة المغامرة وحياة النظام، الحياة القاسية والحياة السهلة، وكنتُ أسأل نفسي دائماً كيف تتحاشى أغصان الأشجار التي كانت تبرز من الأرصفة، وتلطم نوافذ الحافلة العالية، وكأنّها تريد أن تحتجّ على سرعتنا، وتنفّذ منها، وتخدشنا؛ أمّا هي، فلم تكن تحتمي بشيء، بل تمضي وحيدة متسلّقة ومعلّقة في الهواء، لكني أخمّن أن سير عربتها البطيء كان يتيح لها الوقت لرؤيتها، والإشاحة برأسها عنها، أو كبحها وإبعادها بيدها الملأى بالوسخ، يد تطلّ من كمّ كنزتها الصوفية الطويلة ذات السّحّاب والمطبوع عليها أرقام سبعة. ليس فقط أن قصّة الأشياء الصغيرة تختفي في لحظة واحدة، وإنما كل ما أعرفه وتعلّمتُه أيضاً، وكذلك ذكرياتي وما رأيتُه - كالحافلة ذات الطابقين وعربات جامعي الأشياء المستعملة، والفتاة الغجرية، وألف شيء وشيء مرّت أمام عيني، ولا يهتمّ بها أحد، وذكرياتي تصلح لي وحدي، ثمّ تصبح معدومة الجدوى مثلها مثل كل مقتنياتي، ولا تختفي أناي الحاضرة فقط، وإنما يختفي من كنتُ، ليس فقط أنا - مارتا المسكينة - وإنما ذاكرتي كلها ونسيج متصل، ولا ينتهي أبداً، ومتغيّر ومطبوع عليه شكل أرقام سبعة، ومصنوع في آن واحد، بصبر كبير، وبمنتهى الحرص، ومتأرجح ومتبدّل كتنّوراتي البرّاقة، وهشّ كبلوزاتي الحريرية التي سرعان ما تتمزّق، وها قد أتى عليّ حين لا ألبس هذه التّنّورات، لأنني سئمتُها، وما أغرب أن يتمّ ذلك في لحظة واحدة! ولِمَ هذه اللحظة، وليس غيرها؟ ولِمَ لا تكون اللحظة السابقة واللحظة التالية؟ ولِمَ هذا اليوم وهذا الشهر وهذا الأسبوع؟ ولِمَ يكون الثلاثاء من

كانون الثاني، أو ذات أحدٍ من أيلول؟ أشهر وأيّام كريهة لا يختارها المرء، ما الذي يحتّم أن يقف ما هو سائر من غير أن تتدخّل الإرادة؟ أو ربّما تدخّلت، نعم، تتدخلّ إذا صدّت صدوداً، ولعلّ الإرادة هي ما يسأم فجأة، حتّى إذا ما تنحّت، جلبت لنا الموت. لا تريد هو أنكَ أردتَ ألا تريد شيئاً، حتّى لا تريد أن تبرأ من العلّة، ولا أن تتعافى من المرض والألم اللذين تجد نفسكَ تحت وطأتهما بغياب كل شيء آخر، هما نفساهما أقصياه، وربّما اغتصباه، لأنه ما داما هنا، فلمّا يحن الحين، لمّا يحنْ، ويستطيع المرء أن يظلّ مفكّراً، ويستطيع أن يظلّ مودّعاً، فوداعاً، يا ضحكات، ووداعاً، يا منغّصات، فلن أراكنّ بعد اليوم، ولن تريننى. وداعاً، يا عنفوان، وداعاً، يا ذكريات!".

فأطعتُ، وانتظرتُ، ولم أصنع شيئاً، ولم أهتف إلى أحد، وإنّما عدتُ فقط إلى مكاني على السرير الذي لم يكن مكاني، لكنه هذه الليلة أخذ يصبح كذلك، وجلستُ مرّة أخرى قربها، حينئذ قالت لي من غير أن تلتفت، ومن غير أن تراني: "أمسكني، أمسكني من فضلكَ، أمسكني"، ولعلّها كانت تريد القول: طوّقني! وهكذا فعلتُ، وطوّقتُها من الخلف، واحتكّ صدري وقميصي التي ما تزال مفتوحة بجسمها الناعم جدّاً، والذي كان حارّاً، ومضى ذراعي من فوق ذراعيها اللذين كانت تستتر بهما، وكانت تحطّ عليها أربع أيدٍ، وأربعة أذرع وطوق مزدوج، ولم يكن كافياً يقيناً، بينا كان الفيلم في التلفاز يمضي بصمت، من غير صوت، ودون أن نلتفت إليه. وفكّرتُ في أنه ينبغي لي أن أعثر على الفيلم ذات يوم، وأراه بالأبيض والأسود. هي طلبت ذلك منّي برجاء قائلة: من فضلكَ، عبارة متجذّرة في مفرداتنا، فالمرء لا ينسى حسن تربيته، ولا يتخلّى عن حسن قوله وكلامه في أيّة لحظة حتّى ولا في لحظة يأس أو غضب مهما يحدث، حتّى وإن كان يُنازع. لبثتُ هنيهةً على هذا الوضع جالساً على سريرها ومعانقها،

كما لم أخطّط له، وإن كان ذلك متوقّعاً، كما كان ينبغي لي أن أتوقّعه منذ أن دخلتُ بيتها، بل قبل أن أدخله، ومنذ أن رتّبنا الموعد، وطلبت هي أو اقترحت ألا يكون في الشارع. لكنْ، هذا أمر آخر، طراز آخر من العناق، لم نستشعره من قبل. وصرتُ الآن على يقين، ممّا لم أسمح لنفسي بالتفكير فيه حتّى ذلك الحين أو معرفة التفكير فيه: علمتُ أن حالتها ليست عارضة، وأنها قد تكون مميتة، وعلمتُ أنها لا تعود إلى الندم، ولا إلى الإحباط ولا الخوف، وأن الخطر وشيك: وفكّرتُ في أنها تُنازع بين ذراعيّ، وفقدتُ الأمل بغتة في أنني لن أخرج من هنا أبداً، وكأنّها عَدَتْني برغبتها في الشلل والهدوء، أو ربّما عَدَتْني برغبتها في الموت. لمّا يحنِ الحين، لمّا يحنْ، لكن العبء فوق طاقتي أيضاً. فوق طاقتي، ربّما أصبحتُ لا أطيق مزيداً منه، أصبحتُ لا أتحمّل، لأنني سمعتُها بعد دقائق قليلات - بعد دقيقة، دقيقتَيْن، ثلاث دقائق - أو أربع - تقول شيئاً ما، وقالت: "يا ربّي، ومَن للطفل؟!" وقامت بحركة ضعيفة مفاجئة، لا يلحظها يقيناً مَنْ يرانا، لكنني شعرتُ بها، لأنني كنتُ لاصقاً بمارتا، شعرتُ بها كدفعة برأسها، لم يبلغ الجسم، فيسجّلها إلا كتهديد، وعلى شكل شاحب، كانت ردّة فعل عارضة وباردة، وكأنّها رعشة غير فيزيقية تماماً، يحسّ بها المرء في الأحلام، إذا حسب نفسه يسقط ويهوي من علٍ، أو يتهاوى. كخبطة ساق في الفراغ ومحاولة لجم الإحساس بالهبوط والتثاقل والدوار - كالذي يُحدثه مصعد يندفع فجأة - وبالسقوط والجاذبية والثقل - كطائرة تتحطّم أو كجسم يقفز من فوق الجسر إلى النهر. وكأنّ مارتا دفعها دافع لتنهض، وتسعى باحثة عن الطفل، لكنها لم تستطع أن تصنع شيئاً إلا في فكرها وارتعاشتها. وبعد دقيقة أخرى - خمس دقائق أو ستّ - لاحظت أنها أمست هادئة، وإن كانت هادئة من قبل، أعني صارت أكثر هدوءاً، ولاحظت التغيّر في درجة حرارتها، وكففت عن الإحساس بتوتّر جسمها

الذي كان ينضغط على جسمي من الخلف، وكأنّها تدفعني دفعاً، وكأنّها تريد أن تندسّ داخل جسمي لتجد فيه ملاذاً، وتفرّ ممّا يعانيه جسمها من تحوّل لا إنساني، وحالة روحيّة غير معروفة (أهو السِّرّ؟): كانت تدفع بظهرها على صدري، وبعجيزتها على بطني، وبالجانب الخلفي من فخذيها على الجانب الأمامي من فخذي، وبعنقها الذي عليه ما يشبه الدم أو الوحل على عنقي، وبوجنتها اليسرى على وجنتي اليمنى، وبفكّها على فكّي، وبصدغيها على صدغي، على صدغَيّ البائسَيْن بصدغَيْها البائسَيْن، وبذراعَيْها على ذراعَيّ، وكأنّ التطويق لا يكفيها، وحتّى بأخمص قَدَميها الحافيتَيْن على مشطيّ قَدَمَي المنتعلتَيْن، وقد وطِئتهما وطأ، وهنا تمزّق جورباها باحتكاكهما برباط حذائي، جورباها الغامقان اللذان كانا يبلغان منتصف فخذيها، ولم أخلعهما عنها، لأني كنتُ معجباً بصورتها القديمة، كانت تُلقي بكّل قوّتها إلى الخلف وعليّ، وقد اقتحمتْني اقتحاماً، وصرنا لاصقَيْن ببعضنا، وكأنّنا توءمان سياميان، وُلدنا متّحدَيْن على طول جسمَيْنا، كيلا نرى بعضنا بعضاً، أو نرى بعضنا بمؤخرّ الطرف فقط، هي تُوليني ظهرها، وتدفع بي، وتدفع بي إلى الخلف دفعاً، يشبه بأن يكون ضغطاً، إلى أن كفّ ذلك كله، وصارت ساكنة، أو صارت أكثر سكوناً، وزال كل ضغط من كل صنف حتّى لو كان مجرّد استناد، أمّا أنا، فأحسستُ بعَرَق في ظهري، وكأنّ يَدَيْن فوق طبيعيتَيْن طوّقتاني من الأمام، بينما كنتُ أطوّقها، ثمّ حطّتا على قميصي، وخلّفتا آثارهما الصفر والمائعة، والتصق النسيج بجِلْدي، فأدركتُ فوراً أنها ماتت، لكني كلّمتُها، وقلتُ لها: "أتسمعينني؟"، وتابعتُ قائلاً لنفسي: "ماتت! هذه المرأة ماتت، وأنا هنا، وشهدتُ موتها، ولم أستطع صنع شيء لمنع هذا الموت، وقد فات الأوان على مهاتفة أحد، كيلا يشاطرني أحد ما شهدتُ". أنا وإن قلتُ ذلك لنفسي، وعرفتُه، فلم أكن على عجل، كي أنفصل عنها، وأفكّ الطوق الذي طلبتْه منّي، لأني

كنتُ أجد لذّة - بل شيئاً يفوق اللّذّة - باحتكاكي بجسمها المتوتّر المنقاض والعاري تقريباً، ولم يتبدّل شيء من هذا في لحظة واحدة، بسبب موتها: فهي ما تزال هنا، وجسدها الذي فارقتْه الحياة ما يزال مطابقاً للجسد الحيّ سوى أنه أكثر سكينة، وأقلّ قلقاً، وأحلى حلاوة، وقد أمسى غير معذّب، بل هو في راحة، ورأيتُ مرّة أخرى بمؤخّر طرفي فمها المنفرج قليلاً، وهدبيها الطويلين، التي كانت ما تزال هي هي ومتطابقة مع وضعها السابق سواء أكان هدباها أم فمها المنفرج الذي كان تكلّم وأكل وشرب وابتسم وضحك ودخّن وقبّلني، وما يزال صالحاً لأن يُقبّل. لكنْ، إلى متى؟ "نحن ما نزال هنا في الوضع ذاته، ونشغل ذات الحيّز، وما أزال أشعر بها، لم يتغيّر شيء، ومع ذلك، تغيّر كل شيء، أنا أعلم ذلك، ولا أفهمه. لا أدري لما أنا حيّ، وهي ميّتة. لا أدري ما معنى هذا ولا ذاك. ولا أفهم الآن جيّداً هذه الكلمات". وبعد ثوان معدودات - وربّما كانت دقائق: دقيقة واحدة، دقيقتَيْن أو ثلاثاً - أخذتُ أنفصل عنها بحرص كبير، وكأنّني أخشى أن أوقظها، أو ألحق بها ضرراً عند انقطاع الاحتكاك. ولو كلّمتُ أحداً ما - أحداً يكون شاهداً معي - لكلّمتُه بصوت خفيض، أو لأسررتُ إليه إسراراً احتراماً، لما يوجبه دائماً ظهور السّرّ إذا خلا من الألم والبكاء، وإذا لم يخلُ منهما، فلن يكون صمت، أو أن الصمت يحلّ بعدئذ: "فكِّرْ فيّ غداً، أثناء المعركة، وليسقط سيفك المفلول: واقنطْ، ومتْ".

ما أزال لا أجرؤ على رفع صوت التلفاز، بسبب هذا الصمت، وبسبب ردّ فعل محال: فقد جاءتني فكرة مباغتة في ألا أمسّ جهاز التّحكّم، ولا أي شيء آخر، لئلا أترك آثاراً من بصماتي في أيّ مكان، في حين كنتُ خلّفتها في كل مكان، وفوق ذلك، لن يبحث عنها أحد. موت أحد بينما يظل الآخر حيّاً، يجعل هذا الأخير، يحسّ بأنه مجرم للحظة واحدة، لكنْ، ليس هذا فحسب: لأنّ بقائي ومارتا ميّتة في ذلك المكان، أصبح فجأة غير مسوّغ،

أو مسوّغاً قليلاً جدّاً، حتّى لو عمدنا إلى الكذب، فأنا هنا غير معروف تقريباً، والآن نعم، أحسستُ بأن الوقت فجر في المخدع الذي ربّما صار غير مخدعها، لأنها صارت غير موجودة، وإنما هو مخدع زوجها فقط، وفي بيت دُعيتُ إلى دخوله بالضرورة في أثناء غياب هذا الزوج. لكنْ، مَنْ عساه يُثبت الآن أني دُعيت إليه، فليس لديّ مَنْ يشهد لي على ذلك. نهضتُ بقفزة واحدة، وهبّت عليّ حينئذ رياح العجلة، عجلة ذهنية أكثر ممّا هي فيزيقية، لم تكن كبيرة حتّى توجب صنع الأشياء التي قد أكون فكّرتُ فيها، كأن أُشغّل ما كان قد خُمد الليل كله جرّاء الخمر والترّقّب والقبلات والحياء والسهد والذهول والذعر، ولا أدري إن كانت بهذا الترتيب، والآن جرّاء الألم أيضاً. "لا يعرف أحد أني هنا، أنيّ كنتُ هنا"، فكّرتُ مصحّحاً زمن الفعل، لأني رأيتُ نفسي في الخارج، خارج الحجرة والبيت والبناء وحتّى الشارع، رأيتُ نفسي أستقلّ سيّارة أجرة بعد عبوري شارع الملكة فيكتوريا، أو في الشارع نفسه، ففيه تمرّ سيّارات أجرة، وإن تأخّر الوقت، تمرّ في القسم الأخير من شارع عريض قديم، يتاخم الشاليهات وأشجار الجامعة. "لا يعرف أحد أني كنتُ هنا، وليس لديه سبب كيما يعرف"، قلتُ لنفسي، "وبالتالي لا ينبغي لي أن أُعْلِم أحداً، أو أُهرع مذعوراً إلى مشفى (النور)، لكي أرج الممرّضة التي تنام وساقاها متصالبتان، وقد فكّهما الآن الإهمال، ولن أكون مَنْ ينتزعها من نومها العارض الشحيح، لن أكون مَنْ يجعل الطالب المهموم ذا النظّارة ينسى بغتة وبسرعة كل ما استذكره خلال الليل، ولن أكون مَنْ يقطع وداع عاشقَيْن مرتويَيْن، يقفان عند باب مَنْ سيبقى، ويرغبان في آن واحد في أن ينفصلا عن بعضهما، ربّما في هذا الطابق ذاته؛ إذ لا ينبغي لأحد أن يعلم، ولن يعلم أن مارتا تيّيث ماتت، ولن أهتف إلى الشرطة باسم مجهول، ولن أضغط على أجراس الجيران مفصحاً عن وجهي، ولن أجري لشراء شهادة وفاة من الصيدلية المناوبة،

ولسوف تظلّ حيّة هذه الليلة في نظر كل مَنْ يعرفها، بينا هم يرقدون أو يعانون الأرق هنا أو في لندن أو في أيّ مكان آخر؛ ولن يعرف أحد التّغيّر أو التّحوّل اللاإنساني، لن أصنع شيئاً، ولن أكلّم أحداً، ولا ينبغي لي أن أكون مَنْ يذيع النبأ. ولو ظلّت هي على قيد الحياة، لما علم أحد اليوم، ولا غداً، وربّما أبداً، أني كنتُ هنا، هي كانت ستُخفي الأمر، وهكذا ينبغي لها أن تصنع، وسيظلّ الأمر مَخفيّاً، بل أكثر من مَخفيّ بموتها. والطفل: "يا ربّي، ومَنْ للطفل؟!" لكنْ، هذا ما عزمتُ على التفكير فيه من ثمّ بعد دقائق معدودات، لأن فكرة أخرى اعترضتْني، أو فكرتَيْن واحدة بعد الأخرى: "ربّما كانت قصّت في الصباح أمر الموعد على أحد ما، على صديقة، على أخت ربّما بخجل وابتسامة. ربّما وجدت مَنْ قصّت عليه القصّة، وأعلمتْه بزيارتي - والمخابرات الهاتفية تطير طيراناً - واعترفت برغبتها المتردّدة أو بأملها الوطيد، ربّما كانت تتحدّث عنّي، ووضعت السمّاعة لمّا سمعتْني أدقّ الباب: ها قد وصل، فلا يعلم المرء ماذا يحدث داخل بيت قبل ثانية من رنين الجرس وانقطاعه". زرّرتُ قميصي التي كانت فكّت أزراره يدا مارتا المتشبثتان، لمّا كانتا ما تزالان نشيطتَيْن وحفيّتَيْن، وفككتُ أزرار البنطال كيما أضع القميص داخله، أمّا سترتي، فظلّت في غرفة المعيشة أو الصالون معلّقة على مسند كرسي، كأنّها معلّقة على مشجب، ومعطفي، أين هو؟ ولفاعي وقفّازاي، أين هي؟ لقد أخذتها كلها منّي لمّا دخلت، ولم أتثبّت أين وضعتْها. ذلك كله يمكنه الانتظار، فما أزال غير راغب في الذهاب إلى الصالون، لأن حذائي يثير ضوضاء، ولم يعد الطفل إلى نومه إلا منذ قليل، وعلى كل حال، كنتُ أشعر بالضيق بالمرور الآن أمام باب حجرته جاعلاً الطائرات تهتزّ جرّاء دوسي. فالحياة تبدّلت بالنسبة إليه، بل العالم كله تغيّر وهو ما يزال لا يدري، أو ما هو أكثر من ذلك: لقد انتهى عالمه الراهن حتّى إنه قد لا يتذكّره بعد مرور فترة بسيطة من الوقت،

سيكون كأنّما لم يوجد، زمن فانٍ بائد، وذاكرة ابن عامين لا تحتفظ بشيء، وأنا لا أحتفظ بشيء من عامي حياتي الأوّلين: نظرتُ الآن إلى مارتا من علوّ قامتي، من علوّ قامة رجل واقف، ينظر صوب أحد ما متكوّم على الأرض، ورأيتُ ردفيها المستديرين المكتنزين اللذين يبرزان من بين سراويلها الداخلية الصغيرة، لأن التّنّورة المشمورة ووضعها المنكمش تسمح برؤية ذلك، لكني لم أرَ ثدييها اللذين ما تزال تسترهما بذراعيها. والآن صارت شيئاً مطرحاً، صارت نفاية، شيئاً ما لا يُحتفظ به، وإنما يُرمي به - يحرَق أو يُدفَن - ككثير من الأغراض التي كانت تقتنيها، وتحوّلت إلى معدومة النفع فجأة، وكأيّ شيء يُلقَى في القمامة لأنه سيظل يتحوّل، ولا يمكن إيقاف هذا التّحوّل، ثمّ يتعفّن - كقشرة إجاصة أو سمكة فاسدة، أو أوراق الخرشوف الخارجية، أو كبد فروج، أو دهن الفتائل الإيرلندية الذي أفرغته من صحوننا، في دلو منذ قليل، وقبل أن نتّجه إلى مخدعها. - صارت امرأة خامدة، غير مستترة حتّى ولا هي تحت اللحاف. صارت تُفلاً، لكنها، مع ذلك ما تزال في نظري هي هي: لم يتبدّل فيها شيء، وإني أعرفها. كان ينبغي لي أن ألبسها ثيابها، كيلا تُرى على هذا الوضع، فأبعدت الفكرة فوراً، فما أصعبها! وما أخطرها! فلربّما تحطّم عَظْمٌ من عظامها، إذا ما أدخلت ذراعها في كُمّ الثوب الذي سألبسيها، ولربّما كان أسهل لي لو رتّبتُ السرير ووضعتُها عليه، فالآن، يمكن صنع كل شيء بها، بالمسكينة مارتا، والتلاعب بها وتحريكها وتغطيتها على الأقلّ.

لبثتُ ثوان معدودات ساكناً، مشلول الحركة بسبب سرعتي الذهنية، والسرعة تجعلنا نفكّر في أشياء متناقضة، وخطر لي أنها ربّما كان أقلقها جهل ذويها بما خمّنتُه لها أو عرفته، بأن يحسبوها حَيّة، إذا لم تكن كذلك، لكنْ، إلى متى؟ بألا يعلموا بوضعها فوراً، بألا ينقلب كل شيء رأساً على عقب، بسبب موتها الفجائي، بألا ترنّ الهواتف الحمقى متحدّثة عنها. بألا

يخصّها كل مَنْ يعرفها بصيحات الندب أو بأفكارهم؛ وقد لا يطيق بعد الآن، مَنْ كان يعرفها الجهل الذي سيكون عمّا قليل ضحيّته، أو كان كذلك خلال الليل، فقد لا يطيق الزوج أن يتذكّر في وقت تالٍ، أنه كان ينام بهدوء في جزيرة - إلى متى من الوقت؟ - أو كان يستيقظ ويتناول الفطور ويعقد صفقات في سلون سكوير، أو في لونغ آكر، وربّما كان يقوم بنزهة، بينما كانت زوجه تُنازع، ثمّ ماتت من غير أن تتلقّى عوناً من أحد، أو يهتم بها أحد، الأمر الأوّل أوّلاً، ثمّ الآخر ثانياً، لأنه لن يكون على ثقة بأن أحداً كان يقف إلى جانبها، وإن شكّ في ذلك، إذ سيكون من الصعب أن أمحو كل آثار الساعات التي قضيتُها معها، إن عزمتُ على محاولة محوها. يقيناً ترك رَقْم هاتفه وعنوانه في لندن قرب الهاتف، فلم أرَ أيّة ورقة قرب هاتف منضدة مارتا الليلة الموصول بالمسجّل، ولربّما وجدتها في الصالون حيث كلّمتْ زوجها أمامي. خير لي لو حصلتُ على هذا العنوان وهذا الرَّقْم على كل حال، خشية أن تمرّ الأيّام عليها، وهي على هذا الوضع، لكنها لن تمرّ، سيكون هذا محالاً، والصمت يرخي بثقله، وجاءتْني فكرة مفاجئة أصابتْني بالذعر: سيأتي البيت أحد ما، لأن مارتا كانت امرأة عاملة، وينبغي لها أن تدع الصبيّ في عهدة شخص ما، فلا يُحتمَل أن تصطحبه إلى المدرسة، فكان لا بدّ لها من ترتيب أمر العناية بالطفل مع صديقة أو أخت أو أمّ على الأقلّ، وفكّرتُ مرّة أخرى مذعوراً في أنها قد تودعه إحدى رياض الأطفال دائماً، وأنها هي مَنْ يتولّى إيصاله إليها قبل أن تذهب إلى المدرسة، وما العمل إذاً؟ فلن يوصلَه أحد غداً. وقد يكون دوام مارتا غداً خالياً من الدروس، أو أنها تُلقيها في المساء فقط، ولن يظهر أحد في البيت حتّى ذلك الحين، وهي لم تُبدِ انشغالاً بفكرة التبكير، وكانت شرحت لي أنّ دروسها تكون في بعض الأيّام صباحاً، وفي بعض الأيّام مساءً، وليس في أيّام الأسبوع كلها. لكنْ، أيّها؟ أو أنها كانت ساعات للاستشارة صباحاً أو

مساءً، فلا أتذكّر؛ فإذا مات أحد، وأصبح محالاً تكرار شيء، فقد يتمنّى المرء، لو أعار انتباهه كلّ كلمة من كلماته. مواعيد دوام غريبة، مَنْ يأبه بها؟ إن هي غير مراوغة. وعزمتُ على الذهاب إلى الصالون، فخلعتُ حذائي، وسرتُ على رؤوس أصابع قَدَمَيّ، وشككتُ في أن أغلق باب حجرة الطفل، لمّا مررتُ أمامه، لكن صرير الباب قد يُوقِظُه، وهكذا تابعتُ سيري حافياً وعلى رؤوس أصابع قَدَمي حاملاً حذائي معلّقاً بالسبّابة والوسطى، وكأنّي أحمق في موقف ساخر، أو في فيلم صامت جاعلاً خشب الأرضية يصرّ على الرغم من كل شيء. ولمّا صرتُ في الصالون، أطبقتُ الباب ورائي، وانتعلتُ الحذاء مرّة أخرى - لم أعقد الرباط مفكّراً في العودة، لأني سأعود ؛ كانت ما تزال هناك زجاجة الخمر والأقداح، وهو الشيء الوحيد الذي لم ترفعه مارتا، وهي امرأة منظّمة، ولم تُبقِ الخمر إهمالاً، وإنما ظللنا نحتسي منه قليلاً جالسَيْن على الصوفا التي كان يشغلها الطفل، ثمّ أخلاها أخيراً، بعد أن تناولنا آيس كريم هاجّن - داس بالفانيلا، وقبل أن نتبادل القُبل، وننتقل. ولمّا يمض على ذلك وقت طويل، وقد قُضي الآن كل شيء: لأن كل شيء يبدو لنا ضئيلاً، وكل شيء ينضغط، ويبدو لنا ضئيلاً ما إن ينقضي، ويتبيّن لنا حينئذ أننا كنّا بحاجة إلى الوقت. ووجدتُ قرب هاتف الصالون بعض الوريقات الصفر ملصقة على المنضدة من الجهة اللاصقة، كانت أربع وريقات، أو خمساً عليها كتابة ما، إضافة إلى دفتر صغير مثلّث الشكل، أُخذَت الوريقات منه. ووجدتُ على إحداها بغيتي، وكانت تقول: "إدواردو"، وتحته "ويلبراهام أوتِل"، ثمّ تحت: "ويلبراهام بالاس"، ثمّ 7308296/4471. نزعتُ ورقة أخرى من الدفتر، كيما أنسخها بالقلم الذي أخرجتُه من جيب سترتي وأنا أرتديها (لأني كنتُ على وشك أن أنصرف)، فقد ظلّت السترة حيث تركتُها على مسند الكرسي الذي صار مشجباً. ولم أستطع نسخها، فالحصول على رَقْم هاتف، يُغري دائماً

باستعماله فوراً. لقد حصلتُ على رَقْم إدواردو في لندن، أما كنيته، فما أزال أجهلها، لكنْ، لا أسهل من العثور عليها في بيته ذاته، فنظرتُ إلى ما حولي، فرأيتُ على منضدة صغيرة واطئة بعض الرسائل التي لم أجد من قبل دافعاً كيما ألتفت إليها، ولم ألتفت، على الأرجح هي بريد اليوم الذي ربّما وصل بعد رحيله، ولسوف يتراكم حتّى عودته، سوى أنه صار ينبغي له الآن أن يعود سريعاً جدّاً، فلا يتراكم شيء. كما كُتب على اثنَيْن من الظروف الثلاثة: "إدواردو ديئان". وعلى الظرف الآخر، وهو ظرف مصرفي، كُتبت كنيتان، فإذا هتفتُ إلى لندن، فلن أصادف مشكلة بالكنية المعتمدة الأولى، وهي غير شائعة جدّاً، وما عليّ سوى أن أتهجّاها، لأني سأسأل عن المستر ديئان، أي مستردِيْن، وبذلك يُعرف أو يتُعرَّف إليه في الفندق، على الرغم من النبرة على حرف á، التي يُهملها الإنكليز. وإذا هتفتُ، ماذا أقول؟ لن أُعلمه باسمي، لكني، نعم، سأُعلمه بالخبر، وأجعله يتحمّل مسؤولية الموقف الآنَ، لأنه لم يُنقذنا من قبلُ، وبذلك أستطيع التّنصّل، وأنصرف مرّة واحدة، وأشرع في النسيان، نسيان سوء الحظّ، وأحرث الذاكرة، وأقلّص ذكرى تلك الليلة إلى حالة من سوء الحظّ، وربّما إلى حكاية - أو بشكل أنبل: إلى قصّة - يمكنني أن أقصّها على أصدقائي الحميمين، ليس الآن، وإنما في خاتمة الزمان حين تنمو درجة اللاواقع، وتجعلها أرحم وأخفّ وطأة، فقد قضى ذلك الرجل المسافر ساعات طوالاً من غير أن يُشغل ذهنه بعائلته (إذ ينبغي لنا الاهتمام بذوي القرابة الأدنين دون هوادة)، لكنْ، هذا قول غير سليم، فقد هتف بعد عشائه في المطعم الهندي، لكن مارتا تييّث لم تكن امرأتي، وإنما كانت امرأته، ولا ذلك الطفل ابني، واسمه المفروض عليه فرضاً: أوخينيو دي آن، ولا مفرّ للأب والزوج ديئان من أن يتولّى الأمر من قبلُ ومن بعدُ. ولِمَ لا يكون من لندن؟ نظرتُ إلى الساعة أوّل مرّة منذ مدّة طويلة، كانت الساعة الثالثة تقريباً، لكنها تقلّ

ساعة واحدة في الجزيرة عن هنا، إنها هناك حوالي الثانية، وهو وقت، ليس متأخّراً جدّاً لرجل من مدريد، وإن كانت عنده أعمال في الصباح التالي، وكذلك الناس في إنكلترا لا يُبكّرون كثيراً أيضاً. وفكّرتُ بينا كنتُ أدقّ الرَّقْم (الأصابع أمام الهاتف أسرع من الإرادة، أسرع من القرار، وتعمل من غير معرفة وتقرّر من غير معرفة): "سواء عليّ أيّاً تكنْ الساعة. فإذا كنتُ سأُعلمه بخبر كهذا الخبر، باسم مجهول، فلن أبالي بالساعة أيّاً تكنْ، ولن أبالي بأن يستيقظ، ولسوف يستيقظ فجأة بعد أن يسمع النبأ، وسيفكّر في أن الأمر نكتة ذات مذاق مفزع، أو يعزوه إلى مكيدة عدوّ غير مفهومة، ولسوف يهتف إلى هنا فوراً، ولن يجيبه أحد، حينئذ يهتف إلى أحدٍ ما، إلى بنت حميّ، إلى أخت له، إلى صديقة، وسيطلب منه أن يُهرع إلى هنا، ليرى ماذا يحدث، لكني سأكون قد غادرتُ ريثما يصلون".

أبطأ الصوت الإنكليزي قليلاً حتّى انطلق بعد خمس رنّاتٍ، لا ريب في أنّ البوّاب قد كان استسلم للنوم، كانت ليلة ثلاثاء وشتاء، ولربّما حسب نفسه يحلم بجرس يرنّ قبل أن يصحو، ولربّما كان يستند برأسه إلى الحاجز حتّى يبدو كأنّما اجتُثّ، وقد لفّ عقبيه حول قوائم المقعد جاعلاً ذراعه يهوي.

- ويلبراهام أوتيل، صباح الخير، - أجاب بالإنكليزية هذا الصوت معتكراً، وإن كان منسجماً مع الوقت.

- أأستطيع أن أكلّم السّيّد ديئان، من فضلكَ؟ - أجبتُه. - السّيّد ديْن Din، أو مِستر دين.

- - في أيّ غرفة هو، يا سيّد؟ أجاب الصوت، وقد انتُشل من الجفاء، وصار حيادياً مهنيّاً وصوت رجل خدمة.

- لا أعرف رَقْم الغرفة. لكن اسمه إدواردو ديئان.

- لا تقطع الاتّصال، إن سمحتَ. - انتظرتُ بضع ثوان، سمعتُ البوّاب خلالها يدندن بخفّة، وهو شيء غريب في إنكليزي، استيقظ لتوّه في وقت، يعدّه منتصف الليل، وقت السكون التّامّ. أمّا الصوت الثاني الذي ينبغي لي أن أسمعه بعد أن تنتهي الدندنة، فسوف يكون صوتاً أجشّ، صوت زوج مارتا المفزوع. وحضرّتُ نفسي، لأن الشجاعة تلزمني أكثر ممّا تلزمني الكلمات الصحيحة السريعة التي يجب عليّ أن أقولها له قبل أن أُغلق الخطّ من غير أن أودّعه. لكن الأمر لم يكن كذلك، وإنما عاد الصوت البريطاني ليقول: - "أتسمعني"، يا سيّدي؟ لا يوجد شخص باسم ديئان في الفندق، يا سيّدي. أهو (دي آن) Deán.

- نعم، هو (دي آن) - ردّدتُ. واضطُررتُ أخيراً إلى تهجيته - أأنتَ واثق، يا سيّد؟

- نعم، يا سيّد. لا يوجد أحد في الفندق باسم ديئان هذه الليلة. برأيكَ، متى عساه وصل؟

- هذا اليوم. ربمّا وصل اليوم.

- تعني أن تقول أمس؟ الثلاثاء. أليس كذلك، يا سيّد؟ لا تُغلق الخطّ، من فضلكَ. - كرَّرَ البوّابُ الذي يرى الليل والنهار يجريان بعيداً عنه، أمّا أنا، فلم أكن أحسبهما بمنقضيَيْن، وسمعتُ الدندنة مرّة أخرى، دندنة رجل مرح شرّيب خمر، ربمّا كان شابّاً، على الرغمِ ممّا يوحي به صوته المهنيّ أو الوقور؛ أو ربمّا نام نوماً هانئاً حتّى وقت قريب استعداداً لنوبته الليليّة، لذلك كان نشيطاً. كان يُدندن بلحن (غرباء في الليل) لحن موائم على شكل ساخر، وقد أُتيح لي الآن الوقت كيما أتعرّف إليه. إذاً، هو قد لا يكون

شاباً صغير السّنّ، لأن الشّبّان لا يدندنون بألحان سيناترا. وبعد ثوانٍ أخر، قال: لا يوجد حجز باسم هذا السّيّد أمسِ، يا سيّدي: ربمّا أُلغي الحجز. لكنْ، لا، يا سيّد، لا يوجد أيّ حجز أمس بهذا الاسم.

وهممتُ أن ألحّ عليه، وأسأله إن كان الحجز ليوم الأربعاء هذا، فلم أفعل، وشكرتُه، وقال لي: "وداعاً، يا سيّد"، وأغلق الخطّ. لكنْ، خطر لي بعد أن أغلق الخطّ فحسب، تفسير محتمل: في بريطانيا، كما في البرتغال وفي أمريكة، يُعتدّ بالقسم الأخير من أسماء الأشخاص، إن كانت ثلاثية، مثلاً: آرثركونان دويل، فَيُعتدّ بدويل، كما في المعجمات. أرجّح أنه سُجّل بعد أن نُظر إلى بطاقته أو جواز سفره بكنيته الثانية: بيّستيّروس التي لا نكاد نعتدّ بها نحن، يمكنني أن أجرّب، فأسأل عن بيّستيّروس، ففطنتُ حينئذ إلى أنه لا ينبغي لي أن أصنع ذلك، وما كان ينبغي لي أن أسأل عن مستر دين، وأدركتُ أن هذا السعي ما كان ليُجديني في شيء: فلو استطعتُ أن أوصل إلى ديئان رسالتي الحادّة، لربمّا هتف، ليس فقط إلى بنت حميّه أو أخته أو صديقته، وإنمّا إلى جارة من جيرانه، أو حتّى إلى البوّاب اللذين لن يبطئا حتّى يصعدا إلى البيت، ويلقياني نازلاً في المصعد أو عبر السّلّم، أو في البيت ذاته: وربمّا لا أستطيع مغادرة البيت حتّى وصولهم. إذاً، كان ينبغي لي أن أنصرف فوراً، ولا ينبغي لي أن ألهو، وإن كان لا يعلم أحد حتّى الآن شيئاً، وقد لا يأتي أحد في هذه الساعات. لكنْ، كان ما يزال عليّ أن أنظّم بعض الأشياء: فخلعتُ الحذاء مرّة أخرى، وعدتُ إلى المخدع، ولمّا مررتُ أمام حجرة الطفل مرّة أخرى، فكّرتُ بوضوح في ما كان يخفق في رأسي مؤجَّلاً، إنها كلمات مارتا الأخيرة: "آي، يا ربّي، ومَنْ للطفل؟!" تابعتُ سيري، ورأيتُ الآن بعد أن أجريتُ اتّصالاً هاتفياً مع الخارج، وإن يكن مع بوّاب أجنبي، لا أعرف عنه شيئاً، وقد لا أعرف أبداً، الموقفَ بطريقة مختلفة، أي أني أحسستُ لمّا دخلتُ غرفة النوم بالخجل

أوّل مرّة حيال جسد مارتا الذي تعرّى منه نصفه، على أن القسم العاري كان من فعل يدي. فدنوتُ ومهّدتُ الفراش والملاءات من الجانب الذي لا يطؤه جسمها، من الجانب الذي احتللتُه هذه الليلة، ويحتلّه زوجها سائر الليالي، مهّدتُه من فوق إلى تحت بدءاً من المخدّة حتّى قَدَمَي السرير، فدرتُ حوله، وواتني الجرأة على أن أدفعها بحذر صوب جهتنا، وبمزيد من العزم، لمّا لاحظت مقاومة الكومة التي شكّلتها الأغطية التي تجمعّت وسط السرير. والآن، نعم، شعرتُ بالتّقزّز من الجسد الميّت، وأنا أدفع بيد كتفها، بالأخرى فخذها، ولم يبدُ لي الآن اللمس لطيفاً، وأحسبني أشحتُ ببصري عنها قدر ما استطعتُ، وجعلتُها تتدحرج، لأني لم أجد وسيلة أخرى للتّغلّب على كومة الأقمشة والكتّان، ولمّا صارت في الجانب الآخر من السرير، الذي لم تكن تشغله قطّ (دارت دورتَيْن واستقرّت كما كانت من قبل ناظرة إلى يمينها مضطجعة على جنبها)، سحبتُ الملاءات والفراش الذي كنتُ رفعتُه، واستطعتُ أن أغطّيها. وسترتُها، ودثّرتُها، ورفعتُ الغطاء حتّى قفاها التي ما كان يبدو عليها أنها خارجة من الحمّام، وفكّرتُ فيما إذا كان يجب تغطية وجهها أيضاً، كما رأيتُ مئات المرّات في الأفلام، وفي نشرات الأخبار. لكن ذلك قد يكون برهاناً على أن أحداً ما كان إلى جانبها، وهذه حالة لن تتجاوز حدوداً لشبهة، مهما تكن قوية (ولا مناص منها). ولن ترقى إلى مرتبة اليقين. نظرتُ إلى وجهها، وما كان أشبهه الآن بما كان عليه من قبل! ولو قُيّض لها أن تراه هي نفسها، لتعرّفت إليه، كما كانت تراه، وهي تتراءى في المرآة كل صباح معدود من حياتها. - إذا انقضت الأشياء، يصبح لها رَقْم، لا يُفصح عنه شيء، ولا يتغيّر شيء في حينه.؛ وما أسهل لي التّعرّف إليه، لو قارنته بالوجه في الصورة الفوتوغرافية على الكومودا، صور زفافها التي ما تزال منذ أن وُضعَت في مكانها بحكم العطالة القاهرة الجامدة. أو لعلّ ساكنَي الحجرة لم ينظرا إليها منذ مدّة

طويلة، أي منذ خمس سنوات خلت، حسب زعمها؛ تبدو حينئذ أنضر شباباً بشعرها المعقود والقفا التسعة عشرية، وكانت محطّ الأنظار خلال الحفلة، وعلى وجهها مزيج من البهجة والخوف - كانت تضحك بذعر - لابسة ثوباً قصيراً، لكنه أبيض (وربّما كان بلون خام، لأن الصورة غير ملوّنة) متشبّثة، كما يقضي العُرف بذراع زوجها العابس المنطوي على نفسه قليلاً، كما هم الأزواج في صور الزفاف، منزويَيْن كليهما ضمن هذا الإطار في حين قد يكونان محاطَيْن بالناس في الواقع. مارتا تحمل أزهاراً في يدها غير ناظرة إليه، ولا إلى الأمام، وإنما صوب الأشخاص الذين قد يكونون إلى يسارها - أخواتها وأخوات زوجها وصديقاتها، صديقات لاهيات منفعلات يذكّرنها بأيّام طفولتها وطفولتهنّ، هنّ الصديقات اللاتي لا يصدّقنَ مسألة الزواج، وينظرنَ إليه على أنه لعبة يلعبنَها، ما إن يجتمعنَ، وبذلك يروّحنَ عنها، فهنَ موضع سرّها، وخير صديقاتها، لأنهنّ كالأخوات، والأخوات كالصديقات غيورات منها جميعاً ومتضامنات. وأمعنتُ النظر في الزوج الذي لم يكن عابساً فقط، وإنما كان أيضاً منقبضاً قليلاً، وكأنّه يحضر حفلة جيران من معارفه، أو حفلة، لا يمكن لها أن تعنيه في شيء، لأنها حفلة نسائية (وحفلة العرس لكل النساء، وليس للعروسَيْن فقط، وإنما هي لكل النساء الحاضرات)، وكأنّه دخيل ضروري ولكنه للزينة في جوهر الأمر، ويمكن الاستغناء عنه في كل لحظة إلا لحظة مثوله أمام المذبح، الاستغناء عنه ما دامت الحفلة التي قد تشمل الليل كله ليأسه وغيرته ووحشته وتأنيب ضميره وعارفاً أنه سيكون مرّة أخرى ضرورياً - أو شخصية مفروضة - متى ذهبوا جميعاً أو ذهب هو والعروس، وتذهب هي ناظرة إلى الخلف وبحنق، وقد ارتسم الليل البهيم في عينيها. كان إدواردو ديئان ذا شاربين، وينظر إلى الكاميرا، ويعضّ على شفته، يبدو طوّالاً وناحلاً، وإن بدا لي وجهه مألوفاً، فلم أعرفه قطّ خارج هذا المنزل في كونده ديلاثيميرا، وخارج هذا الحيّ، لأني ما كنتُ أراه.

لكنني لمّا أصبح في الخارج، وأنا ما أزال ألهو مرّة أخرى، وكأنّ وجودي يمكنه أن يصلح شيئاً، لمّا صار كل شيء غير قابل للإصلاح، وكأنّ تركي مارتا يثير الريبة فيّ بالتّخلّي عنها ليلة عرسها المرتقب معي. إلى متى من الوقت؟ لكنّي لم أسع إلى ذلك، ولم أُردْه - ؛ وكأنّي ببقائي هنا يظلّ للأشياء معنى، يظلّ لخيط الاستمرارية، خيط الحرير. هي ماتت، لكن المشهد ما يزال مشهداً، بُدئ به، لمّا كانت حَيّة، وأنا ما أزال في حجرتها، وهذا ما يجعل موتها غير نهائي قليلاً، لأني كنتُ هنا أيضاً، لمّا كانت حَيّة، وأنا أعلم كيف كان كل شيء، وتحوّلتُ إلى خيط الاستمرار. ستظلّ نعلاها فارغتَيْن أبداً، وتنّوراتها المجعّدة التي لن تُكوَى ما يزال لها تفسير وتاريخ ومعنى، لأني كنتُ شاهداً على أنها كانت تنتعل النعلين، وأنها كانت تلبس التنانير، نعلان ذواتا كعبٍ عالٍ ربّما كان مفرطاً في الطول، من أجل الاستعمال المنزلي، ولو في حضور مَدعوّ غير معروف تقريباً. ورأيتُ كيف كانت تخلعهما بقَدَمَيْها، لمّا وصلت الحجرة، وتقلّصت قامتها فجأة، وصارت أشهى، وأهدأ. أستطيع أن أقصّ ذلك، وبالتالي أستطيع أن أبيّن انتقالها من الحياة إلى الموت، وهذي طريقة في إطالة مدى هذه الحياة، وقبول هذا الموت: لو رأينا الاثنين معاً، لو شاهدنا الأمرين كليهما، أو ربّما الحالتَيْن، لو أن مَنْ يموت لا يموت وحيداً، بل يستطيع مَنْ يكون برفقته أن يقدِّم شهادة على أن الميّتة لم تكن ميّتة دائماً، وإنما كانت حَيّة. وما يزال فريد ماك موري وبربارا ستانويك يتكلّمان بالترجمة المكتوبة، وكأنّ شيئاً لم يحدث، ورنّ الهاتف حينئذ، وانتابني الذعر، وهذا الذعر لم يحصل، على الأقلّ، بغتة، بل في لحظتَيْن اثنتَيْن، لأني أردتُ التفكير في أن الرنّة الأولى صادرة عن الفيلم، لكن الهواتف لم تكن ترنّ بهذه الطريقة في ذلك العصر، ولا وجود لأيّ جهاز هاتف في ذلك المشهد، وبالتالي لم يلتفت ماك موري ولا ستانويك للنظر إليه، ورفع السماعة، كما التفتّ أنا فوراً

صوب منضدة مارتا الليلية، فقد كان هاتف حجرة مارتا يرنّ في الساعة الثالثة فجراً. وفكّرتُ: "هذا غير ممكن، أنا لم أكلّم الزوج، وهتفتُ إليه، لكنني لم أكلّمه، ولا يعلم أحد ما حدث، ولم أقصّ على البوّاب شيئاً، حقّاً لم أقصّ عليه شيئاً". كنتُ ما أزال أفكّر على عجل، كما نفكّر في أوقات الضيق: "لربّما حلم بالوضع وهو في سريره في لندن، وحدس فيه، أو خمنّه تخميناً، فاستيقظ، يحدوه اليأس والغيرة والوحدة وتبكيت الضمير، وآثر أن يهتف، ليجفّف تعرُّقه الليلي، ويطمئنّ، وإن كان يخاطر بإيقاظها، ومَنْ يدري، بإيقاظ الطفل أيضاً؟". ولم يخطر لي أن أطبقَ باب المخدع بسرعة، كيلا يحدث هذا الأمر الأخير. وفي الرنّة الثالثة، رفعتُ السماعة مدفوعاً بالخوف، ولكي أقطع الضوضاء، لكني لم أقلْ: "آلو"، ولا شيئاً من هذا سوى أن السمّاعة ظلّت بيدي، لكنها ليست على أذني (وكأنّ هذا الاحتكاك يمكنه أن يشي بي - وأدركتُ أن المسجّل الآلي كان شغّالاً - فرأيتُ خطّاً أحمر، يهتزّ ويتحرّك للحظة - وأنه سيجيب عنّي وعنها. وقطعتُ الخطّ فوراً، بسبب الخوف الذي يتصاعد، لمّا وصل مسمعي صوت رجل يقول: "مارتا"، ويردّد، "مارتا"، كان ذلك لمّا أغلقتُ الخطّ، ولبثتُ هادئاً مبهور النفس، وكأنّ أحداً ما رآني. وخطوتُ ثلاث خطوات صوب الباب، وأغلقتُهُ، نعم، هذه المرّة بحذر جرّاء الخوف والطفل، وهيّأتُ نفسي بانتظار الرنين الجديد الذي لن يُبطئ حتّى رنّ رنّة واحدة، ثمّ رنّتَيْن اثنتَيْن، ثمّ ثلاث رنّات، بل أربعاً، وقفز حينئذ المسجِّل الذي لم أكن أسمع الصوت المسجَّل فيه، وما كنتُ أدري، إن كان صوت مارتا، لمّا كانت ما تزال حيّة، أو صوت ديئان الذي كان بعيداً جدّاً، ثمّ تعالى الصفير، وتحقّقتُ بالإصبع بأنه كان عالي التردّد، وسمعتُ صوت الرجل مرّة أخرى، سمعتُه يقول: "مارتا؟" بدأ مرّة أخرى "مارتا؟" ألستِ هنا؟، كان السؤال قلقاً أو بالحريّ مشوَّشاً. "من قبل قطعتِ الخطّ. أليس كذلك؟ أتسمعين؟" ثمّ ساد صمت ونقرة

احتجاج باللسان: "أتسمعين؟ ما اللعبة التي تلعبينها؟ ألستِ هنا؟ لكني هتفتُ منذ قليل، ورفعتُ السماعة. أحقّاً؟ أجيبي، يا خرء". ثمّ كانت مدّة أخرى من الانتظار، وفكّرتُ في أن ديئان سيّئ النطق، ويُحدث جلبة مفرطة بفمه. "حسن، أنا لا أدري، إن كنتِ خفّضتِ الصوت، أو أنكَ خرجتِ، أنا لا أفهم! ربّما ستدركين أختكِ من أجل الطفل. حسن! لا شيء عندي. وصلتُ البيت منذ قليل، ولم أسمع رسالتكِ حتّى الآن. انتبهي إن كنتِ تذكّرتِ أن إدواردو سيذهب اليوم في سفر، لأنكِ لم تقولي شيئاً عن رغبتكِ في أن نكون معاً لليلة، نستطيع أن نلتقي فيها من غير عجلة، وليس في فندق أو عربة. خرء! فلو علمتِ، لأمكنكِ أن تأتي إليّ، أو لكنتُ مررتُ بكِ، وقضينا وقتاً ما بدلاً من الليلة التي أنهكتْني. مارتا؟ مارتا؟ أأنتِ مغفّلة؟ أم ماذا؟ ألا تجيبين؟" وحدث انقطاع آخر، وسمعتُ زمجرة صغيرة من الغضب، وفكّرتُ: "هذا ليس ديئان، وإنما هو طاغية فقط"، ثمّ تتابع الصوت، كان يتكلّم بسرعة وغيظ، وبثبات أيضاً، كان مثل صوت آلة حلاقة، صوت ثابت ملحّ ورتيب. "أصبحتُ، لا أدري! أظنّكِ خرجتِ، ثمّ الطفل، لكنْ، لا بأس! فإذا كنتِ خرجتِ، وعدتِ سريعاً، لنقل قبل الثالثة والنصف أو الرابعة إلا ربعاً، فاهتفي لي إن شئتِ، فليست لدي رغبة في النوم الآن، وإذا أردتِ، يمكنني أن أمرّ بكِ، قضيتُ ليلة منكرة ومشؤومة، وسأقصّ عليكِ الورطة التي وجدتُ نفسي فيها، وسواء عليّ إن نمتُ في وقت متأخّر، فسوف أكون غداً محطوماً على كل حال. مارتا؟ ألستِ في البيت؟" ثمّ انقطاع متناه في الصغر، أتاح لنقرة استياء أخرى من لسانه الحادّ: "طيّب! أنا لا أدري إن كنتِ نائمة، أو نتكلّم غداً صباحاً، لكن إينيس ليس لها نوبة غداً، وبذلك لن نلتقي أبداً، فيا للخيبة! كان يمكنكِ أن تتذكّري من قبل، ثمّ أنتِ غير منظّمة".

ثمّ أقفل من غير أن يُودِّع. كان الصوت آمراً وصاعقاً ومُدِلاً مُنعِماً، كان مطمئناً أو أنه اعتاد أن يُطمئن إليه، كان يكلّم امرأة ميّتة، ولا يدري، كان يكلّم امرأة ميّتة بلهجة سيّئة وبتأنيب وإلحاح أيضاً، بصوت اعتاد التعذيب. مارتا لن تعلم شيئاً ممّا قال، ولا هو يستطيع أن يقصّ عليها ما حدث له تلك الليلة، ولم يكن الوحيد الذي حدث له أمر محال ومشؤوم، فقد حدث لي أنا، وحدث لها هي أيضاً على وجه خاصّ، "أبداً"، في الواقع، ما كنتُ أعلم إلى أي مدى يصل هذا (الأبد)، فهما لن يريا بعضهما مرّة أخرى، لا على عجل، ولا بهدوء، ولا في فندق، ولا في عربة، ولا في أي مكان آخر؛ وهذا أفرحني مؤقّتاً، وعلى شكل عجيب، وأحسستُ بشرارة من الغيرة الممتدّة إلى الماضي، أو المُتخيَّلة، شرارة جدّ صغيرة، وخفيّة كخطّ الضوء الأحمر في المسجّل الآلي الذي تحرّك مرّة أخرى الآن، لمّا أقفل الرجل، ليُنهي كلامه، متحوّلاً إلى إشارة/ وظلّ ساكناً على هذا الشكل، "هكذا كنتُ فُضالة"، فكّرتُ، هكذا فكّرتُ في الأمر بهذه الصيغة، وهذه الكلمات، وأيضاً بنفحة ساخنة من خيبة الأمل، ثمّ "إذاً، هي حقّاً كانت نسيت سفر زوجها، ولم يصبح ذلك حجّة، كيما تدعوني في غيابه، وفي هذه الحالة، هي أيضاً: لم تسعَ إلى هذا الأمر، ولم تُرده؛ وربمّا لم تكن أعدّت شيئاً، أوأنها أعدّتْه للتّوّ فقط". كنّا اتّفقنا على تناوُل العشاء هذه الليلة في مطعم، لكنها اتّصلت بي في المساء، تسألني إن كان بالإمكان تناول العشاء في البيت. فقد كانت مشغولة في الآونة الأخيرة بالمشاكل وبالعمل الكثير، وقالت إنها لم تتذكّر أن زوجها ذاهب اليوم إلى لندن، إذْ كانت تعتمد عليه للسهر على الطفل، ولم أجد مَنْ ينوب عنه، وهكذا أجدني مضطرّة إلى إلغاء الموعد، اللهم إلا إذا أتيت للعشاء هنا في البيت، حيث تعشينا فعلاً في الصالون، وما تزال أقداح خمرنا فيه. أثارت الدعوة فيّ شيئاً من الضيق، فاقترحتُ تأجيلها إلى يوم آخر، فأنا لا أريد أن أعقّد حياتها، وألحّت هي بأنّي لن

أعقّدها في شيء، وقالت إن لديها في الثلاجة (لحم فيليه) إيرلنديّاً، ابتيع حديثاً، وسألتني إن كنتُ مغرماً باللحم. واتّخذتُ من ذلك دليلاً على اهتماماتها الغرامية. وربّما اكتشفت الآن أنها حاولتْ قبل ذلك كله تحديد مكان ذلك الفرد ذي الصوت الكهربائي الذي لم يسمع رسالة مارتا حتّى الساعة الثالثة، متى أودعت؟ - لا مفرّ من أن يكون بعد خروج إينيس، أيّاً تكنْ هذه المرأة، لكنّني أرجّح أنّها زوج ذلك الرجل للقيام بنوبتها، أيّة نوبة؟ - لن تكون مناوبة غداً، أمّا اليوم، فهي كذلك، وقد تكون خرجت باكراً جدّاً، فلعلّها ممرّضة أو صيدلانية أو شرطية أو قاضية. "يقيناً لو عثرت مارتا عليه، لكانت هتفت لي مرّة أخرى، لتُلغي موعدنا، وبالتالي زيارتي شارع كونده ديلاثيميرا، ولمّا كانت استقبلتْني، بل كانت استقبلت ذاك الرجل، ولكان بالإمكان أن يكون هو ا لآن على أساس أقوى، ولما كانت أبطأت في استقباله. ولربّما كان مكاني في السرير مكانه أيضاً في مناسبات أخرى، إذ ليس هو مكان ديئان كلّ الليالي، وإنما يكون هذه الليلة مكانه، وهذه الليلة صار مكاني، ولا داعي للأسف على سوء الحظّ، وكل شيء يجري على هذا النهج، وإن نسيناه، ولا نفكّر فيه، كيما نحافظ على نفوذنا، ونعمل من غير علم، ونقرر من غير علم، ونخطو خطواتنا المسمومة؛ كل شيء هكذا: السير في الشارع المختار، أو دخول عربة يدعونا إليها السائق من مقعده فاتحاً لنا الباب، والطيران في طائرة، ورفع سمّاعة الهاتف، والخروج للعشاء أو البقاء في الفندق والنظر بشرود من النافذة المنزلقة، والاحتفال بذكرى مولدنا والنُّمُوّ والاستمرار في الاحتفال بذكرى الميلاد حتّى سنّ التجنيد والتظاهر بمنح قُبلة، تفتح الباب لسلسلة من القبلات، تجعلنا نتأخّر ونُقدّم مسوِّغاً لتأخّرنا، وطلب وظيفة أو القبول بها، ورؤية العاصفة تتكثّف من غير أن نحتمي تحت سقف، وشرب البيرة، والنظر إلى النساء جالسات على كراسي واطئة بلا مساند أمام الحاجز. كل شيء هكذا، وهذه الأشياء

كلها يمكنها أن تجرّ وراءها السكاكين والزجاج المحطّم والمرض والضيق والخوف والحراب والكآبة والندم والشجرة المقصومة، وعَظْم السمك في الحلق؛ والطائرة المطاردة من الخلف، وزلّة قَدَم عند الحلاق، والأكعاب المشقوقة، والأيدي الكبيرة التي تضغط على الصدغين، على صدغيّ البائسين، واللفافة المشتعلة والرقبة الملويّة المبلّلة، والتنانير المجعّدة، وحاملة الثديَيْن الصغيرة والصدر العاري من ثمّ، وامرأة متدثّرة تبدو الآن راقدة، وطفلاً جاهلاً يحلم تحت ظلال معركته الجوّية الموروثة. "فكِّرْ فيّ غداً، أثناء المعركة حين أموت، وليسقط رمحكَ". ولبثتُ أنظر إليها مرّة أخرى، وتوجّهتُ إليها بفكري: "كم مكالمة أخرى أجريتِها اليوم الذي هو أمسِ، لمّا علمتِ زوجكِ مسافراً، وتركَكِ حُرّة؟ كم رجلاً آثرت؟، وكم رجلاً هتفتِ إليه، كيما يأتي ليؤنسكِ، ويحيي ليلة عزوبتكِ أو ترمّلكِ؟ هتفتِ إليهم جميعاً في وقت متأخّر جدّاً، وربّما لم تجدي غير مَنْ تعرفينه معرفة ضئيلة، مَنْ كان مرتبطاً بكِ بموعد، حُدّد منذ أيّام خلت من غير تفكير، ومن غير أن تعي أنكِ لن تستطيعي اللهو معه هذه الليلة الموعودة التي ستكونين فيها حُرّة، ولم تتذكّري أنكِ ستكونين كذلك: ربمّا اضطُررتِ إلى الاتّفاق معي بعد أن استعرضتِ (أجندتكِ)، وخابرتِ مرّة بعد أخرى من هذا الهاتف الذي ما يزال يرنّ قرب سريركِ، ليستعلم عنكِ مَنْ يجهل أنكِ متّ، وأنكِ متِّ بين ذراعي، يهتفون وسيظلّون يهتفون حتّى لا يحتاجون إلى مَنْ يقول لهم إنهم يستطيعون شطب رَقْمكِ، فلا ينبغي لأحد أن يهتف إلى مارتا تيبّث، لأنها لا تجيب، وكل مَنْ بذل جهداً ذات يوم كيما يحفظ الرَّقْم المعطّل ويستذكره، ينبغي له أن ينساه، وأنا نفسي سأنساه، وكذلك الذين يدقّونه حتّى من غير تفكير فيه، كهذا الرجل ذي الصوت الحادّ الذي سُجّل، ليسمعه كل مَنْ في هذه الحجرة ما عدا صاحبة الرَّقْم ذاتها. ربمّا كنتُ ظالماً للمسكينة مارتا، ربمّا كنتُ في القائمة الرجل الثاني

الذي كان بإمكانه الانتقال إلى المقام الأوّل بالضرورة، لو صارت ليلتنا ليلة افتتاحية بحقّ، ليلة أولى تليها ليالٍ أخرى، كانت ستقودنا إلى اللهو أمام باب بيتي غارقين في قُبل، تروي العاشقين عند الوداع. ليلة من جملة ليال أخرى، لن يكون لها حظّ الانتظار في المستقبل، وإنما ستقيل أو تستقرّ إلى الأبد في وعيي الذي لا يكلّ، وعيي اليقظ إلى كل ما يحدث، وما لا يحدث، يقظ إلى الوقائع وإلى الإخفاق، إلى ما لا رجعة فيه، وإلى ما هو منقوص، إلى ما هو مختار، وإلى ما هو مبعد، إلى ما يعود، وإلى ما يضيع، وكأنّ ذلك كله سواء: أكان الخطأ أم الجهد أم تبكيت الضمير أو قفا الزمن الأسود. فكم مخابرة قمتَ بها طيلة حياتكَ كلها، حياة جعلتْني أعرف خاتمتها، لكني لم أعرف سيرورتها؟ ولن أعرفها أبداً حتّى لو شغلتُ ذاكرتي، ورجعتُ القهقرى بالزمن الذي عبرت مجاله".

نحّيتُ تلك الأفكار جانباً. وكنتُ تجنّبتُ حتّى ذلك الحين التراثي في المرآة التي هي بقامة رجل كاملة، ورأيتُ نفسي الآن، وكان في عيني نعاس وصدود، وشعرتُ بحكّة فيهما، ففركتُهُما بيدي، ووجدتُ فيهما آخر الأمر تعامياً. واستطعتُ أن أتعرّف إلى نفسي: مظهري لم يتغيّر، كما لم يتغيّر مظهر مارتا؛ حتّى إني كنتُ ألبس سترتي، ولم أجد صعوبة في تذكّر الرجل الذي كان جاء مَدعوّاً للعشاء منذ ساعات قليلة خلت، ساعات قليلة وكثيرة جدّاً. وكان ينبغي لي الخروج من هنا من غير إبطاء، وساورني إحساس طارئ بأني كنتُ مشلول الحركة، كأنّي واقع في نسيج عنكبوت، بل في حالة من الحذر والشّك، لا يعرفهما وعيي الذي لا يكلّ، كنتُ حافي القدمين، وبهذا الشكل لا أستطيع أن أعمل، ولا أن أقرّر شيئاً، فانتعلتُ الحذاء، وعقدتُ الرباط مستنداً بنعليّ إلى حرف السرير، وتخلّيتُ عن الحذر. وألقيتُ نظرة إلى ما حولي من غير أن أقف بنظري على شيء، وإنما قمتُ بحركتَيْن اثنتَيْن قبل أن أغادر الحجرة: رفعتُ غطاء المسجِّل الآلي،

وأخذت منه الشريط الصغير، وألقيتُ به في جيب سترتي، وأحسبني فكّرتُ في شيئين لمّا أخذتُه (أو ربّما فكّرتُ فيهما في وقت لاحق، وفي هذه الحالة أكون أخذتُه على شكل آلي بلا تفكير). فلا ينبغي لديئان أن يعرف على وجه اليقين، إذ لا يوجد شيء لا يقبل الإصلاح أكثر من هذا، وهذا لا ينبغي له أن يُلزِم أحداً، بل يجب أن يوجد دائماً مجال أو ثغرة للشك. وإذا عرف ديئان، فعلى الأغلب، أن يفتتح حينئذ باب الاحتمال على أن مَنْ كان يتعشى ومارتا هذه الليلة هو ذاك الرجل، وليس أنا؛ وإذا ما عُثر على الشريط، وسُمع فسوف يُبعد ذلك الرجل. (التفكير الأوّل ذا وزن، أو ربّما كان رحيماً، وفيه شيء من الزيف؛ والتفكير الثاني كان حذراً، وإن كان لا يعرف أحد عنّي شيئاً، فكّرتُ مرّة أخرى)، حركتي الثانية كانت آلية أكثر من الأولى، وخالية تماماً من الجلال والقصد والمعنى، في الواقع، لم يكن لها أدنى معنى: طبعتُ قُبلة سريعة جدّاً على جبهة مارتا، لمستُها تقريباً لمساً بشَفَتَيّ، ثمّ انسحبتُ. انسحبتُ من المخدع من غير أن أُغلق التلفاز مبقياً على ماك موري وستانويك مدّة، مهما تطل - كشاهدَيْن مؤقّتَيْن وحيدَيْن أخرسَيْن، لكنهما يتكلّمان بالترجمة المكتوبة على الشاشة، شاهدين على حالتي مارتا تيبّث الاثنتَيْن، على حياتها وموتها، وعلى تغيّرها. ولم أطفئ الضوء أيضاً، إذ أصبحتُ لا أستطيع التفكير فيما هو خير لي، أو ألبق بي وبها وبديئان وبالطفل، كنتُ مُنهَكاً، وتركتُ كل شيء على وضعه، وسرتُ الآن في الممرّ منتعلاً حذائي غير آبه بالضوضاء واثقاً بأن ذلك الطفل لن يُوقِظه شيء. دخلتُ الصالون، ورفعتُ الزجاجة وأقداح الخمر، وحملتُها إلى المطبخ، فرأيتُ الصدار الذي كانت تلبسه مارتا، لمّا قَلَتِ اللحمَ، وغسلتُ الأقداح بيَدَيّ، وعلّقتُها بحامل الآنية وفوهاتها إلى تحت، لكي تقطر وتجفّ من ثمّ، وأفرغتُ ثمالة الزجاجة في المجلى، وكانت ضئيلة جدّاً، خمر من نوعِ شاتو مالرتِيك، أنا غير خبير في الخمور، وإنما أشربها

للتجريب والمتعة - وألقيتُ بها في القمامة، حيث رأيتُ غلاف الآيس كريم وقشور البطاطا، وأوراقاً ممزّقة، وقطعة قطن، عليها قليل من الدم، ودهن ذلك اللحم الإيرلندي الذي أُعجبتُ به، والبقايا التي أفرغتْها يد صارت ميّتة، وكانت حَيّة منذ عهد قريب جدّاً، وتساوى الدهن واليدان في المصير الآن، وكذلك لحم مطّرح ميّت، وذلك كله في حالة تحوّل، وفكّرتُ: "أين معطفي ولفاعي وقفّازاي؟ أين أودعتْها مارتا بعد أن فتحتْ لي الباب". كان قرب الباب خزانة، أو بالحريّ قمرة، فقصدتُها، وفتحتُها، فاشتعل مصباح صغير عند فتحها بذات النظام الموجود في الثّلاجات، ووجدتُها هناك معلّقة بشكل أنيق، فقد طُوي اللفاع الأزرق طيّاً جيّداً، فوق كتف المعطف الأزرق، الأيسر، وكان المعطف أشدّ زرقة منه، وكانت ياقته منتصبة كعهدي بها دائماً، أما القفّازان، فكانا يطلان من الجيب الأيسر إطلالة يسيرة، لكنها كافية كيما ألمحهما هناك، فلا أنساهما، ولكيلا يسقطا سهواً، إنها امرأة يقظة، تعرف كيف تحفظ ثياب الآخرين. فأخذتُها ولبستُها: لبستُ اللفاع أوّلاً، ثمّ المعطف، ولم ألبس القفّازين بعد، فربمّا احتجتُ إلى استعمال يدي بلا عوائق. نظرتُ للحظة إلى الثياب الأخرى، وكانت ذات ثلاثة مقاييس، كان لديئان معطف مطري جيَد بلون الزنك، وأُعجب به أن لم يأخذه معه إلى لندن، وكان لا محالة طويلاً جدّاً. وكان لمارتا معاطف شتّى، رأيتُ منها معطفاً جِلْديّاً موضوعاً في حقيبة بلاستيكية ذات سحّاب، لا أدري من أي جلد هو، أم هو جلد صناعي. ووجدت (أنوراك) صغيراً، ومعطفاً صغيراً بلون أزرق بحري ذا أزرار مذهّبة، ظلا على مسافة كبيرة من أرضية الخزانة، وسيظلان هكذا إلى أن يشرعا في النّموّ. كان في الرّفّ الأعلى قبّعات، لا يكاد يستعملها أحد اليوم، رأيتُ بينها واحدة من نوع (سالاكوت) حقيقي، ولم أستطع تفادي رفعها، كانت تبدو قديمة، وذات رباط من الجِلْد لتثبيته تحت

الذقن، وبطانة خضراء مهترئة، لُصقت عليها بطاقة عتيقة متشقّقة جدّاً، وما يزال بالإمكان أن يُقرَأ فيها: "ليوبالدو ديزيغني"، ثمّ تحتُ: "4 - جادّة فرنسا"، ثمّ تحتها: "تونس". من أين جاءت؟ قد تكون من والد ديئان، أو والد مارتا، فورثها كما ورث أوخينيو الطائرات المتدلّية، من طفولة الأب. اعتمرتُ (السالاكوت)، وبحثتُ عن مرآة أتراءى فيها، فذهبتُ إلى حجرة الحمّام، ولم أجد بدأً من الضحك من نفسي، لمّا تراءيتُ، وبدوتُ أحد سكّان المستعمرات في الشتاء لابساً معطفاً ولفاعاً، ولم تلبث البسمة إلا قليلاً. أمّا الطفل، فلم أشأ التفكير فيه خلال ذلك الوقت كله - أعني: لم أركّز التفكير عليه - لكني كنتُ أعلم، أخشى أني كنتُ أعلم منذ البدء بنوع من الحَدْس، كنتُ أعلم بالإمكانيات الثلاث المعروضة أمامي، وكنتُ أعلم أيّها أختار. فخلعتُ السالاكوت، وأودعتُها حيث كانت، وأطبقتُ الخزانة (وانطفأ المصباح). كنتُ أستطيع البقاء هنا، وأقوم برعاية الطفل إلى أن يقدمَ أحد، ولم يكن لهذا الخيار معنى، وهو يشبه أن أهتف إلى ديئان حتّى أعثر عليه، أو على البوّاب، أو أنادي أحد الجيران، فأشي بنفسي وبمارتا أيضاً. ويمكنني أخذه وإبقاؤه معي إلى أن يُعثَر على جثّة أمّه، فأعيده حينئذ، وأستطيع أن أصنع ذلك دائماً بيد مجهول، وأضعه في اليوم التالي على بعد أمتار قليلة من مدخل البناء، وأنصرف، أو آتي به في يوم آخر، وأضعه في حجرة البوّاب، وأخرج راكضاً، وما العمل في أثناء ذلك؟ سأكون مدى أربع وعشرين أو ثمان وعشرين ساعة مع ضارٍ صغير، ومن الممكن جدّاً ألا يرغب في الذهاب معي، ولا الخروج من البيت، ثمّ ينبغي لي أن أوقظه، وأُلبسه ثيابه في منتصف الليل، وأمنعه من الذهاب لرؤية أمّه، على الأغلب سيبكي، ويرفس برجليه، وقد يُلقي بنفسه منبطحاً على أرض الممشى، وقد أُحسّ بنفسي مُحتجَزاً، وهذا محال. وأستطيع آخر الأمر أن أتركه: يجب عليّ أن أتخلّى عنه، ولا بديل آخر لي عن ذلك، في الواقع.

ينبغي للطفل أن يظلّ راقداً إلى أن يستيقظ، ولسوف ينادي أمّه حينئذ، أو ربّما ينهض وحده، ويسعى باحثاً عنها، ولسوف يصعد السرير، ويأخذ برجّ البدن المزمّل الساكن، يقيناً لن يكون في هذا مختلفاً عن أيّ صباح آخر، سيحتجّ على عدم اكتراثها، وسيُطلق الصيحات، ويبكي، ولن يفقه شيئاً، كما لا يفقه طفل في مثل سنّه معنى الموت، ولا يستطيع أن يفكّر: "ماتت، ماما ماتت"، فلا المفهوم ولا الكلمة تدخل رأسه، ولا مفهوم الحياة أيضاً، لا توجد عنده حياة أولى، ولا حياة أخرى، وإنما هو قَدَرُهُ، ولسوف يتعب بعد مدّة معيّنة، وينظر إلى التلفاز (ولربّما وجب عليّ أن أدع تلفاز الصالون شغّالاً أيضاً، كيلا يضطر إلى البقاء في المخدع قرب الجثّة، لو أراد أن يشاهده)، أو سينصرف إلى شؤونه - لعبه، طعامه، فسوف يكون جائعاً .، أو أنه سيبكي بلا انقطاع وبقوّة، فللأطفال رئات خارقة القوّة، وبكاؤهم لا ينضب مَعينه، يبكي حتّى يسمعه أحد الجيران، ويدقّ الباب، وإن كان الجيران لا يأبهون بشيء إلا إذا سبّب لهم الضيق. سوف يقدّم غداً أحد ما على كل حال، قد يكون مربيّة أو مساعدة أو أختاً، أو ربّما هتف ديئان مرّة أخرى بين صفقة وأخرى، فلا يجيبه أحد حتّى ولا الشريط في المسجّل الآلي، لأنه استقرّ في جيب سترتي؛ وسيُشغل باله حينئذ، ويستقصي، ويحزم حقائبه. بقيت لدي فكرة واحدة بعد هذا التفكير كله، هي أن الطفل سيكون جائعاً. فقصدتُ البرّاد، وعزمتُ على إعداد طبق له، كما يُعدّ طعام لحيوان أليف سيُهجر ليوم واحد أو يومين بسبب السفر: كان في البرّاد لحم خنزير من يورك وشوكولا وفواكه، فقشّرتُ يوسفيتَين، لأسهّل عليه أكلهما، ووضعتُ سمكاً نزعت حشاه خشية أن يختنق، فلن تكون أمّه قربه، كيما تدخل إصبعاً، وتُنقذه، قطّعتُ الجبن، ووزّعتُه، ونزعتُ غلافه عنه، وغسلتُ السّكين؛ ووجدتُ في إحدى الخزن بسكويتاً وجراباً من حبّ الصنوبر، ففتحتُه، ووضعتُ كل ما فيه إلى جانب الصحن (ولو وضعتُ

علبة لبن، لتعثّر في فتحها)، كان طبقاً محالاً، كان خليطاً كالخبيص، لكن المهم أن يجد شيئاً يتبلّغ به، إذا أبطأ في القدوم من يتحمّل مسؤولية هذا البيت. أمّا الشراب، فأخرجتُ من البراد علبة من العصير، وملأتُ قدحاً منه، ووضعتُهُ إلى جانب ذلك كله على مائدة المطبخ التي قرّبتُ منها مقعداً صغيراً، وبذلك يستطيع الطفل بلوغ الطعام بلا مشاكل. وما أكثر تعثّر الأطفال في الثانية من العمر! ذلك كله سيشي بوجودي هنا، أعني بوجود أحد ما، لكن ذلك أصبح غير هام.

لم يكن لديّ شيء آخر أصنعه، وما كنتُ أستطيع صُنع شيء آخر. نظرتُ صوب المخدع، فقلِقتُ لفكرة العودة إليه؛ لحسن الحظّ، لم أضطرّ إلى القيام بذلك، فلم يكن يدعوني داعٍ، دخلتُ الصالون، وفتحتُ التلفاز من أجل الطفل، وخفّضتُ الصوت فيه، وهكذا سيسمع شيئاً ما على الأقلّ، ووضعتُهُ على قناة، كان ما يزال فيها صور فيلم آخر، عرفتُه فوراً، إنه: أجراس منتصف الليل، وصار العالم كله بالأسود والأبيض فجراً، وبدا لي أني تركتُ البيت خراباً، من أضواء مشعلة، وجهازي تلفاز يعملان، وطعام خارج البرّاد في طبق، ومسجّل بلا شريط، وثياب بلا كيّ، ومنافض وسخة، وجثمان عارٍ ومدثّر، ما عدا حجرة الطفل التي حافظت على النظام فيها، وكأنّها ظلّت بمعزل عن الكارثة؛ أطللتُ عليها مرةّ أخرى، وكان صوت تنفّسه مسموعاً هادئاً، ووقفتُ في العتبة مفكّراً للحظات معدودات: "هذا الطفل لن يعرفني، لو رآني ذات مرّة في المستقبل البعيد؛ لن يعرف أبداً ما حدث، لن يعرف لِمَ تقوَّض عالمه، ولا في أيّة ظروف ماتت أمّه؛ سيُخفي ذلك عنه أبوه وخالته وأجداده، إن كان له أجداد، كما يصنع دائماً هؤلاء الأشخاص بالأشياء التي يعدّونها مشينة وسيّئة؛ ولا يخفون ذلك عنه وحده، وإنما عن سائر الناس، يخفون أمر الموت الرهيب أو المخجل، الموت المضحك الذي يُلحق بنا العار. لكنه سيخفى عليهم هم أيضاً في الواقع، سأُخفيه

عنهم - فلم يكونوا حاضرين - سأُخفيه لأني الوحيد الذي يعلم شيئاً: فلن يعلم أحد أبداً ما حدث هذه الليلة، والطفل الذي كان حاضراً ورآني وكان شاهداً على المقدّمات الأوّل، لسوف يكون أقلّهم علماً؛ لن يتذكّر الحادث، كما أنه لن يتذكّر أمس، ولا أوّل أمس، ولا بعد غدٍ، لا، ولن يتذكّر بعد قليل هذا العالم، ولا أمّه اللذين فقدهما اليوم وإلى الأبد، أو أنه فقدهما من قبل، لن يتذكّر شيئاً ممّا حدث في حياته منذ ولادته، هو بالنسبة إليه زمن غير مجدٍ، لأن ذاكرته لا تحتفظ بعد بشيء للمستقبل، زمنه حتّى الآن صالح فقط لأبويه اللذين يستطيعان أن يقصّا عليه في وقت تالٍ، كيف لمّا كان صغيراً - صغيراً جدّاً جدّاً - وكيف كان يتكلّم، وأيّ أشياء كان يقولها، وأيّ أحداث مرّ بها (سيقصّ عليه أبوه في هذه الحالة، وليس أمّه). وما أكثر الأشياء التي تحدث، ولا يُخبر بها أحد، ولا يتذكّرها، فلا يوجد سجلّ تقريباً لشيء، لا للأفكار والحركات العارضة، ولا للمخطّطات والرغبات، ولا للشّكّ الخَفي، ولا للأحلام، ولا للقسوة والإهانة، ولا للكلمات التي قيلت وسُمعت، ثمّ أُنكرت، أو فهمت فَهْماً سيّئاً، وحُرِّفت، ولا للوعود المقطوعة التي لا يبالي بها أحد حتّى ولا أولئك الذين قُطِعت لهم، كل شيء يُنسَى ويسقط بالتقادم، سواء أكان كل ما يُصنع على انفراد، ولا يُلحظ، ويسجّل، أم كل ما لا يُصنع تقريباً على انفراد، وإنما بمرأى ومَسمع، وما أقلّ ما يبقى من كل فرد، وما أقلّ ما له ديمومة وثبات! وهذا القليل الذي يبقى يُسكَت عنه، وما يُسكت عنه، يُستذكَر منه فيما بعد جزء ضئيل جدّاً فقط، وخلال مدّة بسيطة، لأن الذاكرة الفردية لا تُنقَل إلى مَنْ يتلقّاها نقلاً، ولا هو يأبه بها، وإنما يصنع ذاكرته الخاصّة به صنعاً، ويمتلكها. كل زمن عَبَث، وليس زمن الطفل فقط، أو كل زمن شبيه بزمنه، كل ما يحدث، كل ما يبعث الحماس أو يؤلم في الزمن يتجلّى للحظة واحدة، ثمّ يضيع، فكل شيء زلق كالثلج المتماسك، وكما هو الحلم بالنسبة للطفل الذي يحلم الآن،

وفي هذه اللحظة ذاتها. كل شيء في نظر الناس كلها، كما أنا بالنسبة إليه شخص، يكاد لا يعرفه، ويراقبه من عتبة بابه، من غير أن يعلم، ولن يعلم أبداً، وبالتالي لن يستطيع تذكّره، كلانا يرحل صوب تلاشيه ببطء. ما يحدث وراء ظهورنا كثير جدّاً، وقدرتنا على المعرفة ضئيلة، فنحن لا نرى ما وراء الجدار، أو ما هو بعيد عنّا، يكفي أن يتمتم أحدهم، أو يبتعد عنّا خطوات حتّى لا نسمع ما يقول، وقد تُهدَر حياتنا فيما يقول. يكفي ألا نقرأ كتاباً حتّى لا نعرف التحذير الأساس، لا نستطيع أن نكون إلا في مكان واحد كل لحظة، حتّى إننا نجهل غالباً مَنْ ينظر إلينا مَليّاً، أو يفكّر فينا، نجهل مَنْ هو على وشك أن يدقّ رَقْم هاتفنا، على وشك أن يكتب إلينا، ويحبّنا، ويبحث عنّا، مَنْ يديننا، أو يغتالنا. وهكذا يقضي على أيّامنا الضئيلة السّيّئة، مَنْ يُلقي بنا على قفا الزمن، أو على متنه الأسود، مثلما أفكّر في هذا الصبي، وأتأمّله، وأنا على علم أكثر ممّا لن يعلمه أبداً عن هذه الليلة. أنا ينبغي لي أن أكون هذا: قفا الزمن ومتنه الأسود".

أفقتُ من حلم اليقظة، ورجعتْ إليّ العجلة، وتنحّيتُ عن العتبة، ودنوتُ من المدخل، ونظرتُ مرّة أخرى بخوف إلى ما حولي نظرة لا هدف لها، ولبست القفّازين الأسودين، وفتحت باب البيت بحذر كبير، كما يُفتَح كل باب في الفجر، وإن لم يستيقظ أحد، خطوتُ خطوتَيْن، وخرجتُ إلى المصطبة، وأغلقتُ الباب ورائي بحرص مشابه. وبحثتُ عن المصعد من غير أن أشعل الضوء، وطلبتُه، فرأيتُ السهم الصاعد يُضاء، ووصل في الحال، فقد جاء من طابق قريب، ولم يكن أحد داخله، فلم ينتقل فيه أحد، ولم أجعله يصعد إلا وأنا راغب في ألا أجد فيه أحداً بالمصادفة، فالخوف يبعث على الإيمان بأشدّ الأحداث بعداً عن التصديق. فدخلتُ، وضغطتُ زرّاً آخر، فهبطتُ بسرعة فائقة، وقبل أن أفتح باب الطابق الأرضي، لبثتُ ساكناً للحظة محاولاً التّنصّت لسماع شيء ما خشية أن ألقى أحداً عند

الباب الخارجي، وخشية أن يكون البوّاب أرِقاً، أو أن يكون أفاق باكراً جدّاً. فلم أسمع شيئاً، ودفعتُ الباب، وخرجتُ، كانت البوّابة معتمة، فخطوتُ ثلاث خطوات، أو أربعاً نحو الباب المطلّ على الشارع الذي سيُخرجني من هنا إخراجاً كاملاً، فرأيتُ حينئذ شخصين، لمّا يدخلا، كانا يودّعان بعضهما، أو يتجادلان في الخارج، كانا رجلاً وامرأة، الرجل في الخامسة والثلاثين من عمره والمرأة في الخامسة والعشرين. ولربّما كانا عاشقين؛ ولمّا سمعا خطواتي على الرخام - خطوة واحدة، ثمّ خطوتَيْن، فثلاثاً، أو أربعاً - أمسكا عن الكلام، والتفتا، فرأياني؛ ولم أرَ بدّاً من إشعال الضوء، ثمّ البحث عن الزرّ الذي سيفتح لي الباب آلياً. ورسمتُ دائرة بيَدَي، وهما في جيبَي معطفَي على شكل إشارة استفهام خفيّة (وقد طارت أطراف المعطف في الهواء)، لأني لم أهتدِ إلى موضع الزرّ. فحرّكت المرأة، وهي جارة البيت لا ريب، سبّابتها، وهي في القفاز البيج عبر البلّور مشيرة صوب الجهة اليسرى قرب الباب بالضبط، كانت ما تزال غير راغبة في الفراق، وإنما متابعة الوداع أو الجدال، ولم تكن على استعداد لاستعمال مفتاحها لمساعدتي ولقائي خشية أن يُرغمها ذلك على إنهاء القُبل، أو الكلمات الجارحة. كم أتى عليهما من الوقت هنا بينا كنتُ أنا فوق؟ ضغطتُ الزرّ، فتنحّيا إلى جانب مفسحَيْن لي الطريق، لأمرّ. "طاب ليلكما!" قلتُ لهما، فأجاباني بالصيغة ذاتها، أو على الأصحّ، أجابت هي باسمة، في حين تجلّى الخوف على وجه الرجل الذي لم يُجب بشيء. رجل وامرأة جميلان، ربّما نشبت بينهما مشاكل حتّى يظلّا في البرد من غير أن يفترقا. لاحظتُ ذلك فوراً، لمّا صفعني البرد على وجهي، وكأنّه كشف أو تذكير، كشف لحياتي وتذكير بعالمي اللّذيْن لم يكونا على صلة البتّة بمارتا، ولا بذلك البيت. وكان ينبغي لي أن أتابع حياتي - وكأنّما هبط ذلك عليّ كالإلهام - والاهتمام بأشياء أخرى. نظرتُ إلى فوق من الشارع، وحدّدتُ بالضوء أيّ

طابق خلّفتُه ورائي منذ قليل - الطابق الخامس - وشرعتُ في السير نحو شارع الملكة فيكتوريا. وبينا كنتُ أبتعد، أُتيح لي الوقت، لأسمع جملتَيْن من ذلك الثنائي الذي استأنف المحادثة التي قطعتها خطواتي المسمومة، "انظري، أنا أصبحت لا أطيق"، قال هو، فأجابته من غير توقّف: "إذاً، اذهبْ، عليكَ الخرء"، لكنه لم يذهب، لأني لم أسمع وقع خطاه خلف خطاي فوراً. وأخذتُ أبتعد عن كونده ديلاثيميرا على عجل، كان ينبغي لي أن أجد سيّارة أجرة، فقد كان يسود قليل من ضباب، وحركة السير تكاد لا تُلحَظ، حتّى ولا في شارع الملكة فيكتوريا العريض الذي يحتوي على جادّة في وسطه، وفي الجادّة كشك للمشروبات، وتمثال مفزع ذو رأس ضخم مشوّه للشاعر الكبير أليسّاندره الذي قطن قريباً من هنا. وتذكّرتُ فوراً أني لم أتثبّت، إن كانت النوافذ والأبواب المؤدّية إلى السطيحة قد أُغلقت في بيت مارتا، وفكّرتُ: "وإذا ما سقط الطفل؟". "فلأثقلْ على روحكَ غداً، وليسقط سيفكَ المفلول". لكني أصبحتُ لا أستطيع صنع شيء، ولا أن أعود إلى تلك الشّقّة التي أحسستُ أني مسؤول عنها وسيّدهَا لمدّة ضئيلة، وكل شيء يبدو لنا ضئيلاً ما إن ينقضي. وليس بمستطاعي أن أهتف، فلن يجيب أحد، ولا المسجّل الآلي أيضاً، فشريطه معي، بل في جيب سترتي. نظرتُ إلى هذا الجانب وذاك من الجادّة وسط الليل الأصفر المحمرّ، ومرّت عربتان، وشككتُ في أن أمكث منتظراً، أو أبحث عن شارع آخر، فتوغّلتُ في شارع الجنرال رودريغو، والضباب لا يُغري بالسير، ونفسي كان ينعقد بخاراً. وضعتُ يدي في جيبَي البنطال، وأخرجتُ من إحداهما شيئاً ما، لم أتعرّف إليه باللّمس فوراً، كما تُعرَف الأشياء الخاصّة بالمرء: كان قطعة قماش هي حاملة ثديَيْن أصغر ممّا ينبغي لها أن تكون، ألقيتُ بها في الجيب من غير تفكير، لمّا تبعتُ الصبي إلى حجرته بعد مجيئه إلى المخدع، وحفظتها كيلا يراها. وضعتُ النسيج الأبيض المجعّد على

قفازي الأسود، وشممتُه وسط الشارع. كانت له رائحة ماء الكولونيا الجيّدة، يخالطها شيء من الحموضة. تبقى رائحة الأموات حين لا يبقى منهم شيء. تظلّ ما ظلّت أجسادهم، وبعد ذلك أيضاً، بعد زوالها عن مجال البصر، وبعد دفنهم وغيابهم، تظلّ عابقة ببيوتهم التي لا تُهوّى، وبثيابهم التي أصبحت لا تُغسَل، لأنها صارت لا تتّسخ، ولأنها تؤول إلى مستودعاتها. تبقى عابقة بالبرنس، وبالشال، وبالملاءات والثياب التي تظلّ أيّاماً وأحياناً شهوراً وأسابيع وسنين معلّقة بمشاجبها الساكنة الغافلة، منتظرة عَبَثَاً أن تُرفَع مرّة أخرى، وتحتكّ مرّة أخرى بالجسد البشري الوحيد الذي عرفتْه، وأخلصتْ له. كانت هذه الأشياء الثلاثة ما بقي لي من زيارتي المميتة: الرائحة وحاملة الثديَيْن والشريط بالأصوات المسجّلة عليه. ألقيتُ نظرة على ما حولي. كان ليل الشتاء مضاءً بمصابيح شتّى، والكشك غارقاً في الظلمة وعنق الشاعر خلف ظهري، وقد خلا الشارع من العربات والمارّة، وكان البرد مواتياً لي.

عرفتُ إدوارد وديئان بعد شهر من ذلك، وإن كنتُ رأيتُه من قبل، ليس بشاربين في الصورة، وفي بيته ذاته فقط، وإنما رأيتُه أيضاً من غير شاربين، وبشخصه، وفي المقبرة، وجه يمكن تذكّره، ويبدو أقلّ شباباً. لم يكن تعارفنا محض مصادفة تماماً، ولم يكن محض مصادفة أن أحضر الدفن الذي علمتُ به من الصحف. آه! قضيتُ يومين منتظراً صدورها عند الفجر، متصفّحاً مجّلات بانتظار أن تصل بعد منتصف الليل رزمُ الصحف بالطبعة الأولى، وأنظر مليّاً إلى العامل الذي يقصّ الشريط البلاستيكي المسطّح الذي رُبطت به، وأكون أوّل مَنْ يأخذ عدداً من الرزمة، وأدفع ثمنه في الصندوق. وأذهب، من ثمّ، إلى مقهى المجمّع التجاري، وأطلب كوكا - كولا، وأفتح الصحيفة مثاراً على صفحة الإعلانات المبوبة، حيث أخبار الولادة والطقس، والموتى وأعياد الميلاد والجوائز الصغرى، ومنح الشهادات الفخرية المضحكة (لا يوجد مَنْ يقاوم إغراء القبّعة ذات الأهداب) ونتائج اليانصيب والشطرنج والكلمات المتقاطعة، حتّى تسلية أخرى تُدعى الكلمة المفقودة، وخاصّة ذلك القسم المعنون: "موتى مدريد"، وهو قائمة أبجدية، تتضمّن الأسماء كاملة (الاسم الأوّل وكنيتين)، يضاف إليها رَقْم واحد فقط، وهو الرَّقْم الدّالّ على العمر، لمّا انقضى الأجل، عمر استقرّ عنده الموتى، ومكتوب بحرف صغير، وهو الظهور الأوّل والهزيل والأخير لمعظمهم مطبوعاً، وكأنّ اسماً وعمراً مشؤوماً لم يكونا فوق ذلك، شيئاً مذكوراً. هي قائمة طويلة إلى حدٍّ ما، لم أقرأها

من قبلُ قطّ، وتضمّ أسماء ستّين شخصاً متقدّمين في السّنّ بعامّة، وهذا يبعث على العزاء قليلاً. فالناس يعيشون عمراً مديداً: 74، 90، 60، 62، 80، 65، 81، 80، 84، 66، 91، 92، 95، والتسعينيون هم من النساء دائماً تقريباً، فعدد النساء اللاتي يمتنَ يومياً، يقلّ عن عدد الرجال، أو هكذا يظهر من السجلّ. في اليوم الأوّل، كان ثلاثة أموات تقلّ أعمارهم عن الخامسة والأربعين، وكلّهم ذكور، وواحد منهم أجنبي يُدعى رينهولد مولر، ماذا عساه حدث له؟ ولم تكن مارتا بينهم، وبالتالي هي لم تُكتشَف بعد، أو أن الإعلان عن موتها، لمّا يصلْ عند الإقفال، لأن الصحف تتوقّف عن مهامها أبكر ممّا يُظن. في ذلك الحين، كانت مضت عشرون ساعة على مغادرتي الشقة، ولو حضر أحد ما في الغداة، لكان لديه فسحة من الوقت، كي يستدعي طبيباً، ليكتب شهادة الوفاة، وكيما يُعلم ديئان في لندن، ليعود، فكل التسهيلات تُقدَّم في أثناء الكوارث والحالات الطارئة، فإذا توسّل أحد أمام حاجز شركة طيران، وقال: "ماتت زوجي، وتركتُ ابني وحيداً"، فسوف تؤمّن له هذه الشركة بلا ريب مقعداً في رحلة الطيران التالية، كيلا تُوصَم بضعف الإدراك. لكن شيئاً من هذا لم يحدث، لأن اسم مارتا تييّث بالكنية الثانية وسنّها عند الموت 33، 35، 32؟ - لم يردا في القائمة. لعلّ التّأثّر والحزن لم يتيحا لأحد تذكُّر القيام بالإجراءات اللازمة. لكن الطبيب يُستدعَى دائماً، ليشهد على ما يفكّرون فيه جميعاً، ويؤكّده (وليُثبت صحّته بيده الفاترة والمنزّهة عن الخطأ، وتعرف الموت، وتمُيِّزه)، تؤكّد ما فكّرتُ فيه، وعلمته، لمّا احتضنتُ مارتا من الخلف. وإذا كنتُ مخطئاً، ولم تمتْ؟ فأنا لستُ طبيباً. وإذا كانت فقدت الوعي فقط، ثمّ استردّته صباحاً، وتابعت حياتها على شكل طبيعي، فترسل الطفل إلى الحضانة، وتنصرف هي إلى شؤونها، وتُلقي حضوري الليلي إلى مجال الأمور التافهة والأحلام السّيّئة، فترفع كل شيء، وتبدّل الأغطية حتّى وإن لم

أبلغ فأتدثّر بها؟ ما أطرف الفكر وهو يقترف المحال! ما أطرفه وهو يسمح به مؤقّتاً! ما أطرفه وهو ينسج الأوهام، أو يتّجه صوب التّطيّر، ليستريح قليلاً، أو يجد سلوى! وما أعظم قدرته على نَفْي الوقائع وجَعْل الزمن يرجع القهقرى، ولو للحظة واحدة! وما أشبهه بالحلم!

كانت الساعة الواحدة في المجمّع التجاري، كان ما يزال فيه خَلْق كثير يتعشّون ويبتاعون، أمّا في إنكلترا، فالتوقيت ينقص عن هنا ساعة واحدة دائماً. فنهضتُ وقصدتُ الهاتف الذي كان يعمل لحسن الحظّ بالبطاقة، وكان معي بطاقة، فأخرجتُ من حقيبتي ورقة، كُتب عليها رَقْم فندق ويلبراهام، ولمّا سمعتُ صوت البوّاب (الصوت ذاته، واضح أن نوبته ليلية) سألتُه عن السّيّد بيّستيّروس. لم يتردّد الصوت، وقال:

- لا تغلق الخطّ، من فضلكَ.

ولم يسألني إن كنتُ أعرف رَقْم الغرفة، ولا شيئاً من هذا، وإنما أضاف الرَّقْم وكأنّه مُوجَّه إلى أعماقه، أو كأنّه يُضيء أفعاله وأفكاره (بيّستيّروس - الغرفة الثانية والخمسون، هيّا نرَ)، قال ولفظ الكنية بليّستيروس بحرف اللام. وسرعان ما سمعتُ صوت النداء الداخلي الذي صدمني بالمفاجأة، فلم أكن أعددتُ نفسي لذلك، ولا بالتالي، لسماع الصوت الجديد الذي قال: (نعم!) أو على الأصحّ، لم يقل هذا، وإنما ما يعادله بالإنكليزية. لم تُتِحْ لي هذه الكلمة أن أعرفِ إن كان الصوت إسبانياً أم بريطانياً (أو أنّ النبرة كانت حسنة في الحالة الأولى)، لأني أغلقتُ الخط، ما إن سمعتُه وفكّرتُ. "العمى! هذا الرجل ما يزال في إنكلترا، فلربّما لم يعلم شيئاً، لكن أي شخص جاء البيت لصنع عين ما صنعتُه، لبحث عن عنوان ديئان ورَقْمه في لندن، ولوجدهما، وبالتالي كان صار على علم. إذاً، هو ما يزال يجهل ما حدث، اللهم إلا إذا كان أخذ الأمر بهدوء كبير. فإذا كان الطفل

بين أيدٍ أمينة، فيُحتمل أن يكون عزم على الطيران غداً. لا، لا شك أنه لم يعلم، أو ربمّا أُعلم منذ عهد قريب جدّاً، وصار اليوم لا يستطيع صنع شيء، وربمّا ما يزال يبكي في غرفته في فندق أجنبي، ولن يتمتّع هذه الليلة بالنوم". "اسمع، أسوف تهتف مرّة أخرى؟" والتفتُّ، فوجدتُ فرداً ذا أسنان طويلة (وبذلك لا يستطيع أن يُطبق فمه مطلقاً) وحسن الهندام على شكل تقليدي، ويرتدي معطفاً من جلد الجمل، وكانت لهجته سوقية، كما يحدث عادة في مثل هذه الحالات. فسحبتُ بطاقتي، وتنحّيتُ جانباً، وعدتُ إلى منضدتي، ودفعتُ ثمن الكوكا كولا، وخرجتُ. كان ذلك لمّا عدتُ بسيّارة أجرة إلى كونده ديلاثيميرا. لم تدم زيارتي طويلاً، لكنها كانت أطول ممّا حسبتُه في البداية، وقلتُ لسائق العربة أن ينتظر، ونزلتُ مخمّناً أني سألبث لحظة واحدة، ووقفتُ إلى جانب العربة، ونظرت إلى فوق، فلم أشعر بالراحة، لأن الأضواء التي تركتها مشعلة ما تزال على وضعها، وإن كان يصعب أن أتذكّر أنها هي ذاتها بالضبط، أم حدث فيها تغيير ما، فقد نظرتُ إليها نظرة عاجلة من موقعي، لمّا خرجتُ، فلم أحفظها في ذاكرتي، فقد كنتُ حينئذ طائش اللبّ وخائفاً ومتعباً، وإذا كانت هي ذاتها، فمن المرجّح جدّاً ألا يكون دخل أحد ذلك البيت ذاك النهار، وأن الجثّة ما تزال حيث هي تتفسّخ وهي شبه عارية تحت الغطاء، في الوضع ذاته الذي تركتُها فيه، أو ربمّا كُشِف الغطاء عنها، وزحزحها نفاد صبر الصبي، وعدم فهمه ويأسه. وفكّرتُ (كان ينبغي لي أن أغطّيَ وجهها، لكني ما كنتُ انتفعتُ شيئاً). والطفل ما يزال هو الآخر في البيت، وربمّا أكل كلّ ما وضعتُه في متناول يده، ولسوف يكون جائعاً. لكنْ، لا، فقد تركتُ له طعاماً كالخبيص، يكفي معدة صغيرة. ما كنتُ أعرف ماذا أصنع. كنتُ أقف هناك مرتدياً معطفي وقفّازيّ مرّة أخرى، وإلى جانبي سيّارة أجرة صامتة، عزم صاحبها على إيقاف محرّكها، لمّا رأى أن انتظاري لن

يكون جدّ قصير. كانت أضواء أخر مشعلة في البناء في ذلك الوقت، لكن بصري كان معلّقاً على أنوار الشقّة التي أعرفها وكأنّني أنظر من خلال منظار. كنتُ أشدّ قلقاً عمّا كنتُ عليه الليلة السابقة، أو عمّا كنتُ عليه، لمّا رحلتُ فجراً. كنتُ على علم بما حدث، وكان يبدو لي حماقة وسخفاً في آن واحد حدوث ما حدث، لأن ما يحدث لا يحدث حدوثاً تامّاً، إذا لم يُكتشَف، إذا لم يُذَع، إذا لم يُعلَم، وإلى أن يتمّ ذلك، يصبح ممكناً أن تتحوّل الوقائع إلى مجرّد فكرة، ومجرّد ذكرى، وتصبح ممكنةً رحلتُها البطيئة صوب اللاواقع البادئ لحظة حدوثها ذاتها؛ والعزاء عن عدم اليقين يعود إلى الماضي أيضاً. كل شيء كان منتظماً في الشارع الذي كان يسلكه فريق صغير من الطلاب السُّكارى، وقد احتكّ كتف أحدهم بي، ولم يعتذر، إنهم سوقيّون وسيّئو الهندام جدّاً. أمّا أنا، فكنتُ أنظر دائماً إلى فوقُ، أنظر صوب الطابق الخامس من البناء المكوّن من أربعة عشر طابقاً محاولاً أن أكشف معنى الضوء الذي يُرى خلف الستائر الشفيفة في السطيحة التي يُوصل إليها من الصالون، خلف الباب البلوري المغلق في الظاهر، لكنْ، من المحال أن أعرف من موقعي هنا إن كان مغلقاً حقّاً أو أنه موارب حقّاً.

- لِمَ لا تطلبه بالهاتف الداخلي، كيما ينزل؟

سائق السّيّارة يفترض أني جئتُ لأصطحب أحداً ما، وها هو قد فرغ صبره، وقلتُ له ألا يستسلم للضجر، وإنما هي لحظة.

- لا، نحن في وقت متأخّر جدّاً، والناس نيام - قلتُ - فإذا لم ينزل خلال خمس دقائق فهذا يعني أنه لن ينزل. فلننتظر شيئاً قليلاً أيضاً.

وكنتُ أعلم أنْ لن ينزل أحد كائناً مَنْ كان الفرد المزعوم في تلكما الجملتَيْن جملة سائق السّيّارة وجملتي أيضاً. فالشخص، حسب جملة

السائق، سيكون أنثى بلا ريب، أمّا الشخص الذي أعنيه في جملتي، فهو بلا جنس، وهو خيال محض حتّى ولو تمثّل فتاة قاصراً أو عاهرة، أحداً ما يرتبط بالآخرين، ولا توجد ضمانة بأن ينزل أبداً. لن تنزل مارتا، ولن ينزل الصبي. لم يكن لديّ فكرة صحيحة حقّاً عن اتّجاه الغرف (ولا يمكن معرفتها تقريباً من خارج البيوت)، لكنني أخمّن أن مخدع مارتا يتناظر والنافذة الواقعة على يمين السطيحة، إذا نُظر إليها من موقعي. وهي مضاءة أيضاً، كما تركتُها. وإذا كان كذلك، فكل شيء ظلّ على وضعه في الظاهر. وشغّل سائق العربة المحرّك فجأة، والتفتُّ ناظراً إليه. لقد رأى قبل أن أرى أحداً يخرج من الباب الرئيس، وكانت تفصلني عنه خطوات، ليست قليلة، أو ربّما لم يكن نصب عينَي، وعدّ السائق الأمر محسوماً، وأن الفتاة التي ظهرت هي الشخص المنتظَر. لا، ليست كذلك، وإنما كانت الشّابّة ذاتها التي كنتُ لقيتُها في وقت متأخّر جدّاً، ولم تشأ أن تستعمل المفتاح، لتساعدني. والآن أراها على شكل أمثل، لأني أراها من بعيد، وبلا مرافق، كان شعرها وعيناها كستنائيّة اللّون، وكانت تُطوّق عنقها بعقد من الدّرّ، وتنتعل حذاءً ذا كعبٍ عالٍ، وتلبس جوربين أسودين، كانت تسير بلطف، لكنها كانت تشعر بشيء من الضيق يقيناً، بسبب التّنّورة القصيرة والضّيّقة التي استطعتُ رؤيتها تحت معطفها الجلدي المفتوح، يبدو أن من عادتها أن تُلقي بطرفي قَدَمَيها إلى الخارج، فكانت تمشي كأنّها مدفوعة بقوّة نابذة ضعيفة. نظرتُ صوب السّيّارة، ونظرتْ هي صوبي، وأومأتْ برأسها إيماءة شكر خفيفة، بدت إيماءة بالموافقة، وعبرت الشارع، وأخرجتْ من الحقيبة - من غير أن تخلع القفاز البيج الذي لا ينسجم والمعطف - مفتاحاً، فتحت به باب العربة الواقفة هناك، ورأيتُها تُلقي بالحقيبة على المقعد الخلفي، ودخلت العربة (كانت تحمل الحقيبة بيدها كأنّها محفظة). امرأة سائقة، تكشف عن ساقيها للحظة مثل سائقات السّيّارات كلهنّ، ثمّ أطبقت

الباب، وأنزلت زجاج النافذة الصغيرة. أطفأ سائق سيّارة الأجرة المحرّك مرّة أخرى وأنزل بلور نافذته آلياً، كي يدقّق النظر في الشّابّة على شكل أفضل. شغّلت هي محرّك سيّارتها، وبمؤخر طرفي رأيتُها تناور بالمقود باذلة جهداً. رأيتُها تطلّ بوجهها إن كان يمكن أن ترتطم عند خروجها بالعربة التي أمامها؛ ما كانت تراها، وهكذا أشرتُ إليها بيدي مرّتَيْن وكأنّي أقول لها: "نعم، نعم، اخرجي اخرجي!" وخرجت العربة، ولمّا مرّت من أمامي، ابتسمت لي، وأجابتني بحركة أخرى من يدها هي في منتصف المسافة بين "وداعاً" و"شكراً". كانت امرأة حسناء، وما كانت تبدو متعجرفة، وربّما لم تكن هي مَنْ يملك مفتاح ذلك البيت، وإنما الرجل الذي أرسلت به إلى الخرء بمسمع منّي، ولعلّها صعدت معه إلى شقّته بعد الجدال عند الباب، ولم تخرج حتّى بعد عشرين ساعة، حتّى تلك اللحظة التي لقيتني فيها في المكان عينه، وكأنّي لم أتزحزح خلال هذه الساعات العشرين الطويلة التي بدّدتْها عَبَثاً بالكلمات والقُبل، وخلال ساعاتها الأخرى التي قضتها في أحلام مضنية ضائعة. - إني وإن كنتُ الآن خارج البناء، وفي وضع انتظار مع سيّارة أجرة تحت إمرتي، فلم أستطع أن أعرف إن كانت تلبس الثوب ذاته، لأني لم أرَ الليلة الفائتة غير قفّازيها.

كان ذلك كله لمّا رفعتُ بصري إلى فوق، أوّلاً صوب نافذة المخدع، ثمّ صوب السطيحة، ثمّ صوب النافذة مرّة أخرى، لأني رأيتُ بانعكاس النور خلف ستائر هذه النافذة الشفيفة صورة امرأة، تخلع كنزة، أو قميص نوم، كانت تخلع شيئاً من فوق رأسها، لأني لحظة نظرتُ إليها، رأيتُها ترفع يديها إلى مستوى أضلاعها متصالبتَيْن معها، وكانت تشدّ بالقميص إلى فوق حتّى خلعته بحركة واحدة - ولمحتُ إبطيها مدى ثانية واحدة - بشكل ظلّ الكمّان المقلوبان على الذراعين أو ناشبين بالمعصمين. وظلّت صورتها على هذا الشكل ثواني معدودات، وكأنّها متعبة من الجهد المبذول، أو

من العمل اليومي، أو بهيئة امرئ كئيب، لا يستطيع أن يكفّ عن التفكير، ويخلع ثيابه قطعة قطعة، ليفكّر، منطوياً على نفسه بين قطعة وأخرى، ويحتاج إلى أزمنة استراحة، أو كأنّها نظرت من هذه النافذة لمّا خلعت الكنزة قربها، فرأت شيئاً أو أحداً ما، ربّما رأتني والعربة خلفي، ثمّ شدّت كلا الكمين، وتخلّصت منهما، ودارت نصف دورة، وابتعدت بضع خطوات، تكفي حتّى لا يكون بمستطاعي رؤيتها، وإن حسبتُ أني ميّزتُ ظلها المشوّه وهي تطوي الثوب الذي كانت خلعته، ربّما لتبدّله فحسب آخر نظيفاً، ولا ينضح بالعَرَق؛ ثمّ أُطفئ الضوء؛ فإذا كانت هذه الحجرة هي المخدع، لربّما كان الضوء المطفأ الذي أعرفه ضوء المنضدة الليلية الصغيرة الذي فكّرتُ في أن أدعه مشعلاً - كنتُ أريد أن أرى أمامي - وظلّ على هذا الوضع حتّى بعد مسيري. لم أكن واثقاً تمام الثقة، لكني لمّا لمحتُ الشخص، شعرتُ بالراحة مقرونة بالفزع، لأن شخصاً موجود في البيت، ولربّما كان مارتا ذاتها، مارتا حَيّةً. لا يمكن له أن يكون مارتا، لكني سمحتُ لنفسي أن أفكّر فيها للحظة واحدة - وإذا لم يكن هو هي، فلِمَ كان في مخدعها؟ بل لِمَ يغيّر ثيابه هناك أو يخلعها وكأنّه سيأوي إلى الفراش؟ وأين مارتا؟ أين جثمانها؟ ربّما نُقل إلى حجرة أخرى، للسهر عليه، أو أُخرِجَ من البيت، ونُقل إلى ما يُسمّى غرفة الموتى. وظلّت في حجرتها إحدى صديقاتها أو إحدى بنات حميّها، أو أخت لها، لتحول بين الطفل وبين أن يبيت ليلة أخرى وحيداً ريثما يعود ديئان في اليوم التالي، وكيف أمكن لديئان ألا يعود، إن علم بالأمر؟ لكنّ إحساساً أكبر كان يساورني بأنّ الطفل نُقل إلى جهة أخرى: ماذا عساهم قالوا له؟ لربّما طلبت خالاته منه أن يصطبر، ولربّما خدعنَه (ماما سافرت بالطائرة). (ولسوف ينظر الطفل بطريقة مختلفة حتّى الأبد إلى طائراته المصغّرة، حتّى الأبد، أي: حتّى ينسى). ما وراء السطيحة، ظلّ كل شيء كما كان. نعم، أنا على ثقة بأن هذا الضوء ضوء البيت، ضوء

غرفة المعيشة أو الصالون، حيث تناولنا العشاء، وحيث شاهد الطفل تانتان وهدّوك في الفيديو منذ أربع وعشرين ساعة فقط حسب جريان الزمن في السّاعات. وما كان يلائمني البقاء هنا مدّة طويلة.

- ماذا؟ أتذهب؟ مكتبة t.me/ktabrwaya

لا أدري لما قلتُ لسائق السّيّارة:

- نعم، سنذهب. لن ينزل. لقد نام.

- لم يحالفكَ حسن الحظّ - قال هو متفهّماً. - وما أدراه بحسن الحظّ في هذه الحالة!

عدتُ إلى بيتي مصطحباً الصحيفة أوّل ظهورها، ولم أنم. أما الليلة الفائتة، فقد نمتُ ما إن وصلتُ مستسلماً لحاجتي إلى النسيان المؤقّت الذي كان أقوى من قلقي الغائب والحاضر، وأقوى من انشغال ذهني بالطّفل. كنتُ انصرفت من هناك، وقد أصبحتُ لا أستطيع صنع شيء (أراني كنتُ عزمتُ على ألا أصنع شيئاً عند انصرافي)، ونمتُ ثماني ساعات متواصلات، حتّى لا أذكر أني حلمتُ حلماً. لكنّ أوّل تفكير جال في ذهني، لمّا استيقظتُ، على شكل بسيط لا يُخطئ كان الطفل، ذلك أنّا نفكّر في الأحياء أكثر ممّا نفكّر في الأموات، وإن كنّا لا نكاد نعرف الأحياء، والأمواتُ كانوا حياتنا حتّى شهر خلا، أو حتّى أوّل أمس، أو هذه الليلة (لكن مارتا تييّث لم تكن حياتي، ربمّا كانت حياة ديئان). أمّا الآن، فعلى العكس من ذلك، لأنّ اطمئناني النسبي لاعتقادي بوجود شخصية نسوية، تقوم بشؤون الشقّة، جعلني أحسّ بأني خَليّ وعاجز عن التفكير في أيّ شيء آخر، فأتسلّى بكُتُبي، أو أشاهد التلفاز والفيديو، أو أعود إلى عملي المتراكم، أو إلى أسطواناتي. كل شيء كان معلّقاً، لكني ما كنتُ

أدري إلى متى، أو بماذا يرتبط استئناف ذلك كله: كنتُ مهتماً بأن أعرف على عجل، إن كان اكتُشف جثمان مارتا، وإن كان الصبي بمنجى، ولا شيء آخر في البداية، ففضولي ما كان له وجود خارج هذا المجال حينئذ. ومع ذلك، كنتُ أستشعر إنْ تحقّق ذلك، أني لن أستطيع أيضاً استئناف أيّامي ونشاطي من غير عائق، وكأنّ الرابطة التي تربطني بمارتا لم تنقطع قطّ، أو أنها ستُبطئ زمناً طويلاً حتّى تنقطع. وكنتُ أجهل أيضاً السبيل إلى إدامتها، فهي أصبحت لا تملك من أمرها شيئاً، ولا يمكن إقامة صلة مع الأموات. هناك فعل بالإنكليزيةto haunt، وفعل بالفرنسية hanter قريبان جدّاً، ولا يمكن ترجمتهما يدلان على ما تصنعه الأشباح بالأماكن والأشخاص الذين تتردّد عليهم، وتتربّص بهم، وتزورهم. والفعل يمكن أن يعني حسب السياق: سَحَرَ encantar بالمعنى الذي تشير به الكلمة إلى الجنّ، بمعنى "السِّحْر"، والاشتقاق هنا غير وثيق، لكن كلا الفعلين جاء كما يبدو، من فعلين آخرين بالأنغلوسكسونية والفرنسية القديمة، يعنيان: قطن، سكن، أقام إقامة دائمة (والمعاجم تسرّي عن النفس، كما الخرائط). ولعلّ الرابطة تقتصر على هذا، على ضرب من السِّحْر W، إذا نُظر إليه جيّداً لن يكون شيئاً آخر سوى إدامة للذكرى، شيء تلوذ به الوقائع والأشخاص، وتتجلّى على شكل مبهم، فلا تنقطع انقطاعاً تامّاً، ولا تنقضي انقضاء تامّاً، ولا تهجرنا هجراناً مطلقاً قطّ، وبدءاً من لحظة معيّنة تقطن، أو تسكن رأسنا في اليقظة وفي النوم، وتظلّ مقيمة فيه، لعدم وجود أمكنة أكثر راحة، مناضلة في مواجهة ذوبانها، وراغبة في أن تتجسّد في الشيء الوحيد الذي بقي لها كيما تحافظ على فعاليتها ووجودها، ألا وهو تكرار ما صنعته ذات مرّة، أو ما حدث ذات يوم أو انعكاسه انعكاساً لا حدود له، لا حدود له: لكنه يزداد كل مرّة تعباً وضعفاً. وأنا تحوّلتُ إلى ما يشبه الخيط.

شغّلتُ المسجّل الآلي، وسمعتُ رسالتَيْن سخيفتَيْن أو عاديتَيْن،

إحداهما ممّنْ كانت زوجي إلى عهد قريب، وأخرى من ممثّل لا يُطاق، عملت معه مرّات عدّة (أنا كاتب سينمائي، لكني انتهيتُ إلى كتابة مسلسلات تلفزيونية على شكل دائم تقريباً: معظمها لا يُخرَج، فهي مهمّة عابثة، لكن يُدفَع لي أجرها، بنوع من التبذير). وكان ذلك لمّا تذكّرتُ شريط مارتا. وإذا كنتُ لم أتذكّره حتّى ذلك الحين، فذلك أني لم آخذه بسبب من الطيش والفضول، ولا لأسمعه، وإنما كيلا يوضع الرجل الطاغية والمدِّل الذي سمعتُ رسالته مباشرة، في قائمة المشبوهين. مشبوهون بماذا؟ بشيء غير خطير في الواقع، حتّى إني لم أضاجعها ساعة موتها، ولا قبل ذلك، ولا بعده أيضاً. أنا لم أصنع ذلك، ولم يصنعه أحد حسب علمي. كان الشريط بمقياس الشريط الذي أستعمله. وهكذا صار بإمكاني أن أسمعه. أخرجتُ شريطي، ووضعتُ شريطها، وأعدتُ لفّه حتّى البداية، وشغّلتُهُ. أوّل ما طالعني كان صوت ذلك الرجل مرّة أخرى. "ارفعي السمّاعة، يا خرء"، الصوت الذي يحلق ويعذّب "أأنتِ حمقاء؟ أم ماذا؟ لِمَ لا تجيبين؟"، كان صوتاً واثقاً بأنه يستطيع أن يسمح لنفسه بأن يقول لمارتا: "أنتِ امرأة غير منظّمة"، ثمّ طلعتْ بعد الصفرة رسالتان أخريان كلتاهما كانت بالضرورة من وقت سابق، وبالتالي سمعتْهما مارتا. الرسالة الأولى ناقصة، فقد محت القسم الأوّل منها كلمات الرجل "... لا شيء"، بدأ صوت المرأة قائلاً، "اهتفي لي غداً من كل بدّ، وقصّي عليّ كل شيء من الألف إلى الياء. انطباعي عن الرجل ليس سيّئاً. الحقيقة لا أعرف من أين لك هذه الجرأة. لكن، فليكنْ ما يكون. حسن! إلى اللقاء، وأتمنّى لك حظاً جيّداً". ثمّ طلع صوت رجل، رجل كبير في السّنّ وساخر، ساخر من نفسه ذاتها، وقال: "مارتا، قولي لإدواردو خطأ أن يقول: رسالة mensaje، بل ينبغي له أن يقول: خطاب recado، حسن! هو ليس رجل أدب، هذا ما نعلمه منذ اليوم الأوّل، ولا هو متحذلق مثلي. اهتفي لي. عندي خبر

طيّب لك. هو ليس بهذه الأهمّيّة الكبيرة، فلا تنسجي أوهاماً، لكن كل شيء يبدو ضخماً في وجود هشّ كوجودي، يالبؤسي!" لِمْ يودّع، ولم يقل مَنْ هو، وكأنّه ليس بحاجة إلى ذلك، ربمّا كان أباً، أباً لديئان أو أباً لمارتا، كان أحداً ما يبحث عن حجج للاتّصال بالهاتف، حتّى بأقربائه الأدنين، كان رجلاً طاعناً في السّنّ، وخليّ البال إلى حدٍّ ما، قضى بعضاً من شبابه في إيطاليا، أو ربمّا كان مُولَعاً بالأوبرا، ويخشى أن يبدو ملحاحاً. ثمّ سمعتُ: "مارتا، أنا فِرّان: علمتُ أن إدواردو سافر اليوم إلى لندن، لكنّي تنبّهتُ منذ قليل إلى أنه لم يُبلغني برَقْم الهاتف، ولا بعنوانه، ولا بشيء، أنا لا أفهم ذلك، فقد قلتُ له ألا ينسى فيتركها لي، لا تستقيم الأمور بأن يسير من غير أن يحدّد مكانه. أرجو أن تكون بحوزتكِ، أو قولي له إذا اتّصلتِ به أن يهتف لي فوراً إلى المكتب أو إلى البيت. أمر عاجل، وشكراً". هذا الصوت كان حيادياً، وفيه شيء من نبرة كاتالونية متلاشية، هو زميل عمل، اختلط عنده التعامل المتواصل بصداقة وثقة ربمّا غير موجودتين. لا أتذكّر أن مارتا نقلت هذا الخطاب إلى ديئان، لمّا كلّمته خلال عشائنا، لكني لم أصغ أيضاً إصغاءً كبيراً. ثمّ طلعتْ بعد ذلك رسالة ناقصة لم أسمع غير نهايتها، وهذا يعني أنها رسالة قديمة، أي لا تعود إلى ذلك النهار، أو على الأقلّ، إلى ذلك القسم من النهار الذي كانت مارتا فيه غائبة، وتَلْفَنَتْ لها خلاله صديقة أو أخت، أب أو حم، وزميل زوجها في العمل. "... هكذا سنصنع ما يقال لنا، ما يُراد منّا. القرار لكم". بهذا اختتم صوت المرأة. وبدا لي أنه يمكن أن يكون ذات الصوت السابق الذي أبدى عجبه من جراءة مارتا، كان من الصعب معرفة ذلك، بالحَريّ، لا نعرف إن كان ما يقول موجَّهاً لديئان أم لمارتا: "القرار لكم أنتم". ثمّ طلعت رسالة أخرى غير كاملة تعود بالتالي إلى فترة أخرى أقدم من سابقتها، كان يتكلم من خلالها صوت رجل حيادي على شكل زائف، أي أنه يتصنّع الجدّ والدماثة واللامبالاة

تقريباً، وكأنّما يريد أن يبدو اتّصالاً مهنياً ما هو بلا ريب اتّصال شخصي وحتّى غرامي انتهى إلى القول: "... إن ناسبكِ ذلك جيّداً، نستطيع اللقاء الاثنين أو الثلاثاء. وإمّا لا، فينبغي لنا تأجيله إلى أسبوع آخر، فمنذ الأربعاء، سأكون مشغولاً، آخر الأمر، لا داعي لأيّة عجلة، وهكذا تقولين لي ما يناسبكِ حقّاً على أفضل وجه، وداعاً!" ذلك الصوت كان صوتي، وهذا ما كنتُ أصنعه منذ أيّام عدّة، لمّا كنتُ ما أزال غير واثق بأنّي سأتعشّى ومارتا، ونلتقي للمرّة الثالثة بعد "الدردشة" وقوفاً في حفلة كوكتيل، وقُدّمنا لبعضنا، ثمّ دعوة لفنجان قهوة، تناولناه بعد أيّام من ذلك تحت غطاء من الحجج الواهية؛ تبدو كل مغازلة تافهة، إذا نُظر إليها من الخارج، أو إذا تُذكِّرَتْ، هي مضاربة مشتركة متّفق عليها، هي مجرّد مسعى، كلّف القيام به جهداً، وهي غطاء اجتماعي لما هو غريزة. ولعلّ ذلك الفردَ الذي كان يتكّلم ما كان يعلم حينئذ عمّا يسعى إليه، وماذا يريد، لكني لمّا تنصّتُ إليه الآن، وسمعتُ لهجته المُتكلّفة، ونرفزته المخمّدة - وهو الذي يعلم أن الرسالة قد تقع في يدي زوج، وفوق ذلك، يُعدّ التمويه فضيلة.، تجلّى لي بوضوح أنه كان يسعى إلى شيء ما حقّاً، فما أشدّ رياءه! وما أكبر نفاقه! فكل كلمة كانت كذبة، وصرتُ أحسب الآن أن هناك عجلةً في ذلك الصوت، ولم يكن صادقاً أنه سيكون "مشغولاً" منذ الأربعاء، وما أعجب أن استطاع قول كلمة كهذه الكلمة التي لم يستعملها قطّ، بل هي مفردة خاصّة بالممثّلين الكوميديين! وكذلك ما كان ليقول: وداعاً! وإنما إلى اللقاء! فلِمَ قال: وداعاً؟ كيلا يبدو لجوجاً في حين كان كذلك؛ نقيس أحياناً كل مفردة حسب نوايانا الخفية، وكلمة "حقّاً" جدّ مداهنة، وزائفة، مُداهَنَةٌ وقحة، يقوم بها من يريد أن يُغوي، ليس بالتّملّق فقط، وإنما بالاحترام واللامبالاة. أخافتني جملي القليلة الشفّافة أكثر ممّا أخافني صوتي، وانتابني الفزع، لمّا تذكُرتُ يوم أودعت هذه الرسالة التي أجبتُ

عنها في وقت لاحق، لمّا كان كل شيء، في الواقع، منظوراً متوقّعاً، اللّهم إلا ما حدث في نهاية الشوط، أو على الأصحّ، في منتصفه، فكل شيء ما خلا ذلك، كان مُتوقَّعاً، ومع ذلك، لم نكن نراه بعين الشعور. وفكّرتُ سريعاً أني ربّما أعربتُ عن اسمي وكنيتي في بداية الرسالة، أي، في القسم المَمحوّ منها، وهذا ما أصنعه دائماً. ثمّ تلاه كلمتا: "الاثنين والثلاثاء" فلربّما كان ديئان على علْمٍ بموعدنا، وربّما لهذا السبب، لم تذكره مارتا بالهاتف بحضوري، وربّما كان أمراً معلوماً، وليس مَخفياً، ولا هو مُلغى، وفي هذه الحالة، ربّما ذهبت كل حيطتي سدى، عداك عن أنها كانت ناقصة، ومن المرجّح جدّاً أن يبحث عنّي ديئان، ويعرف مكاني في يوم من هذه الأيّام، وقد يسألني بصراحة عمّا حدث، وكيف ماتت زوجه بحضوري. ربمّا كان الشيء الوحيد المَخفيّ عنه وغير مُعدّ مسبقاً أن يكون العشاء والموعد تمّا في بيته ذاته. أرجعتُ الشريط، وسمعتُه مرّة أخرى، فبدا لي مقرّزاً، واليوم حان ذلك الأربعاء، وأنا لستُ مشغولاً بشيء، وإنما أجلس في بيتي وحيداً، أتسلّى بمراجعة المعاجم، وبسماع الشريط. فيا للسخف! لكنني لا أملك فسحة من الوقت، كيما أشعر بالغيظ من نفسي، لأني ما لبثتُ أن تعرّفتُ في رسالة المسجّل التالية إلى صوت آلة الحلاقة، أو الصوت الكهربائي، سوى أنه يتوجّه هذه المرّة إلى ديئان، وليس إلى مارتا يقول: "مرحباً، إدواردو. هذا أنا. اسمع: لا تنتظراني حتّى تبدأا العشاء، فسوف أصل متأخّراً قليلاً، فقد أعاقتني أشياء، جلبتْها عليّ قصّة، تنطوي على شرّ، سوف أقصّها عليكما. على كل حال، آمل ألا أتأخّر إلى ما بعد الحادية عشرة، أرجو أن تبلغا إينيس بذلك، لم أنجح بلقائها، ولسوف تذهب إلى السينما فوراً، فلا تقلقا، اتركا لي شيئاً من لحم الخنزير. أسمعت؟ أترككما بخير، وإلى اللقاء". كان لدى ذلك الرجل دائماً شيء يقصّه، أو شيء مماثل "شيء معلن، وبالتالي مؤجّل. على الأغلب، كانت

مملّةً تلك الليلة - أي منذ ليالٍ خلت، و"قصّة تنطوي على شرٍّ" - ليلة كان فيها الزوجان أو كثير من الناس يتعشّون في مطعم لحماً جيّداً من فخذ الخنزير. كان صوته ما يزال صوت طاغية، وإن كان لا يُطلق الآن كلاماً بذيئاً، ولا مسبّات متتالية، بل كان مغيظاً. فقد قال: "هذا أنا"، وكأنّه معروف جدّاً حتّى لا يحتاج إلى أن يوضّح مَنْ هو هذا "الأنا"، وهذا دأبه يقيناً في البيت الذي هتف إليه، بيت صديق وبيت عشيقة، كان يوجّه الكلام إلى ديئان، ولكنه كان يوجّهه أيضاً إلى الاثنين كليهما، "سأقصّها عليكما"، "قولا لها"، "اتركا لي شيئاً من اللّحم"؛ لكنْ، لا ينبغي للمرء أن يعدّ هذا الأمر مفروغاً منه، مهما يكن واضحاً في أعين الآخرين، وفي عين ذاته. تعالى الصفير المناسب، ثمّ طلع صوت جديد قبل أن يتابع الشريط جريانه في صمت، ويجوب منطقته البكر - تتراصف الرسائل دائماً في القسم الأوّل، وتمحو بعضها بعضاً - ومع ذلك، ما كان ذلك الصوت يقول شيئاً سوى كلمة واحدة، ويبكي؛ كان صوت طفل أو امرأة رُدّت طفلة، كما هو حال الناس جميعاً، إذا بكوا، ولا يجدون بدّاً من البكاء حتّى يعجزوا عن النّطق أو التّنفّس تقريباً، إذا كانوا بصدد نحيب حادّ متواصل ظاهر، ويدخل في نزاع مع الكلمة، حتّى ومع التفكير، لأنه يعيقهما أو يطردهما أكثر ممّا يحلّ محلّهما - إنه يقيّدهما. وهذا صوت رسالة مؤلمة هي أقدم من الرسالة السابقة، لأنها كانت خلواً من القسم الأوّل أيضاً - بل أقدم من رسالتي المعسولة، ومن رسالة الرجل الطاغية ذي الصوت الشبيه بالزميم.، كانت تقول بين حين وآخر وسط البكاء أو الاندماج مع البكاء، وكأنّها نغمة من نغماته فقط: "... أرجوكَ... أرجوكَ.. أرجوكَ..." هذا ما كانت تردّده على شكلٍ مجنون، وليس كتوسّل حقيقي، يأمل بأن يُحدث أثراً، بل كتعزيمة، ككلمات طقسية ومتطيّرة، لا معنى لها سوى أنها تُنقذ وتزيل التهديد. انتابني الفزع مرّة أخرى، وكنتُ على وشك أن أُوقِفَ الشريط خشية أن

يُوقِظ هذا النحيب السٰفيه والخبيث تقريباً جيراني، وقد يُهرعون، ليروا أيّة فظاعة كنتُ أرتكبُها: وهذا ما لم يحدث، لمّا كنتُ عند مارتا. فلم يُقبل أيّ جار، لأنها لم تصرخ ولم تشكُ، ولم تتوسّل، ولا أنا ارتكبتُ أيّة فظاظة معها. لم تحتج الآلة إلى إيقافها، لأنه ما إن انقضت الدقيقة التي تحظى بها كل رسالة - ولا هي دقيقة كاملة - حتّى علت صفرة الفصل، وتابع الشريط جريانه كما قلتُ، حتّى أُصيب بالخرس. كان استنفد الصوت الباكي الصبياني الوقت المخصّص له، من غير أن يقول شيئاً آخر، ولم يُعد الاتّصال، ربّما لمعرفته أن المرسل إليه، ومسبّبَ عذابه، موجود هناك لا محالة، موجود في البيت قرب الهاتف، وهو يسمع النحيب، ولم يظفر بشيء سوى أنه ظلّ يسجّل عذابه الذي يستمع إليه الآن رجل مجهول.

عدتُ الليلة التالية إلى المجمّع التجاري الذي ترده الصحف بعيد منتصف الليل، وانتظرتُ دقائق، وهُرعتُ إلى شراء الصحيفة التي تحمل تاريخ اليوم الذي بدأ رسمياً في تلك الدقائق خاصّة في بريطانيا وإن كان التوقيت هنا حسب الساعات يتأخّر ساعة عن توقيتنا. لم أجرؤ على فتح الصحيفة واقفاً وسط جمع من الناس، وإنما لذتُ مرّة أخرى بالمقهى، وطلبتُ هذه المرّة (ويسكي)، ورحتُ أبحث عن قائمة الموتى: هي وإن كانت مرتّبة حسب الأحرف الأبجدية، فقد كان لي من رباطة الجأش ألا أنتقل إلى خاتمة القائمة، فأنظر في حرف T، وإنما بدأتُ القراءة من البداية، وبذلك حافظتُ مدى ثوان أُخرَ على الاحتضار والشك، أي الأمل بأن يظهر اسم مارتا أو لا يظهر؛ كنتُ أرغب في الشيئين معاً وفي آن واحد. أو أن رغبتي، إذا شئتُ، كانت موزّعة: فلو ظهر اسمها، لعلمتُ أنه عُثر عليها، وهذا سيخفّف عنّي، ويحزنني؛ وإذا لم يظهر، فلسوف أزداد انشغالاً، وأتلمّس مرّة أخرى الورقة التي تتضمّن رَقْم ديئان في لندن، أو أطوف حول البيت، لكنْ، قد يراودني أيضاً مدى لحظات معدودات، التفكير في

الإمكانية التي لا تُصدّق بأن ذلك كله كان سوء فهم مفزعاً، وذعراً مفرطاً وعجلة منّي، تفوق التّصوّر، بأنها فقدت الوعي فقط، أو ربّما دخلت في غيبوبة، لكنها ما تزال حيّة؛ نظرتُ إلى الكنى وإلى الأعمار التي انقضت: ألالمندروس: 66، آراغون: 88، آرماس: 48، آريّسه: 64، بلانكو: 77، بورلان: 41، كاسلدلَيغا: 93، لكني لم أستطع تتبّع الأسماء اسماً اسماً، وقفزتُ حتّى حرف L: لوينغو: 9، ثمّ ماغيّاس: 93، مرثيلو: 48، مارتن: 43، ميدينا 28، مونته: 46، موريل: 61، البارحة مات ناس أحدث سنّاً، فرنسيسكو بيريث مارتينث، 59، أما هي، فتوفّيت أوّل أمس، في الواقع، ما كانت لتُدرج أسماء الموتى الأحدث عهداً معها، وإنما أسماء موتى اليوم السابق الأقدم، تييّث: 33، ها هي هناك! مارتا تييّث آنغولو، ثلاثة وثلاثون عاماً كان عمرها، أو شيئاً قريباً من ذلك، كان اسمها في تلك القائمة يلبه فقط: آلبيوتو توبيانا تورّس: 55، كنتُ ما أزال خائفاً، فرجعتُ البصر إلى حرف D بنظرة سريعة خشية أن يكون ديثان: 1، مدرجاً بينها، أوخينيو ديثان تييّث، لمّا يكمل العامين من عمره حسب أمّه، كويا: 50، ديلغادو: 81، لم يكن اسمه في القائمة، ولا يمكن أن يكون، ولم يكن، لقد تركتُه حياً ونائماً، وجهزْتُ له طعاماً في صحن.

قصدتُ مرّة أخرى قسم الصحف، واشتريتُ يومية أخرى، هي أكثر صحف مدريد عناية بنشر أسماء الموتى، وعدتُ إلى منضدتي، وبحثتُ بين صفحاتها عن الإعلانات المبوبّة الغزيرة جدّاً، وهناك وجدتُ إعلان موت مارتا مضفياً مظهر نظام على موت غير منتظم؛ إعلان بسيط، يتضمن الاسم كاملاً بعد شارة الصليب، ومكان الوفاة، وتاريخها الصحيح (وهذا تستطيع أن توثّقه يد الطبيب التي تجسّ وتضغط)، ثمّ: فلْترقدْ بسلام، فالقائمة الطويلة من الذاهلين المحزونين الضارعين، ولم أُدرَج أنا بين أحد هذه الأصناف: "قرينها، إدواردو ديثان بيّستيّروس؛ ابنها، أوخينيو ديثان

تييّث؛ والدها، معالي السينيور دون خوان تييّث أوراتي؛ أخواها، لويسا وغيرّمو؛ الكنّة، ماريّا فرناندث بيرا؛ وغير ذلك من أفراد العائلة..."، ها هنا وجدتُ اسمي زوج أخ وأخت، ولم أجد اسم صديقة واحدة، واسم أب من أمّ إيطالية، صاحب الصوت الذي كنتُ سمعته بلا ريب، وهو الذي يعيش وجوداً هشّاً ومتحذلقاً، وكان ينبغي له أن يُخبر ابنته بِخبر طيّب، ولِمَ يكون صاحب المعالي؟ لعلّ أحد المغترّين أراد أن يضعه في إعلان نعي ابنته التي ماتت حديثاً موتاً غير منتظر، ماتت موتاً مخجلاً، موتاً رهيباً، وربّما موتاً مضحكاً؟ ولربّما أملى النّصَّ هذا الأبُ ذاته الذي قد يعرف صنع هذه الأشياء، وهو خالي البال، ورجل من الطراز القديم، فقال: "قرين أو "كنّة"، وليس تلك الحذلقات من "زوج" وزوج أخ، وإن عُدّ فخفخة إدراج كامل اسم طفل، لمّا يبلغ الثانية من عمره، وعلى الأغلب، كان الظهور الأوّل له بحرف مطبوع، كما هو حال كثير من الموتى، وكأنّ الأمر أمر سيّد محترم، "الطفل أوخينيو". لكنهم لم يذكروا على الأقلّ أن مارتا تلقّت القربان المقدّس، حسبما يُؤَكد عن سائر الخَلْق، وأنا أشهد أن ذلك لم يتمّ. "سيكون الدفن اليوم 19، الساعة الحادية عشرة في مقبرة سيّدتنا شفيعة آلمودينا". ثمّ إقامة جنّاز في إحدى الكنائس، لم يُوحِ إليّ اسمها بشيء، فأنا لم أعرف قطّ كنائس مدينتي؛ نزعتُ الصفحة، وطويتُها، كيما أقصّ هذا الإعلان الذي سأضعه إلى جانب ورقة أخرى، كُتب عليها ويلبراهام أوتيل في لندن، وبدا أنها غير مُجدية على أغلب ظنّ.

وصلتُ المقبرة مستبقاً الموعد قليلاً ذات صباح ذي شمس باردة غير مبالية، كيلا أتخلّف عن الموكب، إذا وصل، وآلف منطقة غير موائمة. دلّني بعض المستخدمين - وليسو كلهم حفّاري قبور - على المكان الذي سيتمّ فيه الدفن، فسرتُ إلى هناك، ولبثت دقائق، أقرأ الكتابة على شواهد القبور المجاورة، مجرّباً عمليّة التمويه التي ينبغي لي أن أستسلم لها، ما

إن يصل آل ديثان وتييّث مع التابوت والأزهار والملابس السود. كنتُ وضعت نظّارة سوداء على عينَيّ، كما جرت العادة عند زيارة المقابر، لا لأخفي الدموع، بل لإخفاء غيابها، إذا كان هناك غياب لها، ورأيتُ لوحاً حجرياً منقوشاً قد صُقل بعناية - أمّا الحفرة أو القبر أو الهاوية، فستكون جاهزة عمّا قريب - وكأنّما استُعدّ لاستقبال قاطن جديد، إذ لا يزعج الموتى سوى أن يُجلَب إليهم ميّت آخر، أحبّوه يقيناً حبّاً جمّاً في حياتهم من غير أن نعرف أن هذا الحدث يُفرحهم لرؤيتهم مَنْ عرفوه، لمّا كان أصغر سنّاً، أو يزيد في حزنهم، إذا علموا أنه آل إلى حال، يشبه حالهم، واعتدّوا بفقدان أحد ما يذكّرهم بالدنيا. نظرتُ إلى النقش، وعلمتُ أن أمّ مارتا لاورا آنغولو هرناندث ترقد هنا، وكذلك جدّتها الإيطالية برونا أوراتي بارنثان التي ربّما كانت من البندقية؛ واكتشفتُ أيضاً أن أختاً لمارتا كانت ماتت قبل موت الأمّ والجدّة منذ مدّة طويلة من السنين، ولمّا كانت في الخامسة من عمرها حسب التاريخ المنقوش، إنّها غلوريا تييّث آنغولو المولودة قبل عامين من ولادة مارتا؛ إذاً، هاتان الصغيرتان كانتا عرفتا بعضهما، وإن كانت مارتا لا تكاد تتذكّر أختها الكبرى خلال حياتها، ربّما تذكّرتها ذكرى تفوق قليلاً ما قد يتذكّره ابنها عنها خلال حياته. وتنبّهتُ إلى أن إعلاناً مبوباً، وشاهدة قبر، قالا لي حول مارتا وعائلتها أكثر ممّا قصّته هي عليّ خلال ثلاثة لقاءات تحضيرية. ولأيّ شيء حُضرت؟ لحفلة متواضعة (لحم فتائل إيرلندي وخمر ومَدعوّ وحيد)، ولوداعها الدنيا، بمرأى منّي. في مقبرة النساء تلك التي دشّنتها طفلة منذ إحدى وثلاثين سنة خلت ستحتلّ هي عمّا قليل المكان الرابع، وربّما انتزعته من والدها الذي اشترى قطعة الأرض، لمّا ماتت طفلته، وكان يحسب نفسه الشخص التالي الذي سيرقد إلى جانب أمّه وزوجه وبنته، هذه المقابر تُعدّ عادة لأربعة أشخاص، وإمّا لا، فيمكنها أن تكون لخمسة، وفي هذه الحالة، سيظلّ له مكان شاغر،

وإلى أن يحين دوره سيعلم مَنْ هم قاطنوها جميعاً، واسم مارتا لمّا يُنقش على الحجر، وإنما يتمّ ذلك بعد الدفن. تنحيّتُ ورحتُ أتسلّى بقراءة نوع من الأحجية على قبر يعود إلى حوالي عام 1914، كانت الأحجيّة تقول على مدى عشرة أسطر قصيرة (لكنها كانت نثراً): كل مَنْ يتحدّث عنّي لا يعرفني، وهكذا يلعنني الناس جميعاً إلى أن يلقوني، لكنهم عند لقائي يستريحون، ويُنقذونني، وإن كنتُ أنا لا أستريح قطّ". قرأتُها مرّات عدّة، إلى أن أدركتُ أن المتكلّم فيها ليس الميّت (ليون سوارِث آلداي 1890 - 1914، وهو شابّ كما يقول النقش)، وإنما هو الموت نفسه، موت عجيب، يشكو سوء سمعته وجهل الأحياء المهذارين به، موت غاضب من اللعن المنصبّ عليه، ويريد أن يُنقذ نفسه: موت مُتعَب، بالحري ودود، وأخيراً هو قنيع". كنتُ ما أزال أستحفظ تلك الأحجيّة، وكأنّها رَقْم هاتف أو أبيات من الشِّعْر، لمّا رأيتُ من بعيد ثلاثين شخصاً تقريباً يغادرون العربات، ثمّ يقتربون بخطى بطيئة وراء حفّاري القبر ذوي المشية الأسرع بسبب الثقل، وكان أحدهم يضع لفافة مطفأة بين شفتيه، جعلني أشعل لفافتي فوراً. وتحلّق الموكب حول القبر المفتوح على شكل نصف دائرة تقريباً مفسحين المجال لتحرّكات العمال، بينما عُمد إلى صلاة قصيرة، وإلى إنزال التابوت بالصعوبات المحتومة، صرير وضربات جافّة ومحاولات وتذبذبات وخشب يدخل في الصخر، وضوضاء تشبه ضوضاء مقلع، بل أشدّ حدّة، أو ضوضاء آجرّ يصطدم ببعضه، أو صوت مسمار لا يُوفّق في إنفاذه - ثمّ صوت عامل ما يُصدِر أوامر غامضة، والخوف الشديد من أن يلحقَ ضررٌ بالجثمان الذي لن نراه بعد اليوم.. استطعتُ أن أرى الأشخاص الذين اصطفّوا في الصّفّ الأوّل، أو كانوا أقرب إلى الجانب الأعلى من القبر، رأيتُ منهم ستّة أو سبعة رؤية أفضل من موقعي عند قبر 1914، الذي مكثتُ قربه ويداي معقودتان ضعيفتان، أمسك بإحداهما اللفافة

التي كنتُ أرفعها بين حين وآخر إلى شفتي؛ وكأنّ ليون سوارث آلداي أحد الأجداد، الذي أستطيع أمام رفاته أن أفكّر وأتذكّر، بل أهمس بكلمات أكثر تحرّراً ممّا نستطيع قوله، كلمات تزيدنا طمأنينة، كلمات نتوجّه بها إلى مَنْ لا يستطيعون سماعنا. وإن كنتُ في الواقع بحثتُ بالنظر أوّل ما بحثتُ عن الطفل، - لكنْ، عَبَثَاً ومن غير أمل، فالأطفال في مثل هذه السّنّ لا يحضرون عملية الدفن - وأوّل شخص أمعنتُ النظر فيه ليس ذلك الذي صلّى بصوت عالٍ - وهو رجل ضخم قوي البنية تنبّهتُ إليه فيما بعد - وإنما امرأة ذات شبه ملحوظ بمارتا تيّبيث هي بلا ريب أختها لويسا الحيّة، وما كانت تضع على عينيها نظّارة سوداء، ولا نقاباً ولا شيئاً آخر - ولم أجد نقاباً قطّ - وكانت تبكي وتنتحب نحيباً حاداً ومتواصلاً ومن غير خفاء، وإن كانت تحاول إخفاءه: كانت تخفض رأسها، وتغطّي وجهها بيديها، كما يصنع أحياناً مَنْ أُصيبوا بالذعر، وأحسّوا بالخجل، ولا يريدون أن يروا، ولا أن يُروا، أو مَنْ كانوا ضحايا جنى عليهم الإرهاق أو حتّى الشقاء أو الخوف أو الندم. وهذه الحركة التي يقوم بها هؤلاء الضحايا في العادة فرادى جالسين أو راقدين في مخادعهم - ربّما يلجؤون إلى المخدّة التي تقوم مقام اليَدَيْن، فيجدون فيها مخبأ ووقاية وملاذاً - كانت تقوم بها واقفةً هذه المرأة ذات الثياب الأنيقة للغاية واليَدَيْن المصونتَيْن بعناية وسط موكب من الناس، وفي الهواء الطلق في المقبرة، ورأيتُ ركبتيها المستديرتَيْن تحت المعطف المفتوح وجوربيها الأسودين وحذاءها ذا الكعب والنظيف جدّاً. أمّا شفتاها اللتان طلتهما على شكل لا واعٍ وبحركة آلية كما تفعل كل يوم عند خروجها من البيت، فقد امتزج فيهما طعم أحمر الشفاه القاني الحلو بطعم دموعها المالح، دموع تسيل لا إرادياً، كانت ترفع وجهها في بعض الأحيان، وتعضّ على شفيتها - هاتيك الشفتين! - محاولة عَبَثَاً كبح شيء غير الألم، وإنما كبح تظاهرتها المخجلة بإفراط، ولا تجد كلمة تُعبِّر

عنها، كان ذلك لمّا وقع بصري على وجهها الذي وإن كان مشوّشاً، فقد رأيتُه شبيهاً بوجه مارتا، لأنني رأيتُ وجه هذه شائهاً، وقد شوّهه أيضاً نوعٌ آخر من الألم، ولكنه كان جلياً؛ هي امرأة أحدث سنّاً، تصغر أختها سنتَيْن أو ثلاثاً، وربّما كانت أجمل، أو أقلّ استياءً من الحظّ الذي لقيتُه، كانت عازباً كما جاء في الإعلان أو كانت أرملاً. ربّما كانت تبكي هذا البكاء، لأنها كانت تحسّ بالغيرة، أو ساورها تصوّر بالإبعاد والإقصاء الذي يُقلق الأطفال، إذا أُبعدوا عن إخوانهم، إذا ظلّ أحدهم مع جدّيه بينا الآخرون يرافقون أبويهم في سفر، أو إذا أُرسل أحدهم إلى مدرسة، تختلف عن المدرسة التي يرتادها الإخوة الكبار، أو إذا كان مريضاً، وظل في السرير مستنداً إلى المخدّة، بصحبة دماه ورسومه الملوّنة وقصصه التي تصوغ عالمه (وفوقه طائرات)، يرى الآخرين يخرجون ويذهبون إلى الشاطئ أو النهر أو الحديقة أو السينما، ويهربون على الدرّاجات، وإذا ما سمع ضحكاتهم الأُوَل ورنين أجراسهم الحادّ يشعر أنه سجين، أو مَنفيّ، وبمقياس كبير، لأن الأطفال يفتقرون إلى رؤية مستقبلية، وفي نظرهم لا وجود للحاضر - وليس الأمس الرديء والقاسي والمحطوم، ولا الغد الشفّاف والسهل.، يشبه في ذلك بعض النساء وبعض الحيوانات أيضاً، وسرعان ما يرى الطفل أو هذه الطفلة سريره على أنه المكان الذي لن يبرحه أبداً، ما إن يسمع على شكل غامض العجلات تبتعد على رمل وحصى الشاطئ، ورنين أجراس أخوته الفائضة والمرحة، الذين لا حساب للزمن عندهم، ولا للحاضر أيضاً - ولعلّ لويسا تييّث كانت تحسّ أيضاً أن غلوريا ومارتا الأخت التي لم تلعب معها، والأخت التي لعبت معها، تجمع بينهما الأرض إضافة إلى الأمّ والجدّة في عالم نسويّ مستقرّ، وباسم لا يبعث فيه على القلق، لا نعم، ولا لا، ولا تتعبهنّ لعلّ، ولربّما، وفيه لا يُحسَب حساب الزمن، في عالم مسكون haunted، أو تصحّ هنا كلمة لغتنا مسحور، عالم ما تزال

لا يعنيها أن تنضم إليه، بل ظلّت مَقصيّة عنه حرفياً، ولن تجد فيه يقيناً فسحة لإقامة مشتركة متى عناها ذلك؛ وبينا كان التراب الرمزي يسقط فوق ذلك القبر، ظلّت هي وأبوها وأخوها بين الأحياء الذين لا ثبات لهم البتّة، وربّما تظل ذات يوم هي وزوج لمّا يأتِ - زوج ضبابي بالتالي.، في عالم من الرجال، ومصاغ من اللّعب والصور الملوّنة والقصص - وطائرات معلّقة في السقف)، عالم ما يزال ضحية، أخنى عليها الزمن.

ها هو ذا الأب خوان تييّث الذي قال بضع كلمات قصيرة، لا تكاد تُسمَع، ربّما كانت صلاةً هو نفسه لا يؤمن بها على كبر سنّه، وما أشقّ أن يتخلّى المرء تخلّياً تامّاً عن عادات مَنْ سبقوه السطحية ومعتقداتهم التي يتظاهر بالحفاظ عليها أحياناً مدى حياة كاملة - حياة أخرى - بنوع من التّطيّر والاحترام لهم، فالأشكال والنتائج تُبطئ حتّى تزول وتُنسَى أكثر من الأسباب والمضامين. وصل حتّى القبر وهو يتأرجح مستنداً إلى ابنته الباقية على قيد الحياة، وكنّته، وكأنّه محكوم عليه بالإعدام شنقاً، تخونه القوى، كما يصعد الدرجات، أو كأنّه يسير على الثلج، فيغوص ويطفو في كل خطوة يخطوها، لكنه سرعان ما استعاد رباطة جأشه، ونفخ صدره الأُقعس قليلاً، وأخرج منديلاً أزرق من جيب سترته العليا، وراح يجفّف به العَرَق على جبهته، وليس الدموع في عينَيْه التي لم يكن يذرفها، وإن كان حكّ صدغه ووجنته الجافّة وكأنّه يهدّئ ثائرة طفح جلدي. كان نطق بكلماته بمزيج من الجدّ والصدود، وكأنّه على وعي تامّ بجلال اللّحظة، ويريد في آن واحد أن يُنهيها بأسرع ما يستطيع، ويعود، من ثمّ، إلى البيت، ليدفن وجهه في المخدّة، ومَنْ يدري إن كان يضيف الخجل إلى الألم؟! (لكنّ هذا "الموت" موت رهيب، لكن "هذا" موت مخجل)، لكني أرجّح جدّاً ألا يكون أُعلِم بالظروف ولا بمظهر بنته الوحشي شبه عارية، لمّا عُثر عليها، ولا عن آثار رجل ملحوظة في البيت، وهذا الرجل لم يكن ديثان، ولا أحد

آخر غيري أنا، لكنني في نظرهم "لا أحد"، وربّما قيل له فقط: "مارتا ماتت بينما إدواردو كان غائباً"، وربّما رفع هو يَدَيْه النمشاوَيْن إلى وجهه باحثاً عن ملاذ: "لكنها ماتت على كل حال، وإن لم تكن وحيدة"، ربّما أضافوا كيلا يزيدوا في نفوره من صهره، أو كأنّنا إذا علمنا أن شيئاً ما لا نستطيع ردّه، قد يجعلنا أكثر قبولاً له. (هي لم تكن وحيدة، وأنا أعلم ذلك، وهم يعلمون أيضاً حقّ العلم). وقد لا يكون أُعلم بسبب الوفاة إن كانوا يعلمون السبب سواء أكان سكتة دماغية أو احتشاء عضلة قلبية أو توسّعاً تشريحياً في الأبهر أو تخرّب الكظر بسبب جراثيم معيّنة أو تناول جرعة عالية من شيء ما، أو نزيفاً داخلياً وغير ذلك ممّا لا أعلمه من علل تقتل بسرعة كبيرة ومن غير لجلجة، ولا يعنيني أيُّها قتل مارتا ولا يعني هذا الأبُ أيضاً، ولعلّه لم يطلب تفسيراً أو ربّما لم يخطر على بال أحد أن يطلب إجراء تشريح للجثّة، وربّما اقتصر على أن يبتلع الخبر، ويخفي وجهه، ويتأهّب لدفن ثاني فرد في ذرّيّته، ثمّ الوداع، فوداعاً، يا ضحكات، ووداعاً، يا منغّصات، فالحياة نعيشها مرّة واحدة، وهي سريعة العطب، وبالتالي افترض أنه الآن يتذكّر بينا التراب ينهال على كائن أنثوي للمرّة الرابعة في هذه المقبرة، النساء الراقدات هنا اللاتي احتجبنَ عن ناظره منذ مدّة بعيدة، وهنّ: أمّه برونا الإيطالية التي لم تُحسن الكلام بلغة بلدها بالتّبنّي الخشنة، وعلّمت ابنها خوان لغة بلدها الأعذب؛ زوجه لاورا التي أحبّها أو لم يحبها، التي كرهها أو آذاها أو صنع الشيئين معاً، كرّمها أوّلاً، ثمّ آذاها ثانياً، أو كرّمها وآذاها في آن واحد، كما هي القاعدة؛ بنته غلوريا التي كانت أولى الموتى، وربّما ماتت بحادث، مَنْ يدري إن كان غرقاً في النهر، أو سقطة خلال الصيف، فدُقّت عنقها، أو التهاباً سبّبه أحد تلك الأمراض السريعة التي لا تصطبر، فتخطف الأطفال من غير رقّة هدب، لأنّ هؤلاء لا يقاومون قطّ، ومن غير أن تتيح لهم الوقت ليكتسبوا الذاكرة، وتنمو لديهم الرغبات، ويعرفوا آلية

عمل الزمن العجيبة، وكأنّ الأمراض تعوّض بذلك على نفسها عن الصراع المديد الذي تشنّه على كثير من الكبار الذين يقاومونها؟! وإن لم يكن الحال كذلك مع مارتا التي ماتت طائعة كأنّها طفلة. ربّما أخذت تظهر للأب هذه البنت الثانية التي كان رآها منذ قليل (وترك لها رسالة) بألوان الذكرى وألوان أمسِ القاسي، ولعلّه يفكّر أيضاً أن وجوده ذاته ازداد الآن هشاشة على هشاشة. كان شعره أبيض وعيناه زرقاوَيْن كبيرتَيْن، وحاجباه مزجّجين كحاجبي جنّي، وجلده أملس جدّاً بالنسبة لمَنْ كان في مثل عمره، أياً يكنْ ذلك العمر، كان رجلاً طويلاً وقوي البنية، وصاحب معالٍ عالية جدّاً، وشكل يمكنه أن يملأ الفراغات المغلقة، ويلفت الانتباه فوراً بضخامته غير المستقرّة، وجذعه الجسيم مضائلاً بذلك حجم المرأتَيْن اللتَيْن تسندانه من كلا الجانبين، وبدقّة ساقيه وتأرجحه الخفيف الذي كان يعانيه حتّى في راحته، ممّا يجعلنا نفكّر في الدّوامة، وبشريط أسود يطوّق كمّ معطفه برهاناً على قوّة حسّه العتيق بالوضع، وبحذائه الأسود النظيف نظافة حذاء بنته الحَيّة، وقدميه الصغيرتَيْن قياساً لطول قامته، قدمين تشبهان قدمي راقص متقاعد ووجه كأنّه وجه كرغل(*)، وعينين جافّتَينْ ذاهلتَينْ ناظرتَينْ إلى تحت صوب القبر أو الحفرة أو الهاوية. متأمّلتَيْن سقوط التراب الرمزي ومتذكّرتَيْن بغباء البنتَيْن، تلك التي كانت طفلة فقط، وتلك التي كانت ما تزال أصغر منها، ولكنها صارت أكبر كثيراً في وقت تالٍ، وتساوت الآن في القبر وتلك التي لم يرها أحد تنمو، ولا تهرم ولا تتلوّى ولا تُبدي نفوراً، أو تثير استياءً، وكلاهما الآن محبط وطائع وصامت، ورأيتُ رباط حذاء خوان تيبّث مفكوكاً من غير أن ينتبه إلى ذلك.

على يمينه، كانت تقف بلا ريب كنّته ماريا فرنانذث بيرا. هي نعم، كانت تضع نظّارة سوداء على عينيها، وعلى وجهها، طُبعت الشفقة

(*) ميزاب ينبثق من السطوح ومشارف الأفنية على شكل وجه حيوان.

الاجتماعية، أي طُبع السأم أكثر ممّا طُبع الحزن والخوف المنقول إليها بالعدوى، وكان الإشكال أن رأت نشاطها اليومي مقطوعاً، وعائلتها منتقضة بانبتار عضو منها، وزوجها منهاراً حتّى مدّة قاسية، مَنْ يدري كم تدوم؟! أمّا مَنْ كان يمسك بها من ذراعها وكأنّه يطلب منها صفحاً أو معونة أو كأنّما يتودّد إليها، فربمّا كان غِيَرمو أخ لويسا ومارتا الوحيد، وهو كان يصغر، إلى حدّ ما، الطفلة غلوريا التي لم يبلغ أن يعرفها، والتي ربمّا لم يسأل عنها سؤالاً قطّ. وهو الآخر كان يضع على عينَيْه نظّارة سوداء جدّاً، - ولربمّا تزوّج منذ فترة قصيرة - على الرغم من الجلح الملحوظ المبكر في جانبي جبهته، أمر لم يرثه من أبيه، وإنما من ذكور عائلة أمّه، كجماجم أخواله أو أبناء خؤولته الكبار الذين ربمّا كانوا هنا واقفين في الصّفّ الثاني. لم أر له تشابهاً مع مارتا، وبالتالي مع لويسا، وكأنّ الآباء يولون قليلاً من الانتباه والجهد دائماً عند إنجاب زكمتهم أو آخر العنقود، وهم أشدّ إهمالاً ساعة ينقلون إليهم مثال صورتهم التي تظلّ في قبضة أحد الأسلاف النزقين، الذي يغتنم الفرصة سريعاً، ليخلّد سماته على الأرض، ويتدخل، ليمنحها مَنْ لمّا يولد، أو بالحريّ، مَنْ هو قيد التّشكّل. كان ذلك الشّابّ يبدو جباناً، لكنْ، من المخاطرة إطلاق تلك الصفة على أحد إذا كنتَ لم تره سوى ساعة دفن أخته، ونظرته محجوبة. ومع ذلك كلّه، كان يُرى عليه الشرود خشية الموت ذاته الذي تجلّى له فجأة ولأوّل مرّة في حياته يقيناً، متشبّثاً بذراع امرأته الأقوى والأصلب عوداً، كما يتشبّث الصغار بأذرع أمّهاتهم عند عبورهم الشارع، وهي لم تكن تشدّ على يده مواسية بينا كان التراب الرمزي ينهال على ذوي قرباه الموتى، وإنما أبقتها بعيدة ومن غير اصطبار (المرفق الناتئ كان بعيداً عن البدن)، أو كانت ضجرة. وكان حذاءُ حديث العهد بالزواج ملطّخاً بالوحل جدّاً، فقد غاصت قدمه في موحلة في المقبرة.

وها هو ذا ديئان الذي عرفتُ وجهه البارز فوراً، وإن كان خالياً من

الشارين اللذين كان يتمتّع بهما يوم زفافه، وقد حفر فيه كرُّ السنين أخاديد وأكسبه صلابة أو جعله قوياً، كان يضع يده في جيبَي سترة بلون الزنك، لم يأخذها معه إلى لندن، وكنتُ رأيتها معلّقة في بيته: سترة جيّدة، لكنها لا تقي من البرد. لم يكن يضع على عينَيْه نظّارة سوداء، وما كان يبكي، وما كان في نظرته حيرة. كان طوّالاً وناحلاً جدّاً، أو ليس كثيراً، فربّما كان ذلك انطباعاً - كان وجهه مستطيلاً بانسجام مع طول قامته. وكان فكّه قويّاً كأنّه فكّ بطل من طيبة، أو ربّما فكّ ممثّل ذي ذقن منصّفة مثل غاري غرانت وروبيرت ميتشوم أو ماك موري نفسه، وإن يكن وجهه أقلّ غباءً منه، ولا صلة له أيضاً بوجهي غرانت وميتشوم أمير الفكاهة وأمير الشر دون لبس بينهما. كانت شفتاه ناعمتَيْن واضحتي المعالم، وإن كانتا شاحبتَيْن، أو بلون الجلد ذاته الذي تخطّه أخاديد أو خيوط ستصبح بمرور الوقت غضوناً، أو أنها أخذت تصبح كذلك كخدوش سطحية في الخشب (قد يصبح وجهه ذات يوم درجاً). كان شعره كستنائياً مسرّحاً بعناية، ويتوسّطة فرق جهة اليسار، وناعماً جدّاً، وربّما كان مُسرّحاً بمعونة الماء فقط، كأنّه شعر طفل من عهد مضى، طفل من عصر طفولته ذاتها، الذي ربّما كان عصر طفولتي إلى هذا الحد أو ذاك. هي عادات لا تنقرض مطلقاً، ولا ينال منها تقدّمنا في العمر، ولا الزمن الخارجي. كان وجهه في تلك الأوقات - لكني أخاطر، فأقسم أنه كان في كل وقت - وجهاً جاداً وروحانياً وصافياً، أي هو من تلك الوجوه التي تقبل كل شيء، أو يُتوقّع منها كل تحوّل أو أيّ اضطراب، وكأنّه في موقع الترقّب دائماً، وليس الحسم قطّ، فيشي في لحظة معيّنة بالقسوة، وفي لحظة أخرى، بالشفقة، وبالمرح حيناً، والكآبة حيناً آخر، ثمّ الغضب من غير أن يبلغ، فيعبّر عن أيّ من هذه الحالات قطّ. هذه الوجوه هي مجرّد إمكانية ولغز في ظروف عادية، ربّما يعود ذلك إلى التناقض في السّمات، وليس بقَصْد آخر قطّ: هدباه مزجّجان

يوحيان بالسخرية، وعيناه صريحتان تدلان على الاستقامة والنّيّة الحسنة، وعلى شيء من الانطواء، والأنف كبير أقنى، وكأنّه قُدّ من عظم واحد من البداية حتّى النهاية، لكن عينَيْه فيهما اتّساع، ويوحيان بالحميّة، أو ربّما القسوة، وفمه ناعم متوتّر، يشبه فم دسّاس متآمر - الشفتان فيه كشريطين مشدودين - لكنهما توحيان أيضاً بالأناة والقدرة على إحداث المفاجأة، والقدرة الضخمة على الفهم؛ أمّا ذقنه؛ فمتمرّدة، وإن كانت الآن مهيضة الجناح كسيف مفلول، وأذناه منتصبتان قليلاً، وكأنّهما في استنفار دائم، وتريدان أن تسمعا ما لا يُلفَظ على البُعد؛ لم تسمعا شيئاً وهما في لندن، لم تبلغهما خفخفة الملاءات التي لم أبلغ أن أحتكّ بها، ولا قعقعة الصحون خلال عشائنا المنزلي، ولا رنين كؤوس/ شاتو ما لارتيك / ولا صريف النزع أيضاً، ولا دويّ الغمّ، ولا صرير الشقاء، وهمود العزم، ولا زميم الخوف والندم، ولا ترنيمة الموت المتعب المُفترى عليه، ما إن نعرفه، وما إن نلقاه، ربّما كان مسمعاه مشغولين بطنينهما ذاته في لندن، بخفقة الملاءات وقعقعة الصحون ورنين الكؤوس، وصرير حركة النقل التي تجري عكس اتّجاه حركة نقلنا، وصخب الحافلات المرتفع جدّاً، وصريف الإثارة الليلية وزميم الحديث الجاري بلغات شتّى في مطعم هندي، وبصدى ترانيم أخرى، ليس بالضرورة مميتة. "أنا لم أسعَ إلى ذلك، أنا لم أرده". قلتُ ذلك في داخلي من عند الضريح العائد لعام 1914، كان ذلك لمّا رفع ديئان بصره إلى حيث كنتُ أقف واللفافة في يدي؛ هو وإن نظر إليّ، فلم يغب عن وجهه هيئته المفرطة في التّأمُّل، واستطعتُ أن أرى بوضوح عينَيْه اللتَيْن هما بلون البيرة ذواتا نظرة صريحة، لكنهما شُقّتا شقّاً كبيراً كعيني أحد من التتار، لا أحسبهما رأتاني تلك اللحظة، كانتا مصوّبتَيْن باتّجاهي، لكني لم أحسّ بهما حطّتا عليّ، وكأنّهما حاذيتاني، أو مرّتا فوق رأسي، ثمّ رجعتا فوراً للإمعان في القبر أو الحفرة أو الهاوية، بذلك بدا لي أنه قلق - وكأنّ ديئان

يشعر بشيء من الضيق علاوة على جدّه البالغ الذي يتجلّى على وجهه المستطيل والغريب، وكأنّما ذهب لحضور حفلة، لا تخصّه في شيء، لأنها مقصورة على النساء، وإنما هو دخيل ضروري، لكنه في حقيقته تزييني، إنه زوج الوافدة حديثاً التي كان يجتمع تكريماً لها (أو تذكاراً لها - حينئذ هو الأرمل) هؤلاء الأشخاص كلهم الذين لا يزيدون عن ثلاثين فرداً، ونحن لا نعرف في الواقع هؤلاء الناس كلّهم. كان ديئان شخصاً، سيظلّ مبعداً عن هذا القبر الذي يضم ذوي قرابة لحّاً، وربّما تزوّج من أخرى، وستظلّ هذه السنوات الخمس من الزواج والتعايش ممثّلة ومذكورة خاصّة بوجود الطفل أوخينيو الآن ومتى كفّ عن أن يكون طفلاً في نهاية المطاف، لكنْ، ليس بالنسبة لمارتا تييّث التي صارت مبعدة، تلفّها الظلمات في رحلتها السريعة نحو التلاشي (ما أقلّ ما يبقى من كل فرد، وما أقلّ ما يثبت منه، وما أكثر ما يُسكَت عن هذا القليل)، وما أشبه ديئان بالصورة التي رأيتُه فيها حتّى لمّا أخذ يعضّ على شفته السفلى، كما يفعل في صورة عرسه بالأبيض والأسود، وهو ينظر إلى الكاميرا. وبينا كان التراب الرمزي ينهال على زوجه مارتا تييّث رأيتُه ينزع يَدَيْه من جيبَي سترته، ويرفعهما إلى صدغَيْه - صدغَيْه البائسَيْن.؛ فقد خارت ساقاه، وكان على وشك أن يسقط شخصه الطويل مَغشيّاً عليه، ولكان سقط يقيناً (زلّت قدمه، وانزلق باتّجاه القبر للحظة) لو لم تتداركه أيدٍ شتّى في آن واحد، وكذلك ضوضاء الأصوات المذعورة: قبض أحد ما بقوّة على عنقه من الخلف - العنق! .، وشدّ أحد ما سترته الأنيقة جدّاً، وأمسكت به من ذراعه المرأة التي كانت تقف إلى جانبه، بينا ظلّ هو للحظة جاثياً على ركبته، وكانت تلك البقية الباقية لحفظ التوازن، ركبته على الأرض كأنّها سكّين غُرز على شكل سيّئ في الخشب، ويداه تضغطان على صدغيه، وكانتا عاجزتَيْن عن أن تمتدّا ذلك الحين، فتقيانه من الارتطام الممكن بالأرض، لو أنه بلغ تخوم الإغماء،

وخرّ على وجهه: "فلأثقلْ على روحكَ غداً، وليسقط سيفكَ المفلول".
نهض على قدميه بمعونة الآخرين، وداعب ركبته، ورجّل شعره قليلاً بيده، ثمّ وضع يَدَيْه كلتيهما مرّة أخرى في جيبيه، واستردّ هيئته المغمومة التي بدت الآن أكثر ألماً وخجلاً. ولمّا رآه أحد الحفّارين يهوي، توقّف عن العمل رافعاً الرفش في الهواء، وهو مملوء تراباً، وظل مجمّداً على هذا الشكل طوال اللّحظات التي قطع فيها الأرمل الحديث صمت الاحتفال، وكأنّه تمثال لعامل، أو عامل منجم، يقبض على الرفش مرفوعاً، ويرتدي بنطالاً فضفاضاً، وينتعل حذاء واطئ العنق، ويضع شالاً على رقبته، ويعتمر قبّعة مخطّطة قديمة. ربّما كان العامل وقّاداً، وإن أصبحنا لا نجد مراجل، حذاؤه طويل يغطّي جوربيه الأبيضين السميكين القصيرين. ولمّا استرد ديئان قواه، ألقى العامل إلى القبر بغرفة التراب المؤجّلة. لكنه كان فقد الاتّجاه والإيقاع خلال لحظات التّوقّف، وتناثرت بعض الحبّات، وأصابت سترة ديئان الذي كان أقرب إلى السقوط في الهاوية، لمّا اتّجه صوبها، ولامس الأرض. ونظر خوان تييّث بمؤخّر طرفه، لا أدري إن كان إلى ديئان أم إلى حفّار القبر.

كان ذلك لمّا رأيتُ أو عرفتُ أو أمعنتُ النظر إلى المرأة التي أمسكت بذراع ديئان بقفازها بلون البيج. إنها الجارة التي سبق لي أن رأيتُها مرَّتَيْن خارجة من البيت في شارع كونده ديلاثيميرا، وهي تجادل أو تقبّل في الفجر مرّة، ولمّا كانت تركب سيّارتها وعقد الدرّ على عنقها ملقية بحقيبتها، وأنا أقف منتظراً قرب سيّارة أجرة مرّة أخرى. في تلك اللّحظة، استدرتُ استدارة مدفوعاً بخوف غير مجدٍ، لأنها إن كانت رأتْني وعرفتْني، فقد كان فات الوقت كثيراً، كيما أحتجب (كنتُ أراها للمرّة الثالثة في ثلاثة أيّام)، مضت لحظات الخوف الانعكاسي، فدرتُ على عقبي مرّة أخرى (أوّلاً وأخيراً، أنا أضع على عيني نظّارة، والوقت ليس ليلاً)؛ أنا وإن بدا لي أني موضع مراقبتها، بلْه تحرّيها، وكأنّها تريد أن تتثبّت، إن كنتُ أنا نفسي مَنْ

رأته، وليس أحداً آخر، فلم أحسّ بذرّة من الشكّ في عينيها الكستنائيتَين، ولا بشبهة ولا حتّى استغراب، بل ربّما كان العكس: ربّما افترضتُ أني أحد الجيران أيضاً، أو أحد أصدقاء العائلة، صديق من الماضي، أو بعيد متحفّظ - صديق المتوفّاة فحسب - يحضر الدفن، لكنه يظلّ متنحّياً. ربّما فكّرتُ في هذا، لأن هذه الشّابّة قالت لي لمّا بُسط اللوح الحجري، كما كنتُ بسطتُ الفراش والملاءات، وغُطّي القبر، وبدأ كل هؤلاء الأشخاص بالتّحرّك، وإن يكُ ببطء، لأنهم كانوا يحيّون بعضهم بعضاً، أو يتقاعسون للإدلاء بتعليق ما، وكأنّهم لا يرغبون في مغادرة المكان الذي ستقيم فيه الآن مارتا عزيزتهم إلى هذا الحدّ أو ذاك - قالت لي: "مرحباً" ممزوجة بنصف ابتسامة، لمّا مرّت أمامي متّجهة صوب العربات، فأجبتُها بالكلمة ذاتها، وربّما بابتسامة، بينما كنتُ أراها تِعبر، وتتقدّمني بمشيتها الظريفة حسب قاعدة القوّة النابذة، ترافقها، كما خُيّل إليّ، صديقتها أو أختها، وسيّدة. (وأمعنتُ النظر مرّة أخرى في ربلتي ساقيها). هذا اللقاء العابر جعلني أتشجّع، فأترك قبري ("لقد نجوتُ")، واختلطتُ إلى حدّ ما بهم، بأهل المتوفّاة، لكنْ، ليس بوقاحة، بل كأنّي كنتُ أبحث عن باب الخروج أيضاً. رأيتُ أب مارتا ولمّا يتزحزح؛ كان يرفع قدمه فوق أحد القبور القريبة، فقد تنبّه إلى رباط الحذاء المحلول، وأشار إليه بسبّابته، وكأنّه يوجّه إليه اتهاماً من غير أن ينبس بكلمة. معالي هذا الرجل كان كثير التأرجح وثقيل الوزن حتّى يُقعي أو ينثني، فَجَثَتْ بنته لويسا على الأرض (كفّت عن البكاء الآن، وأصبح لديها ما تُشغل نفسها به)، وعقدت الرباط، وكأنّ صاحبه طفل وهي أمّه. وقف ثلاثة أشخاص أو أربعة ينتظرونه. حينئذ، سمعتُ الصوت الكهربائي خلفي يقول: "عساكِ لم تجلبي العربة، يا خرء. والآن ماذا سنصنع؟ لقد جلبني أنطونيو، لكني قلتُ له أن ينصرف مفترضاً أنكَ جئتَ بعربتكَ". لم ألتفتُ، وإنما قصّرتُ الخطى، لكي يستطيع الاثنان

كلاهما أن يبلغاني، الصوت الذي كان يحلق بأمواس خفيّة، والمرأة التي أجابته فوراً: "حسن! لم يحدث شيء. سوف نركب عربة أحد ما، أو افترض أننا سنجد عربة أجرة خارج المقبرة". "أيّة عربات، وأيّة خيبة!" قال ذلك لمّا حاذاني، وأخذتُ أرى صفحة وجهة بمؤخّر طرفي، هو فرد قصير، أو بدا لي كذلك جرّاء النظّارة السوداء الكبيرة قليلاً؛ "مَنْ يجد عربة في مقبرة! أم تظنّين نفسكِ في باب بالاس. لا يخطر لأحد أن يأتي من غير عربة". "فكّرتُ أنكَ ربّما جلبتَ عربتكَ"، قالت هي بينما كانا يتقدّمانني: "أقلتُ لكِ إني سأجلبها؟ أقلتُ لكِ أنا؟ إذاً، فلنسكت". أجابها هو يتبجّح، واضعاً بذلك حداً للمناقشة. كان امرأً متوسّط القامة، لكنه بدين، وجسمه جسم رياضي أو سبّاح وطاغية بلا ريب، وسيّئ التربية، وربّما ما كان يعرف جيّداً قواعد الآداب الاجتماعية أيضاً، أو ما كان يأبه بها كثيراً، لأن معطفه كان ذا لون زاه (لكن ديئان ما كان يضع شارة حِداد على سترته أيضاً)، كانت أسنانه طويلة كالمرء الذي كان ينتظر في المجمّع التجاري إلى أن أُقفل الهاتف منذ ليلتَيْن خلتا. لم يكن هو ذاته، وإنما من الطراز عينه: مُثْرٍ على شكل تقليدي، وحسن الهندام على شكل تقليدي، ولغته بذيئة على شكل طوعي، أمثال هؤلاء يُعدّون في مدريد بالآلاف، هم موجات حقيقية من أبناء الريف المزدهرين الذين لفظهم الريف، هم مصيبة شاملة دائمة، لا يعرف أحد منهم أن يلفظ حرف d كما يلفظه أهل مدريد باسترخاء حرفاً ليّناً. كان في حوالي الأربعين من عمره، شفتاه غليظتان وفكّه وسحنته سحنة قردية، تشي بأصله، أصل ليس بعيداً جدّاً حتّى يُنسَى، أو على الأصحّ يُشطَب. كان يضع صمغ اللكّ على شعره، ويسرّحه إلى الخلف وكأنّه شابّ غندور، لكنْ، إذا تكلّم المرء هكذا، فقد لا يكون صادقاً. "أعرِفَ شيءٌ عن الفاعل؟" سمعتُه يقول بنبرة أخفض، تنطلق من بين أسنانه، وهكذا كان صوته يشبه صوت مجفّف شعر، بينا كنتُ أسير الآن على بعد

قليل خلفهما. وخفّضت امرأته إينيس القاضية أو الصيدلانية أو الممرّضة نبرة صوتها بدورها، وقالت: "لم يُعرَف شيء. لكنها البداية. إدواردو كما أرى، على استعداد للقائه، لكنْ، بيثْنته: هم لا يريدون أن يُعرف. وهكذا اصنع معروفاً، وكنْ متحفّظاً لمرّة واحدة، ولا تُدْلِ بتعليق هاهنا". وفكّرتُ: إذاً، هو فضولي، لذلك لديه دائماً قصّة ما مؤجّلة كيما يقصّها. فما أكبر الفضل الذي أسديتُهُ إليكَ اليوم، يا بيثِنْته، بأخذي الشريط من المسجّل! ما أحسن حظّكَ أنْ صار في جيبي!". "لكنْ، إذا كان كل الناس يعلمون!" أجاب بيثِنْته باحتقار، "فهو لا يرضى أن يلفّق على الناس. الحذر أصبح غير موجود، لقد انتهى، ولا هو فضيلة. مسكينة مارتا! سينجحون بإخفاء الخبر عن أبيها، لكنْ، ما يهم الآخرون، وإن كانوا سينسون، فلا شيء يدوم، وهو الشكل الوحيد من الحذر الذي يدوم، فكل شيء يمضي سريعاً. هيّا، نَرَ مَن نلحق به، أسرعي، واسألي مَن لديه مقعد فائض"، وبهزّة سريعة من كتفيه سوّى وضع معطفه على شكل حسن، وبذلك مطّ عنقه. يقيناً بأشباه هذه الحركات يُسوّي المعطف، إن كان وضعه غير مريح. أخذ المشيّعون يصلون العربات، وأنا معهم. ابتعدت إينيس عن بيثْنتِه لتتلمّس من يمكنه أن يقلّهما قريباً من مركز المدينة، لم أكن أمعنتُ النظر فيها لأنّ زوجها كان يحجبها عنّي وهما يسيران، كانت ذات مشية رزينة وساقاها مُعضّلتان جدّاً كأنّهما ساقا رياضي، أو ساقا أمريكية شمالية، وهذا الضرب من الربلات يوحي بأنه على وشك أن ينفجر في كل لحظة، بعض الرجال يقدّرونهنّ كثيراً، أما أنا؛ فأقدّرهن قليلاً. كان كعبا حذائها عاليَيْن، وما كان ينبغي لهما أن يكونا كذلك. خُيّل إليّ أنها ربّما كانت قاضية أكثر ممّا هي شرطية أو صيدلانية أو ممرّضة. ربّما كان صوتها ذلك الصوت الطفولي الباكي في المسجّل، وما كانت تتضرّع به إلى مارتا (أرجوكِ... أرجوكِ...) كان من أجل أن تبتعد عن زوجها. في هذه الحالة، قد تكون مشاعرها متضاربة الآن،

فما أفرحني بهذا الموت! ما أحزنني له! وما أحفاني به! وقف الرجل منتظراً عاقداً ذراعيه محييّاً برأسه من بعيد هذا الشخص أو ذاك من معارفه وهو يركب عربة، مصفّراً من غير أن يتنبّه إلى ما يصنعه، وهو ما يزال في المقبرة، فما كا ن يبدو عليه التّأثّر ولا الهمّ، يقيناً كان سمع ذلك الوقت بفقدان ما كان يهتف به بغباء إلى مَن يسمّيه الآن مسكيناً، مسكينة مارتا! "أنتَ في قبضة يدي"، فكّرتُ، "في قبضة يدي، وإن اضطررتُ إلى الكشف عن نفسي. ينبغي لي أن أتخلّى عن أن أكون لا أحد من الناس". رأيتُ إينيس تقف عند باب عربة، وتلوّح بذارعها تكراراً كيما يذهب إلى هناك. لقد وجدت القاضية مركبة. بحثتُ حينئذ بنظرتي عن تييّث وديئان ولويسا. الأب والأخت لمّا يصلا، كانا يسيران معاً، يتشبّث كلّ منهما بذراع الآخر بشيء من الصعوبة، هو بسبب حذائه المعقود، وكانت ماريا فرناندث وغيّرمو يتبعانهما عن كثب متنبّهين إلى زلّة قدم ممكنة، وبالتالي سقوط الرجل القوي العجوز، أو لئلا يخبطا في برك أخر. ديئان، نعم، كان وصل إلى حيث تصطفّ العربات، وفتح باب عربته، ووقف قربه بالانتظار. كان ينظر صوب عائلته بالمصاهرة تسير ببطء، وبالتالي كان ينظر صوب القبر أيضاً. بالحريّ كان ينظر صوب القبر المطبق، لأن أخ زوجه وأختها وامرأة أخ زوجه وحماه صعدوا ما إن وصلوا عربة أخرى يقودها غيّرمو، وظلّ ديئان مدى لحظات أخرى مستنداً بيده إلى الباب حتّى أصبح من غير الممكن أن ينتظر أحداً ناظراً ومقلّباً النظر إلى حيث كان ينظر نظرة ساحرة. ثمّ دخل العربة، وأطبق الباب، وشغّل المحرّك. كان راجعاً وحيداً، فلديه مقعد فائض، وما كان يقلّ أي راكب، ووجد إينيس وبيئته متّسعاً لهما. "كان بإمكانه أن يقلّني أنا"، فكّرتُ بعد لحظة قصيرة لمّا انطلقوا جميعاً، وتأهّبتُ للخروج، يقيناً لم يكن المكان باب (بالاس). وخطر لي فجأة هذا التفكير الآخر: "لكنه لو أقلّني، لكَفَفتُ في هذه الحالة أيضاً عن أن أكون (لا أحداً)، من الناس".

كَفَفْتُ بمعنى ما عن أن أكون (لا أحداً) من الناس بعد شهر من ذلك، وأبطأتُ مدّة أخرى، هي ثلاثة أيّام على ديئان، وساعات معدودات على لويسا حتّى كنتُ كذلك. أعني أني صرتُ بعد فوات شهر أحداً ما في نظر تييّث وصهره وابنته الأولى أو الثالثة (الثالثة حسب ترتيب الولادة، والأولى الآن على قيد الحياة). صار لي اسم ووجه ينظرون إليه، وتغدَّيتُ معهم، لكنّ الرجل الذي كان شهد موت مارتا، أو لم يُعِنْها في موتها عوناً كافياً، ما يزال (لا أحداً) خلال هذا الغداء، وإنّما لم يكن أحداً آخر غيري أنا، وإني على يقين من ذلك، أمّا هم، فعلى العكس، كانوا في شكّ من الأمر سواء باسم أمْ من غير اسم، بوجه أمْ من غير وجه، لكنْ، ليس كذلك بالنسبة لتييّث الذي نجحوا في أن يخفوا عنه شكل الموت وظروفه، وهو نفسه ما كان له ليشكّ في أحد ما.

لكني عبر الأب عرفتُ هذين الأخوَيْن في آن واحد تقريباً، أمّا تييّث، فقد حاولتُ التّعرّف إليه، وعرفتُه عبر صديق، كنتُ حَلَلْتُ محلّه في مناسبات شتّى، أو كنتُ أعرتُهُ صوتي، وينبغي لي الآن أن أعيره حضوري، وفوق ذلك. سعيتُ وراء هذا الأمر، وأردتُ صنع ذلك خلافاً للمرّات الأخرى. هذا الصديق يُدعى أو يجعل الناس يدعونه باسم رُوبيرّث ديتورّس، ويتمتّع بمظهر شائن. إنّه كاتب مكدّ وحسن الاستماع وذو قريحة تقليدية، أو بالحريّ سيئ الحظّ (أدبيّاً)، لأن أدباء آخرين أقلّ كداً منه، وفي آذانهم

وقر، وليسوا من ذوي القريحة من أي ضرب كانت، يُعَدّون وجوهاً بارزة ومُكرَّمين، ويحصدون الجوائز (أدبيّاً). نشر منذ سنين خلت، أي مذ كان شاباً، ثلاث روايات أو أربعاً. حظي بشيء من النجاح في الرواية الأولى أو الثانية، لكنّ هذا النجاح لم يُثمر، بل تضاءل؛ هو وإن لم يكن اسمه كبيراً جدّاً، كان له وقع حسن عند كبار القوم، أي نسيه الناس كاتباً ما خلا أولئك الذين قضوا دهراً في المهنة، وفوق ذلك لا يعلمون عن التّقلّبات والتغيير شيئاً كبيراً، هم متقوقعون وقليلو الفطنة، وموظّفو أدب ونقاد عتيقون وأساتذة حقودون وأكاديميون راكدون وميّالون إلى اللهو، وناشرون يرون في التّذمّر الدائم من انعدام الحساسية الأدبية مسوّغاً كافياً للتقاعس، فلا يعملون شيئاً، وهذا ما يحدث في كلّ الأوقات المعاصرة المتتابعة. وها قد أتت أعوام على رُويبِرِّث لم ينشر كتاباً، ولا أدري إن كان بسبب هجره الكتابة، أو ينتظر أن يُنسى نسياناً تاماً، كي يستطيع البدء من جديد (ليس من عادته أن يكلّمني عن مشاريعه، فلا هو ممّن يفضون بالأسرار، ولا هو صاحب أوهام)، لكني أعلم أنه يعقد صفقات غامضة شتّى، وأعلم أنه طوّاف ليلي، ويعيش من موارد نسائه، فهو جذّاب جدّاً؛ ويكبح كلامه بخبث أمام مَن ينبغي له أن يصنع ذلك، وهو يتملّق مَن يحبّ التّملّق، ويعرف خَلْقاً كثيراً من أوساط شتّى، ومعظم الذين يعرفونه يجهلون أنه كاتب، أو كان كاتباً، فهو ليس استعراضياً، ولا يميل إلى التعويض عن المفقود. مظهره غير لائق في بعض الأوساط، ولكنْ، ليس كلّها: فلا يسلك سلوكاً سيّئاً في الحانات وفي المقاهي الليلية، إن لم تكن عصرية جدّاً، وفي عشيّات الأعياد. ويبدو مَرضيّاً عنه في الحفلات الخاصّة (وبالحريّ في حدائق قرب المسابح في أماكن الاصطياف)، ويساهم مساهمة جيّدة في مصارعة الثيران (وله عادة اشتراك في مهرجانات سان إيسيدرو). أمّا رجال السينما والتلفاز والمسرح، فيرونه مقبولاً، وإن كان من طراز عتيق

قليلاً، ورجال الصحافة الشرسون الأفظاظ من المدرسة الفرانكوية العتيقة ومن المدرسة المعادية للفرانكوية (هؤلاء أشرس، وأولئك أخشن)، يرونه معقولاً، وإن كانوا لايعدّونه كأحد منهم، لأنه جميل، بل معجب بنفسه جسدياً؛ لكنه يبدو بين زملائه الحقيقيّيْن من الكتّاب دخيلاً، وهم بهذه الصفة يعاملونه، وهو ذو فكاهة كبيرة، ومُضحك بشخصه، ويتكلّم دائماً كلاماً كثيراً، وما كان يتحاشى معهم الخروج على الأعراف. وكان حضوره في المحافل الرسمية أو في وزارة ما يُحدِث على الفور ذعراً فيها، وهذا تفرضه مشكلة ليست صغيرة، إذا علمنا أن جانباً من دخله يأتي تحديداً من دنيا الأعمال الرسمية والوزارات؛ أسلوبه رصين جدّاً، كما هو كلامه مليح. بلا ريب هو حالة مِنَ الحالات التي يزدهر فيها الأدب باحترام كبير حتّى إنّ ممارسه، مهما يكن طبعه طبع إنسان وقح، لا يعرف عند مواجهته الورق الأبيض، أن ينقل علامة واحدة من علامات هذا الطبع المستهتر النسيّ إلى الورق المحترم الذي لن يسكب فوقه نكتة قطّ، ولا كلمة بذيئة، ولا خطأ متعمّداً، ولا إزعاجاً ما، ولا قحّة. ما كان يسمح لنفسه بأن تُصوَّر شخصيته الحقيقية، ربّما لأنه يعدّها غير جديرة بأن تُمحَّص، ويخشى أن يدنّس هذه المهنة السامية التي يجد الماجن في تدنيسها - إذا شئنا القول - خلاصه. رُوبيرِّت تورّس الذي قد لا يملك شيئاً ما جديراً بالاحترام، يرى الكتابة كأنّها شيء مقدّس (ومن هنا، على الأغلب، عدم نجاحه). فقد تلقّى تأهيلاً جيّداً في علوم (الإنسانيات)، لذلك كان أسلوبه الرصين كاملاً من أجل الخطب التي لا يسمعها أحد، إذا أُلقيَت، ولا يقرؤها أحد، إذا نُسجَت، أو لُخِّصَت في صحف، أي الخطب والمداخلات العامّة (بما فيها المحاضرات) التي يُلقيها الوزراء والمديرون العامّون، ورجال المصارف وكبار رجال الدِّين ورؤساء المؤسّسات ورؤساء النقابات والأكاديميّون المشهورون أو الكسالى، وغيرهم من رؤساء الجمعيات، وكلّهم مشغولون

بإبراز قدراتهم وصورتهم الفكرية التي لا يتنبّه إليها أحد، أو يعدّها الناس جميعاً غير موجودة، لأنه اختار في الأزمنة الأخيرة حياة الكسل، بفضل ضربة حظٍّ موفّقة في تجارة غامضة، أو جرّاء تعامله الدؤوب مع امرأة ثرية، يحظى، في الواقع، بحبّها ورضاها، فسمح لنفسه أن يرفض معظم الطّلبات، أو على الأصحّ، قبلها، وحوّلها إليّ بالمشاركة لقاء خمس وسبعين بالمئة من الأرباح، لكي أُنجزها خلسة وسرّاً (ليس على شكل سرّيّ للغاية). فتأهيلي المهني لا يقلّ عن تأهيله. وهو ما يسمّونه في اللغة الأدبية أسود - وفي لغات أخرى كاتباً شبحاً.. وأنا قمتُ، إذاً، بوظيفة أسود عند الأسود، أو شبح عند الشبح، إذا فكّرنا في اللغات الأخرى، شبح مزدوج وأسود و(لا أحد) مزدوج. وليس في حالتي كثير من الشذوذ، لأن معظم المسلسلات التي أكتبها (خاصّة المسلسلات التلفزيونية) لا أُوقّعها في العادة، فقد اعتاد المنتج أو المخرج أو الممثّل أو الممثّلة أن يدفعوا لي مبالغ ضخمة مقابل غياب اسمي من العناوين البارزة لصالح أسمائهم (وبذلك يحسّون أنهم مؤلّفو أفلامهم على شكل أضخم)، الأمر الذي حوّلني أيضاً إلى أسود، أو إلى شبح نشاطي الرئيس الحالي ومصدر مداخيلي الضخمة. لكن ذلك ليس صحيحاً دائماً، لأن اسمي يظهر في بعض المناسبات على الشاشة مختلطاً بأسماء أربعة أو خمسة من كتاب المسلسلات التلفزيونية) الذين لم أرهم قطّ يصلّحون، أو يضيفون سطراً واحداً، حتّى إني لم أرَ وجوههم قطّ وهم في العادة أقرباء المنتج أو المخرج أو الممثّل أو الممثّلة. وبذلك ينتشلونهم من مأزق مالي مؤقّت، أو يعوّضون عليهم رمزياً عن عملية احتيال سابقة، أتت على مدّخراتهم كلّها. وفي عملين من أعمالي، ارتكبتُ الحماقة بأن شعرتُ بكبرياء غير عادية، فلم أقبل الرشوة، وطلبتُ أن يُدرَج اسمي على حدة تحت الإعلان الفخم: "حوارات إضافية"، وكأنّي ميشيل أوديار في عزّ أيّامه. وعلّمني ذلك جيّداً أن عالم التلفزيون والسينما

والخطب والخطب الفارغة يخلو تقريباً ممّن يكتب ما يُفترض أنه يكتبه سوى أن المغتصبين ما إن يقرؤوا خطبهم على الجمهور، ويسمعوا التصفيق المهذّب أو الشحيح، أو يروا المشاهد والخطب التي وقّعوها، ولم يتصوّروها تُعرض على شاشات التلفزيون، انتهى بهم الحال (وهو أخطر ما في الأمر، وإن يكن غير نادر الحدوث، إذا فكّرنا جيّداً) إلى الاعتقاد بأن الكلمات التي أُعيرت إليهم، أو ابتاعوها بالحريّ، تنطلق من أقلامهم أو رؤوسهم، ويتحمّلون المسؤولية عنها حقّاً (خاصّة إذا لقيت استحساناً من أحد ما، ولو كان فرّاشاً أو مساعد خوري)، وهم قادرون على الدفاع عنها بالسيف، وهذا لا يخلو من جاذبية أو طرافة من وجهة نظر الكاتب الأسود. وقد يذهب الوَهْم بهم بعيداً جدّاً حتّى يحسب الوزراء والمديرون العامّون ورجال المصارف وكبار رجال الدِّين وغيرهم من الخطباء المألوفين أنهم المواطنون الوحيدون الذين يرقبون خطب الآخرين، ويتتبّعونها، وهم جدّ عنيفين مع خطب الآخرين ومدقّقين فيها، كما يصنع الروائيون من ذوي الشهرة بأعمال منافسيهم. (يجرّحون أحياناً من غير معرفة منهم أيضاً نصّاً، كتبه الشخص ذاته الذي أنشأ نصوصهم، وليس فقط من جهة المحتوى والأفكار التي لا مفرّ من أن تكون مختلفة بالضرورة، وإنما يُشهّرون به أسلوبياً). ويجعلون من قضية الخطابة شأناً كبيراً، فيطلبون أن يكون أشباحهم حكْراً عليهم لقاء زيادة تعرفتهم، وإغداق الهدايا عليهم، أو يحاولون السيطرة على أشباح الآخرين - أي يسرقونهم - إذا أحسّ أحد الوزراء مثلاً بالغيرة من نائب حاكم مصرف إسبانية في حفلة إزعاج، أو إذا رأى في صحيفة التلفاز رئيس هيئة محلّفين، وقد قتله الحسد، كيف تُستقبَل بالهتاف خطبة حماسيّة، يلقيها عسكري متشدّق (الاحتكار، ولنقل ذلك عرضاً، تطلّع غير مجدٍ في مهنة، تقوم على السّرّيّة والإغفال: كلّ الكتّاب السود يرضون بها، ويعملون على أساسها، إذاً، هم يعملون فِي سرّيّة مزدوجة بفرح لصالح العدوّ). هناك

مَن يعقد عقود استخدام مع الكتّاب المشهورين الفعّالين (وكلهم يبيعون أنفسهم تقريباً، أو يعيرونها مجاناً لإجراء اتّصالات والتأثير وتوجيه رسائل)، اعتقاداً منهم بأن أسلوب هؤلاء المتغطرس والرائج يرفع من شأن خطبهم، ويجمّل شعاراتهم، من غير أن ينتبهوا إلى أن الكتّاب المشهورين المحنّكين هم أقلّهم انتداباً لهذا النوع من المهامّ الوضيعة التي لا ينبغي لشخصية الكاتب فيها أن تمّحي فقط، وإنّما أن تُترجِم وتجسّد شخصية المنعم الذي يقوم بخدمته، أو لا تضطلع به في العادة هذه الشخصيات من الكتّاب، أي أنهم يفكّرون فيما يمكن أن يقولوا لو كانوا وزراء حاكمين أكثر ممّا يفكّرون فيما عسى أن يقوله وزير حاكم فعلاً، وهي فكرة يستحسنونها، وفرضيّة لا يكلفّهم جهداً طرحها. لكن كثيراً من ذوي المقام الرفيع تنبّهوا إلى هذا الإشكال خاصّة أنهم لمسوا الصعوبات كيما يشعروا أن جملاً بليغة ومتحذلقة هي جملهم ذاتها، مثل: "الإنسان هذا الحيوان المتألّم الشّقيّ"، أو "لنصنع عملنا برحابة صدر، تسع الدنيا". فتحمرّ وجوههم خجلاً. ويصبح ناس مثل رُويبِرّث أو مثلي فرسان الساحة، ناس مثقّفون، أو على الأصحّ نكرات، ويعرفون الصرف، ويحسنون انتقاء الكلام، ولنا القدرة على التمويه، والقدرة على الانسحاب من الميدان، إذا احتجنا إلى ذلك، لسنا طموحين جدّاً، ولا نتمتّع بحسن حظّ كبير. وإن يكنِ الحظّ متقلّباً.

وفي مناسبات أخرى، يريد صاحب المقام السامي الذي يعمل ويطلب دائماً من خلال الوسطاء (يظلّ هو بعّامة بعيداً جدّاً) أن يتعرّف إلى كاتبه الأسود، ليمدّه بالتعليمات مباشرة أو ليعجب بشخصه، فيصيبه بشيء من العدوى منه، بل لمجرّد الفضول أيضاً، وقلّما يُسمح به، وهذا ما أثار المشاكل في وجه رُويبِرّث. هو واعٍ بمظهره الشائن، ويعلم أن المسألة لا تكمن في اللّبس ولا القول ولا السلوك، وإنما في الأسلوب والطبع، وبالتالي بشيء ما مستقرّ. لا يعني ذلك أنه يبدو سيّئ الهندام، ولا يسرّح شعره

تسريحة، فيها غشّ (يجعل الفَرْق منخفضاً جدّاً، ليغطّي صلعته مثلاً)، أو أنه لا يغتسل ويرشّ العطر أو يعلّق سلاسل في عنقه، ولا شيء من هذا. وإنما هو يحمل جوهر الوقاحة مطبوعاً على وجهه وسلوكه وطبعه وشفته التي لا يقرّ لها قرار. هو ما كان يجعل أحداً مهما يكن حظّه من الحذر، موضوعاً لاحتياله، لا لنقص في رغبته في ذلك، ولا في قدراته، إلا إذا رأى الحيلة ستنطلي عليه منذ اللحظة الأولى وعن بُعد، ولو كانت نواياه لا تنطوي على الاحتيال. لحسن حظّه، لم يكن يندر وجود الساهين الغافلين، وهكذا استطاع أن يخدع كثيراً من الرجال والنساء في حياته، والحبل على الجرّار. لكنه يعلم أنْ لا حيلة له مع مَن يملك أدنى قدر من الذكاء واليقظة. (لذلك يحيط نفسه بأشخاص ساحرين، هم ضحايا ممتازون من الرجال المزهوّين ومن النساء الساذجات). وإذا عجز عن مداراة غشّه، يحجم عن الإتيان به أيضاً، ويترك نفسه ينساق برغبته، وبهذا الطابع الشفّاف لاحتياله، حتّى إنّ أحد الرجال البارزين أراد أن يقابله ذات مرّة من المرّات النادرة كيما يزوّده بتعليماته أو يمتحنه، أو ليطلب منه نبذة معيّنة من خطابه أو مقاله، فوجد هذا الرجل نفسه أمام فرد مفرط في حسن ابتسامة ودّيّة متواصلة بإفراط، ويكشف عن أسنان بيض ومثلّثية الشكل وسليمة بإفراط، وله شعر جميل مسرّح إلى الخلف، ومقرنص عند الصدغين، وفيه شيء من السمنة، لكنه أرثوذكسي في انتصاب قامته، في رأسه بعض الشعرات البيض التي لا تضفي عليه احتراماً، لأنها تبدو مصبوغة صبغاً، أو هي من زئبق (شعر موسيقي)، وهو غاية في الودّ والظَّرْف، وذو موقف ليس فيه من التواضع شيء، وتفاؤله ضخم، هو شخص مرح ولا يريد شيئاً إلا أن يُشيع المرح، أو لا يعرف صنع شيء سوى محاولة إشاعته، عقله مملوء بالمشاريع والإيحاءات وأفكار كثيرة غير مطلوبة، ونشاطه مفرط، يثير بعض الذهول، ويوحي لا محالة بانطباع بأنه يبحث عن شيء ما أكثر ممّا يُطلب منه، باختصار هو

داهية، أجفانه طويلة مقلوبة، وأنفه مستقيم ناعم بارز مع نتوء في عظمه واضح جدّاً. وشفته العليا تنقلب إلى فوق إذا ابتسم أو ضحك (وهو يضحك ويبتسم كثيراً)، كاشفاً عن جانبها الداخلي الأرطب، مضفياً على وجهه قحة لا تُنكَر، وتبدو لا إرادية (ولا غرو أن يأسر قلوب كثير من النساء). هو منتصب القامة دائماً، ليبيّن غياب كرشه، وليبرز عضلات صدره، وإذا كان واقفاً، يكتّف ذراعيه على شكل تسقط كل يدٍ من يَدَيْه على عضلة عضد الأخرى حتّى يبدو أنه يداعبها أو يقيسها. هو أحد الأفراد الذين يراهم المرء دائماً أيّاً تكنِ الثياب التي يلبسونها، كأنّهم بلباس السباحة منتعلين حذاء طويل الرقبة. وأحسب أني قلتُ بذلك حوله ما يكفي. والصحيح أن الأشخاص البارزين إذا ما رأوه ينتابهم الذعر، ويكفّون عن عمل شيء، "آه! لكنْ، لا!"، هذا ما قاله بالفرنسية أحد السفراء السابقين في فرنسا الذي كان سيكتب له مقالاً دولياً دقيقاً. "لقد جلبتُم لي حثالة، جلبتُم لي قوّاداً، بل القوادة مشخّصة، ماذا أقول؟ أتريدون أن تضعوني تحت رحمة ديّوث؟!" وانطلقت أخيراً الكلمة البلدية من فمه. ولم يشأ السفير أن يستمع إلى حجج، ولا أن يرى أي نصّ من نصوصه، ورفض العمل، وعاقب الوسيط. وقد عزم أحد المديرين العامّين للكتاب، الذي أخلص له العمل على شكل رائع (ثلاث خطب كاملة وفارغة ومضجرة كالعادة، لكنها ملأى بالشواهد الموحية من كتّاب ليسوا فاسدين) عزم على ألا يكلّفه بعمل بعد أن قابله ذات يوم في مكتبه: دام اللّقاء دقائق معدودات، لأن رُوبِرّث أراد أن يتظارف، فحدّثه عن هؤلاء الكتّاب الذين يستشهد بهم دعماً لمقاله، وهذا ما أثار غيظ المدير العامّ، ذلك أنه لم يذكّره فقط بأنه ليس المؤلّف الحقيقي لمقالاته ذات الكفاءة، كما وصل به الوَهْم حتّى تلك اللحظة ذاتها بفضل عملية تفكّك هامّة (على الرغم من وجود كاتب أسود أمامه)، وإنما منعه فوق ذلك من المشاركة في الحديث، وأرغمه على التلعثم،

لأنه كان خلوّاً من الفضول، فما كان يعرف شيئاً عن هذه الأسماء التي كانت تنطلق من شفتيه، وتحصد له التصفيق، خاصّة من أتباعه. ونعلم أنه شرح فيما بعد لهؤلاء الأتباع: "هذا الروي بيرّي تفوح منه رائحة العفن، ويبدو لي مهرجاً" (ولفظ Berry كما يلفظها الإنكليز)، "لا أريد أن أعرف عنه شيئاً بعد اليوم، هو اسم ساقط حقّاً؛ وهو لا يصنع شيئاً بالطبع سوى الحديث عن مؤلّفين غامضين وتافهين، لا يعرفهم أحد، وما أدرانا إن كان يضع ألغاماً في مقالاتنا، ليُسيء إلى سُمعتنا؟ قولوا للسّيّد بيري (وهنا لفظ الاسم كما يلفظه الفرنسيون بنبرة حادّة) إن خدماته حقيقة أصبحت غير مطلوبة، ولا ضرورة لها. ادفعوا له كيلا يغتابنا، واصنعوا معروفاً بالطبع أن تبحثوا لي عن كاتب أسود حقيقة، لا يبدو بثياب البحر". وكان ينبغي لرُويبِرّث أن ينتظر استقالة المدير العامّ حتّى تعهد إليه المديريّة العامّة بشيء ما مرّة أخرى. فحفظ الدرس، وها هو أتى عليه دهر، لا يقبل أن يقابل المتعاقدين معه، أو بقول آخر يقابلهم، إذا لم يجد بدّاً من ذلك، فيعمل على أن يبعثني عوضاً عنه بالاتّفاق مع الوسطاء الذين يدركون أنّ سناتوراً أو مبعوث الباب تتعقّد أمورهما، أو يصابان بالحرقة، إذا لقيا شخصاً متأنّقاً، ويبدو كَمَنْ يرتدي برنس حمّام، أو ملابس بحر (مظهري أكثر تحفّظاً، ولا يثير الذعر). لذلك لم أكن صوته أحياناً، وإنما شكّلت وجوده أيضاً من غير رغبة، لأن التعامل مع عليّة القوم ضارّ في العادة.

إذاً، قصدتُ رُويبِرّث الذي كا ن مطّلعاً على كثير من الأمور، ويعرف كثيراً من الأشخاص، وسألتُه عن معالي خوان تييّث أوراتي. لسوء الحظّ ما كان يعرفه شخصياً، وإن كان يعلم مَن هو، أي أمدّني ببطاقة عنه، وقال هو أستاذ في الفنون الجميلة، وأحسبه أستاذاً في التاريخ، ومن هنا جاءه لقب (معالي)، وإن كانت صلاته يمكنها أن تكسبه إيّاه، وأنا أفترض أنه حصل عليه من كلتا الجهتَيْن، ومِا يزال قادراً على الحصول على لقب

آخر أقلّ سموّاً، من الآن حتّى موته، لأنه على صلة حسنة بالبيت الملكي. ولئن انسحب من الحياة العامّة منذ عهد طويل، فإنه يقدّم له الخدمات، فهو من رجال الحاشية الجيّدين منذ عشرين عاماً، أو تزيد. لم يكتب شيئاً كبيراً، أي لم يكتب كُتُباً، لكنّ له نفوذاً، أو كان له نفوذ، وما يزال ينشر مقالات حول حذلقات قديمة في صحيفة ما. أحسبه مواظباً على حضور الجلسات الأكاديمية، لعدم وجود نشاطات أخرى صار مُبعَداً عنها. فهو على شفا الوداع، وأنا على يقين بأنه يقاوم، كيلا يصبح كذلك كما يفعل معظم الخَلْق. أمّا ما يُبقيه طافياً، فهو صلاته بالقصر، فلا تُحجب عنه من هذا الجانب أيّة رعاية إلا ما ندر منها، كما سمعتُ. هذا ما أعلمه عنه. ولا أدري إن كان كافياً. لكنْ، لماذا؟

هذا ما قاله رُويبِرِّث ونحن جالسان أمام حاجز البار في اليوم التالي لدفن مارتا تيبِّث. لم يذكر هذا الموت، ولا يبدو أنه على علم به. وقد جعلتْني معلوماته أعجبُ من أن ثلاثين شخصاً فقط حضروا هذا الدفن، وعجيب أيضاً من أني لم أرَ وجهاً واحداً ممّنْ أعرفهم من وجوه التلفاز والتصوير. ربمّا آثرت العائلة أن يكون الاحتفال خاصّاً جدّاً نظراً لظروف الوفاة التي يصعب شرحها. لكنها نشرت في المقابل إعلاناً، وإن يكن في الواقع صباح يوم الدفن، والناس لا تقرأ الصحيفة فجراً، ولا في الصباح الباكر جدّاً: وربمّا أتمّت بذلك واجبها الاجتماعي، وتجنّبت، في آن واحد، حضور أشخاص ربمّا بدوا لها متحرّين أو دخلاء في تلك الأوقات.

- لا لشيء جدير بأن أحكيه الآن. - أجبتُ. - إذ لمّا يمضِ وقت كافٍ، كيما يصبح موتي حكاية (موت مارتا موتي أنا، لأني شهدته فحسب، وليس بعيداً عن أن أعدّه موتي، لو كان لي أدنى يد في تسبّبه)، ولئن كنتُ أعلم أن رُويبِرِّث صديق مخلص لأصدقائه، فإني لم أستطع الثقة به ثقة تامّة.

أنا أستلطف وجهه الذي يصبح بكر السنين أكثر وداً. لكنه لم يكفّ بسبب ذلك، عن أن يوحي إليّ بالخطر والخوف. وأنا أيضاً أراه أيّاً تكنِ الثياب التي يلبسها بلباس البحر، كما يراه سائر الناس. وهكذا كنتُ أراه ذلك اليوم، على الرغم من أننا كنّا نلبس ملابس شتوية ونحن جالسان على شكل غير مريح على كراسي واطئة أمام الحاجز، وكأنّ الجلوس هنا دلالة على الشباب، وهو وسيلة أيضاً لمراقبة الأماكن، وتسهيل الاندفاع في الهرب. وأنا أتصوّره جيّداً وهو يجري في الفجر هارباً من حجرة بائسة، أو وكر للقمار واضعاً زهرة في عروة سترته العليا. وربّما تصوّرتُه والزهرة بين أسنانه. - وديئان؟ أتعرف عنه شيئاً؟ أقصد إدواردو ديئان. - لاحظتُ أنْ /روبيرث ظل مدى لحظة ساكناً، وكأنّها ليست المرّة الأولى التي يسمع فيها هذا الاسم . - إدواردو ديئان بيّستيّروس - أكملتُ.

مرّ رُويبرِّث بلسانه على شفته العليا التي انقلبت إلى فوق (لكنه كان الآن يفكّر). ثمّ نفى بهزّة من رأسه.

- لا!

مكتبة t.me/ktabrwaya

- أأنتَ واثق؟

- لا أعرف عنه شيئاً. حسبتُ للحظة أني أتذكّر هذه الكنية. لكنْ، لا، أو أني أعرفه، ولم أنجح في تذكّره. يُخيّل أحياناً إلى المرء أنه يتذكّر شيئاً لمجرّد ذِكْره، لكنْ، ما إن تمضي لحظة واحدة على هذا الحاضر القريب حتّى يبدو ماضياً سحيقاً. أظنّ هذا ما حدث لي. مَن هو؟

ما كان بمستطاع رُويبرِّث أن يتجنّب السؤال؛ وهو لم يطرحه عن طيش بحقّ، أو عن فضول مزمن أكثر ممّا هو عن ثقة، عالماً أني إذا كنتُ لا أرغب في أن أجيبه، فلن أفعل، وأجعل ذلك واضحاً له، كما فعلتُ من جديد:

. لا أعرفه معرفة جيّدة، وإنما أحفظ اسمه فقط. - وكان ذلك صحيحاً، فأنا أعرف عن حالته الاجتماعية أنه متزوّج، ثمّ أرمل، لكني لا أعرف شيئاً عن مهنته. فقد ذكرتْ لي مارتا اسمه الأوّل على شكل طبيعي، ولا يُطاق، مرّات عدّة، لكنْ، ضمن المجال الزوجي والعائلي دائماً، وليس في أي مجال آخر، ولا هي حكت عنه في المناسبتَيْن الأخريَيْن القصيرتَيْن، وكأنّها لا تريد أن تخفي أنها متزوّجة (وما كانت تخفي). لكنه لم يكن يتردّد على لسانها كثيراً. - أتعرف أفراداً آخرين من عائلة تيبّث؟ مثل لويسا تيبّث وغيّرمو تيبّث؟

. ربمّا كان الشخص الثاني منهما ابن غيّرمو تل واضعاً على رأسه تفّاحة، اخترقها السهم. - ما كان رُويبِرِّث يستطيع الإحجام عن إلقاء النكات. وحكّ ركبته الموضوعة فوق الأخرى بحركة مرحة. ولا هو كان يمتنع عن إلقائها أيضاً أمام مَن لا يقدّر النكتة سواء أكانت صالحة أم سيئّة. وهنا كان سقوطه لا محالة، وتلك كانت إحدى مشاكله. انتظر أن أقرّ له بالظرف. وابتسم قليلاً كيما يتابع - أعرف شخصاً في الإذاعة والتلفاز - أضاف - لكنه لا يُدعى غيّرمو. أهما ابنا تيبّث أوراتي؟

- نعم، هما ابناه - وكنتُ على وشك أن أضيف "ابناه الباقيان على قيد الحياة"، لكني لم أضفْ شيئاً، ولو فعلتُ، لكان جرّ عليّ ذلك مزيداً من الأسئلة من صديقي. - أتوجد طريقة لمعرفة تيبّث الأب؟

واندفع رُويبِرِّث في الضحك الآن، وقد انقلبت شفته، وبانت الأسنان البرّاقة كأنّها ستنفجر، ونظر إليّ باستهزاء. وأمسك بكلتا يَدَيْه بالمنديل الذي كان يضعه على عنقه، وظل على عنقه منذ دخوله كنوع من الزينة، على الرغم من أن المكان كان مدفّأ. (أمسك به، ليكبح قهقهة قصيرة). كان يلاعب بنطاله، وهو كالمنديل بلون خام، لون مميّز، لكنه أكثر ملاءمة

لفصل الربيع. كان ألقى على أحد الكراسي الواطئة القريبة معطفه الجلدي الأسود، إذ كان يلبس أحياناً معطفاً بهذا اللون، وكأنّه يظهر في فيلم عن SS، وكان يُسر بأن يبدو لافتاً للنظر من غير جهد.

- ما مصلحتكَ بالاتّصال بهذه المومياء؟ لا أحسبكَ ستعقد صفقات ملكية.

- لا، بالطبع لا. لقد قلتُ لكَ ذلك منذ قليل. - أجبتُ. - ولستُ واثقاً برغبتي في معرفة مَن هو، ولا أجد الدافع بوضوح شديد، لكنه الوحيد الذي نعرف عنه شيئاً بينهم جميعاً. لعلّ ما أرغب فيه أن أعرف ابنيه. أو ابنته. سيكون الأب وسيطاً.

- وديئان هذا، ما شأنه؟ - سأل رُوبِرِّت.

- أهناك وسيلة للاتّصال بتييّث؟ - سألتُه مشدّداً، ولأتجنّب إجابته أيضاً.

يُسرّ رُوبِرِّت بصنع المعروف، أو على الأقلّ، يبدي استعداده لصُنعه، وهذا يُسر به الناس جميعاً، يسرّهم أن يفكّروا، ويشكّوا، ويقولوا بعدئذ: "سنرى ما يمكننا صُنعه". أو "سأفكّر في الأمر"، أو "سأرتّبُ لكَ الأمر"، أو "سأهتمّ بقضيتّكَ". وفكّر، لكنْ، مدى لحظات معدودات (هو رجل عمل يفكّر سريعاً، أو لا يفكّر تقريباً). ثمّ طلب من النادل بيرة مرّة أخرى (رُوبِرِّت من الرجال القلائل في يومنا هذا، الذين يجرؤون على التّصفيق بأيديهم، أو الفرقعة بأصابعهم في الحانات والسطيحات، ولم ألحظ قطّ أن استهجن فعله نادل، أو شعر بالإهانة، وكأنّ لديه صكّ غفران للحفاظ على الممارسات السّيّئة التي كانت معروفة في الخمسينيات، وكان انتماؤه إليها لا يُدحَض - لأن المرء يتعلّم في الطفولة، ويقلّد - وبالتالي كانت حركته مفهومة. والآن طقطق بأصابع يَدَيْه مرَّتَيْن، بالإصبع الوسطى والإبهام،

الإبهام والوسطى). ثمّ رفع ساقاً عن ساق، وانتصب واقفاً، بذلك صار أطول منّي، ومال صوبي كثيراً، وكأس البيرة في يده اليمنى، وعلى شفتيه بسمة كبيرة متفجّرة، وقال:

- بإمكانكَ أن تعمل عمل صحافي دائماً. يقيناً هو سيُسرّ بأن يمنحكَ مقابلة. كلّما كنّا مَنسيّيْن وعجائز، انقلبنا مجانين، إذا أولانا أحد ما اهتماماً، عجائز يصبحون قلقين، فقد انتهى زمنهم.

- أنا لا أحبّ التعامل بالغشّ، هذه المقابلة لن تُنشَر، وسيكون هو بانتظارها: أتوجد وسيلة أخرى؟

كتّف رُوبيرْت ذراعيه، وجعل يَدَيْه تسقطان على عضلتي عضده. كان واقفاً، وكان يبدو مرحاً، شيء ما جعله يمرح، لعلّها مكيدة، لعلّها خديعة.

- يمكننا العثور على وسيلة - قال. - لكنكَ قد تُضطرّ، على الأغلب، إلى عمل صغير دقيق.

- ما هو هذا العمل الصغير؟

- لا تهتمّ. لن تعمل شيئاً سوى ما تعرف صُنعه. - ولحس بلسانه شفتيه، وظهرت الوقاحة على وجهه. وألقى نظرة على ما حوله، وكان في نظرته مزيج من البحث عن فريسة ما أو مخرجٍ للهرب. - أمهلْني قليلاً، فلربّما بضتُهُ لكَ بيضاً.. قال الجزء الأخير من الجملة بشيء من الإثارة، دلّت عليه قمسات وجهه: (ربّما بضتُهُ لكَ بيضاً)، وكان له صدى يشبه أن يكون: "دَعْهُ على عاتقي"، أو "سأحلّ لكَ الأمر"، أو "لا تعرف ما هي خطّتي". - ألا تريد أن تقول لي ما هي نواياكَ؟

أردتُ أن أجيبه بالحقيقة، فأقول له: "في الواقع، ليس لديّ نوايا، وإنما

حدث لي شيء رهيب ومضحك، ولا أكفّ عن التفكير فيه وكأنّني مسحور: لا أريد التّحقّق من شيء، لأني لا أملك شيئاً أتحقّق منه، ولا أريد أن أنقذ شيئاً، لأنها هي أصبحت في عداد الأموات، ولا أريد أن أحصل على شيء، لأني لا أجد شيئاً لأحصل عليه، اللهم إلا أن يكون إلقاء اللوم على أحد ما، أو بغضه بغضاً غير مسوّغ، لوم ديئان هذا مثلاً، أو لوم تييّث ذاته، أو ابنَيْه الباقيَيْن على قيد الحياة، أو حتّى بغض هذا النكرة بيثِنْته الطاغية الذي يعافس من غير خفاء، أنا لم أبلغ، فأصنع ذلك تلك المرّة، أوّل مرّة. ولا أريد أيضاً أن أحتلّ موقع أحد، ولا أؤذي أحداً، ولا أغتصب شيئاً، ولا أنتقم من أحد، ولا أكفّر عن خطيئة، وأحمي، أو أهدّئ ضميري، وأطرد خوفي، ولا أرى سبباً لذلك، فأنا لم أصنع شيئاً، ولم يُصنَع لي شيء، وقد انقضى السوء أو الأسوأ من غير سبب، ولا يحرّكني شيء من هذه الأشياء التي تحرّكنا دائماً، وتتحرّى، وتُنقذ، وتحصل، وتزيح، وتُلحِق الأذى، وتغتصب، وتكفّر، وتحمي، وتهدّئ، وتطرد، وتعافس، وإذا كان لا يوجد شيء يحرّكنا، فلا يمكن لنا أن نظلّ ساكنين، ليس في أماكننا، وكأنّ تنفّسنا البسيط تنبع منه الأحقاد والرغبات الفارغة والعواصف التي كان بإمكاننا أن نُوفّرها على أنفسنا. والآن، ليس فقط أنه لا يوجد شيء أرغب في معرفته، وإنما هذا أنا من ينبغي له أن يسكت، ومعي أنا يمكن تحرّي الأفعال، والخطوات أيضاً، أو تُنتزع منّي قصّة وأرغم على أن أحكي، أن تُتحرّى أفعالي السلبية، وخطواتي المسمومة. "لكنهم لم يصنعوا شيئاً سوى أنهم بدؤوا، وإدواردو كما أرى، على استعداد للقائه". سمعتُهما يقولان، وهذا الضمير (الهاء) يعود إليّ، وليس إلى شخص آخر، حتّى ولا إلى بيثِنْته الذي سيكون في قبضة يدي، لو كشفتُ عن نفسي، والذي وُجّهت إليه الجملة فعلاً ببراءة. ليس لديّ نوايا، وإنما حدث لي فقط أمر رهيب ومضحك، وأشعر بنفسي كأنّني تحت هيمنة سِحر، كأنّني مؤخَذ، ومرصود، ومطروق، ومسكون، رأسي

مسكون، وجسمي أيضاً مسكون Haunted، يسكن رأسي مَن لم أعرفه إلا ساعة موته، ومن خلال قبلات، كان بإمكاننا توفيرها على نفسينا". ربّما رغبتُ في أن أجيبه بهذا كلّه، لكن الكلمات الخمس الأُوَل كانت كافية لإثارة الفضول لدى رُويبِرِّث أكثر ممّا أثاره الجواب الذي أجبتُه به، وهو أكثر شيوعاً وأبسط وأقرب إلى الفَهْم.

- ليس الآن!

ما كان يفصلنا عن موعد الغداء غير وقت قصير، لما افترقنا، وكان يُحَسّ بالظهيرة كأنّها الصباح؛ كان المطر يسقط في الخارج، وكنّا نراه من خلال ألواح البلّور الكبيرة، أو من خلال الناس الذين كانوا يدخلون مبتلّين من الباب الدوّار، وقد عرقلتْهم مظلاتهم التي ما تزال سيّئة الإطباق. كان المطر يسقط، كما يسقط مرّات كثيرة على مدريد الخالية من الناس، رتيباً متعباً من غير ريح تقتحمه، وكأنّه يعلم أنه سيدوم أيّاماً، فلا هو غاضب، ولا هو على عجل. كان الصباح برتقالي اللون مخضرّاً، وربّما كان المطر يهطل بعجلة، تقلّ عن هطوله على بُعد قليل، على ما بَعْدَ مركز المدينة، وعلى ما وراء الحارات، على قبر مارتا تيبّث، قطرات تنسكب على الحجر الذي سيغتسل مجاناً حتّى نهاية الدهور، أو نهاية الحجر. ولئن هطل فقط بين حين وآخر على هذا المكان ذي الهواء الجافّ، فهي كانت مَحتمية منه، وفوق ذلك، لن تهرب، كما يهرب السابلة في (غران بيّا) عابرين الإسفلت بسرعة منسحبين من الرصيف باحثين عن طنف الأبنية والمحلات ومداخل المترو للاحتماء منه، كأجدادهم الذين كانوا يعتمرون قبّعات، ويلبسون ثياباً فضفاضة، لمّا كانوا يُهرعون للاحتماء من قصف الطائرات في أثناء الحصار الطويل محكمين وضع القبّعات، تاركين الثياب الفضفاضة تطير، كما رأيتُها في وثائق حربنا الأهلية المؤلمة وصورها: وما يزال على قيد الحياة بعض

من أولئك الذين هُرعوا حينئذ، كيلا يُقتلوا في حين صار في عداد الأموات بعض ممّن وُلد بعدهم، وما أغرب ذلك! فتييّث ما يزال حياً، أمّا ابنته مارتا، فليست كذلك. احتمت مجموعة من الأشخاص تحت ظُلة الحانة ودرجها، هذه الحانة التي كانت موجودة في عقد الثلاثينيات، وبالتالي شهدت منذ ما ينوف على نصف قرن سقوط القنابل في مدريد المهجورة على المارّة الذين لم يهربوا. ولسوف نجد مشقّة في الخروج متى خرجنا.

ألقى رُوبِرِّث قبضة من ملبّس اللّوز في حلقه، ونظر بخوف إلى معطفه النازي، فلسوف يتبلّل، وهذا يُسبّب له الضجر. اعتذر، وذهب إلى المغسلة، وأبطأ أطول ممّا هو محسوب، ولمّا عاد، فكّرتُ في أنه تناول جرعة من مخدّر لمواجهة المطر، والضرر المرتقب الذي سيلحق بمعطفه، والغداء المنتظر الذي سيناقش خلاله بلا ريب بعض الأمور الهامّة، فلا يوجد شيء يتدخّل فيه إلا وله مصلحة به. أعلم أنه يتناول المخدّر من حين لآخر، ليظلّ مرحاً مدّة أطول، ويشعر بالمتعة، ويستطيع متابعة إثارة الحيرة، وهذا ما جلب عليه مشاكل مع زبنه خاصّة أولئك الذين يهتمّون بهذا الصنف، وينتهون بأن يطلبوه منه. ظلّ واقفاً قرب الكرسي كئيباً ومفتكراً، وكأنّه يحزن لشعوره بأنه مُبعَد عن المشاريع الهامّة التي تُناط به فوق ذلك، في مراحلها الأولى.

- حسن! كما تشاء. لا تحكِ لي شيئاً، وعلى هذا اتّفقنا. - قال لي. - لكنْ، لا تسألني أنتَ أيضاً في الوقت الحاضر. الأمر ممكن، لكن الوسيلة دقيقة. أمهلْني قليلاً، وأنا سأُعلمكَ متى حصلتُ على شيء ما.

ثمّ نفخ صدره بعضلاته الجذعية النامية جدّاً، وأمسك معصم يده اليسرى بيده اليمنى كما يفعل المصارعون قبل دخول المعركة، ومضى يحدّثني عن تجارته الرابحة مع النساء أو يطلعني عليها.

لم أسأله خلال الفترة البسيطة التي ضربها لي موعداً، أو بالحريّ خلال كل الوقت الذي شاء. فلم أهتف إليه، ولم أعلم عنه شيئاً مدى شهر تقريباً، قضيتُه حتّى عرفتُ تيبّث وديئان ولويسا، الأب أوّلاً، ثمّ البنت، فالصهر، وهذان عرفتُهما في آن واحد تقريباً. ولم أسأله حتّى هتف إليّ في ختام هذه الأسابيع الأربعة قائلاً:

- آمل أنكَ ما تزال مهتمّاً بأمر تيبّث أوراتي.

- نعم، ما أزال. - قلتُ له.

- لأني وجدتُهُ لكَ. وسأقدّمكَ إليه، أو على الأصحّ، ستعرفه أنتَ من غير أن أكون حاضراً. لكنْ، هيّئ نفسكَ، يا رجل، فليس هو الشخص الوحيد الذي ستتعرّف إليه.

- سنرى. وما هو العمل الدقيق المطلوب منّي؟

رُويبِرّث يصنع المعروف، وهو في غاية الرضا، لكنْ، لا يفوته إبراز جدارته، ومن ثمّ، تذكرها خلال أشهر وسنوات طالباً أن تُقدّر مهارته وجهده.

- لا تحسب أني لم أتعب حتّى حصلتُ لكَ على ذلك كله، من غير خداع كما طلبتُ. لقد كلّفنيَ ألفي مخابرة هاتفية، وكثيراً من الانتظار، وكثيراً من الوسطاء، ولقاءين اثنين. والمطلوب: ستتولّى كتابة خطاب (للوحيد).

- للوحيد؟

- ذلك كما يسمّيه المقرّبون منّه: الوحيد الواحد، سولوس، وحتّى المتوحّد، ومن ثمّ، السُّهلي، ويسمّونه أيضاً الوحيد الأوحد، و(أنتَ وحدكَ)، وهكذا. فكلّما اقتربت من أحد العظماء، قلّ استعمال اسمه

أو كنيته، وتييّث قريب منه جدّاً، سبق لي أن قلتُ لكَ. لقد سارت القضية ببطء قليلاً، كما ينبغي لها أن تسير، لكنها الآن شارفت على نهايتها: علمتُ من شخص في الوزارة أن الوحيد ليس مسروراً بخطبه الأخيرة، ولم يكن مسروراً بها قطّ كثيراً، وهو مدقّق جدّاً في هذا الشأن، وقد جرّب هو وأنصاره كل شخص من موظّفين وأكاديميّينْ وأساتذة جامعات وكتّاب بالعدل، وكتّاب أعمدة تافهين، وكتّاب أعمدة قُلّب، وكتّاب أعمدة كتّاب أعمدة، وشعراء مداهنين وشعراء صوفّيين. وروائيّينْ خطّاطين وروائيّينْ أصلاء، وكتّاب دراما مستوحشين، وكتّاب دراما متحذلقين، وكلّهم إسبان للغاية، ولم يكن جدّ راضٍ قطّ: لأنّ أيّاً من هؤلاء الكتّاب السود العرضيّينْ، لا يجرؤ على التّخلّي عن أن يبرز شخصيّته وعظمته، وهكذا صار (الوحيد) يضجر، إذا ما تدرّب على الخطاب المبتذل أمام المرآة في بيته، وإذا ما ألقاه على الجمهور أيضاً، وقد غيظ فوق ذلك، من أنه ما يزال بعد كثير من الخطب ومدّة طويلة من الحكم، غير معروف، وصوته الخطابي لا لون له. هو يريد أن يكون له أسلوبه المميّز كسائر الخَلْق، ويشتمّ منه أنّ أحداً لم يرعَ له ذلك قطّ. ويبدو أنه أراد أن يكتب شيئاً ما بشخصه، لكنّه حيل بينه وبين ذلك، إضافة إلى أنه لم يُفتَح عليه بشيء، فهو لديه أفكار، لكنْ، يصعب عليه تنظيمها. ولقد أوصلتُ إلى تييّث عبر أحد أفراد الوزارة بعضاً من أعمالنا، بالحريّ بعض أحدث أعمالكَ، وهم على استعداد لاختبارنا، وقد توقّفوا من غير استشارة ما، عند محاضرة رئيس (غرفلة البرلمان)، وعند "تحية دَيْر عذراوات إشبيلية" للبابا، ولم يضعوا أيديهم على البذاءة فيها. تييّث محبّذ لنا، وهو مسرور بنا، ويعدّنا من اكتشافه الخاصّ، ويحّس بالسعادة بأن يكون نافعاً مرّة أخرى، ومن رجال الحاشية الجيّدين: لكن (الوحيد) يرغب في رؤيتكَ، وسوف يتحمّل الإزعاج لتحقيق هذا الغرض. حسن! هو يريد أن يرى رُويبرِّث ديتورّس، وأنتَ تعلم أنّي لن

أمثُل في القصر، ولا رغبة لي في ذلك. وتيبّث يدرك الوضع أيضاً، وهو مطّلع على مناهجنا وشروطنا، ويعلم أنكَ مَن سيُنشئ الخطاب، ويدرك أن رُويبرِّث نحن الاثنان من أجل تحقيق هذه الغاية.

- إذاً، أنتَ قابلتَهُ. - قلتُ.

- نعم. ضرب لي موعداً في أكاديمية الفنون الجميلة، ولاحظتُ أنه كان على وشك أن يجعل الحجّاب يمزّقونني، أو يطردونني، ما إن يروني، ناظراً إليّ على أني نشّال، أو لص، وما أدراني كما يجري عادة، وقد رفع يده إلى صدره فوراً، كَمَنْ يلتقي نشّال جيوب، وهو ثقيل الظلّ قليلاً جرّاء التقدّم في السّنّ، لكنه لطيف، ووجهه مألوف في سباقات الخيل أكثر ممّا يُرى في الصور، وكان يحضر السباق من قبلُ، وأصبح لا يخرج كثيراً بعد أن تقاعد. ثمّ اطمأنّ إليّ، وأحسبني لم أقعْ موقعاً سيّئاً منه، هو جامد قليلاً، لكنْ، يمكن التعامل معه. إذاً، حضِّرْ نفسكَ: بعد غدٍ سيمرّ عليكَ الساعة التاسعة، تيبّث نفسُه ليأخذكَ بالعربة، وتلتقيه والوحيد لنصف ساعة أو أقلّ، ولا أدري إن كنتَ ستلقى شخصاً آخر أيضاً، وإذا سار كلّ شيء على ما يرام، فلسوف تكتب الخطاب، ولا أحسب أن ذلك يُلزمكَ بكتابة المزيد منها في المستقبل. يقيناً لن يكونوا راضين أيضاً، هذي هي قاعدتهم، وهذا هو جوهرهم. لا يدفعون أجراً كبيراً، وهي كصفقة متوسّطة، القمامةُ أولى بها، فالبيت الملكي شحيح، تعوّد طويلاً أن يشعر كل الناس بالنشوة، إذا ما كلّفوا بعمل ما، ولا يقبض منهم أحد. وإذا ما كان (الأسود) أحياناً مغروراً جدّاً وخبيثاً جدّاً، أرسلوا إليه سكّيناً صغيراً مقروناً بحرف R(*)، وشعاراً وقطعة نقدية ذات إصدار خاصّ، وصورة عليها إهداء ضمن إطار ثقيل من رسم بيانويبا ولايسيكا، وأشياء أخرى من هذا القبيل، ولقد أوضحتُ

---

*) R= الحرف الأوّل من Real = ملكي.

له أن تعرفتنا مخفّضة، ونحن محترفون. لكن هذا كله ليس من اهتمامكَ. أليس كذلك؟ لأن ما يعنيكَ معرفة تييّث. أحقّاً؟

- وأنتَ لا يهمّكَ أن تكون حصّتكَ مخفّضة أيضاً. - قلتُ له.

- لا، بالطبع، لا.

- أيّ نوع من الخطاب هو؟

- لا أدري ما هو، سيبيّنه لكَ تييّث أو أحد ما من الوزارة في وقت تالٍ، إذا قبلوا بنا. شيء ما سيُلقى خارج البلد: في ستراسبورغ، أغسيغران، وربّما لندن أو بِرن. لا أدري، ولم أبَلّغ بشيء. لكن هذا ما عُرض علينا على الأقلّ. فالغموض يسود كل شيء. ألستَ مَعنيّاً بمقابلة تييّث؟ - ألحّ رُويبِرِّث. كان ينتظر منّي أن أفصح له عن السبب الذي يحدوني لمعرفة المومياء. لقد كان فعّالاً، وإن يكن بأعقد طريقة ممكنة، جرياً على عادته دائماً. فهو يذهب إلى أبعد ممّا يُطلب منه، ويوسّع دائماً دائرة ما يُقترح عليه، فأفكاره ليست مطلوبة ولا حبائله. كان بإمكانه أن يدعوني إلى أكاديمية الفنون الجميلة لحضور موعده السابق، ولكنتُ قرّرتُ، من ثمّ، إن كنتُ أرغب في حضور لقاءات أخرى أو عدم حضورها. لكن الأمر هكذا كان.

- بلى، هذا ما يعنيني. - كانت هذه الجملة الشيء الوحيد الذي أجبتُه به في البدء، أي بمبادرة منّي؛ لكني إذ لحظتُ في صمته أن ذلك الجواب كان يبدو له ضئيلاً، وكان يبدو لي أيضاً كذلك، أضفتُ: - أنا مدين لكَ بواحدة، ولا تعرف كم أشكركَ عليها!

- تدين لي بالقصّة - في وقت لاحق. - قال. - وفكّرتُ في أني كنتُ مَديناً لكثير من الخَلْق بقصّ قصّة، وكأنّها دين يُسدّد، وإن يكن رمزيّاً، وغير

مطلوب، فلا يستطيع أحد أن يطلب شيئاً لا يعلم أنه موجود، أو أحداً لا يعرفه، شيئاً يجهل أنه حدث، أو شيئاً آخذاً بالحدوث، وبالتالي لا يستطيع أن يطلب أن يتجلّى أو يكفّ. فأنا مَدين بها للفضولي والنشيط رُويبِرّث، وللزوج ديثان الذي لم يصنع شيئاً سوى أن بدأ، وهو على استعداد للقائي؛ وربّما أنا مَدين بها لتيبّث الهش والخامل، ولابنَيْه الباقيَيْن على قيد الحياة اللذين لن يُسرّ أحد منهما بمعرفتها، لكنْ، قد تُسرّ بها ماريا فِرْناندث بيرا قريبتهم بالمصاهرة فقط، وسيكون بلا ريب راغباً بالاطّلاع عليها بيثِنْته المثير للغيظ، وإن كنتُ أؤثر أن يكون هو مَن يقصّ القصّة، أما إينيس زوجه، فعلى العكس منه، فلسوف تُصاب بالرعب لو سمعتْها؛ ربّما كنتُ مَديناً بها أيضاً للشّابّة التي كانت عند البوّابة في شارع كونده ديلاثيميرا، فقد قطعت مجادلتها أو توديعها أو قبلاتها، وإن لم تسأل عن هذه القصّة، ولم تسأل عنّي يقيناً، وربّما كنتُ مديناً بها للبوّاب الليلي في فندق ويلبرا هام أوتيل في لندن، فقد أُزعج بسببها في ساعات متأخّرة من الليل أو في ساعات باكرة جدّاً. أنا مَدين بها لأوخينيو الطفل الذي قد يكون عاد إلى البيت، إن كان نُقل منه الليلة الأولى، عاد إلى حجرته هو والأرنب القزم، تهدّدهما مرّة أخرى الطائرات الساكنة المعلّقة بخيوط، وهي تتأرجح تأرجح العطالة بينا يكونان نائمين، حالماً هو الآن بثقل أمّه الغائبة، الذي يصبح كل مرّة أخفّ فأخفّ، مسافرة في إحدى هذه الطائرات، والطفل هو أيضاً تحت وطأة سِحْر، غير أن سِحْره كان يرحل صوب تلاشيه، وسيتحلّل عمّا قريب.

وصلنا أنا وتيبّث مستبقين الموعد بعربة رسمية في الظاهر، لكن (الوحيد) جعلنا ننتظر كما يليق بمستواه ومنصبه، وأفترض أنه يتأخّر دائماً حتّى يبدأ أنشطته اليومية، وإذا تراكم التأخّر يأمر بإلغاء نشاط ما في آخر لحظة مستعيداً بذلك الدّقّة والنظام فجأة، وربّما كان هذا المنهج الخطر بإلغاء الموعد لعنة عليّ بعد مسعاي الدؤوب، وصرتُ الآن على وعي

بأنّنا، وإن كنّا في مطلع النهار، فلربمّا أُلغي لقاؤنا مرفقاً باعتذارات شكليّة، ثمّ ننقلب على عقبينا. فبالإمكان دائماً تأخير رجل من الحاشية وكاتب أسود؛ وانتهز تيبيّث فرصة الانتظار في القاعة الصغيرة الباردة قليلاً، ليُصدّع رأسي مرّة أخرى، بما أوصاني به خلال الطريق، وهو ألا أقاطع، لكنْ، على شرط ألا أُفسح مجالاً للصمت أيضاً، أن أتكلّم إذا سُئلت مباشرة وحسب، أو إذا دُعيت لتقديم عرض، وأن أمتنع عن القيام بحركات فظّة، وعن رفع صوتي، لأن ذلك يثير حنق الوحيد واضطرابه (وهذا ما قاله "يثير الحنق" جملة تُذكَر في الواقع بشيء لا يُنصح به). ثمّ كيف ينبغي لي أن أعامله سواء إذا كلّمتُه أو أشرتُ إلى شخصه، وكيف ينبغي لي أن أحيّي، وكيف أودّع، فلا ينبغي لي أن أجلس حتّى يجلس هو أو يشير إليّ بالجلوس، ولا أنهض لأيّ سبب كان حتّى ينهض، وشعرتُ مسافة الطريق كلّها كأنّي في المدرسة أو عشية المناولة الأولى، ليس بسبب التعليمات ذاتها فقط، وإنما بسبب الطريقة واللهجة التي كان ينقلها إليّ تيبيّث العجوز بمزيج من الرفق والتأنيب والفخامة والانهزام (فهو مستاء من مرؤوسيه وضعيف الثقة بهم)، والآن صرتُ على ثقة بأنه خبير بإنشاء إعلانات الوفاة المبوبّة. ولمّا رآني أطلّ من باب بيتي، أخذ يتحرّاني وهو داخل العربة، وكأنّ السماح لي بالصعود فيها أو عدمه منوط بمظهري (كان الباب الخلفي مفتوحاً، ويسنده بيده النمشاء، وكان وجهه كبيراً، فيه ميل للتّحرّي، وكان حاجباه مفزعَيْن ومقوّسَيْن على شكل مريب، وشعرتُ بنفسي كأنّي عاهرة، يفحصها الزبون، ويقدّمها قبل أن يشير إليها برأسه إشارة، فيها مذلّة، إشارة تعني "هيّا، ادخلي"؛ وبعد أن منحني موافقته التي أكّد له رُوبِرِّث بلا ريب أني سأحوزها، أشار إليّ إشارة، لها طابع الاستعجال بمقبض عصاه المخفيّ، عصا كان يحملها، واحتمى بها لمّا دخلت العربة أخيراً، فالعجائز يخشون دائماً أن يسقط الناس عليهم، وراح الآن يلعب بها، بينما كنّا ننتظر، فكان

يلعب بها حيناً فوق فخذيه، كأنّها سيف، لا حدّ له، وحيناً آخر يجعلها تدور بين ساقيه، وزجّها على الأرض كأنّها فرجار مطبق. لم نكن وحيدَيْن، فمنذ أن أدْخلَنا القاعة - بعد التفتيش - حاجبٌ يلبس ثياباً غير رسمية، أو فرّاش أو ما شئتَ أن تسمّيه، حتّى وجدنا أنفسنا وخادماً ساكناً، أو قيّماً على الأعمال، يلبس على الطريقة القديمة (تعود إلى عصر، لا أستطيع تحديده، لكنه كان يلبس زيّاً رسمياً أخضر اللون، وبنطالاً يتصل حتّى ربلتي ساقيه، وجوربين أبيضين، وينتعل حذاءً لمّاعاً، وإن كان لا يستعمل شَعْراً مستعاراً من أي صنف)، هو رجل عجوز بصراحة حتّى يبدو تييّث إلى جانبه شابّاً. وحيّاه تييّث قائلاً له: "مرحباً، سيغارّا"، وأجابه بفرح: "صباح الخير، سيّد تيّو"، لا شك أنهما عجوزان، يعرفان بعضهما منذ أزمنة أقلّ يسراً. هذا العجوز كان ذا شعر شديد البياض، ومسرّح إلى الأمام كتسريحة الأباطرة الرومان، وكان يقف باستعداد عسكري تقريباً قرب مدفأة لا تُستعمل، وضُعت فوقها مرآة كبيرة مستهلكة؛ وما كان يبدّل من وقفته شيئاً إلا ليجنح مستنداً إلى هذه القَدَم أو تلك، أو ليزيل بيده المندسّة في القفاز خيطاً أو عقدة عن قفّاز اليد الأخرى التي يمرّ بها بالطريقة ذاتها على القفّاز الأوّل من غير نقص. (قفازان أبيضان مثل الجوربين اللذين يذكّران بجوارب الممرّضات ذات العقدة)، لئن شُغلت ثواني قليلة بكيفية توازنه ومقاومته، خمّنتُ أنه أتت عليه سنون طوال، وقد تعوّد المكوث واقفاً حتّى صار ذلك حالة طبيعية فيه، فلا يشعر بالتعب (إلى جانبه فوق ذلك مقعد صغير من مقاعد القصر، ربّما جلس عليه، إذا خلتِ القاعة من الحضور).
وكان في القاعة أيضاً رسّام عتيق، انتبذ منّا إحدى الزوايا حاملاً لوحة الألوان بيده، واقفاً إزاء قطعة كبيرة من القماش، كنّا نرى قفاها، منصوبة على حامل صغير المقياس حتّى يُخشى على ثباتها: لم يلتفت إلينا، ولم يُحيّنا، ولم يصنع شيئاً، بل كان يبدو مستغرقاً في عمل غير منجز، ولربّما

كان يُركّز انتباهه، ليفيد إلى أقصى مدى من الدقائق التي يوشك فيها أن يجد نموذجه، وقد صار قريب المنال، لم يكن يعتمر قلنسوة، لكنه كان يستعمل نوعاً من واقية غبار، أو قبّعة معطف بلون أزرق غامق. كانت لوحة الألوان تتراقص في يده شيئاً غير يسير، والفرشاة أيضاً بذات القدر، إذا ما وضع اللمسات على اللوحة (لا شك في أنه يستذكر النموذج استذكاراً)، ولم يبدُ لي نبضه قوياً جدّاً. كان تييّث ينظر إليه من حين لآخر باستياء وانقباض نفس، وبعد دقائق معدودات، توجّه إليه مُلوّحاً بالغليون الذي كان أخرجه من جيب سترته، وسأله:

- إيه! اسمع، يا معلّم! أتسمح لي بالتدخين؟

- لم يحدث أن أخذ مشورتنا أحد، لا أنا ولا الحاجب سيغارّا.

لم يتنبّه الرسّام إلى الإيماءة التي أشار بها إليه تييّث بكثير من الاحتقار، ("فليهزأ"، بذلك أوحت إليّ الإيماءة إلى هذا الحدّ أو ذاك) وأخذ يُعدّ الغليون. سقطت منه بعض قِطَع التبغ التي راح يجمعها، ويدفع بها في حجرة الغليون بسبّابته. وفكّرتُ: "هو سيدخّن غليوناً، ومعنى ذلك أن انتظارنا سيطول، اللهم إلا إذا كان واثقاً حقّاً بنفسه ثقة عظيمة حتّى إذا جاء (سولوس) فلن يطفئه"، لكني أنا، لم أجرؤ على إشعال لفافة، فدنا العجوز الهِمُّ ذي الزي على الطريقة القديمة، وهو يتأرجح حاملاً منفضة تاريخية ذات ثقل كبير، أخذها عن رفّ المدفأة المعطّلة.

- هاهي المنفضة دونكَ، يا سيّدي، بكل سرور. - قال وهو يضعها ببطء على منضدة واطئة، كانت قربنا، وكأنّه يأخذ لقطة بطيئة خشية أن يُسيء تقدير المسافة، ويدعها تسقط، وتتحطّم.

- كيف هي الأمور، يا سيّد سيغارّا؟ - انتهز تييّث الفرصة، ليسأله.

- لا أدري، يا سيّد تيو. لمّا وصلتُم، كان ما يزال (يفلشر) حبوبه.

- ماذا كان يعمل؟ - سأل تيبّث مذعوراً (وقد سقطت منه بعض قِطَع التبغ على الأرض)، وإن كان سيغارّا قال جملته على شكل طبيعي وبثقة. وربّما كان ذلك الصالون مخصّصاً لزيارة أهل الثقة أو الزيارات التافهة حقّاً (وكنّا جميعاً حشماً آخر الأمر)، وعلى الأغلب كان يكوّمهم هناك، كما تفعل نجوم الروك بالصحفيين.

وبدا خادم القاعة أو عميد الخَدَم سيغارّا (وأنا لستُ خبيراً في تسمية هذا النوع من المناصب) مسروراً بأنه أثار شكاً وذعراً، ولأنه استطاع أيضاً أن يقدّم معلومة نافعة وغريبة في آن واحد. وكانت عيناه مشعّتَيْن متفائلتَيْن كَعَيني مَن رأى كثيراً من الأمور الغريبة من غير أن يفهمها، وبذلك، هو يحتفظ بقدرته كاملة على الانشداه والاحتفاء والمفاجأة، ويبقى فضوله بكراً أيضاً.

- (يفلشر)، يا سيّدي. - قال. وقالها هذه المرّة شارحاً. وهو يرفع إصبعاً من أصابعه المغطّاة بالقّفاز.. الأمر يتعلّق بطريقة قديمة في المضغ صحية جدّاً، يحوّل المواد الصلبة إلى سائلة، وقد اخترعها شخص، اسمه (فليشر)، ومن هنا جاءت التسمية. لكنها تؤلم اللثّة قليلاً، وتحتاج إلى وقت طويل، وهو يمارسها فقط في الفطور بمضغ الحبوب والبيض المسلوق.

والتفت تيبّث برأسه لثانية صوب رسّام القصر، ليرى إن كان أصاخ السَّمْع متنبّهاً، بيد أن الرجل ذا الغطاء الأزرق كان مشغولاً الآن، فقد كان يطوي ذراعيه محاولاً أن يجعل قطعة القماش التي لا نراها أكثر ثباتاً على حاملها، وراودتني الرغبة في أن أستطيع إلقاء نظرة عليها.

- أتعني أن الفكّين ذاتهما تُميّعان الأطعمة؟ - قال تيبّث موجّهاً الكلامَ إلى سيغارّا، وهو يضغط التبغ بإبهامه، كيلا يتناثر. وكان ينبغي لي أن أقول

إنّ هذا التبغ معطّر بالويسكي، وربّما بأنواع من البهارات الحادّة، الخلاصة هو مُنتَج هولاندي أنثوي.

- بالضبط، يا سيّدي. وهو كما أرى أصحّ كثيراً من مضغها بالعملية الميكانيكية، ويسمّون هذا بالتمييع التشريحي. هكذا سمعتُم يذكرون المصطلح، كما سمعتُم يذكرون المصطلح الآخر. - كان الخادم يعتذر عن اكتشافه معارف من غير إرادة منه.

- حقّاً! - أجاب تييّث. - ما رأيكَ لو تحقّقت لنا كيف تسير هذه (الفلشرة؟). لا يعني ذلك أننا على عجلة قطّ، وإنما لتكوين فكرة في نهاية الأمر.

- ولِمَ لا، يا سيّد تيو؟ هو واجب يسرّني القيام به. أنا ذاهب لأرى إن كنتُ أستطيع إعلامكَ بشيء.

فسار بخطى متناهية في الصَّغَر. (لكنها ليست بصِغَر تلك التي خطاها لمّا كان ينوء به ثقل المنفضة التي كانت على وشك أن تتحطّم)، سار صوب أحد أبواب الصالة الثلاثة، الباردة قليلاً (وكلّما طال المكوث زاد الشعور بالبرد)، لكنْ، ليس إلى ذاك الباب الذي دخلنا منه، لكنْ، إلى الباب الأقرب إليه، والواقع في الجانب الآخر من المدفأة المنبوذة. (الجدار الوحيد الخالي من الفتحات، كان فيه على العكس نافذة كبيرة مستطيلة الشكل مقسّمة إلى مربّعات، وبذلك تؤمّن ضوءاً رائعاً للرَّسم، مثلاً). أنا لا أريد أن أكون وقحاً، فلا أؤكّد شيئاً، ولا أوحي بشيء، لكني على يقين بأني سمعتُ خلال الثواني الطوال التي ترك فيها سيغارّا البطيء الباب مفتوح ضوضاءَ كرات صغيرة صادرة عن الحجرة المصاقبة. ومع ذلك، لا يبدو على تييّث أنه تنبّه إليها، ربّما لأنه ثقيل السَّمْع إزاء بعض الأصوات، أو لأنه لم يألف هذه الضوضاء لسوقيّتها. أمّا الرّسّام، فقد تنبّه، وانتصب، والتفت برأسه مرّتَيْن كالعصفور، لكنه أهمل الصوت (لم يكن موجّهاً إليه)، ليثبّت

مرّة أخرى لوحة الألوان بيده التي كانت ترتعش عند أدنى حركة مفاجئة، أو غير مدروسة، وكأنّه هو الشخص المرسوم ذاته.

ما كان يبدو على تييّث أنه يعبأ بيْ كثيراً، ولا بالانتظار الطويل أيضاً. ما كان يرضيه غالباً هو أنه أدّى خدمة، وجلبني إلى هنا، ليُعرّف بي، ويُلبّي المطلوب، ويقبض جُعلاً، إذا حظي هذا المرشّح بالقبول، ووفّى بما عليه، ولا شيء آخر، سوى أن يقضي الصباح في القصر مشغولاً على هذه الطريقة المبهمة؛ وإذْ كان يشعل الغليون بعود الثقاب الخشبي، نظر إلي شزراً، وكأنّه يريد أن يتحقّق من أن ربطة عنقي لم تُحَلّ، وأني لم ألوِّث بنطالي خلال مدّة الانتظار. هذا ما أحسستُ به. (في الواقع مدّ رأسه، ليتحرّى حذائي بنظرة، فيها شك)، وأنا كنتُ تأنّقتُ بحسن مظهري، ربّما كنتُ أفرطتُ في كيّ ثيابي، وكنتُ أحسّ بالنظافة كأنّي ملفوف بغلاف.

وما هي غير لحظات من إشعال الغليون المعطّر جداً (وقد زاد الآن اشتعالاً) حتّى ظهر مرّة أخرى سيغارّا بشعره الروماني المسرّح قليلاً، وكأنّ يداً ظريفة مرّت على رأسه نزولاً من قمّته. ولمّا فتح الباب الآن، وأبطأ حتّى أغلقه، سمعتُ دون لبس صوت لعبة فليبّر، صوت أعرفه جيّداً منذ أيّام المراهقة، صوت بانتمائه إلى الماضي هو أرسخ ومعرفته أيسر من معرفة الأصوات التي ما تزال تتردّد، لذلك هي في تبدّل، ولا ثبات لها. سمعتُ كرة مجنونة، تجري، وتُسجّل كثيراً من النقاط، ووثقت بأنّ الآلة لن تُطيل أمد المباراة وسيغارّا بدلاً من أن ينقل إلينا رسالته من عند الباب، ويوفّر بذلك على نفسه عناء الانتقال إلينا، ما لبث أن دنا إلى حيث كنّا ببطء، مثيراً فينا شكّاً وخوفاً بأنه لن يصل أبداً - ولم يتكلّم حتّى صار إلى جانبنا، إنه خادم صالة شديد التدقيق.

- العملية التي حدّثتُكم عنها اختتُمت منذ لحظة بنجاح، يا سيّد

تيو، فلا تقلقْ، وقد اضطُرّ إلى استقبال بعض النقابيين. لكنهم آخذون بالانصراف. وهو قادم، بل هو في طريقه إلى هنا.

في الواقع، ما إن أنهى سيغارّا النطق بهذه الجمل حتّى فُتح الباب الثالث، وأطلّ (الوحيد) بخطى سريعة، تتبعه آنسة، كانت تحاول ألا تتخلّف عنه، لأن تنّورتها القصيرة والضّيّقة كانت تدفع بها إلى الجري قليلاً، وأطراف أصابع قدميها تتجه إلى الخارج، وكعبا حذائها العاليان يخدشان أرضيّة الخشب الثمين جدّاً، ربّما، والمرصّع بقطع مثلّثية الشكل صغيرة من الرخام، أو ما يشبهه، فنهضتُ فوراً أسرع كثيراً من البدين تييّث الذي رأيتُ رباط حذائه قد فُكّ، وبنته ليست الآن هنا كيما تَعقده. وكان الرسّام واقفاً في زاويته، لكنه لمّا رأى (السُّهلي) مدّ ذراعيه، كما تفعل بنت هستيرية، إذا رأت مثالها الأعلى (أو على صورة أكثر رجولة: كمصارع اتّخذ موقف الدفاع في زاويته)، وبرزت على وجهه ملامح الجهد الفنّيّ. ولمّا استبقتُهم في التحية وأنا ألوك اسمي المزوّر (وأضفتُ بغباء وبصوت ضعيف: "في خدمتكَ"). لم أستطع تقليد تَيّث، كما كان مأمولاً، فنسيتُ بالتالي الانحناءة التي أوصاني بها، أما هو، فقد صنع العكس، فما إن نهض حتّى انحنى بالقدر الذي يتيحه له جذعه الضخم، وأمسك باحترام يد (الوحيد الأوحد) بكلتا يَدَيْه، وإن كان يمسك باليسرى الغليون المشعل حتّى كاد يحرقه به. يقيناً ما كان لذلك كبير أهمّيّة، لأن أولى الأشياء التي لاحظتُها هي أن (الأنتَ وحدكَ) يعصب سبّابتيه بشرائط ضيّقة من البلاستيك، ولعلّ انتفاخاً سبّبه حرق هو وحده الذي حطّم التناظر. وكادت العواطف تجرف سيغارّا الذي حوصر وسط القاعة، لمّا بدأ انسحابه نحو مكانه بالشكل المعهود عنه. جلس الوحيد عن يميني على مقعد شاغر، والآنسة الضّيّقة الملابس عن يميني أيضاً، أي بيننا كلينا، لكنْ، على ذات الصوفا التي أشغلها (كانت تحمل دفتراً وقلم رصاص وحاسبة جيب ماركة تكساس،

وجهاز هاتف يطلّ من سترتها)؛ أما تييّث، فقد تمايل قليلاً، ثمّ هوى مرّة أخرى بتثاقل على المقعد الذي كان اختاره من قبلُ إزائي، ومُولِياً ظهره تقريباً الرسّام الذي حيّاه (الوحيد) من بعيد ملوّحاً بيده، وقائلاً له: "كيف الحال، يا سيّد سيغور ولا"، من غير أن ينتظر جوابه. يقيناً كان الرّسّام يُضجره، ربمّا لأنه يلقاه يوميّاً، لذلك يحاول أن يُبقيه بعيداً عنه، كان لسولوس (الوحيد) ساقان طويلتان نحيلتان، صالبهما فوراً من غير حرج (وقلّدتْه في ذلك الشّابّة، فصالبت ساقيها، ربمّا حدث لها ذلك بسبب الجهد المبذول في أثناء مقابلة النقابيّين، أو نتيجة خطأ في الصنع)، ولاحظتُ أنه يلبس جوربين ممّا يسمّى جوراب عملية جدّ شفافتَيْن حسب ذوقي، ويكشفان عن شعر الربلتَيْن مسحوقاً تحتهما. وما خلا ذلك، كان يلبس كما يلبس سائر الناس، وكان بنطاله مجعداً عند مستوى الفخذين.

- انتبه، يا خوانيتو! - قال لتييّث - لقد فُكّ رباط حذائكَ - وأشار إلى الحذاء بإصبعه المعصوبة بالضّماد.

حينئذ نظر تييّث عمودياً بذهول، - وبدا رأسه مرّة أخرى كالكرغل.، ثمّ بنفور كَمَن يجد نفسه حيال مشكلة، لا حلّ لها. وعضّ على الغليون.

- سأربطه فيما بعد، متى نهضتُ. لا يوجد خطر بأن أطأه، مادمت جالساً. ومال (المنفرد) حينئذ عليه موشوشاً - كان جذعه كله يستند إلى ذراع المقعد حتّى خشيتُ أن ينكسر.، لكنه لم يخفّض صوته تخفيضاً كافياً، أو أن المسافة لم تكن جدّ كبيرة حتّى تمنع سماعي لهما.

- قل لي: مَن هو؟ - سأله مشيراً إليّ إشارة خفيفة بحاجبيه، جاعلاً إصبعين قلقتَيْن من أصابعه تتراقصان في الهواء.. لقد نسيتُ سبب مجيئكم اليوم.

- إنه رُوبِرِّث ديتورّس، جئتُ به من أجل الخطاب الجديد. - وشوش عرّابي، وهو يزيد من عضّه على الغليون (وبالتالي تكلّم حقّاً من بين أسنانه).

- آه، حقّاً هو رُوبِرِّث تورَّس! - قال السُّهلي بهدوء، وبصوت عالٍ الآن، ثمّ التفت صوبي. - سنرى ماذا يمكنكَ أن تكتب لي، وعليكَ العمل بحذر.

لم يكن في لهجته تهديد، بل فيها مَيل إلى الفكاهة. وكان الوحيد الأوحد يتمتّع بامتياز يخوّله أن يخاطب من غير مجاملة مَن يقف أمامه، وإن كان لا يعرفه، وبمعزل عن العمر، والوضع أو اللّقب والرتبة والجنس. الحقيقة أن الممارسة تُحدث أثراً، ولو كنتُ مكانه، لتخلّيتُ عن الامتياز. أما أنا، فقد عزمتُ على مخاطبته بـ (أنتم) و(بالسّيّد) سواء أتوجّهتُ إليه بالخطاب أم أشرتُ إليه إشارة، أي باستعمال كلمة (سيّد) في الحالة الثانية. وكنتُ أعدّ ذلك كافياً لتقديم الاحترام من غير ذلّ. وسواء عليّ، إن غضب بعد هذا عليّ تيبّث.

- بكل حذر معهود، يا سيّدي، قلتُ - سألتزم حرفيّاً التعليمات التي ستزوّدونني بها، وأنتم ستحكمون. - بدا لي أن هذه الكلمات الأوّل انطلقت منّي صافية حذرة إلى حدٍّ ما، وإن لم يبدُ عليه التأثير، ولا الاحتفاء بها على وجه خاصّ. وفكّرتُ، ربّما كان بإمكاني أن أوفّر على نفسي الكلمتَيْن الأخيرتَيْن، وسرعان ما سمعتُ صرير (أنتم). وكانت الكلمتان تتّجهان بقوّة إلى لبّ الموضوع.

اعتدل (أنتَ وحدكَ) في جلسته (ظلّ مائلاً بجسمه بعد أن وشوش في أُذن تابعه)، وكأنّما ركّز في النهاية على ما نحن فيه. فعقد يَدَيْه فوق ركبتيه المتصالبتَيْن (استقرّتا جيّداً، لأن الذراعين طويلان جدّاً)، ثمّ قال مفتكراً، وإن يكُ بحزم:

- فلْندخلْ في لبّ الموضوع، سيّد رُويبرِّث: الحقيقة أني سئمتُ من ألا يعرفني أحد بعد مرور عشرين عاماً عليّ. ولستُ ممّنْ يحسب أن الناس تقرأ، أو تعير خطبي اهتماماً، لكنْ، لكلّ شيء بداية، فالوسائل اللازمة حتّى أُعرف من غير أن أعرّض نفسي للسخرية ليست كثيرة جدّاً، ومعظمها محظور عليّ. لكنّي على يقين أن أحداً لا يبلع ما أُلقيه عليه منذ بداية الشريط الزمني، ولا ألوم على ذلك أحداً، إذا كانت تبعث فيّ أنا نفسي التثاؤب. - قال: "من بداية الشريط الزمني"، فلم يبدُ لي ذلك راقياً جدّاً، على العكس منها "يبتلع"،أفترض أنه يبتلع بفمه - نحن، رجال الحكم، نمتلك خير إرادة دائماً، وليس كذلك الكتّاب، إرادة مفرطة في طيبتها يقيناً، حتّى إذا صنع لي أحد هؤلاء عملاً صغيراً، يشمخ بأنفه كبراً، أو ما يحسبه كبراً كالطاووس. ويستلهم بعضهم بعضاً، ولم اجد أحداً منهم إلا ويطلب الاطّلاع على المقالات والخطب السابقة، إذا كُلّف بكتابتها، وهذا يتحولّ إلى ... كيف نُعّبر عن ذلك، يا خوانيتو؟

- إلى حلقة مفرغة؟ - أوحى تييّث.

- ليس كذلك، يا رجل، ليس كذلك. قصدي لا يحوم حول ذلك. - أجاب الوحيد. - أريد عبارة أخرى. أعني ما يدور حول نفسه، ويكرّر دورانه، ويعود إلى موضعه.

- العود الأبدي؟ إبرة ملاحة؟ - صحّح تييّث بكثير من الريبة.

- بوصلة؟ - انضمّت الآنسة إلى الكلمة الأخيرة، يراودها شيء من التفاؤل.

لم يقدّمها إلينا قطّ من قبل. كانت ساقاها جميلتَينْ ذات عضلات ضخمة، حظيت إحداها بالشّقّ الصغير، ولم أجد في الواقع غرابة في أن يتمزّق الجوربان.

- كلا! ما هذا القول؟ لا شيء من هذا. وما علاقة هذا بذلك. هو شيء آخر. نعم، يا رجل، هو دوران كامل، ثمّ العودة إلى ذات المكان.

ورأيتُ الرسّام سيغورولا يرفع ذراعه والفرشاة في يده، كأنّه طفل مجدّ في صفّ، يعرف الجواب. وهذا يعني أنه كان يتنصّت الآن، ربّما كان ينظر إلى (الوحيد) بحدّة من غير هدنة نظرة نارية، نظرة مَن يرغب في رسمه فحسب.

ورآه (سولوس) أيضاً، فرفع ذقنه صوبه بملل، ومن غير ثقة به، وكأنّه يقول له: "لنرَ بماذا تطلع علينا الآن!"

- إلى دولاب الحظّ؟ - قال حينئذ سيغورولا غير خالٍ من الأمل، وبموهبة رجل من عصر النهضة.

- نعم، يا رجل، وكذلك الروليت الروسي، وقمر صناعي - هذا صحيح - قال - حسن! كل ذلك سواء، حسب النّيّة: وتنبّهتُ إلى أن شخصيتي غير معروفة، ولا كيف أنا. وربّما وجب عليّ أن أكون هكذا ما دمتُ حيّاً، لكّني لن أُكفّ عن التفكير ما دمتُ حيّاً في أن الأمور إذا ظلّت تسير هذه السيرة، فسوف أمضي إلى كُتُب التاريخ من غير أوصاف، أو ما هو أسوأ من ذلك من غير وصف واحد، وهذا يُشبه أن يكون من غير طابع محدّد، ولا صورة واضحة، يمكن التّعرّف إليها. ولن أُسرَّ بأن أذكّر فقط بجمل من أمثال: "كان طيّباً جدّاً"، أو "قد عمل كثيراً من أجل البلد"، وإن تلكُ غير سيّئة، لا أشكو ذلك، ولم يحرز آخرون كثيرون مثلها، وأنا على ثقة بأني سأحافظ على هذه النعوت إلى أن تحين ساعتي. لكني لا أكتفي بها، إذا استطعتُ أن أُصلح منها، وما أزال أقلّب الأمر منذ مدّة، ولا أعرف ما العمل، وهو ليس سهلاً بعد كل هذه السنين. لا أريد أن ألوّث مدّة حكمي كما يُقال

اليوم؛ لكنْ، لا يغيب عنّي أن أكثر الناس شهرة أولئك الذين ارتابوا كثيراً، أو غدروا، أو ارتكبوا جرائم، أو كانوا قساة؛ وأولئك الذين عانوا من شطط خطير، أو سلكوا حياة المجون، أو مارسوا التعذيب، أو الطُّغاة والمتعسّفون ومرتكبو القبائح والغارقون في التعاسة والمنحرفون، وحتّى الجبناء الرعاديد. وباختصار الديوّثون. - هذه هي الكلمة التي استعملها، لكنْ، إذا شئنا الحقيقة، لم تكن نابية خلال السياق، بل كانت مقنعة بلاغياً. - والبلدان كلها في ذلك سواء، يكفي أن نُلقي نظرة على تاريخ كل منها حتّى نرى أن أكثرها لفتاً للنظر، أشدّها معرّة. لا أريد أيضاً أن أكون (المأسوف عليه) فلا يُستحسن أن نلعب هذه اللعبة الضارّة مع الأجيال اللاحقة.

ولزم الصمت للحظة، وكأنّه يتأمّل جنازته ذاتها، ويرى المستقبل الذي ينتظر خلفاءه المتعدّدين. كان ما يزال يطوّق براحتيه ركبته اليمنى، لكنّ الأسف تجلّى على محيّاه، وكأنّما كان يؤبّن نفسه مُسبقاً. وأنا ما كنتُ أريد مقاطعته، ولا أفسح مجالاً للصمت أيضاً، فلطالما أوصاني تيبّث بتحاشيه. تريثتُ قليلاً، ثمّ تريّثتُ أيضاً قليلاً، وكانت الجملة على رأس لساني، لمّا استبقني تيبّث أخيراً:

- لكنْ، لايمكنكم اقتراف أمور خسيسة، ولا أن تجلبوا على أنفسكم كوارث، يا سيّدي. - قال له بشيء من الضيق. - أقصد أذيّة. - صحّح فوراً همزةُ الوصل التي لا تُضاهى.

"ياربيّ، هو يخاطبه بصيغة الجمع"، فكّرتُ، "هذا الرجل، في الحقيقة، مُتحمّس".

- لا تبالِ، سيّد خوانيتو، وأنا لا أفكّر في صنع ذلك. - أجابه السُّهلي وهو يربّت عليه براحة يده الملفوفة بالضماد: لكنه ربّت بشيء من القوّة على

يده الضعيفة التي كانت تمسك بالغليون الذي طار في الهواء وهو يدخّن. ورأيتُ كيف كان سيغارّا يتأمّله وهو في الهواء بخوف غير محدّد (وضع إصبعين من أصابعه المغطّاة بالقفّاز على شفتيه)، خشية أن يسقط على رأس الوحيد الأوحد، أو على بدلة عمله (ولو كان شابّاً، لهُرع راكضاً، كيما يلتقطه طائراً) لحسن الحظّ، سقط على المنفَضة، وبذلك تجلّت فائدتها الضخمة، وقفز قفزتَيْن، ولم يتحطّم بحسن مصادفة كبيرة. وهكذا التقطه تييّث، كما تُلتقط كرة بينغ - بونغ متمرّدة، وأخرج من غير إبطاء عود ثقاب، ووضع اللّهب عليه، بينا كنّا نضحك جميعاً معاً: هو (وأنتَ وحدكَ) والآنسة وأنا وسيغارّا وسيغورولا من بعيد، وكانت ضحكة الآنسة أكثرها ضجيجاً: وكان الهاتف على وشك أن يخرج من سترتها جرّاء الاهتزازات الهستيرية قليلاً، وخشيتُ أن تُحنق (الوحيد) بحركاتها الفجّة جدّاً. ثمّ تابع هذا الأخير حديثه، لأنه من أولئك الرجال الذين لا يضيع منهم خيط الحديث، وهم في العادة أشخاص مخيفون: - لكن هذا لا يمنع رغبتي في أثناء المناسبات القليلة التي كان ينبغي لي أن أتوجّه فيها إلى الناس، في أن يتأمّلني هؤلاء أكثر، ويعرفوني على شكل أفضل: أفترض أن أحداً لا يُصدِّق أني أكتب هذه الخطب، لكن الأمر عجيب حقّاً: كل الناس يعلمون موضوعياً أني لا أكتبها، ومع ذلك، يتلقّونها جميعاً، ويُشغلون بها، وكأنّها كلماتي فعلاً، وتعكس تفكيري الخاصّ: إذ تقول الصحف ومحطّات البثّ بهدوء كبير إني قلتُ هذا الشيء، أو تخلّيتُ عن ذِكْر ذلك الشيء، وينسبون لهذا معنىً كبيراً وبعض الأهمّيّة، إذ يزعمون أنهم يفهمون ما بين السطور، ويلمحون إشارات غامضة، بل حتّى تأنيباً، إذ إنهم أوّل مَن يعلم أني لم أكن المسؤول الحقيقي والمباشر تحت أيّ شكل عن كل ما ألقيتُه هذه الأعوام، أي جعلتُ نفسي كما كثيرين مقبولاً، ليس أنا فقط،وإنما (بيتي)، على الأغلب وقّعتُ كلمات، أو جعلتُ كلماتي ما لم يكن بكلماتي

قطّ، وهي عقبة تافهة لا أكثر، وإنما هي كلمات أيّ كان، أو كلمات لا تنتمي إلى أحد، أو كلمات ذاك الشيء المبهَم المُسمّى: المؤسّسة، هي في الحقيقة كلمات، لا تنتمي إلى أحد. ذلك كلّه تزييف ضخم، نستسلم له جميعاً بدءاً منّي ذاتي حتّى السياسيّيْن والصحافة، حتّى القرّاء القلائل أو مشاهدي التلفاز من المواطنين الساذجين جدّاً وذوي النيّة الطيّبة حتّى يتثبّتوا ممّا يفترض أني أقول وأفكّر فيه.

وانقطع (الوحيد) عن الكلام، أو بالحريّ التزم الصمت مرّة أخرى بينا كان يداعب صدغه المفكّر، ورأيتُ ضماد السبّابة اليمنى قد ارتفع قليلاً جرّاء هذه المداعبات الذاهلة. وسألتُ نفسي عمّا تكشف العصابة إذا ما انفكّت، أعن قطْع؟ أم عن حرق؟ أم جرح؟ أم مركرونا؟ أم عن دمّل؟ أم عن جسْأة جرّاء اللعب بالكرة والفليبرّ؟ لقد حنقتُ على نفسي أنْ راودتْني هذه الأفكار، إذ ينبغي لألعاب التسلية هذه أن يكون فيها عيب كبير حتّى تنبت للمرء جسأة منها. وأنا ما أزال ألهو بها، وأروّح عن نفسي باللعب فيها، لكني إذا كنتُ لا أجد وقت فراغ لذلك، فأنّى لسولوس أن يجده، وهو المشغول جدّاً والمهتمّ بالمؤسّسات، بفرض أنه معجب بأمثال هذه التسليات فرضاً محالاً، فنبذت الفكرة السفيهة: وإنما تكوّنت الجسأة جرّاء التزّلج أو المساعدة في ذلك كثيراً. وسألتُ نفسي أيضاً مرّة أخرى إن كان ينبغي لنا إفساح المجال لصمت طويل، لكن الآنسة هي التي حالت هذه المرّة بيني وبين السقوط في الإغراء (أخذ الشقّ في جوربها يتّسع، وما كان انحلال خيط بسيط أخذ يبدو تلفاً).

- أنا إذاً، يا سيّد، من اللاتي يشربنَ كلماتكَ متى وجدتُها سواء في الصحافة أو في صحف التلفاز اليوميّة. لئن كنتُم لا تكتبونها بأنفسكم، فإن لها أثراً ضخماً، إذا كنتُم مَن ينطق بها. حتّى أنا التي أراكم يومياً على انفراد،

وأعلم ما تصنعون، وما تفكّرون فيه حول قضايا كثيرة، يشقّ عليّ ألا آخذها حرفياً، كما ترد على الشاشة، وإن كنتُ لا أفهم دائماً حول ماذا تدور.

هي أيضاً كانت تخاطبه بصيغة الجمع، لم أعلم إن كان ذلك قاعدة، أم بتأثير آنيّ من تييّث.

- أنتِ طيّبة جدّاً ومخلصة، يا آنيتا. - أجاب المعتزل من غير أن يوليها اهتماماً كبيراً.

- وأنا أهتمّ أيضاً، يا سيّدي، فأسجّل لكم كلّما ظهرتُم على التلفاز لدراسة تعابير وجهكم، إذا فكّرتُم بصوت عالٍ. - قال الرّسّام حينئذ من ركنه المعاقب رافعاً صوته أيضاً ومقلّداً الآخرين برَفْع عقيرته، باستعمال صيغة الجمع.

- المسألة هي أنكَ لا تعلم، يا سيغورولا. - أجابه السُّهلي، لكنه قال ذلك من بين أسنانه، وبذلك لم يسمعه الرسّام الذي رفع يده بالفعل إلى أذنه والفرشاة فيها، فطلى أذنه قليلاً، فلجأ إلى خرقة وسخة، ليُنظّفها. وضحكنا جميعاً ما عداه ضحكاً خفيفاً، لكنْ، على شكل خفيّ الآن. كان واضحاً أن نموذجه يستعصي عليه.

- حسن! لنستأنف ما كنّا فيه: ليس لديّ شيء ضدّ هذه المهزلة كلّها، وهي مهزلة ضرورية بلا ريب. هكذا كانت دائماً، وينبغي أن تكون الحاجة إليها اليومَ أمسّ، أي في هذه الأوقات التي تُسلّط فيها علينا - نحن الشخصيات العامّة - عيونُ الناس دائماً. وتنصبّ آذانهم كذلك، وتتضاعف صورنا في ألف كاميرا وميكروفون ظاهرة وخفية. إنه عذاب حقيقي، وإني لأدهش لِمَ لا ننتحر. وأحسّ بنفسي غالباً أنني حيال... ماذا نُسمّي ذلك، يا خوانيتو؟ هو كما تعلم شيء صغير، يُوضَع أمام المجهر. - وشكل دائرة

صغيرة بإبهامه وسبّابته، لينظر من خلالها منحنياً فوق المنفضة الملأى بأعواد الثقاب وفرم التبغ.

- فرمة تبغ؟ - قال تييّث من غير أن يجهد خياله أدنى جهد.

- لا، يا رجل، ليس كذلك. ها هي فرم التبغ أمامي.

- حشرة؟ - حاول مرّة أخرى.

- لا، ليست حشرة. ما هذا القول؟

- جزيء؟ - غامرت بالقول الآنسة آنيتا.

- شيء يشبهه. لكنه ليس هو.

- فيروس؟. - قال القهرمان سيغارّا من موضعه قرب المدفأة المعطّلة بعد أن خلع القفّاز الأبيض باحترام.

- لا. ولا هذا أيضاً.

- شعرة؟ - صرصر سيغورولا من عند حامل اللوحة لائذاً بلا ريب بذكريات طفولته.

- لكنْ، أيّة شعرة؟ وما شأن الشَّعْر؟ إليكَ عنّي.

- بكتريا؟ - واتتني الجرأة أخيراً على أن أتكلّم.

تردّد (الوحيد الأوحد)، لكنْ، بدا عليه أنه سئم عجزنا.

- حسن! أرجّح أن يكون كذلك. إذاً، كبكتريا أمام المجهر، ذلك سواء. وهنا يكمن التباين: فعلى الرغم من هذا الحرص كله والدرس لستُ معروفاً حقّ المعرفة، وشخصيتي ما تزال غامضة؛ وإذا كان كل ما نعمله مهزلة،

لا أدري، لِمَ لا نستطيع توجيه هذه المهزلة قليلاً ونجعلها أقرب إلى ذوقنا على شكل نعرض فيه فضائل أوضح، ومعرفتها أيسر للأجيال الحاضرة، وأبقى في ذاكرة الأجيال القادمة - سألتُ نفسي إن كان يستعمل الجمع هنا إشارة إلى العظماء، أم أنه يشملنا بودّ بهذه المهازل، وبمشاريعه: وسرعان ما خرجت من نطاق الشك. - ليس لديّ بعدُ فكرة عن الكيفية التي يُنظَر بها إليّ، ولا أعلم شيئاً عن صورتي القوية السائدة، وهذا يعني أني أفتقر إليها، ولا نخدعنّ أنفسنا. ماذا أقول؟ فأنا لا أملك صورة فنّيّة، وهي التي يعتدّ بها في النهاية في الحياة أيضاً. ولا نخدعنّ أنفسنا. وهكذا يمكن لخُطبي أن تكون الخطوة الأولى والثانية، ولا أحسب من المحال مع ذلك أن أقول على شكل، يُبرز الجانب الشخصي؛ هذه الكلمات التي أُرغم على قولها غامضة فارغة، بحكم النظام. كيف أعبّر عن ذلك؟ نعم، أن تكون أقلّ بيروقراطية وأكثر فنّيّة، على شكل، يجعل الناس يتنبّهون إليها، ويدهشون لها، ويحدسون أن وراء ذلك كله بحراً عميقاً كبيراً، أعني رجلاً يعاني هو أيضاً، رجلاً مُعذّباً إلى حدّ ما، ويحمل مأساته على كتفيه، وهي خفيّة. لنكن صريحين، أنا لا أرى هذه الدراما في صورتي العامّة، وأريد أن تُلمح لمحاً على الأقلّ، مغلّفة بشيء من اللغز الفنّيّ. هذا ما أحسبني أريده، أفهمتَ، يا سيّد رُوبِرِّث؟ أنا أقول لكَ ما أفكّر فيه.

ولم يخالجني شك الآن بأنني مُلزَم بالكلام، فقد توّجه إليّ باسمي الذي لم يكن اسمي.

- أحسبني فهمتُ، يا سيّدي. - قلتُ. - ما هي الصورة التي يرغب سيادتكَ فيها، أو التي تُستشفّ من ورائها؟ أيّها تفضّل سيادتكَ، إن أمكنني السؤال؟

رأيتُ شيئاً من النقد في عيني تيّث الصافيتَين، وهو عائد يقيناً إلى

مخاطبتي السّيّد بـ usted[*] التي جاءت بعد صيغ الجمع التي خاطبه بها الآخرون، وتأذّيتُ منها، فكل شيء ينتقل بالعدوى بسهولة، وبكل شيء يمكننا الاقتناع، أمّا الغليون الذي كان يدخنّه، فكان دائم الاشتعال، وكأنّ التبغ المحروق ينبعث من رماده، ويُستهلَك مرّة بعد أخرى.

- لا أعلمها بوضوح. - أجاب (أنتَ وحدكَ) مداعباً صدغه الآخر الآن.
- ما رأيكَ أنتَ، يا خوانيتو؟ لدينا مجال كبير للاختيار، لكنْ، يستحسن أن يُضفى شيء من الصدق على هزليتنا هذه، أي شيء من التطابق وحقيقة طبعي وأفعالي. مثلاً، لا يعرف أحد تقريباً أني كثير الشك. أشكّ كثيراً، وأشكّ في كل شيء، ألا تعرفين ذلك عنّي، يا آنيتا؟ أفرح أحياناً كثيرة بورود معظم القرارات على ذهني، وفي وقت آخر، تصبح حياتي كلها تأرجحاً خالصاً، واضطراباً محضاً، وعزيمتي في ذهاب وإياب دائمين. ولكثرة شكّي أشكّ حتّى في عدالة المؤسّسة التي أمثّلُها، ولا يتصوّر أحد ذلك تقريباً. وأنا على يقين ممّا أقول.

- وكيف ذلك، يا سيّدي؟ - لم أستطع تحاشي السؤال لرغبتي الملحّة في ألا أفسح مجالاً لأدنى صمت، أي مستبقاً تبيّث الذي ربّما لم تعجبه هذه الجملة الأخيرة: وانتصب في الواقع، في مقعده، وعضّ على الغليون المهان.

- نعم،أنا لستُ مقتنعاً بالسبب الذي تقوم عليه، ولربّما استُعملَت كلمة "العدالة" بخفّة، فهي مفهوم صعب جدّاً وذاتي دائماً خلافاً لما يُراد ويزعم، وبالتالي لن تكون لها السيادة قطّ، على الأقلّ، في هذا العالم؛ ولكي تسود، ينبغي لمَن تحكم عليه العدالة بالإعدام أن يكون على اتّفاق تامّ، وهذا الحكم، ونادراً ما يحدث؛ ذلك، اللهم إلا في حالات متطرّفة من

---

*) صيغة من صيغ الاحترام والتهذيب في مخاطبة شخص، وهي بضمير الغائب (الشخص الثالث).

الندم والتوبة لا يُصدّقان، بل تُواتيني الجرأة على القول إنه إذا ما حدث ذلك، فلأن المحكوم عليه بالإعدام أُرغم على أن يتنازل عن فكرته الخاصّة بالعدالة، وأُقنع بذلك بالتهديد أو بالحوار، وهما في المحصّلة سواء، وأُجبر على تبنّي وجهة نظر الآخر، وجهة نظر الخصم الذي جاء الحكم لصالحه، أو بالحريّ تبنّي وجهة النظر العامّة، وجهة نظر مجتمع عصره، ولا نخدع أنفسنا، لأن وجهة نظر المجتمع ليست وجهة نظر أحد، وإنما هي وجهة نظر الزمن: وجهة النظر المشتركة بين الناس جميعاً، أو بين معظمهم، وهي ليست وجهة نظر خاصّة، اللهم إلا بمدى رغبة كل امرئ في ألا يظلّ على هامش المجموع، ويتنازل عن رأيه. لنقلْ إنه تنازل بسيط عن الذاتية، هو خدعة، فلن نجد مُداناً يصيح برضا وارتياح: "لقد سادت العدالة". وهذا يعني دائماً: "أنا والعدالة متوافقان، لأنُها تطابقت وفكرتي الخاصّة". وسيقول المدان كما يقول الكثيرون: "إني أخضع لقرار الحكم، أو أقبل الحكم". لكنْ، ليس القبول أو الخضوع، والموافقة التامّة سواء بسواء، بل هما أكثر من ذلك. فإذا كانت العدالة الموضوعية موجودة فعلاً، فلن نحتاج حينئذ إلى أحكام، ولسوف يطالب المُدانون أنفسهم بإدانتهم، ولن تقع في الواقع جرائم. لن تُرتكَب، أو بالحريّ لن نجد مفهوماً للجريمة، ولن يكون شيء من هذا، إذْ لن يصنع أحد شيئاً، وهو على قناعة بأنه غير عادل، على الأقلّ لحظة صنعه. وفكرتنا عن العدالة تختلف طبقاً لحاجاتنا، ونرى دائماً أن ما هو ضروري يمكن أن يكون عادلاً أيضاً. وأنا أقول لكَ ذلك كما أفكّر فيه، مهما يبدو لكَ غريباً.

رأيتُ أن ما شرحه لي رُوبِرْت تورَّس الحقيقي كان صحيحاً: (الوحيد) لديه أفكار، لكنْ، يشقّ عليه تنظيمها. فقد تابعتُه حتّى جمله ما قبل الأخيرة، وبعدها دخلتُ في التيه.

- هو م م. م، سيّدي. - انتهز تييّث توقّفه، ليأخذ نَفَساً، على الأرجح، تنحنح كيما يلفت انتباهه، لكن (الوحيد) تابع مباشرة هذه المرّة من غير توقّف، وكان يبدو أنه اكتسب تسارعاً، فهو ما كان ليفقد خيط الحديث، وإن كنّا فقدناه نحن الآخرون جميعاً:

- لكنْ، لنعد إلى ما كنّا فيه: أنا لستُ مقتنعاً بأن يكون للرجل أو للمرأة مهنة محدّدة منذ مولده، أو حتّى قبل مولده أيضاً، أو يُحدّد مصيره إذا شئتُم القول، وأنا لا أجد من جهتي مانعاً من استعمال الكلمة - وكان الآن واضحاً أنه يُوجّه الحديث إلينا جميعاً. - لا أحسبه يجد في ذلك عدلاً، وهو بلا ريب ليس عدلاً كذلك في نظر المواطنين الذين لا يملكون في العادة شيئاً يقولونه حول الموضوع. لكن هذا الأمر لا يعنيني، فالمواطنون يجزّون رؤوسنا أيضاً، إن رغبوا في جَزّها، ويبذلون جهدهم لجَزّها، فلا يوجد مَن يوقفهم. يقيناً لا يُسأل المرء إن كان يريد أن يولَد، ولا الناس إن كانوا يتصوّرون ولادته، يقيناً لا نُسأل إن كنّا نرغب في أن نكون من سكّان البلد الذين ننتمي إليه، أو أن نتكلّم اللّغة التي نتكلّمها، أو أن نذهب إلى المدرسة، أو أن يكون لنا الأخوة والأبوان الذين نمت إليهم بالمصادفة، وكل الناس تُفرض عليهم أشياء منذ البدء، ويُسوّغ ذلك لهم جميعاً حتّى إلى مدى متقدّم من العمر نسبياً، فالأمّهات خاصّة يُفسِّرون ما يحتاج إليه أبناؤهن الصغار، ويرغبون فيه، يتّخذْنَ القرار طوال سنين نيابة عنهم وفْق هذا المعيار التفسيري الخاصّ بهنّ. "ومَن يفسِّر الآن للطفل أوخينيو؟ ومَن يقرّر نيابة عنه؟"، وردّ إلى خاطري هذا التفكير كومضة برق - ذلك كله حسن، وكل شيء حتّى هنا طبيعي، لأن الأشياء هي هكذا، ولا توجد وسيلة أخرى لترميمها، فنحن لا نُولَد وفْق رأي ما، وإن كنّا نُولَد بدافع الشهوة، كما يبدو (معلوم أنها شهوة بدائية)، لكني أسأل نفسي، إن كان بالإمكان بعد ذلك كله رسمُ حياة امرئ خاصّة في حالات متطرّفة كحالاتنا، تنبّهوا

إلى خطورة الأمر الضخمة! تمثيل هذه المؤسّسة يفترض في المقام الأوّل خسارة كبيرة في الحُرّيّة الشخصية، ومن جهة أخرى خسراناً أكبر في الزمن من أجل التفكير فيما لستُ مرغماً على التفكير فيه، والقدرة على التفكير فيه، والقدرة على التفكير فيما لستُ مضطراً إليه هو شيء خطير في حياة كل امرئ كائناً مَن كان، أنا على الأقلّ، أجده خطيراً، أجد خطيراً إمكانية التفكير فيما هو غير موائم، والهيمان في عالم الفكر. تمثيلها يفترض فوق ذلك، أن نتحوّل إلى هدف رئيس للقتلة عصابات أو فرادى، هم يرغبون في قتل المرء من أجل منصبه عفاراً قفاراً، جرّاء ما صنعه أو تخلّى عن صنعه، وهذا يبدو لي كارثة حقيقية شخصية، عداكَ عن الخطر الذي اعتدناه. فيستوي ما يصنعه المرء وكيفية صُنعه والحرص الذي يلزمه في صُنعه، إذْ يوجد دائماً مَن يرغب في قتله، أحد ما مصاب بجنون العَظَمَة، أحد ما مأفون أو مأجور، ناس حتّى قد لا يشعرون نحونا بالكراهية. والموت هكذا من غير حقّ، من غير جناية تجلبه، إنما لمجرّد الاسم فقط، هو في جوهره موت مضحك. - وصار وجه (سولوس) قاتماً، وإن لم يبدّل شيئاً في هيئته. فظلّ عاقداً يَدَيْه على ركبته التي وضعها فوق الأخرى، وما كان يفكّهما إلا ليداعب بين حين وآخر صدغَيْه، صدغَيْه البائسَيْن واحداً بعد الآخر، "إنه احتقار الميّت لموته ذاته"، جاءتني هذه الفكرة الآن كومضة برق. وبرزت غضون جبهته. - تمثيلها يقضي أيضاً أن تكون محاطاً دائماً بفريق آخر من القتلة المحتملين الذين يحاولون صيانة حياتنا عوضاً عن الاعتداء عليها، لقاء أجرٍ أكثر ممّا هو عن قناعة وإخلاص، وربّما قتلوا آخرين في أثناء قيامهم بمهمّتهم المجزية. هي صيانة حياتنا لقاء هدر حياة آخرين، لكنّ مَن يحرسوننا قد يندفعون أحياناً، ولديهم أوامر بأن يندفعوا، ويُسوّغ لهم ذلك دائماً. تمثيلها يقضي أيضاً بالعجز عن اختيار مَن نتعامل معهم ومَن لا نتعامل معهم، بأن ترى نفسكَ مُلزَماً بمصافحة أيدي أفراد، يُثيرون التّقزّز

في النفس، بأن تتعاقد معهم، وتتعامى عمّا صنعوه، أو يحضّرون لصُنعه بمرؤوسيهم وأمثالهم، تقتضي أن تُوجد عذراً لما لا يمكن الاعتذار عنه، ثمّ عليكَ أن تراوغ، ويفترض أنْ تراوغ كل الوقت: وبينا تراوغ، تصافح أيادي ملطّخة بالدم، وبذلك تتلطّخ أيدينا أيضاً قليلاً، هذا إذا لم تكن ملطّخة منذ البدء، منذ ولادتنا أو قبل أن نُولَد، لا أدري إن كان بالإمكان الحفاظ عليها غير ملطخّة انطلاقاً من بعض المواضيع، وأفكّر أحياناً أن ذلك محال، لأننا لا نجد طوال التاريخ حاكماً واحداً ولا ملكاً لم يكن مسؤولاً عن موت أحد مسؤولية مباشرة دائماً تقريباً، إذا لم تكن غير مباشرة، وهكذا كان الأمر في كل آن، وفي كل مكان. أحياناً، كانت مسؤوليّتهم في أنهم لم يمنعوا القتل، أو لم يشاؤوا أن يعلموا به. لكنْ، كفى بذلك حتّى لا يكون المرء بمَنجى.

وصمت المنعزل، وقطّبت أنيتا حاجبيها في تقليد بريء لرئيسها، وضغطت على فكّيها، ونبعت تجاعيد على شفتيها. وكان سيغورولا يرتعد أكثر ممّا هو مألوف عنه، وكفُّ الألوان في يده، لحسن الحظّ ما كان المنفرد يراه، وما كان يمكن له أن يُغاظَ من ذلك، وإنْ كان يُرجّح أنه غيظ من نفسه ذاتها بأفكاره الشاردة، وغير الملزم بها. وظل سيغارّا مفتّح العينين المتفائلتَيْن الحيتين. وما كان يفهم من الأمر شيئاً، ولم تكن وقفته ثابتة حقّاً، فاستند بقفّازه إلى مسند المقعد الموجود إلى جانبه. وأُخذ تييّث يُفرِغ غليونه المُستنفَد وهو يدقّ دقّات خفيفة على المنفضة، ويغمغم بحذر قائلاً:

- ليس الأمر بهذه الضخامة، ليس بهذه الضخامة، هذا إفراط في الشكوك، ولا ينبغي لكم، يا سيّدي، أن تعذّبوا أنفسكم بأشياء افتراضية غير قابلة للتّحقّق. وفوق ذلك، لا يمكن للمرء أن يكون مسؤولاً عمّا يجهله، أو عمّا يعلمه بعد فوات الأوان، وأنتم لا شأن لكم بهذا كله.

- ولا حاجة بكم إلى ذلك القول - تدخلّت آنيتا بغيرة - لقد شغلتُم ذهنكم بذلك كثيراً.

- أليس كذلك؟. - قال الوحيد الأوحد بسرعة، وإن لم تكن كبيرة حتّى تمنع توسّط الآنسة الأومي. - أأنتَ على يقين ممّا تقول، يا خوانيتو؟ قد يذهب صيّاد إلى الصيد، ويطلق النار على شبح من بعيد. فيقتل سهواً فتى، ينام بين أعشاب الغابة، حتّى لا يُطلق صرخة حين تُصيبه الرصاصة، فيموت نائماً؛ والصّيّاد لا يعلم بما صَنَعَ، وقد لا يبلغ أن يعلم قطّ، لكنّ ما حدث حدث: فالفتى لم يمتْ حتف أنفه. وقد يصدم سائقٌ أحدَ المارّة ذات ليلة، يلطمه لطمة خفيفة. فلربمّا كان مسرعاً أو خائفاً أو سكراناً، ومع ذلك، يخفّف سيره مرتاباً، فيرى في المرآة العاكسة أن ضحيّته ينهض مترنّحاً، إذاً، لا خطر في الأمر، فيتنفّس باطمئنان، ويتابع سيره. وبعد أيّام عدّة، يودي نزيف داخلي بعابر السبيل إلى القبر، فلا يعلم السائق بذلك، وقد لا يصل إلى علمه قطّ. ولكن ما حدث قد حدث، فلم يمت عابر السبيل ميتة طبيعية. بل هناك ما هو أخطر من ذلك. هناك ما يأتي به فعل لا إرادي، كطبيب يهتف إلى امرأة مريضة، لا تكون في البيت، فيجيب عنها المسجّل الآلي، فيترك الطبيب رسالة قصيرة، وينسى أن يضغط الزرّ الذي يغلق هذه الهواتف العصرية - وأشار الوحيد الأوحد بإصبعه إلى الهاتف الذي تحمله آنيتا في جيبها، وأخرجتْه فوراً وكأنّها تدلّل إن كان يليق بها. - ثمّ (وظلّ مفكّراً فيها)، ثمّ يُعلّق الطبيب وممرّضته على تشخيص مرض المرأة القاتل، التي يفكّر مؤقّتاً في أن يمدّها بآمال كبيرة، أو في ألا يقول لها شيئاً، فتُسجّل تعليقات الطبيب وممرّضته المشفقة على شريط المرأة المريضة التي ما إن تسمعه حتّى تقرّر بألا تنتظر الألم والموت البطيء، فتُنهي حياتها هذه الليلة ذاتها. وقد لا يصل إلى علم الطبيب موتها قطّ خاصّة، إذا كانت المرأة تعيش وحيدة، ولا يخطر على

بال أحد أن تستمع إلى الشريط. لكن الواقعة وقعت، فالمريضة لم تمت بمرضها، ولم تمت على شكل طبيعي.

"أو إذا أخذ الشريط أحد ما"، فكّرتُ، وخطرت لي الفكرة هذه المرّة ببطء شديد، "إذا سرقه أحد ما، فلربّما علم الطبيب ذاته أو الممرّضة، وإن يكن في وقت متأخّر جدّاً، أو أن تعليقهما لم يكن لا إرادياً، وإنما شفقةٌ زائفة، إن كانا كلاهما يعرف المريضة، أو له شيء عليها، أو أنها تقف عائقاً أمامهما".

- لكن هذا يحدث لنا جميعاً - احتج تييّث.، وليس الحكّام وحدهم، وخير برهان على ذلك هذه الأمثلة ذاتها. والشيء الوحيد الموثوق هو ألا نتكلّم، ولا نصنع شيئاً. وربّما كان، مع ذلك، للسلبية والصمت الآثار ذاتها، والنتائج عينها، أو مَن يدري، إن كانت أسوأ منها أيضاً.

- هذا لا يعزّيني، يا خوانيتو، لا يعزّيني إذا عرفت أن الأشياء هي هكذا، وأنه لا يمكن اتّخاذ إجراء ما. - أجاب الوحيد وقد بدت على وجهه الآن علامات الغمّ، حتّى بدا أنّ فمه انقلب فوراً كالعجين. - ذلك كأنّما تقول لي عند موت أحد الأصدقاء: "حسن! أوّلاً وآخراً، هكذا هي الأشياء والناس كلهم أموات"، وهذا لن يعزّيني. ولا يصبح بسبب ذلك موت الأصدقاء محتملاً، وإنما يظلّ موتهم شاقّاً. لقد فقدتَ أنتَ منذ عهد قريب ابنتكَ، واعذروني أن ذكّرتُكَ بها، فإذا علمتَ أن الأشياء هي هكذا، فلن يفيدكَ كثيراً، ولن يخفّف عنكَ. أمّا في حالتي... فإن ما أصنعه، أو ما لا أصنعه له انعكاسات أكبر ممّا يصنعه أحد آخر، وما هو أخطر أن زللي أو أخطائي يمكن أن تمسّ كثيرين، ولا تمسّ فقط فتى نائماً أو أحد المارّة، أو امرأةً مقضيّاً عليها. كل فعل من أفعالي له نتائج متسلسلة وكثيفة، لذلك أنا متردّد كثيراً. كل فعل من أفعالكم يمسّ الأفراد الذين لا أكاد أتعامل معهم، وكل حياة مع ذلك، هي، في رأيي، فريدة وسريعة العطب. - والتفت

صوبي التفاتة أكبر من ذي قبل. وظلّ ينظر إليّ للحظة من غير أن يراني، وأضاف: - شاقّ أن يتحوّل الأشخاص الذين نعرفهم إلى الماضي.

أخرج تييّث جراب التبغ العَطِر، وأخذ يُعدّ غليوناً ثانياً، وكأنّه يريد أن يُخفي بحركة يده صوتاً، قارب أن ينطلق متهدّجاً. (وربّما ليخفّض من بصره أيضاً). ثمّ قال ببطء شديد بينا يعدّ الغليون، بما يشبه الكسل:

- لا ينبغي لكم أن تطلبوا عذراً منّي، يا سيّدي. فأنا أتذكّرها الوقت كله، وأنتم لم تذكّروني بشيء. أصعب شيء على المرء أن يتحوّل إلى ماضٍ مَن يتذكّره على أنه مستقبل. لكنّ الحلّ الوحيد لما تقولونه، يا سيّدي، أن ينتهي كل شيء، ولا يبقى منه شيء.

- لا يبدو لي حلاً سيّئاً أحياناً. - أجاب الوحيد. - وربّما رأى تييّث أن هذا الجواب مفرط في عدميّته حتّى يسمعه شهود، يخرج من شفتَيْن جدّ ساميتَيْن، لأنه ردّ فوراً محاولاً تغيير مسار الحديث قائلاً:

- لكنْ، لنعد إلى ما يشغلنا إن شئتُم. أيّ شيء تريدون أن يُعكس من شخصيّكم الحقيقية إلى جانب التردّد الذي لا أدري إن وُضّح جيّداً؟ إذ ينبغي لكم أن تمدّوا رُويبرِّث بالتعليمات.

فُتح حينئذ الباب الذي كان دخل منه سولوس وآنيتا، وظهرت منه عاملة تنظيفات كبيرة في السّنّ إلى حدّ ما، وذات مظهر شرس ومشاكس. كانت تحمل بيديها منفضة ريش ومكنسة، وكانت تنزلق مَحنيّة الظهر قليلاً فوق قطعتي قماش، كيلا تطأ الأرض بنعلي حذائها، لذلك كانت تتقدّم ببطء شديد، وكأنّها متزلّجة على جليد صلب، تعتمد على عصا طويلة جدّاً وأخرى قصيرة جدّاً. والتفتنا جميعاً دهشين، نتأمّلها في زحفها الطويل وشَعرها الأبيض المنتفش الذي يجعل العجائز يبدون أكبر سنّاً، وعُلّقت

المحادثة دقيقة واحدة أو دقيقتَيْن، لأنها كانت تُدندن بصوت رديء خلال سيرها المحال، إلى أن أمسك سيغارًا أخيراً بذارع عاملة التنظيفات بقفّازه الأبيض على شكل مفاجئ، وكأنّه كفّ مفترس، وقال لها شيئاً بصوت خفيض وهو يشير إلينا في الوقت ذاته. فالتفتت المرأة التفاتة عنيفة، ونظرت إلينا، ورفعت يدها إلى فمها، لتخنق صيحة، لم تنطلق، وغذّت بكل ما تستطيع خطوها، إلى أن اختفت من الباب الأوّل الذي أُدخلنا منه منذ هنيهة أنا وتييّث. وفكّرتُ: "إنها تشبه الساحرة، أو لعلّها بانشي Banshee"، هذا الكائن الإيرلندي الخارق الأنثوي الذي يُنذر العائلات بموت وشيك، يصيب أحد أفرادها. يقال إنه يغنّي أحياناً لحناً جنائزيّاً باكياً بينا يمشّط شَعره، لكنه، في أغلب الأحيان، يصيح أو يئنّ تحت نوافذ البيت المهدّد ليلة أو ليلتَيْن قبل أن يقع الموت الذي يُنذر به. وكانت عاملة التنظيفات دندنت بشيء غير مفهوم، ولمّا تصل إلى إطلاق صيحة أو أنّة، ولم يكن الوقت ليلاً، وفكّرتُ: "لا أحسب هذا البيت مُهدّداً، ولكننا، أنا وتييّث مَن أُصبنا منذ شهر بفقد أحد، هو أُصيب في عائلته، وأنا في غرامي. هي نبوءة تنصبّ على الماضي". وأطبقت الباب وراءها، وآخر شيء رأيناه يغيب كانت مِنفضة الريش، وقد نشبت بمقبض الباب للحظة.

- منذ حوالي شهر تقريباً، أُصبتُ بالأرق ذات ليلة. - قال الوحيد حينئذ من غير أن يُعير (البانشي) كبير اهتمام. - فنهضتُ وقصدتُ غرفة أخرى، كيلا أُزعج أحداً، وشغّلتُ التلفاز، ورحتُ أشاهد فيلماً قديماً فاتتني بدايته، لذلك لم أعرف عنوانه، فبحثتُ عن الصحيفة اليومية، فرأيتُ أنها قد أُخذَت، ويُؤخَذ منّي كل شيء قبل الأوان. كان الفيلم بالأبيض والأسود، وظهر فيه أورسون ويلز عجوزاً جدّاً وسميناً للغاية، ولعلّكم تتذكّرون أنه مدفون في إسبانيا. والفيلم نفسه كان صُوِّر في إسبانيا أيضاً، فتعرّفتُ فيه إلى أسوار آبيلا، وكالاتنياثور، ولوكومبرّي وصوريا، وكنيسة سانتودو مينغو،

لكن الحدث يجري في إنكلترا، ويصدّق المرء ذلك، على الرغم من أنه يرى أماكن يعرفها جيّداً، حتّى (كاساده كامبو) ظهر، وأثار التشابه، كل شيء كان يظهر كأنّما هو في إنكلترا، وما أغرب أن يرى المرء ما يعلم أنه بلده، ويؤمن أنه إنكلترا، إذا ظهر على الشاشة. كان مدار الفيلم حول الملكين هنري الرابع وهنري الخامس، لمّا كان ما يزال أمير غال أو أمير هال كما كان يُدعى أحياناً، وهو رعاعة هالك، يقضي سحابة نهاره بينا أبوه يُحتضر، في الحانات والمواخير، برفقة عواهر وصويحبين من أصحابه، وهما ويلز السمين الفاسد الأكبر سنّاً، وآخر تِرب، له ذو وجه كريه وماجن، يُدعى بونس، أخذ يوليه الأمير ثقة مفرطة، لكنْ، لا يُعلم إلى أي مدى يمكنه أن يوليه إيّاها، لأن الأمير أخذ يُلجم خطاه، كلّما أحدث التّغيّر فيه أثره. كان الملك العجوز مغموماً ومريضاً. فطلب في أحد المشاهد أن يُوضَع التاج على المخدّة، فاستولى عليه الابن قبل الأوان ظنّاً منه أن الملك مات. وهناك مشهد آخر في وسط الفيلم، يُصاب فيه الملك بالأرق كما حدث لي تلك الليلة، لحسن الحظّ كانت في حالتي ليلة واحدة، أما هو، فلم ينعم بالنوم منذ أيّام عدّة، فكان ينظر إلى السماء من النافذة، ومن هناك، كان يعنّف النوم، وكان يلومه على زيارته بيوتَ البائسين وبيوت المجرمين مزدرياً في المقابل بيته الأنبل: "آه منكَ، يا موتاً متحيّزاً"، كان يخاطب النوم بمرارة، ولم أستطع تحاشي الإحساس بأني تماهيتُ معه قليلاً في تلك الأوقات، وأنا أنظر إلى التلفاز لابساً عباءة بينا الآخرون يغطّون في النوم، وإن تماهيتُ مع الأمير أيضاً في أوقات أخرى. في الواقع، لم يكن الملك يظهر كثيراً في الفيلم، أو في القسم الذي شهدتُهُ منه، لكنّ ظهوره كان كافياً لتكوين صورة عنه، وحتّى عمّا كان عليه من قبل، ويلاحظ التغيّر الذي يطرأ على الأمير؛ إذ لمَّا مات والده، وتُوِّج هو ملكاً، تخلّى عن حياته الماضية (لكنها مضت للتّوّ، فهي تعود إلى أوّل أمسِ وأمسِ، فتأمّلوا)

وابتعد عن رفيقيه السيّئين، فنُفي المسكين ويلز، على الرغم من أن العجوز كان يخاطبه قائلاً: يا ابني "الحلو"، راكعاً أمامه في عزّ حفلة التتويج، لمّا كان ينتظر أن يغمره بالأفضال الموعودة والأفراح المؤجّلة، المؤجّلة حتّى شيخوخته وعجزه. "لقد أصبحتُ غير ما كنتُ"، كان يقول الملك الجديد الذي كان منذ أيّام قليلة، يشاطره المغامرات والنّكات. خيّب أملهم جميعاً حتّى الملك هنري العجوز ساوره الإحساس بعجلة ابنه الذي تغيّر، فقال له وهو يُحتضر: "لبثتُ زمناً طويلاً جدّاً إلى جانبكَ. إني أُضجركَ". ومع ذلك، كان يُسدي إليه النصائح، ويفضي إليه بالأسرار قائلاً: "يعلم الله بأيّة دروب وطُرُق ملتوية حصلتُ على التاج. فليغفرْ لي كيفية حصولي عليه"، هذا ما قاله، لمّا أطلق أنفاسه الأخيرة. كانت يداه ملطّختَيْن بالدم، ولم ينسَ أنهما ملطّختان، ربمّا كان فقيراً، لكنه كان بلا ريب متآمراً وقاتلاً، وإن عمل جلال المنصب خلال سنين على السّموّ بذلك كله، وقارب أن يمحو كل شيء محواً سطحيّاً، كالأمير الذي كفّ عن أن يكون منحلاً، لمّا صار ملكاً، وكأنّ أفعالنا وشخصيتنا تحدّدها جزئيّاً الصورة التي شُكِّلت عنّا، كأنّنا نصل إلى الإيمان بأننا مختلفون عمّا نحسب أنفسنا أن نكون، لأن المصادفة وسير الزمن الطائش يأخذ بتغيير ظروفنا وثيابنا، أو أن دروب سعينا وطُرُقه الملتوية هي ما يُغيّرنا ويبعث فينا الظنّ أن ذلك فعل القدر، ويصل بنا الحال إلى رؤية حياتنا على ضوء آخر شيء، أو أحدث شيء، وكأنّ الماضي كان تحضيراً فقط، ونبدأ بإدراكه كلّما ابتعد عنّا، حتّى ندركه إدراكاً كاملاً في نهاية المطاف. فتؤمن الأمّ أنه كُتب عليها أن تكون أمّاً، والعانس عازباً، والقاتل قاتلاً، والضحيّة ضحية، كما يؤمن الحاكم أن خطاه قادتْه منذ البداية إلى التّحكّم بإرادات الآخرين، ويقتفي أثر النبوغ في الطفولة، إذا علم أنه نابغة، ويقتنع الملك أن من واجبه أن يكون ملكاً إذا ملك، ومن نصيبه أن ينتصب شهيد سلالته إذا لم ينل الملك، ومَن يصل حدّ سنّ الشيخوخة يتذكّر نفسه على أنه مشروع بطيء لبلوغ الهرم خلال حياته

كلها ناظراً إلى الحياة الماضية على أنها دسيسة أو دليل بسيط، فيُزوِّرها حينئذ، ويغيّر فيها. ولم يتغيّر في الفيلم حال ويلز الذي مات مخلصاً لذاته وهو يرى النِّعم والمسرّات تُبعَد عنه مرّة أخرى إلى ما بعد وفاته، وقد خانه ابنه الحلو، وجعل قلبه مزقاً. فوداعاً، يا ضحكات، وداعاً، يا منغّصات، فلن أراكِ بعد اليوم، ولن تريني، وداعاً، يا عنفوان، وداعاً، يا ذكريات). وقد كانت بعض صور منه، وكذلك صورتا الملكين المعروضة طيلة ساعة ونصف الساعة واضحة بارزة المعالم، وسأظلّ أرى هذه الوجوه، سأظلّ أسمع كلامهم كلّما فكّرتُ في هنري الرابع وهنري الخامس الإنكليزيّيْن، إن فكّرتُ فيهما مرّة أخرى. وأنا لستُ منهما في شيء، ووجهي وكلماتي لا تنطق بشيء، وحان الوقت كيما يتغيّر هذا. - وتوقّف المنفرد فجأة، وكأنّما يكفّ عن القراءة في كتاب، فرفع رأسه، وأضاف بنغمة أخرى: - إنها قوّة التمثيل، أفترض، فلا بدّ لي من أن أرى الفيلم كاملاً ذات يوم.

- أجراس منتصف الليل، يا سيّدي، إن كان يهمّ سيادتكَ معرفته. - قلتُ حينئذ.

- ماذا تقول؟

- عنوان الفيلم الذي رأته سيادتكم هو: أجراس منتصف الليل.

نظر إليّ الوحيد الأوحد بدهشة، وبشيء من الشك:

- وأنتَ كيف رأيتَهُ؟ أرأيتَهُ هذه الليلة؟

- لا، وإنما كنتُ أرى فيلماً آخر في قناة أخرى، لكني عند تقليب القنوات رأيتُه معروضاً أيضاً، فعرفتُه فوراً، لأني كنتُ رأيتُهُ منذ سنوات خلت في السينما.

- آه! سأعمل، إذاً، على أن يُجلَب لي، أو أستعيره على الفيديو. سجّلي

هذا، يا آنيتا. وأنتَ ماذا كنتَ ترى؟ أكنتَ تعاني الأرق أيضاً؟ كان ذلك منذ حوالي شهر كما قلتُ لكم.

نظرتُ إلى تيبّث، لكني لم ألاحظ عليه أدنى انفعال، هو كان ينام تلك الليلة، ولم تسعفه قراءة برامج التلفاز من تشخيص الفيلم. كان انتُشل من لحظته الصعبة، فأشعل غليونه الثاني، وكان يبدو عليه الانشراح هنا متلذّذاً بقضاء الصباح على هذا الشكل، وإن كان البرد يشتدّ أكثر فأكثر. كان في ذلك الوضع شيء من جوّ مدرسة، كما كنّا نجتمع صغاراً في الفناء خلال الفرص أيّام طفولتي، ومَن شاهد فيلماً كان يقصّه على الآخرين، فيُولّد في نفوسهم الرغبة أو كان يجزيهم عن رؤيته بقَصّه عليهم، وقصّ شيء شكل من أشكال الكرم، وكان الوحيد الأوحد عريف الصّفّ.

- ولا أنا أعرف المقدّمة أيضاً، فقد أدركتُه بعد فواتها، ولم تكن الصحيفة اليومية في يدي، لأني لم أكن في البيت. - ولستُ أدري لمَ أضفتُ هذه الجملة الأخيرة، فقد كان بإمكاني توفيرها على نفسي، فلربّما أحببتُ أن أكون كريماً، وإن لم أضف أني رأيتُهُ من غير صوت.

- إذاً، كان الوقت متأخّراً قليلاً حتّى لا تكون في البيت. - قال (الوحيد) وهو يبتسم نصف ابتسامة. - كيف يبدو لكَ صديقنا، يا آنيتا؟ إنه جوّال ليلي.

لمست آنيتا الشقّ لاشعورياً، وكأنّما تريد أن تستر الجزء المكشوف من جسدها. فنشب ظفرها بخيط، فوسّعت الشّقّ، وتحوّل الجورب إلى خرقة. وتظاهرنا جميعاً بأننا لم نرَ شيئاً. وقالت هي:

- آي، يا ربّي الكريم! - ولم يتّضح إن كانت قالت العبارة لخراب جوربها الحريري، أم بسبب طوافي الليلي المشار إليه بعبارة ملطّفة.

- حسن! لنعد إلى ما كنّا فيه، تابع الوحيد حينئذ: - أحسبني أفصحتُ

عن نفسي إفصاحاً كافياً، أليس كذلك، يا رُوبِرِّث؟ على كل حال، ستعمل هذه الأيّام باتّصال دائم مع خوانتيو، حتّى لو اضطُررتَ إلى العمل معه في بيته، إن وافقتُما على هذا. فليسهر هو على كل شيء وليضبط كل شيء، ولسوف يزوّدكَ بالمعلومات، فهو يعرفني منذ عهد بعيد. فإذا سررنا بعملكَ، فلا يخامركَ شك في أنكَ ستتلقّى فيضاً من الأعمال. - أضاف. وكأنّ ما عرضه عليّ لعبة تافهة: يقيناً كنتُ أجهل التعرفة المخفّضة التي يقدّمها (بيته). ثمّ انتصب واقفاً، وقلّده كل مَنْ كان منّا جالساً: أنا وآنيتا بسرعة، وتييّث ببطء وصعوبة؛ ووقف سيغارّا مرّة أخرى وقفة استعداد، وتخلّى سيغورولا عن أدواته، وظلّت الفرشاة وحامل الألوان في يَدَيْه المسبلتَيْن، فقد فاتت الإمكانية على متابعة عمله. وتأهّب (سولوس) للانصراف، لكنه أشار قبل ذلك إلى قُدُوم خوانيتو، وقال له: - خوانيتو، تذكّر هذا الرباط، فسوف تطوُه.

أرجع تييّث إليه البصر بشيء من اليأس الآن، فرأى أنه لا يستطيع أن يعقده بنفسه، ولا أن يرفع الحذاء عالياً. فأدركتُ الموقف في لحظة واحدة: سيغارّا يحتاج إلى قرون، كيما يصل إلى حيث كنّا، وهو أقلّ مقدرة من تييّث على ثَني ظهره؛ ولا يمكن الاعتماد على سيغورولا، وربّما غير مرخّص له في أن يترك ركنه، ويدنو من (المعتزل)، فكان ينظر إليه من هناك، كأنّه مَنفيّ أو معتقل؛ أما الآنسة آنيتا، فكانت شابّة وذكية، وربّما كانت كاملة، لكنها لو أقعت أو ركعت، لطارت أزرار سترتها، ولتهتّك جورباها، وكان الأمر محصوراً بين (سولوس) وبيني. فنظرتُ إليه بمؤخّر طرفي، ولم أر أنه سيفعل، وما كنتُ أتوقّع أن يفعل، فلم أشكّ طويلاً:

- أنا سأربطه، لا تهتمّ. - قلتُ. لئن بدا الكلام موجّهاً إلى تييّث، فكنتُ أعني به (الوحيد الأوحد)، وكأنّما توجد إمكانية ما ليقوم هو بهذا الجهد.

- دعكَ! دعكَ! من ذلك. - احتجّ تييّث، وقد سُرّي عنه، وربّما فرح.

وما كنتُ بحاجة إلى طلب إذنه، وإنما حقّقتُ ما قلتُ بحركتي ذاتها غير المبتغاة.

فجثوتُ، وأمسكتُ بطرفي الرباط اللذين لم يكونا ذوي طول واحد: فربطتُ حذاءه، وجعلتُ له عقدة مزدوجة، وكأنّما هو طفل صغير، وأنا ابنته لويسا في المقبرة التي شعرتُ بأني متماثل معها للحظة، أو ربّما متآخٍ. نظروا جميعاً إلى العملية السريعة بينا كانت تشارف على نهايتها، وكأنّهم فريق من الجرّاحين يراقب الأستاذ لحظة إخراجه الرصاصة بالضبط. ركعتُ أمام أب مارتا تييّث العجوز، كما ركع ويلز العجوز، أو على الأصحّ، كما خرّ فولستاف على ركبتيه أمام الملك الجديد، أمام ابنه الحلو الذي ما إن صار ملكاً حتّى كفّ إلى الأبد عن أن يكون ما كان عليه من قبل.

- ها أنا انتهيتُ؟! - قلتُ ونهضتُ ونفختُ في أصابعي بحركة عفوية.

ظلّ تييّث ينظر بإمعان للحظة إلى الرباط المعقود جيّداً، وقال:

- لا أدري إن كان يضغط على قدمي الآن. لكنْ، هذا خير لي.

ونفخ (أنتَ وحدكَ) في أصابعه المغطّاة بالضّماد بفعل محاكاة منعكس. ولم أتمالك نفسي حينئذ من أن أسأله، وإن كنتُ أخاطر بإثارة نفوره في آخر لحظة:

- وما بال هذه الشرائط، يا سيّدي؟ - قلتُ له.

رفع (الوحيد) سبّابته وكأنّه يستعدّ لإعطاء إشارة البدء في حفلة موسيقية ناظراً إليهما بعينين يذكران بالسخرية. وراحت تتراقص مرّة أخرى على شفتيه نصف ابتسامة. وقال:

- آه! ليتني حكيتُ لكَ قصّتهما!

وضحكنا جميعاً مرّة أخرى ضحكة خفيفة.

مكتبة t.me/ktabrwaya

لستُ بحاجة إلى القول إن رغبات (الوحيد) الغامضة لا تتجاوز قدراتي البسيطة فقط، وإنما كانت بلا ريب نزوة عارضة، تعود بالمصادفة إلى النوم المتحيّز الذي لا يتجنّب أو يزور البيوت ذاتها دائماً، وإلى برامج التلفزة الليلية. هو كان شاهد ذلك الفيلم المنقوص، وأحسّ بالحسد على شكل تلقائي وأوّلي، من غير أن يتذكّر أو يتنبّه إلى أن ملكي العصور الوسطى هنري الرابع وهنري الخامس ملكي لانكستر أفادا من كَرِّ القرون التي جعلتهما خياليَيْن وموضوعاً للتمثيل فقط، وليس للبحث أو الدرس، ولا لأيّ شيء آخر، وجعلتهما واضحين وسهلاً التّعرّف إليهما جدّاً. وليس ذلك حال الأشخاص، وإنما حال شخوص التمثيل فقط. وهو ما يزال شخصاً، وإن كان يمكنه خلافاً لمعظم الفنّانين أن يمتلك شبه قناعة بأنه سيعبر بعد وفاته هذي الحدود التي لا يعبرها أحد تقريباً. والأشخاص متقلّبون وغير ثابتَيْن وسريعو العطب، ويلهون عن مصالحهم بأيّ شيء آخر خائنين بذلك طبعهم، طامسين معالمه، وينظرون إلى جانب آخر، فتضيع الأوصاف، أو يضطرون إلى تزييفها واستباق موت الموصوف، ثمّ رسمه، وكأنّه لا يخضع لعوامل التّغيّر، لأنه أمسى غير حيّ، ولن يُنكر شيئاً ما، كمارتا تييّث التي أخذتُ أراها يوماً بعد يوم أنها كانت ميّتة دائماً، وأنها مضى على موتها مدّة أطول كثيراً من المدّة التي رأيتُها فيها، وعاشرتُها، وقبّلتُها حيّة: ثلاثة أيّام فقط حيّة، وأنا شاهد على حياتها خلال ساعات من تلك الأيّام. حتّى إذا لم يكن الأمر كذلك، فإن الحياة الميتة تدوم أطول كثيراً

من الحياة الحَيّة غير المستقرّة، وليس فقط حياة موتها الذي جاء مبكراً، وإنما كل الأحياء الذين وُجدوا في الدنيا يدومون أطول مدّة من وجودهم أمواتاً متى ما مضوا عنّا وما دمنا نتذكّرهم. ولعلّ مارتا حسبت لما قالت لي "أمسكني!" أنها وُلدت لتموتَ أطول مرحلة شابّة ومتزوّجة وأمّاً. ولربّما رأت كلّ خطواتها السابقة وأيّامها الأولى على أنها طريق معروفة، كانت تقودها إلى ليلة الخيانة تلك، خيانة لم تتمّ، وأنا بدوري، كان ينبغي لي أن أراها على أنها أحد ما ظهر في حياتي بغاية أن يموت إلى جانبي فقط، ويثير فيّ هذا السِّحْر. وما أغرب هذه الرسالة! وما أغرب هذه المهمّة في الظهور والغياب، كيما أخطو خطوات، ما كنتُ لأخطوها - خيط الاستمرارية لم ينقطع، خيطي الحريري لمّا يمُس، لكنه من غير مُوجِّه. - كيما أُشغل نفسي بطفل، وأبحث عن إعلانات مُبوّبة، وأشهد متنكّراً دفناً من أمام قبر يعود إلى عام 1914، وأستمع مرّة بعد أخرى إلى شريط (بالتالي لا تقولين شيئاً حول رغبتكِ في أن تكوني معي، إن كنتِ ما تزالين راغبة، نستطيع أن نقضي وقتاً ما معاً، الرجل لا يثير انطباعاً سيّئاً، لكنه ليس من رجال الأدب، فلا تنسجي أوهاماً، أنا البائس، الأمور غير مُنجَزَة، حتّى لا يحدّد مكانه، وهكذا سنصنع ما تقولون، نستطيع اللقاء يوم الاثنين أو الثلاثاء، مرحباً: هذا أنا، اتركا لي قليلاً من لحم فخذ الخنزير، أرجوك! أرجوك!" ثمّ بكاء)، كيما أدسّ أنفي نفاقاً، ومن غير هدف ما في حياة أشخاص آخرين لا أعرفهم، وكأنّني جاسوس يجهل ما يتحرّى عنه - أو إن كان يتحرّى شيئاً - ويعرّض في المقابل للخطر سرّه ذاته أمام مَن لا ينبغي لهم أن يعرفوه، وإن كانوا هم أيضاً لا يعرفون أن له سرّاً، يمسّ بهم، كيما أحفظ ذلك سرّاً في أثناء ذلك، وأسعى الآن لكتابة الكلمات التي سيُلقيها (سولوس) على الناس، في وقت أنا لستُ أحداً من الناس، ولا أنتمي تقريباً إلى العالم، وإن كان ذلك خير ما يُلائمني، وأن تصدر هذه الكلمات المعزوّة إليه عن أغمض

شخص في مملكته، واسمه مجهول كيما تصبح حقّاً وصدقاً كلماته، أو هو غامض وذو اسم مستعار، لأن اسمي في نظره رُوبِرِّت ديتورِّس، فما أغرب رسالة مارتا في الظهور والغياب، كيما أسير هذه الخطى صوب والدها العجوز، وأجعل وجوده أقلّ هشاشة، وأجعله يحسّ بنفسه أنه نافع، بل مسؤول من مسؤولي الدولة طيلة أسبوع، كيما أنفخ في حياة مشرف على الموت، ومع ذلك، ها هو ما يزال يحيا بعد موت فروعه ذاتها. لو كانت مارتا حَيّة، لما كنتُ داخلاً بوّابة عتيقة وضخمة، في بيت يقع في حيّ سلمنقة، وما كنتُ صاعداً في مصعد ذي أبواب خشبية، مصعد مغترٍّ عتيق، فيه مقعد للجلوس، مضى عهده، ولمَا كنتُ أقضي الأصباح في (استوديو) مملوء بالكُتُب واللوحات، ومَطليّ بألوان حَيّة شتّى، جالساً أمام منضدة مستعارة بعد أنْ جلبتُ إلى هنا آلتي الكاتبة المحمولة التي لا أكاد أستعملها، بصحبة رجل طاعن في السّنّ، يتوهّم أنه يحرسني من صالون، يقع إلى جانبي. رجل ودود ومسرور لوجود شخص آخر في البيت خلاف خادم، أصبحنا لا نجد مثلها لابسة زيّاً رسمياً فوق صدار، ومن غير كوفية، وهي بلا شك مَن يعقد له كل صباح رباطي حذائه المتمرّدين. وما كنتُ لأتلقّى هذه الزيارات المموّهة، أو مراقبة هذا العجوز الذي كان يأتي الاستوديو، بحجّة أنه سيأخذ كتاباً أو يبحث عن رسالة، ويطوف في أنحائه مدندناً بلحن، ويسألني على شكل لا يتبدّل: ماذا؟ كيف تسير الأمور؟ أتتقدّم؟ أتحتاج إلى شيء؟ آملاً أن أطلب مشورته، أو أجعله يقرأ السطور الأولى المكتوبة من الخطاب، كيما يوافق عليها، أو يوحي بتصحيح ما يخوّله إيّاه امتيازه بأنه عارف قديم بنفسيّة المعتزل، (ثمّ يسعى بين حين وآخر إلى المطبخ، ليطحن القهوة)، ولَمَا عرفتُ لويسا تييّث البنت الحَيّة، والأخت التي جاءت في آخر ساعة من الصباح الثاني من الدندنة والعمل، لتصطحب أباها، ولمَا كنتُ عرفتُ إدواردو ديثان الصهر والزوج الأرمل الذي

لم يتأخّر كثيراً في المجيء، ليذهب معهما للغداء، أي معنا، أو ربّما كنتُ عرفتهما في ظروف أخرى. ("أتحبّ أن ترافقنا؟" وكانت المبادرة من تييّث، فقلتُ: "نعم، ولِمَ لا؟!" من غير أن أجعل نفسي موضع رجاء، ومن غير أن يُبدوا هم أدنى إلحاح، ولربّما ما كانوا ليُبدّوه على أي حال). ولمَا كنتُ دخلتُ أيضاً مطعماً بصحبتهم. وكان الأب أوّل مَن عبر الباب، كما يصنع الآباء، وكذلك الذكور الطليان الذين لا يسمحون للمرأة أن تعبر أوّلاً في مكان عام حتّى يتحقّقوا من الجوّ (في هذه اللحظة، قد تطير الزجاجات في الهواء، وتبرق السكاكين، ويتقاتل الرجال في أمكنة صلاحيتها للقتال أبعد ما تكون عن التّصوّر)، ثمّ لويسا تييّث، ثمّ أنا، وقد أفسح لي ديئان المجال بحركة، هي وسط بين الأبوّة وبين الدلالة على تفوّقه الاجتماعي المبهم (أو ربّما بذلك الاهتمام الزائف الذي يُعامَل به الأجراء)، ألا تعلم، يا أبله، أن امرأتكَ ماتت بين ذراعي بينا كنتَ أنتَ في لندن، وما تزال على غير علم، يا أبله؟ وصحّحتُ فوراً خجلاً: أعاني أحياناً في التفكير من ردود فعلِ مفرطة في عنفها وذكوريتها. والمسبّة الذهنية لا تقبل غير الخطاب المباشر من غير تهذيب.

كان ديئان رزيناً إلى حدّ ما، وقد أكسبتْه السنونُ الشيءَ الكثير، وها أنا أراه عن كثب، وقد غاب الشحوب عن وجهه، لمّا رأيتُه في المقبرة منذ شهر خلا، وهو يضغط بيَدَيْه على صدغيه. لا أدري إن كان مباحاً لي أن أقول ما سوف أقوله، لأنني عرفتُهُ منذ اللحظة الأولى معرفة كافية، وإني شهدتُ تغيّر حاله، في حين كان هو ما يزال يجهله، لكن الثابت أن له وجه أرمل، ويبدو صعباً أن تعرف إن كان اكتسبه في هذا الشهر الأخير أم أنه كان يلازمه منذ مدّة سابقة طويلة (يبدو الأرامل أشخاصاً هادئين حتّى وهُم وسط اليأس أو الحزن، إن كان هناك يأس أو حزن). مدّ لي يده اليسرى لمّا حيّاني من غير أن يكون أعسر، ولم تكن يده اليمنى مضمّدة أو

مشلولة، بل هي أصالة فيه، ونزوة قام بها في أوّل احتكاك بي، واحتكاك متعثّر قليلاً وشاقّ ومُلتوٍ، وكأنّ ذلك يُشكّل جانباً من قسماته أو صورته التي لا تعرف الاستقرار: فحاجباه ساخران، وعيناه نجلاوان وجادّتان، وذقنه منصّفة كذقن غرانت وميتشون وماك موري (لكنه أنحل منهم جميعاً)، وصرتُ على ثقة لما قُدّمنا لبعضنا البعض في بيت تييّث، أنه لا هو ولا لويسا أخت زوجته تثبّتا منّي في أثناء الدفن، وبذلك لا يستطيعان التّعرّف إليّ، وسرعان ما انتابني شكّ مؤقّت في أثناء الطعام، أو بانتظاره بينا كان تييّث وبنته يثيران أمراً عائليّاً ما كان يهمّنا في شيء، وكنّا نصغي هو وأنا من غير أن نقول شيئاً تقريباً: فنظر إليّ خلال هاتَيْن الدقيقتَيْن أو الدقائق الثلاث، نظرة جانبية أو مواجهة، وكأنّه يعرف شيئاً ما عنّي، أو بالحَريّ لا يمكن الاحتفاظ بسرٍّ أمامه، لأن عينَيْه ضرب من العيون الشكّاكة المتحرّية التي تُرغم المرء على متابعة الكلام، وإن كانت لا تطرح أسئلة، وإنما يسود صمت، وتُرغم على الإفاضة في شرح المطالب، وعلى الإتيان بحجج جديدة لإثبات ما لم يكن موضع شك قطّ، ولم يرفضه أحد لفظياً حتّى يشعر المرء أن كلامه لا وزن له ولا يسري، لأن الآخر لا يجيب، وإنما يظل ينتظر المزيد، كَمَن يشهد مشهداً، لا يشارك فيه، ويريد أن ينعم بالرضا، إلى أن تنتهي المهمّة، والمرء هو المشهد، وإن كنتُ خلال الدقيقتَيْن أو الدقائق الثلاث التي نظر خلالها إليّ مشهداً صامتاً، يلقي عليه نظرة فحسب، كما تُلقى على تلفاز يعمل، لكن الصوت فيه مخمد. وفكّرتُ: "لا أفهم كيف أمكن أن يكون لمارتا عشيق، لأن بيثِنْته الصخّاب لم يكن متحفّظاً قطّ، كما قالت زوجه، بل هو من أولئك الفضوليّيْن الثرثارين الذين يقصّون كل شيء، حتّى تلك الأشياء التي تُلحِق بهم ضرراً، وتُهلكهم. لستُ أدري كيف حصل شيء كهذا إزاء زوج ذي نظرة جدّ متوعّدة، إزاء مَن لا يمكن إخفاء شيء عنه كهذا الشيء مدّة طويلة، اللهم إلا إذا كانت علاقة مارتا ببيثِنْته لا تعود إلى مدّة

بعيدة، وإنما هي حديثة العهد بالضرورة، على الرغم من الكلمات الواثقة المسجّلة، والبذاءة في اللّفظ، وليس في الذهن فقط، فالجسد يبعث على الثقة، ويدعو إلى سوء التّصرّف، فكل شيء يتجعّد أو يتلطّخ أو تُساء معاملته، ينبغي لي أن أسمع هذا الشريط مرّة أخرى، ربّما كان في صوت الرجل نفاد صبر، يجلبه كل ما هو جديد معه، إذا أثار الجديد حماساً، لا يمكن التّخلّص منه. ديئان نفّاذ، وربّما انتقامي، وهو على استعداد لأن يلقاني حسب إينيس، لا يبدو رجلاً من نوع يقبل ما يحدث له على عواهنه، أو لا يتّخذ إجراءات، بل أحرى به أن يكون صاحب كيد ونشاط، ومضارب وذا قدرة على الردع، وربّما له القدرة على قسر الأفعال والإرادات وثنيها، هذه النظرة تنمّ عن مواقف هادئة ما إن تُتّخذ، وعن قناعة كبيرة تُكتَسب، أمّا التجاعيد البادئة المتعدّدة التي ستجعل من وجهه قشرة شجرة متى ما تقدّم في العمر، وهذه الأناة والقدرة على الإدهاش وعلى الفهم الكبير الذي أحسّ به الآن وأراه عن قرب على الجانب الآخر من المائدة، كلها تشي بشخص يعرف نتائج تصرّفاته، ويقيسها، ويعلم أن كل شيء ممكن، ولا ينبغي لنا أن ندهش أكثر من لحظة واحدة، اللحظة التي تسبق الفهم الكبير، حتّى لا ندهش ممّا نفكّر فيه أو نصنعه بأيدينا كالقسوة والشفقة والغضب والكآبة والغيظ؛ كالهزء والاستقامة وحسن النّيّة والانطواء؛ والعنف، وربّما خلوّ القلب من الرحمة، كل ذلك ما عدا التصحيحات التي ينبذها أو يجهلها الذين يتوقّفون كيما يفكّروا قليلاً، ثمّ يعملون. هذا الرجل يُعيد النظر، ويستبق الأمور، وهو يقظ، ويعتمد على ما لا يعتمد عليه أحد تقريباً، يعتمد على ما يأتي، ويرى ما سوف يحدث فيما بعد، لذلك هو يؤمن إذا ما صنع شيئاً أن هذا الشيء صحيح. أو لعلّه ليس كذلك، وإنما سيكون الأمر معكوساً، فلربّما كان صاحب بلاغة ذهنية ولفظية، ويصنع صنعه من غير تفكير، عالماً أنه سيجد في وقت

آخر الحجّة أو الرأي الموائم لتسويغ ما ارتجله ذوقه أو غريزته، أي، ليفسّر لنفسه أفعاله وكلماته عالماً أن الدفاع ممكن عن كل شيء، وأن كل قناعة مضادّة يمكن أن تُدحَض، ولسوف يُستصوَب رأينا دائماً، وكل شيء يمكن له أن يُحكى، إذا أُرفق بتمجيده، أو تقديم الأعذار له، أو الأسباب المخفّفة، أو تمثله ببساطة، والحكي شكل من أشكال الكرم، وكل شيء قابل لأن يحدث، وكل شيء يمكن أن يُعبّر عنه، ويقبل، وبالمستطاع الخروج من كل شيء من غير عقاب، أو بالحَريّ الخروج بسلامة، فاللوائح والأوامر والقوانين لا تصمد، وهي قابلة لأن تتحوّل إلى ورق مبلول، وستجد دائماً مَن يستطيع القول: "هي لا تنطبق عليّ، أو لا تنطبق على حالتي، أو لا تنطبق هذه المرّة، وإن انطبقت المرّة القادمة، إن أخطأت المرّة القادمة"، ستجد مَن يدافع عن هذا كله، ويقتنع به. كان صوته خشناً على شكل استثنائي، صوت صدئ وأجش خارج من خوذة، أو أتت عليه قرون وهو يفكّر ويروز كل كلّمة من كلماته، فكان يتكلّم ببطء شديد، وهذا كلامه لمّا أشار وهو يتناول الطبق الثاني إلى مارتا إلى زوجه الميّتة منذ شهرٍ مضى، لم يحظ خلاله بحضورها، وقال:

- لا أدري إن كنتُم تنبّهتُم أن عيد ميلاد مارتا هو بعد أسبوع. ستكون أتمّت الثالثة والثلاثين من عمرها حتّى إنها لم تبلغ السّنّ المشهورة.

قال ذلك، وهو ينظر بعينين تناريّتَيْن، وبلون البيرة إلى لويسا التي كانت جملها مهّدت لجمله، أو أتاحت على الأقلّ لجمله ألا تبدو خارج زمنها، وثمرة شطط أفكاره المعزولة عن حديث الآخرين الذي جرى حتّى ذلك الحين من غير اتّساق كبير، وإنما بقفزات، تتخلّلها أوقات وقف قصيرة، ربمّا حدّد وضعه وجودي غيرُ المريح، أو ربمّا بسبب الشأن العائلي الذي بدأتْ بإثارته لويسا وأبوها، ما إن جلسنا، ولعلّه شأن ماليّ. أو ربمّا كان

ذلك طريقة في تجنّب شيء، أو بالحريّ تأجيل شيء ما يزال يحسّ به الثلاثة بلا ريب، ينبض في تفكيرهم خاصّة إذا جمعهم مجمع، ولم يستطع ديئان أن يؤجّل ذكره مدّة أطول، وإنما انتظر إلى أن يطلب أو يتناول طبقه الأوّل، أو يُجلَب إلينا الطبق الثاني (كان يأكل سمكاً، ويشرب خمراً). لم يلتفتوا إليّ حتّى ذلك الحين، أي لم يعاملوني على أني شخص جديد، ينبغي لهم الاهتمام به بحدّ أدنى، تفرضه قواعد اللياقة، ليس اهتماماً بندٍّ لهم، وإنما في الحقيقة أجير، يصحب ببساطة مَن يدفع له أجره، وإمّا لا، فإنه لن يأكل، غير أنهم لن يكونوا مَن سيدفع لي شيئاً، حتّى ولا تبيّث ذاته، وأنا كان بمستطاعي أن أتغدّى وحيداً من غير أن يعرّضني ذلك إلى إنقاص قدري. ويرجّح أيضاً أنهم كانوا مفرطين في الانطواء، ومفرطين في عادتهم في الكلام عن شؤونهم، (وهذا ما يحدث لكل العائلات)، وكأنّهم يبتغون تنويع برنامج اجتماعاتهم المعتادة ولهجتها ومواضيعها المضطربة، اجتماعات صارت شائعة هذه الأيّام أكثر من أي وقت آخر. فموت أحد ما يقرّب مؤقّتاً فيما بين مَن خلّفهم. سألتْ لويسا أباها كم يريد أن يُنفق من المال من أجل الهديّة التي ستقوم بشرائها نيابة عنه هذا المساء، لتقديمها إلى كنّته وزوج أخيها ماريا (ماريا فرنانذِث بيرا، وها أنا ذا أحفظ الأسماء كلها)، التي سيحلّ عيد ميلادها في اليوم التالي، هذا هو نوع الحديث الذي كانا يعقدانه، وكان ذلك لمّا قال ديئان ما قلتُ إنه قال بخلطه المعروف بين أزمنة الأفعال، لأنه تكلّم أوّلاً، وكأنّ مارتا ما تزال حيّة (هو عيد ميلادها)، ثمّ صحّح تصحيحاً ذاتياً لمّا ذكر السنين التي لم تكن أتمّتها، والأموات يهجرون أعمارهم، وبذلك يظلّون الأكثر شباباً، إذا ظللنا نحن الأحياء، نتذكّرهم زمناً طويلاً، وحالتنا نحن لمّا يمضِ عليها شهر. ربّما كانت لويسا تفكّر تفكيراً مشابهاً، لأنها كانت أوّل مَن أجاب بعد صمت يقرّ بعَبَث تجنّبهم أن ينطقوا بما كان يفكّر فيه الأشخاص الثلاثة في آن واحد،

وهم في الواقع أربعة، وأن هذا الشخص الرابع مسكون Haunted، وإن كان الثلاثة الآخرون لا يعلمون شيئاً عن هذا، وربّما كانوا هم أيضاً تحت وطأة سِحْر منذ أن رأوا التراب الرمزي ينهال، فوضع تييّث فوق صحنه متصالبةً أدوات الطعام التي أكل بها سمكاً (سمك ميرو مشوياً، وكان أكل حتّى ذلك الحين بشهيّة)، ورفعت لويسا المنشفة إلى شفتيها، وأبقتها هناك ثواني معدودات، وكأنّها تكبح دموعها أكثر ممّا تكبح ما يلفظه فمها من قيء أو كلمات - ثمّ أعادتها إلى فخذيها ملطّخة بأحمر الشفاه، ولعابها وعصارة الفتائل الدامية (وهي ليست فتائل إيرلندية يقيناً)؛ وديئان نفسه رفع راحة يده اليمنى إلى جبهته، واستند بمرفقه إلى المنضدة على شكلٍ جليل، وكأنّه فقد فجأة أشكال العرف الاجتماعي، وكان يرى من قبل شوكته مغروزة في قطعة بطاطا مشويّة. ولمّا أعادت لويسا المنشفة أخيراً إلى فخذيها اللذين استطعتُ أن ألمحهما لمحاً من خلال المائدة حين كشفت عنهما (تنّورتها أقلّ انكماشاً من تنّورة أختها، لمّا كان القماش الأبيض على فمها) قالت شيئاً مشابهاً لتفكيري:

- لم أتصوّر قطّ أني قد أصبح ذات يوم أكبر من مارتا، ذلك من الأمور التي تُعلم منذ الطفولة أنها محالة، وإن كنتَ ترغب فيها أحياناً. إذا كانت الأخت الكبرى تنازعكَ لعبتكَ وتتصارع معها، وتخسر دائماً لأنكَ الأصغر. ومع ذلك، هو ممكن. سأصبح خلال عامين أكبر منها إذا عشتُ حتّى ذلك الحين، إنه شيء يصعب تصديقه - كانت ما تزال تمسك السّكّين بيدها اليمنى، سكّين مدبّب مسنّن وذو نصاب خشبي كالسكاكين التي تُستعمل في المطاعم لتقطع اللحم بجهد يسير. وكانت وضعت الشوكة فوق الصحن أيضاً، لتلتقط المنشفة، ولكنها لم تستردّها، كانت تبدو امرأة تخشى أن تعيق نفسها بالسّكّين ذي الحدّ المسنّن ممسكة به في يدها.

- لا تقولي سخافات، ودقّي الخشب، يا ابنتي. - قال لها تييّث بنفور. إذا عشتِ حتّى ذلك الحين! إذا عشتِ حتّى ذلك الحين! هذا ليس بقول. أيّة مصائب أخرى تريدين؟

والتفت صوبي (هو أكثرهم شعوراً بوجودي، وإن يكن متطيّراً) وأضاف فيما يشبه التوضيح متعثّراً هو الآخر بأزمنة الفعل: - مارتا بنتي الكبرى وزوج إدواردو ديثان، ماتت منذ ما يزيد عن شهر قليلاً موتاً مفاجئاً. - وهو على الرغم من كل شيء يؤمن بالحظّ، ولا يرى سبباً لأن تتكرّر الأشياء.

- سمعتُ شيئاً مشابهاً لهذا في القصر. - أجبتُ، وكنتُ الوحيد الذي ما يزال يمسك بيَدَيه أدوات الطعام، وإن كنتُ لا آكل أيضاً. - لا تعلمون كم أنا آسف لذلك! - هذه الجملة الجاهزة لم أقلْها من طرفي شفتي، وإنما هي غاية في الصحة، ومؤكّدة بإفراط. ("ما أفرحني بهذا الموت! ما أحزنني له! ما أحفاني به!") ثمّ سكتُّ، حتّى لم أسأل عن سبب موتها (ولم أهتمّ لذلك قطّ، واهتمامي يقلّ مرّة بعد أخرى). أردتُ أن أقول بالضبط ما يسمح لهم بأن يتابعوا الكلام، كما فعلوا حتّى ذلك الوقت، وكأنّي غير موجود، أو كأنّني لستُ أحداً من الناس، وإن كنتُ قُدّمتُ لهم كما يجب، وباسمي الحقيقي الذي لا يظهر قطّ في أيّة جهة.

شرب ديثان من خمره الأبيض، وملأ الكأس مرّة أخرى مستنداً دائماً إلى المنضدة، ويده على جبهته، لكن لويسا هي التي استأنفت الكلام (من غير أن تتخلّى عن دقّ الخشب الذي أوصاها به والدها. فرأيتُها تبحث على شكل آلي عن المنضدة تحت الغطاء كَمَنْ يقرن الكلمة بالفعل، وكانت تلك حركة طبيعية فيها اعتادتْها، وهي بالحريّ كانت تؤمن بالخرافة، وربّما كان للإرث الإيطالي نصيب في ذلك، وإن كان الناس في إيطاليا يدقّون الحديد).

- ما أزال أتذكّر الرقص الصاخب أيّام المراهقة الذي كان شؤماً عليّ بسببها: فقد كانت تحظر عليّ أن أعجب بأيّ فتى إلى أن تختاره هي لي. "انتظري حتّى أقرّر، أسمعتِ؟" كانت تقول لي عند باب البيت الذي تُقام الحفلة فيه. "لسوف تنتظرين، أليس كذلك؟ هذا مؤكّد، وإما لا، فلن أدخل". كانت تقول لي، وما كنّا ندقّ الجرس حتّى أجيبها: "حسن! ليكنْ ذلك، لكنْ، عجّلي". كانت تمارس عليّ نوعاً من حقّ الإشراف لكونها الكبرى، وكنتُ أرضى به. ثمّ كانت تُبطئ كثيراً حتّى تقرّر في أثناء الحفلة، فكانت تراقص هذا أو ذاك قبل أن تُبلّغني بمَن اختارتْه لي، وكنتُ أقضي هذه المدّة قلقة خشية ما كان يحدث دائماً متطلّعة إلى الشّابّ الذي كنتُ راغبة فيه. أنا على ثقة بأنها كانت تحاول أحياناً كثيرة أن تخمّن مَن يعجبني من الشّبّان كيما تختاره لي. وإذا ما احتججتُ كانت تتّهمني أني إمّعة، إذ أتطلّع دائماً إلى الشّبّان الذين تستلطفهم هي. ثمّ كانت لا تكفّ عن الرقص معه كل المساء. وكنتُ أخفي عنها في كل مناسبة مَن أوثرهم، لكن ذلك ما كان يجديني، فهي كانت تعرفني جيّداً، وكانت مصيبة دائماً حتّى تخلّينا عن الذهاب إلى الحفلات، لمّا صرنا في سنّ أكبر: هكذا كان الحال. - قالت لويسا وعيناها شاردتان قليلاً، عينا مَن ينطوي على نفسه وهو يتذكّر.، وإن كنتُ في الحقيقية أستطيع أيضاً الاختيار على كل حال، كانت هي حينئذ قد تكورّ ثدياها أكثر من ثديي، وبالتالي كانت أوفر حظّاً.

لم أستطع تجنّب النظر لحظة إلى صدر لويسا تييّث، كيما أحسب قياسه، إذا شئنا القول. ولربمّا لم يكن حامل ثديي أختها مارتا أصغر من المقياس الضروري، وربمّا كان ثدياها ناهدين دائماً. أنّى لي إمعان النظر في جذع لويسا تييّث وفخذيها؟، فكّرتُ، أعلم أن ذلك عادة لي، وهي عادة لكثير من الرجال الآخرين في كل ظرف، وإن يكنْ أحزنَ الظروف وأشدّها مأوساوية، لا نستطيع تجنّب النظر، بل الأصحّ أننا نقسر أنفسنا عليه كثيراً،

لكنه جعلني أحسّ نفسي كالحقير - في لغة المراهقة كالخنزير. ومع ذلك، رحتُ أقيس جذعها مرّة أخرى بنظرتي التي حطّت عليه ثانية أو ثانيتَيْن وعلى شكل خفيّ، نظرتُ بعينين جدّ مقنّعتَيْن ومرائيتَيْن حتّى أسرعتُ بخفضهما إلى صحني، وأكلت لقمة، كانت اللّقمة الأولى التي تؤكل على المائدة منذ أن ذكر ديثان اقتراب عيد ميلاد مَن لم تُتمّ هذه السنين. وما كنتُ لأستطيع أن أحظى بإعجاب لويسا من قبلُ، لأن لويسا لم ترني من قبل، وصوتها لا يبدو أنه الصوت ذاته الذي سيتردّد في المسجّل قرناً بعد قرن، إذا لم أمحُ الشريط: (.... لا شيء، اتّصلي بي غداً من كل بدّ، واحكي لي كل شيء من الألف إلى الياء. الرجل لا يترك انطباعاً سيّئاً. لكنْ، ليكن. الحقيقة لا أدري كيف واتتكِ هذه الجرأة. حسن! إلى اللقاء، وأتمنّى لكِ حظّاً جيّداً"). لم أشأ التفكير في شأن هذه الرسالة طويلاً، لكني ربمّا كنتُ أنا "الرجل" المذكور، وكان لا بدّ لتلك الرسالة من أن تكون الرسالة ما قبل الأخيرة، أو على الأصحّ الأخيرة (لأن ما قبل الأخيرة مُحيت يقيناً بتوضّع الصوت الكهربائي فوقها، والتي كنتُ سمعتُها مباشرة، ولم تسمعها مارتا قطّ) الرسالة الأخيرة قبل أن أقرع الجرس، وسمحت لي بالدخول، ولربمّا أُتيح لمارتا بعد أن عزمت على لقائي أخيراً، أن تقصّ الأمر على صديقة، أو على أختها: "لقيتُ رجلاً، أكاد لا أعرفه، ولسوف يأتي للعشاء في بيتي؛ إدواردو في لندن، ولستُ واثقة بما سيحدث، لكنْ، يمكن أن يحدث"، قالتْها بالإثارة ذاتها التي كانت تسبق حفلات الرقص أيّام المراهقة ("انتظري حتّى أقرّر أنا، أسمعتِ؟" ثمّ كانت تدقّ الجرس بعد ذلك)، ولربمّا كانت أودعت مارتا هذه الرسالة مسجِّلَ صديقتها أو أختها التي أجابتها بدورها عنها، لماّ خرجت هي في آخر ساعة إلى المحل التجاري القريب تاركة الطفل وحيداً لمدّة بسيطة، كما تركتُه أنا وحيداً لنصف ليلة، لشراء آيس كريم - كريم هيجّن - داز، لتناوله بعد العشاء:

أقول ربّما على سبيل المثال. أو لعلّها لم تقل "الرجل"، وإنما ذكرت اسمي مقروناً ربّما بالكنية، وربّما استطاعت أن تكلّم صديقتها أو أختها مباشرة، ومن غير تسجيل، وحدثّتها عنّي (في هذه الحالة قد تكونان عرفتا اسمي، وبالتالي لم تعرفني لويسا لما قدّمني أبوها إليها، وربّما كانت لا تتذكّره الآن)، ولربّما خمّنتُ تخميناً، وقدّرتُ تقديراً، لقد تعرّفتُ إليه من خلال حفلة كوكتيل، والتقينا لتناول القهوة في يوم آخر، وهو على صلة كبيرة مع كل صنف من الخلق؛ هو مطلّق، ويكتب مسلسلات للتلفاز إضافة إلى أشياء أخرى، وهذا ما أزعم صنعه عادة، وأسكت مبدئياً عن حقيقتي كاتب أسود أو كاتب شبح، وإن كنتُ لا أخفيها أيضاً إن لزم ذكرها، وأعلم أن حكايات هذا الشبح تَسرّ محادثيه.

وكانت مارتا تردّدت أيضاً، ومارست حقّها في التّحرّي البسيط، فهتفتْ إلى بيئنته من غير أن تجده، هتفتْ له على الأقلّ، وربّما هتفتْ إلى شخص آخر، وكنتُ أنا الطبق المكروه، أو كنتُ فُضالة على الأغلب، لهذا السبب وحده ماتت أمام عيني وبين ذراعي. قلتُ إني غير مَعنيّ بسبب موتها طبّيّاً، وأنا غير راغب أيضاً في إعادة تركيب ما حدث ذلك النهار قبل لقائنا، ولا سير الأحداث الذي جمعنا مع بعضنا، ولا أريد أن أعرف سيرتها، أو سيرة عائلتها أو سيرة زواجها المتعب، ولا أعيش تحت أي شكلٍ، بديلاً ممّا انقطع حبله، أو على الأصحّ أُلغي، أنا شخص سلبيّ، يكاد لا يبحث عن شيء، ولا يريد شيئاً، أو لا يعرف عمّا يبحث وأي شيء يريد، شخص تنال منه الأشياء، إذ يكفي أن أكون هادئاً حتّى يتعقّد كل شيء، ويحين حينه، فينطلق الغضب والنِّزاع، حَسبْي أن أظلّ أتنفّس في الدنيا أدنى نَفَس يتذبذب من أنفاسنا كالذَّبذبة الخفيفة التي لا تستطيع أن تتحاشاها الأشياء الخفيفة المعلّقة بخيط، نظرتنا مقنّعة وحيادية، كتأرجح العطالة في الطائرات المتدلّية من السقف التي ينتهي الأمر بها إلى الدخول في معركة،

بسبب الارتعاشة والخفقة الصغرى، وإذا كنتُ أخطو بعض الخطوات، فهي حقّاً من غير هدف محدّد، حتّى إني لا أريد أن أُفرِغَ الشريط الذي طالما سمعتُه، وهو بعد كل شيء ممكن: حتّى تلك الرسالة ربمّا كانت موجّهة إلى ديئان، وربمّا كان "الرجل" أحداً ما، كان ينوي ديئان أن يفاوضه حول شأن معيّن ذي مخاطر كبرى. وهي قد لا تكون حدّثت أحداً عنّي، فما كان يعلم أحد في الدنيا الشخص المختار لتلك الليلة، ليس للاضطجاع معها، وإنما لأكون بصحبتها في أثناء موتها. وخطر لي وأنا أمضغ اللقمة، وأشيح بعيني المرائيتَيْن عن صدر لويسا، أنّ ما كنتُ أبحث عنه، وما كنتُ أريده ربمّا كان شيئاً محالاً، لكنه مفهوم، ربمّا كنتُ أريده، ربمّا كنتُ أريد أن أحوِّل وجودي الذميم إلى وجود أجدر بالاحترام، وأقرب إلى الأصول، وإن يكن ذلك بعد وقوع الأحداث، وبالتالي ألعب لعبة قذرة، إنها طريقة حميدة في تغيير تلك الأحداث أجدى من أيّة طريقة أخرى، أن أرى الحياة الماضية على أنها مكيدة أو مجرّد قرينة، وكأنّها كانت تحضيراً، وأنّا نأخذ بفَهْمها، كلّما ابتعدت عنّا حتّى نصل أخيراً إلى فهمها فهماً كاملاً: وكأنّي أفكّر في أنه لم يكن لائقاً، ولا عدلاً، أن تودّع مارتا الدنيا إلى جانب فرد، يكاد يكون مجهولاً، واكتفى بألا يُفوِّت فرصة غرامية، وقد يكون هذا المجهول أعدلَ، لو أنه تحوّل إلى شخص قريب ممّنْ كانوا قريبين منها، إذا أصبحتُ جرّاء موتها وما جرّه هذا الموت عنصراً أساسيّاً أو هامّاً أو حتّى مفيداً في حياة أحدِ ممّنْ أحبّتهم، أو إذا أسعفته بشيء ما. وفكّرتُ، مع ذلك، أني أتيحتُ لي فرصة أولى مباشرة للقيام بذلك، إذْ كان بإمكاني أن أضمن لو ظللتُ في شارع كونده ديلاثيميرا أمنَ الطفل أوخينيو الذي ظلّ في البيت بصحبة جثّة، ولم أفعل ذلك. كان بإمكاني أيضاً أن أهتف مرّة أخرى، وألحّ على البوّاب الطرِب في فندق ويلبراهام أوتيل في لندن، وأنبّه مسْتر بيّستيّروس، وأعلمه بأنها ربمّا كانت تريد أن يعلم فوراً بشعورها

بدُنُوّ أجلها. لا نطيق أن يكون أقرباؤنا على غير علم بآلامنا، هناك أربعة أشخاص أو خمسة في حياة كل امرئ، ينبغي لهم أن يكونوا على علم بما يجري لنا فوراً، ولا نطيق أن يحسبونا أحياء، إذا كنّا أمواتاً. ولم أفعل ذلك، لأقيَ نفسي من ثورات الغضب الممكنة، ولأحميها هي التي كانت قالت في البداية: "أأنتَ مجنون؟ كيف أهتف إليه؟ لسوف يقتلني". لكنْ، لا معنى لحماية امرأة ميّتة تحاشياً لقتلها، إذا أمست هي ميّتة، وفوق ذلك، لم يفدني هذا في الحفاظ على صورتها، فقد علموا أنها استقبلتْني تلك الليلة، أي استقبلت رجلاً. ولم أصنع ذلك، لكنْ، كان من الخير أن ألهي الأب قليلاً عن الفراغ الذي يعانيه طيلة بضعة أيّام، وهو الشيء الوحيد الذي حصلتُ عليه حتّى الآن.

- ما أعجب أن تنطقا بالحماقات! - قال تييّث وهو يتناول أيضاً لقمة خاطفة من سمكة، كان ما تزال لديه شهية، لكنه وضع بعد ذلك السّكّين والشوكة متصالبتَيْن فوق الصحن، وكأنّه لا يجرؤ على متابعة الأكل. وكان يُرى بوضوح أنه غير معجب بأن تتحدّث ابنتاه عن أثدائهنّ ذاتها، وإن صارت أثداء المراهقة تنتمي إلى الماضي، وبالتالي إلى عالم النكتة بسهولة: في نظره، ابنتاه لا تملكان شيئاً كهذا أكثر ممّا تملكه المَدعوّة غلوريا التي عاشت مدّة بسيطة جدّاً. وأحسبني رأيتُه، وقد علت حمرة الخجل وجهه قليلاً، وإن كان يصعب جدّاً التمييز لدى الأشخاص المسنّين حمرة الخجل من حمرة الغضب، لأن الأولى لا تتجلّى لديهم عادة. وكان استعمل صيغة المثنّى المخاطب، وكأنّ لويسا كانت الممثّل الفردي غير المحتشم، لِمَا كان ثنائياً دائماً على المائدة، أي البنتَيْن معاً، وكأنّ تعليق لويسا أيضاً كان يمكن أن تقوم به أختها أو توافق عليه. يصعب على المرء أن يعتاد الكفّ عن إطلاق مزيد من التعليق - ما أتفه الرؤية التي تكوّنانها عن الأشياء! قهوة من فضلكَ. - أضاف رافعاً سبّابته صوب نادل موقّر، مرّ قربنا حاملاً

صواني من غير أن يلتفتَ إليه. - أتريدون حلوى؟ أنا سأعفي نفسي منها. - صيغة الجمع الأخيرة كانت مختلفة: لقد ضمّني إلى الشخصين الآخرين.

كنّا في مطعم يعرفه العمال فيه معرفة جيّدة، فهو بجوار البيت، فمن الطبيعي أن يلقى رعاية حسنة في كل وقت. نظر نظرة سوء إلى النادل، وأخرج غليونه، وطرقه على راحة يده؛ وما إن رآه رئيس الخَدَم يصنع حتّى دنا منه راجياً، وناداه "دون خوان":

- ألم يعجبكَ سمك موسى، يا دون خوان؟ - قال له.

- بلى، بلى! لكنْ، ليس بي رغبة كبيرة، ولا الآخرون بهم رغبة أيضاً، كما يبدو، تستطيعون رفع المائدة. أريد قهوة، وأنتم؟ - تثبَّتُّ أنه في صيغة الجمع يخاطبني من غير مجاملة، ولسوف يخاطبني بالمفرد عمّا قريب جدّاً.

في تلك اللحظة، التفت رئيس الخَدَم صوب النافذة قُبيل هدير الرعد، وكأنّه كان يحسّ به قبل وقوعه، وأخذت السماء تُمطر مطراً غزيراً نظير ما صنعته منذ شهر، أو أكثر من شهر، أو ليس نظيره، وإنما كانت هذه المرّة تُمطر بغضب أشدّ وعجلة أكبر، وكأنّ المطر يريد أن يفيد من ديمومته القصيرة جدّاً، أو كأنّه غارة جوّيّة تتصدّى لها المدفعيّة. ورأينا المارّة في الشارع يتكوّمون خلال نصف دقيقة أمام باب المطعم، رأينا النساء والرجال والأطفال يُهرعون للاحتماء ممّا يسقط من السماء، كما كان يُهرع رجال هذه المدينة ونساؤها وأطفالها، لمّا كانت محاصَرة في عقد الثلاثينيات باحثين عن ملجأ، ليحتموا أيضاً ممّا يسقط عليهم من السماء، ومن قصف المدافع الذي يأتي من الضواحي، ومن هضبة لوس آنخلس وهضبة غرابيتاس، ممّا يُسمّى قذائف الهوتزر التي كانت تُحدث

قطعها المكافئ، وتسقط على محطّة الهاتف، أو على الساحة المجاورة، إذا أخطأت التسديد، ولذلك سُمّيت "ساحة المياه" بفكاهة مشؤومة غير قابلة للتصديق، أو على مقهى فيغريسكو الضخم الذي تهدّم وزُرع بالموتى، لكن الناس أقبلوا في اليوم التالي ثابتي الجنان ومستسلمين في آن واحد لتناوُل البيرة في المقهى المجاور. وعلى غرانخا ديلْهنار في شارع القلعة حذاء نهاية الجادّة الكبرى عالمين أنهم هناك يمكن أن يحدث لهم الشيء ذاته، لأن السماء والضّواحي كانت التهديد الأكبر للسابلة الذين كانوا يلوذون بالأرصفة المهشّمة، كما يلوذون الآن من العاصفة، لكنّ هذا المطر تقطعه الريح، أمّا قذائف المدافع، فكان لها حظٌّ أوفر في إصابة هذا الرصيف أو ذاك تبعاً للهضبة التي يُطلق منها المحاصِرون، عامان ونصف العام قضوها جميعاً في الحصار، سواء مُحاصِرين ومُحاصَرين، عامان ونصف العام من الجري عبر هذه الشوارع، والأيدي موضوعة فوق قبّعات القشّ والمقلّمة والمدوّرة، والتنانير طائرة في الهواء، والجوارب ممزّقة، أو ببساطة كانوا من غير جوارب، تسقط على هذه المدينة التي لم تتخلّ منذ ذلك الحين عن عادتها في أن تعيش وتكون كالجزيرة.

سجّل رئيس الخَدَم ملاحظة شخصيّة، وكان يعقد على خصره نوعاً من ملاءة بيضاء (أكثر ممّا هي صدّار) كانت تصل حتّى قدميه، على طريقة النُّدل في فرنسا، وهي ضرب من القماش الأبيض فوق الزيّ الرسمي الأسود، وهكذا يمكنه أن يتّسخ. ونظرنا نحن - الأكيلين الأربعة - إلى المطر يهطل للحظة.

- لن يلبث طويلاً، لكنْ، من الخير أن نتناول حلوى. - قال ديئان - وإن كان ينبغي لي أن أنصرف هارباً.

- لا تعجل كل هذه العجلة - قالت لويسا حينئذ.. إلى الآن لم نتحدّث عن الطفل.

- حقّاً! سيكون من الخير لو أجّلنا الحديث عنه لمناسبة أخرى. - أجاب ديئان ببطء، ولم يستطع أو لم يشأ أن يتخلّى عن قذفي بنظرة غاضبة، كأنّه يهدّدني بها، ثمّ نظر نظرة أخرى أكثر انضباطاً إلى تييّث الذي علم أنه يلمّح إليه، وأشاح بعينَيْه مداعباً الغليون الذي كان ما يزال مُطفأً. ولربّما اجتمعوا على الغداء لهذا الغرض، للحديث عن الطفل، وليعنِ هذا ما يعنيه، فهو آخر المطاف شأن عائلي، وقد جعلت دعوة تييّث لي وخاصّة قبولي لها، الاجتماع من غير هدف. وحاد تييّث بنظرته، كأنّه علم أنّه أخطأ، وليس مستعداً لأن يشدّدوا عليه، أما أنا، فقد أبقيتُ نظرتي محايدة، وكأنّ الأمر لا يعنيني.

- هذا بسيط جدّاً، يا إدواردو، أجابت لويسا. - قل لي أيّ شيء قرّرتَ، بحضور والدي الذي يمكنه أن يدلي برأيه أيضاً. أفضّل أن نتداول الأمر جميعاً، ولا يكنْ بيننا سوء فهم، أنا لا أستطيع أن أقضي حياتي متنقّلة بين بيتكَ وبيتي مهملة البيتَيْن معاً. إن شئتَ أن يظلّ عندي مؤقّتاً، فقل لي مرّة واحدة، وإذا شئتَ أن يظلّ عندكَ، فقل لي ذلك أيضاً، ولسوف نساعدكَ على تنظيم الوضع، ولن يكون تنظيمه سهلاً، بسبب كثرة أعمالكَ وأسفاركَ. أما ما لا أستطيعه، فهو أن أظلّ متنقلة من هذا الجانب إلى ذلك الجانب كأنّي مراسلة، وها قد مضى عليّ شهر وأنا على هذا الحال.

- أو مثل عروس من عرائس هذه الأيّام. - تدخّل تييّث وقد شعر أنه لن يُلام على زلّته مجاملة له. - أوليس من أجل ذلك يتزوّج الناس في أيّامنا؟ أليس لأنهم يملّون من الاستيقاظ في بيت، ثمّ يعبرون المدينة وصولاً إلى بيوتهم، ويتظاهرون أنهم استيقظوا فيها؟ لقد سمعتُهم يحكون أن الزيجات تدوم زمناً طويلاً بفضل نسيان فرشاة الأسنان نسياناً مزمناً، أو بسبب الكسل عن شراء واحدة أخرى. ما كان الناس من قبل ينامون خارج بيوتهم،

النوم خارج البيت عادة في منتهى السّوء. - وحرّك سبّابته من جانب إلى آخر، وكأنّه يدلّل بها على أننا نحن الثلاثة الحاضرون نصنع شيئاً من هذا. - لويسا على صواب، يا إدواردو. دعها تتكفّله، ولسوف يكون أيسر لها أن تنظّم الأمر انطلاقاً من بيتها، وانسجاماً مع دوامها على الأقلّ الآن، إلى أن ترى ماذا يحدث، وكيف تدبّر شؤونكَ، أو تخطّط لزواج آخر، فأنتَ ما تزال شابّاً، وقدْ يسأم أحد ما ذات يوم من النوم في بيتكَ من غير أن يجد فرشاة أسنانه صباحاً. - وكان تيبّث مَن تنبّه هذه المرّة إلى وجودي، أو أدركه، فأضاف بتهذيب، كيما أفهم ما يتحادثون به: - خلّفتْ بنتي مارتا ابناً، هو حفيدي أوخينيو. هو صغير السّنّ جدّاً، فليس له سوى عامَيْن من العمر، وحياة إدواردو ملأى بالمشاغل، ولويسا على استعداد للعناية بالطفل، وإدواردو فوق ذلك، كثير الأسفار، ويسافر أحياناً في ساعة نحس.

وما كان لديّ سبب، كيما أسمع هذا التعليق الأخير ذا القصد السيئ. لكني سمعتُهُ، ولربّما كان عجيباً منّي أني لم أسأل. أو ربّما ليس الأمر كذلك، فقد أبديتُ تحفّظاً حتّى الخفاء تقريباً، وليس عَبَثَاً أني اعتدتُ التلاشي كثيراً حتّى أكفّ عن أن أكون أحداً من الناس تحت شكل من المداهنة: فلو طُرح من بين هؤلاء المجتمعين أحد، لأحسّوا بسرور كبير، ولحسبوا أنفسهم في مكانهم الصحيح، ولكان مكسباً لهم، وفكّرتُ: "وهكذا يمكن لتّيبث أن يكون ذا قصد سيّئ ديئان على الأقلّ تحت مظهر مسالم وشارد وثقيل قليلاً، وساذج قليلاً، يملأ الفراغات المغلقة"، ولربّما كانت هذه السذاجة الزائفة الشائعة جدّاً بين العجائز، ما يخدمهم حتّى يقولوا ويعملوا ما يشاؤون، من غير أن يلومهم أحد، أو يأبه بهم، فيتظاهرون أنهم موشكون على الموت، ليبدوا أنهم لا ينطوون على خطر، وليس لديهم رغبات، ولا يأملون شيئاً، في حين لا يتخلّى أحد منهم عن الحياة، فما دام يملك وعياً، ويثير الذكريات، فحسبه ذلك، إنها الذكريات ما يجعل كل

كائن حيّ خطراً وذا رغبات، وعلى الأمل دائماً، فمن المحال ألا تُشفّر الذكريات، ويدفع بها إلى المستقبل، أي ألا تسجّل فقط في لائحة المفقودات، وإنما فيما هو حاضر أيضاً، وفيما هو آتٍ، هناك أشياء لا يتصوّر المرء أنها لن تتكرر، فما كان موجوداً ذات مرّة، لا يُستبعد وجوده مرّة أخرى. فإذا ما كان المرء على يقين أنه مارس الحبّ لآخر مرّة، فقد يضع حدّاً لوعيه ولذاكرته، ربّما ينتحر مثلاً إذا كان على يقين من ذلك بعد ممارسته مباشرة هذه المرّة التي كانت الأخيرة. ويحسب الأحياء أنه ما يزال بالإمكان حدوث ما لم يحدث قطّ، فيحدث من الانقلابات أكبرها، وممّا هو غير متوقّع أعظمه كما هو الحال في التاريخ والقصص، فليكنْ الخائنُ والمتسوّل أو القاتل ملكاً، وليسقط رأس الإمبراطور بحدّ السيف، ولْتحبّ الجميلة مسخاً، أو فليتمكّنْ من إغوائها مَنْ قتل حبيبها وجلب الدمار عليه، ولْتكسب الحروب الخاسرة، ولا يذهب الموتى، وليتربّصوا وليتجلّوا ويمارسوا التأثير؛ ولتكن الأخت الصغرى بين البنات الثلاث هي الكبرى ذات يوم مثلاً، ولربّما. مع مَن مارست الحبّ مارتا تيبّث آخر مرّة؟ أمع ديئان المتوتّر أم بيثِنْته الغاضب، لكنْ، ليس معي على كل حال، ربّما لم تكن تعلم أنها المرّة الأخيرة، وربّما لم تخطر على بالها بشكلٍ من الأشكال، وسواء مارسته مع مَن تشاء، فلربّما ما كانت أولتْه أهمّيّة ولا تقديراً كبيراً ولا رغبة ولا عاطفة، ولربّما أخذت (دوشاً) وهي طائشة اللبّ، أو نعسانة، إذا ظلّتِ وحيدة بعد لقائها بيثِنْته في فندق أو عربة، لتزيل عنها رائحة زهم الآخر، كما أبطأت، لتزول عنّي رائحة القميص والجسد، جسد مارتا ذاته، على الرغم من أني اغتسلتُ فجراً، وكان لرائحة جسدها فوق ذلك، رائحة تفسّخ، ولربّما نظّفت نفسها في غرفة زينتها فقط، بعد أن دارت نصف دورة في السرير مفكّرة في أنها أضاعت نصف ساعة من راحتها الليلية، إن كانت مع ديئان في المخدع الذي صرتُ أعرفه، وأعرف المرآة

بقامة رجل، والتلفاز الشغّال، وأنبوب الدواء ريدكسون والقناع والبنطال والتّنورات الملقاة على كرسيَّيْن وغير مَكوية هذه الليلة، ولن تكون أيّة ليلة أخرى. وفي كلتا الحالتَيْن، ربمّا كانت نامت في وقت متأخّر قليلاً، وفكرها في النهاية شارد أو فارغ، لكنها لو علمت بما لا يُعلم قطّ تقريباً، أو لم يُعلم قطّ، لما استطاعت أن تقارب النوم، بل لكانت فوق ذلك، أزعجت الزوج أو العشيق، لتُتابع، ولتُحطّم من غير إبطاء هذا الحكم، وتحول فوراً بين ذلك وبين أن تكون المرّة الأخيرة، لكنها لو أقنعت هذا أو ذاك، وحثّته على معانقتها مرّة أخرى وهما يقظان، لوجدت أن هذه المرّة الأخيرة قد حضرت من جديد، وانقضت أيضاً. وهكذا ينقضي الزمن تبعاً لمقاومتنا الضعيفة والمتناقضة، ونسمح لأنفسنا أن نكون قلقين، وبأن نرغب في مجيء الأشياء التي نتوق إليها، والتي تتخلّف أو تُبطئ، إذا بدا كل شيء بطيئاً ومفرطاً في السرعة ما إن يحلّ، ويختتم؛ تكرار كل فعل محبوب يُقرّبنا قليلاً من نهايته، والسوء فيه أيضاً أنه يقرّبنا من عدم تكراره، وكل شيء يسير ببطء نحو تلاشيه وسط تسارعنا اللا مجدي، وإبطائنا الوَهْمي، والمرّة الأخيرة هي المرّة الأخيرة فحسب، ولعلّ مارتا تييْث كانت تحسب أنها ستضاجع أيضاً رجلاً آخر في حياتها ليلة استقبلتْني، وربمّا حسبت ذلك على الأقلّ لمّا كنّا سائرين نحو مخدعها (هي تقودني من يدي، وخطانا مضطربة جرّاء خمر شاتو مالارتيك)، ولمّا بدأتُ أعرّيها، وأتقرى جسمها بأصابعي الآلية، وتبادلنا قبلاً كان يمكن لنا أن نوفّرها، وبذلك ما كنتُ مضطرّاً إلى تذكّرها، كانت ما تزال واثقة تقريباً بما كان سيقع عمّا قليل، ولربمّا كانت ضاجعتْني فعلاً، وأحسبها (كانت ستبلغ ذلك في حينه)، لو أن الطفل نام أبكر ممّا نام، أو أني قمتُ بالحركة الأولى، وأنا أقلّ تردّداً أو إبطاء - هذه الحركة التي يتنسّمها المرء في الزمن، والتي يمكن أن تتسارع أو تتباطأ على شكل لا يُوصَف، كتكاثف الغيوم قبل انطلاق الرعد؛ والغضب والعجلة من ثمّ.

وما كان نشأ بيننا اهتمام حتّى ذلك الحين، ولا احتفاء ولا هوى، ولولا شيء من رفث يسير، وشيء من عاطفة وليدة، لم يُفسحا المجال إلى شيء آخر، ولم يحدث ما كان سيحدث عمّا قليل، وإنما حدث تحوّله: ولو أن الطفل أبطأ أكثر ممّا أبطأ لينام، أو لو تمّ التّغلّب على التّردّد في الجانب الآخر، ولو لم أجرؤ على القيام بتلك الحركة التي كان يمكن ألا تتمّ، وإن كنّا نتنفّسها منذ مدّة من الزمن، لكنتُ غادرتُ حينئذ شارع كونده ديلاثيميرا بعد حديث قصير آخر، وتناول مشروبٍ مقدّم، وبعد تبادل بعض النكات، ولكانت ظلّت هي وحيدة، لتأخذ (دوشاً)، ولتنزع عنها رائحة التّرقّب. ولربّما كانت جالسة من غير بسمة ولا ضحكة عند قدم السرير بعد رفع الأطباق وإضجاع الطفل المهدّأ في حين أكون اختفيتُ، ولربّما كانت خلعت قميص النوم الأنيق المخطّط ماركة أرماني، من فوق رأسها، ولكان ظلّ كمّاها مقلوبين ناشبين بمعصميها مبقية عليه على هذا الوضع مدّة ثوانٍ معدودات، وكأنّها متعبة بسبب الجهد والعمل اليومي، حركة إنسان مُنهَك، لا يستطيع التّخلّي عن التفكير، ويتعرّى عضواً فعضواً، ليفكّر أو ليستغرق في نفسه بين قطعة وأخرى، ويحتاج إلى أزمنة متقطّعة.. أو ربّما بسبب التّرقّب المحُبط الذي ما تزال تعبق برائحته، ولربّما ألقت جانباً بهذا القميص ذي اللّون الخام الذي كنتُ ساعدتُها على خلعه، بينا التلفاز يعمل ناظرة من غير اهتمام إلى وجه ماك موري الفجّ الداعر، أو ربّما عثرتْ على القناة التي اختارها (سولوس) في أثناء سهده: أجراس منتصف الليل، حيث إسبانيا صارت بريطانيا والعالم كله بالأسود والأبيض فجراً، ولربّما كانت وضعت نفسها تحت (الدوش) مفكّرة في أن تهتف إلى بيْثِنْته، وتدع له رسالة أخرى: "لو عثرتُ عليكَ، لكنّا قضينا وقتاً ممتعاً بدلاً من الليلة التي امتصَّتْني، إذا عدتَ سريعاً، لنقلْ الثانية والنصف أو الثالثة إلا ربعاً، فاهتفْ لي إن شئتَ، لستُ في سبيلي للنوم الآن، إن شئتَ ما يزال

بالإمكان قضاء لحظة من الوقت، ولقد قضيتُ ليلة صعبة مشؤومة. سوف أقصّ عليكَ الورطة التي وجدتُ نفسي فيها، وسواء عليّ إن نمتُ متأخّرة، فسوف أكون صباحاً محطومة على كل حال. كان بإمكاني أن أتذكّر من قبل، لكنني لستُ منتظمة"، كلا! هي ما كانت لتقول له هذا، وإنما هو رجل فقط قادر على أن يصف بالشؤم ليلة لم تكن حسب رغباته، ليلةً فكّرتُ فيها أن أعافس ولم أعافس ولم أمارس، ولم ألمس شعرة، كما سيقول رُوبِرِّث تورِّس أمام حاجز البار. وما كانت لتعترف له أيضاً أنها قد دعت إلى بيتها رجلاً بديلاً، لأنها لم تجده، بل لكانت صنعت العكس، ومحت فوراً كل أثر لوجودي وللعشاء، ولكانت رسالتها الليلية التي فكّرتْ في إرسالها إلى بيثنْته (فكّرتْ فيها تحت الماء): "لا أستطيع النوم، لا أدري ماذا يحدث لي، واضطجعتُ باكراً، لأني لم أجدكَ، فلا وسيلة أخرى، لذلك شربتُ خمراً كيما أنعس، ربّما كان ذلك عائداً للغضب لعدم تذكّري من قبلُ أن إدواردو سيكون غائباً هذا اليوم. اهتفْ لي متى وصلتَ، وإن يكن الوقت متأخّراً. عندي رغبة في رؤيتكَ. وفوق ذلك، سأكون مستيقظة حينئذ. إذا لم تكن متعباً جدّاً، تعالَ". لكنْ، مَن يدري إن كان بمُستطاعها إجراء هذه المخابرة بعد الدوش، وهي في البرنس، أو تلفّ نفسها بالمنشفة؟ ومَن يدري إن كان بمستطاعها الخروج من الدوش قطّ، لأنها ربّما تكون انزلقت، بسبب إحباطها أو تشويش تفكيرها أو تعبها، ولربّما دُقّت عنقها، وكان ما يزال لديها فسحة من الوقت، لتُغلق صنبور الماء بحركة غريزية أو يائسة عند سقوطها، لتظل بعد ذلك مبلّلة وممدّدة في أسوأ حال، ممدّدة وعارية ومبلّلة فوق البلاط، وقفاها التسعة عشريّة مجروحة، لا تلبث بعد برهة حتّى يبدو الدم شبه الجافّ الذي جرى عليها كشرائط، أو خيوط من الشعر الأسود الدبق أو كالطين؟ وإن لم يكن لأحد أن يرى ذلك، لأني لن أكون حاضراً: لكنْ، (هذا) موت رهيب، من غير أن

أستطيع طلب معونة، خلال ليلة كاملة، والطفل نائم آخر الأمر بعمق، والهاتف بعيد جدّاً، وليتني ابتعتُ هاتفاً محمولاً؛ لكنْ، (هذا) موت مضحك، ولا شيء يبعث على الضحك كحادث يحدث في بيتي ذاته في ليلةِ زوجي فيها على سفر، ولما انصرف المدعوّ الذي كان بإمكانه أن يُنقذني، حقّاً هذا حظّ سيّئ، وأنا عريانة، وحقّاً هي كارثة، وكل شيء يمكن أن يكون مضحكاً أو مأساوياً تبعاً لمَن يقصّ قصّته، وكيف يقصّها، وتبعاً لمَن يقصّ قصّة موتي، أو سيقصّها مرّات عدّة كل مَن يعرفني على بعضهم البعض، وبالطرائق الممكنة كلها. وستتوارد هذه الأفكار السريعة لحظة السقوط فحسب، لأن مارتا تييّث ربّما تكون ماتت على كل حال، وماتت فوراً من غير أن يُتاح لها الوقت للانقباض ولا للخوف، ولا لانحطاط القوى ولا للندم. لكنّ شيئاً من هذا لم يحدث، وإنما هو موت آخر قد طرأ لا يقلّ رهبة ولا إضحاكاً إلى جانب رجل مجهول، لمّا كنّا في سبيلنا، لنقضي من بعضنا وطراً، فيا للرعب! ويا للخجل! وأنّى لي قول ذلك بهذه الكلمات؟ ما هو ليس بفظٍّ ولا سامٍ ولا ظريف ولا حزين عند حدوثه يصبح حزيناً أو ظريفاً أو سامياً أو فظّاً عند قصّه، فالعالم منوط بقصّاصيه، وأنا لديّ شاهد على موتي ذاته، ولا أدري كيف سيفهمه؛ وربّما هو لن يتكلّم، وقد لا يقصّ قصّة هذا الموت، وفي الواقع لا يهمّ كيف يصنع أوّل قاصّ، أوّل مصدر، والقصص لا تخصّ فقط مَن يشهدها أو مَن يخترعها، وما إن تُقصّ حتّى تصبح مُلك الناس أجمعين، ولسوف تتردّد من فمٍ إلى فم، وتُبدَّل، وتُحرَّف. فلا يُقصّ شيء مرّتَيْن بالطريقة ذاتها، ولا بالكلمات ذاتها، ولا مَن يقصّها مرّتَيْن هو الشخص ذاته، ولا القاصّ قاصّ وحيد كل المرّات، ولا أدري فيما سيفكّر قاصّي وشاهد موتي ذاته الذي جاء في غير أوانه، لكنّ الثابت أنه لم يُنقذني، على الرغم من أنه لم ينصرف، وظلّ إلى جانبي، لا، هو لم ينقذني أيضاً، وإن كان حاضراً، أنا لا يُنقذني أحد. كلا! لم يحدث شيء

من هذا، والتفكير في ما لم يحدث ينبغي له أن يُشكِّل جانباً من السِّحْر الذي أعانيه، ولا أدري لِمَ ترجّني هذه الأصوات وهذه الأفكار، وإنما يجب عليّ أن أعتادها بينا أظلّ مرصوداً ومنتاباً أو مسكوناً أو haunted. حدجني ديئان مرّة أخرى بنظرة سريعة قلقة، وهو يجيب في آن واحد تييّث بصوته الصدئ كأنّه سيف أو سلاح، أو رمح.

- حسن! أحسب من الخير أن نناقش هذه الأمور متى صارت غير ضارّة. فلندعها حتّى حين. ألا توافقني؟ .. هذه المرّة كان في نظرته طرافة أيضاً، وكأنّه توقّف ليفكّر لحظة إن كانت في الحقيقة غير ضارّة، وكأنّه قدّر فجأة أن يصنع عكس ما كان يقوله، لأنه رأى من المناسب أن يُهدِّئ أو يلجم محدّثيه بحضور رجل غريب مجهول.

- لكنْ، قل لي شيئاً من فضلكَ، يا إدواردو. ينبغي لي أن أعلم إلى أين أوجّه اهتمامي. - قالت لويسا بمزيد من نفاد الصبر. فالفرق ليس ضئيلاً بين الحياة وحيدة والحياة مع طفل، هذا أمر لا يُرتجَل ارتجالاً.

- أفسحي لي قليلاً من الوقت أيضاً، فبضعة أيّام أخرى لن تضيركَ كثيراً. ربّما استطعتُ تنظيم أموري كيما أتخلّى عن السفر، أو أخفّف منه، ينبغي لي أن أتحدّث حول ذلك إلى فِرّان، فما أزال لا أعلم رأيه. ولا أدري أيضاً إن كنتُ أستطع العيش مع الطفل وحدي. فالطفل ابننا كلينا. لا أدري إن كنتِ تفهمينَ الوضع.

- سفر، سفر، وفي ساعة نحْس! - ردّد تييّث بنيّته السيّئة نحو صهره. قال ذلك رافعاً إصبعه كأنّه نبيّ.

- انظرْ، سيّد خوان، - أجابه ديئان حينئذ. - عدم وجودي في البيت لا علاقة له بموتها. وأنتَ تعلم ذلك. وربّما ما كان بالمستطاع صنع شيء.

أنا لم أشأ أن أتدخّل، لكني أقرّ بأنني شعرتُ براحة، لمّا سمعتُ هذا القول: ففرحتُ فرحاً كبيراً أن يكون من غير المستطاع صنع شيء، لأنني، أنا لم أصنع شيئاً. كان فرحاً بأثر رجعي، ومشروطاً.

صار فنجان القهوة أمام تييّث، فأشعل الغليون أخيراً، ونظر إلى ديئان من خلال اللّهب الصاعد والنحيل. وبذل جهداً كيما يُطفئه (لم ينفخ عليه، وإنما كان يحرّكه من غير قوّة في الهواء)، وقال في أثناء ذلك من غير أن ينظر إليه والغليون في فمه، ربّما بحثاً عن مظهر من الغموض (كان ينظر إلى اللّهب المتمرّد بحاجبَيْه الشيطانيَّيْن المزجَّجَيْن أكثر ممّا كان ينظر بعينَيْه الزرقاوَيْن الكبيرتَيْن):

- ما ألومكَ عليه غير هذا، يا إدواردو. لستُ غير حصيف حتّى أصارحكَ أنكَ ما كنتَ لتُنقذها، إذا كان إنقاذها غير ممكن، وإنما كُتب على مارتا أن تموت وحيدة، حتّى إنكَ لا تعلم أن كان بإمكانكَ العيش مع الطفل وحيداً. وهي ماتت وحيدة والطفل راقد، وظلّ الطفل في وحدة كاملة وأمّه ميّتة وأبوه مسافر. فما رأيكَ؟! وخفَّف من السوء أنه صغير جدّاً.

ولامس اللّهب أظفاره قبل أن يُطفئه. لم يُعلَم تييّث بالظروف، كما كنتُ خمّنتُ، لم يُعلم دون خوان، أو خوانيتو أو تييّث أو صاحب المعالي، فلا تُطلق الكلمات ذاتها أو الأسماء على الشخص ذاته، لأنّ الأشخاص يتغيّرون جدّاً، كما القميص، تبعاً لمَنْ يُسميّهم أو يناديهم.

تمتم ديئان بشيء غير مسموع، ربّما كان يَعدّ للعشرة، كما يُزعم أن الناس تصنع كيما يؤجّلوا الغضب، وبذلك يُهدَّأ، وأنا لم أصنع ذلك في حياتي، بل على العكس، هناك أشياء تشتدّ بالتأجيل. ربّما كان يفكّر إن كان يقول أو لا يقول لحميّه اللائم: "لم تكن بنتكَ وحيدة، يا عجوزاً مغفّلاً، ولا حفيدكَ كان وحيداً أيضاً، بل اقتنصت مارتا فرصة غيابي جيّداً، غياب نزل عليها كالدّرّ، ومَن يدري كم غياباً آخر تمتّعتَ به. لكنكَ على صواب في

بعض ما تقول، يا عجوزاً أبله: سفر، سفر وفي ساعة نَحْس". كانت لويسا قد خفَّضَتْ من بصرها، وهدّأتْ كل قلق، وكلّ إلحاح، ولعلّها ندمت على المجرى غير الحكيم الذي اتّخذه الجدال بسببها، أو المجرى غير المرغوب فيه، نعم، هي كانت تعلم نهاية أختها، نهاية لم تكن فيها وحيدة. وأنا كنتُ على علم، فأحسستُ بموجة من الحرارة، وربّما احمرّ وجهي خجلاً، فشابكتُ أصابعي. ولحسن الحظّ، لم ينظروا إليّ تلك اللحظة، وإن كنتُ أجد لخجلي عذراً: ربّما يعود لوجودي هناك، وجود يصبح كلّ مرّة غير موائم على شكل أكبر، بالفعل هو يعود إلى ذلك جزئيّاً. لم يسقط ديئان في الإغراء، وهو الآخر كان يخفي الآن شيئاً عن أحد ما ملحقاً الضرر بنفسه إشفاقاً منه على العجوز المغفّل؛ فأجاب بتعقّل، أو بما هو مُتوقّع لو أنّ مارتا كانت ماتت، كما كان يحسب والدها:

- ما كان يستطيع أحد توقُّع هذا، كيف كان بإمكاننا أن نعلم شيئاً؟ أنا تركتُها في صحة جيّدة، وقد هتفتُ لها من لندن بعد العشاء، وكانت ما تزال بخير، فلم تخبرني بشيء سوى أنها ستضجع الطفل، كما قلتُ لكَ من قبل. ماذا تريد، يا سيّد؟ ألا أقوم بسفر في حياتي تحت أيّ ظرف؟ أفترض أنكَ ما كنتَ ترى، قبل حدوث ما حدث، سوءاً ولا غرابة في أن أسافر، كما فعلتُ مرّات كثيرة أخرى. ماذا حدث؟ ألم تترك، أنتَ، عائلتكَ قطّ مدى أيّام معدودات؟ لا تجافِ جانب الصواب، ولا تكن ظالماً.

- أنا لم أتصوّر شيئاً، لأني ما كنتُ أعلمكَ مسافراً.

- حسن! ولا أحسبكَ أيضاً عالماً بكل خطواتي طيلة هذه السنين. وما كان يعنيكَ أن تعلم.

- أنا ما كان يعنيني أن أعلم؛ أمّا هي، فنعم. إذْ لم تستطع أن تطلب منكَ عوناً، ولم تستطع أن تهتف إليكَ. أحقّاً تركتَ لها رَقْم هاتفكَ في

لندن، لكنها لم تجد وسيلة للعثور عليه، ولا أثراً منه في البيت كله، وإن كنّا بحثنا عنه جميعاً. ولم يستطع أحد العثور عليكَ حتّى الليلة التالية؛ وكذلك لم تُعلم صديقكَ فِرّان بالرَّقْم أيضاً. فلِمَ ينبغي أن نُصدِّقكَ أنكَ أعلمتَها به؟ وحتّى لم تزعجْ نفسكَ من أجل ذلك. - لجأ تييّث إلى صيغة الجمع، ليضم لويسا إلى جانبه، وكذلك غيّرمو وماريا فرناندِث بيرا، يقيناً، أي العائلة كلها، آل تييّث كلهم الذين يحسّون مع ذلك، بالحزن على ديئان، ولم يلوموه على شيء عالمين ما قد علموهِ. وقد لجأ ديئان إلى صيغة الجمع، كيلا يعزل نفسه، ولكي يتماثل معهم: "كيف كان بإمكاننا أن نعلم شيئاً؟" كان قال. توقّف تييّث توقّفاً صغيراً، وأضاف وهو يعضّ جيّداً على الغليون، أي بأسنانه وبقوّة: - أشعر بقشعريرة، كلّما فكّرتُ كيف قضيتُ ذلك اليوم، وزوجكَ ميّتة من غير أن تعلم. أفترض أن هذه الساعات كلها من الغفلة والجهل تَمَثُل لكَ اليوم على ضوء مختلف، لا أريد أن أكون محلّلكَ، ينبغي لها أن تتردّد في كوابيسكَ. - وتوقّف، وأخرج الغليون من فمه، وقال أيضاً من غير عائق، أو بمزيد من الاحتقار:

- بل لم تكن في لندن، على الأغلب.

والآن نسوا جميعاً وجودي نسياناً تامّاً، على الأقلّ، تييّث الذي ربّما ما كان يخطر على باله أنّه يُطلعني على كثير من الحوادث السابقة. فالعجائز لا يمُيّزون كثيراً، أي لا يدركون عادة عناصر الموقف كلّها، وهم أقلّ إدراكاً لها، إذا كان عنيفاً، وإنما يُلمّون بالعناصر الرئيسة فيه، والعنصر الرئيس في نظره، ديئان ولويسا، أمّا أنا، فكنتُ أشكّل جانباً من الديكور اللامنظور فقط، ولم تكن لي حقيقة ولا أهمّيّة أكثر ممّا لرئيس الخَدَم أو الخَدَم أو الزبن الآخرين أو الناس المتكدّسين عند باب المطعم محتمين من المطر، ليس أكثر من العاصفة ذاتها تلك اللحظة (رأيتُ من النافذة صحيفة منشورة،

تغطّي بعض الرؤوس). في ذلك الحين، لم يكن ينظر إليّ أحد منهم، ولو عَرَضَاً، وشعرتُ أن دوري كان أكثر حسماً، لمّا أدركتُ أني لم أخرج من شارع كونده ديلاثيميرا بثلاثة أشياء، وإنما بأربعة، لم أكن أحمل منها شيئاً، لمّا دخلته، وهي الرائحة وحاملة الثديَيْن والشريط، وورقة صفراء مكتوبة بيد ديئان، وليس بيد مارتا، وما أزال أحتفظ بها في محفظتي، وكنتُ وضعتُها حينئذ في جيبي. وفكّرتُ: "ديئان لن يتحمّل هذا. نعم، سيسقط الآن في الإغراء، وسوف يقصّ القصّة، لن يتحمّل أن يُوضَع حتّى سفره موضع شك، ولسوف يقول: أحد ما أخذ الورقة التي دوّنتُ فيها اسم الفندق الذي أنزله، ورَقْم الهاتف، أحد ما كان معها كل الليل، ورآها تنازع وتموت أمام عينَيْه من غير أن يُعلِم أحداً. أحد ما أخذ هذه الورقة التي بحثتُم عنها بدأب جميعاً، واستعملها بعد أربع وعشرين ساعة من ذلك خلال الليلة التالية، وهتف إلى حجرتي في لندن، وسأل عنّي، ولم يجرؤ مع ذلك، أن يكلّمني لمّا رفعتُ السمّاعة. فماذا كان يبتغي أن يقول لي؟ وماذا كان بإمكانه أن يقول لي حينئذ؟ فقد كان فات الوقت حتّى يتغيّر شيء. كما قد كان فات، لمّا تلقّيتُ أخيراً رسالةً بُعيد ذلك، قال لي فيها صوت فِرّان وصوت لويسا، إن مارتا ماتت، ومضى على موتها هذا النهار كله والليلة الفائتة أو قسم منها، لأن القسم الآخر قضتْه حَيّة بصحبة أحدٍ ما. لويسا تعلم ذلك، وهي تستطيع أن تقوله لكَ. كلنا نعلم ما عداكَ أن موت مارتا لم يَكن رهيباً فقط، وإنما كان أيضاً مضحكاً، إذ وُجدت شبه كاسية تحت الغطاء، وقد سال (المكياج) على وجهها، ليس جرّاء دموعها فحسب، وإنما جرّاء قبلاته أيضاً، والرجل الذي طبع تلك القبلات لاشك أنه وقف مذعوراً، مبهوراً حائراً ومحروماً. والتفكير في الرعب الذي انتاب هذا الرجل هو الشيء الوحيد الذي يُفرحني". سيقول ذلك كله، فكّرتُ، (وأنا سأضطرّ إلى النهوض لأذهب إلى حجرة الحمّام واضعاً المنشفة على فمي، لأني

لن أطيق أن يقول ذلك). كنتُ على وشك أن أنسخ اسم ذلك الفندق وذلك الرَّقْم (ويلبراهام أوتيل اسمه). فكنتُ فكّرتُ أن أصنع ذلك حتّى إني نزعتُ وريقة من الدفتر الصغير لهذا الغرض، وكنتُ أخرجتُ القلم من سترتي التي أفدتُ من ارتدائها، لأنها حثّتْني بذلك على التعجيل قليلاً بالانصراف، وفي نهاية المطاف، لم أنسخ شيئاً، وإنما احتفظتُ بالورقة اللاصقة المكتوبة من غير إرادة لها، ولا علم، وسرقتُها من غير قصد ولا إدراك - إذ كان لديّ أشياء جمّة، كيما أفكّر فيها. - فالحصول على رَقْم هاتف يُغري دائماً باستعماله فوراً، وبالتالي لم يعثر عليها أحد في اليوم التالي. ولعلّ لويسا وغيّرمو وماريا فرناندث بيرا، وربّما جارة البوّابة ذات القفّاز البيج، نظروا إلى كل مكان وتحرّوا الجهات كلها بقلقٍ، لعجزهم عن إعلام ديئان بأسوأ وأخطر ما يمكن أن يحدث له، أو كان حدث له، ربّما كلّموا جميعاً فِرّان ذاك مرّات عدّة، وتيقّنوا من أنه هو أيضاً كان يجهل مكان شريكه، ولديّ برهان على ذلك موجود في الشريط، لأنه ترك رسالة لمارتا قبل أن يحدث شيء ممّا حدث، وأنا أحفظها عن ظهر قلب، كما أحفظ الرسائل الأخرى: "مارتا، هذا أنا فِرّان، أعلم إدواردو مسافراً إلى إنكلترا، لكني تنبّهتُ منذ قليل إلى أنه لم يدع لي رَقْم الهاتف ولا عنوانه، وأنا لا أفهم هذا التّصرّف، قلتُ له أن يبلغنيها من كل بدّ. فالأمور لا تسير بشكل جيّد بذهابه من غير أن يُحدّد مكانه. اتّصلتُ لأرى إن كانت بحوزتكِ أو إذا اتّصلتِ به، فقولي له أن يهتف لي فوراً سواء إلى المكتب أو إلى البيت. إنه أمر عاجل إلى حدٍّ كبير. شكراً". وهي لم تتّصل به كيما تبلغه رَقْم هذا الهاتف الذي كان حينئذ في البيت وبمرأى، ولم تنقل الرسالة إلى ديئان، لمّا هتف لها بعد عشائه الرائع في مطعم بومباي براسّوري المجاور لغلوثسترررود - وأعرفه - أو على الأقلّ ما كانت تتذكّرها. وهي أيضاً كان لديها شيء كثير، كيما تفكّر فيه يقيناً - وكانت ما تزال تفكّر حينئذ - وربّما

كان العكس من ذلك، لأن الحضورين كليهما: حضوري وحضور الطفل اللذين ينفي كل منهما الآخر، ما كانا يدعان لها مجالاً للتفكير في شيء إلا فينا، أنا وهو: في أن تُبعد الطفل لمدّة فقط، ولتقترب منّي تلك المدّة فقط، في ألا يرنّ الهاتف مرّة أخرى، في ألا يشرع طفلها في البكاء، ويثير فضيحة، في أن تشرب كفايتها من الخمر، كيما تبحث عمّا كانت ما تزال تبحث عنه، وتريد ما كانت ما تزال تجهل إن كانت تريده. ولذلك كله، ظلّ ديئان هكذا مجهول الإقامة طيلة النهار، وكان تييّث على حقّ، وهو ذكي يعرف أن يضع إصبعه، حيث تحرق. فماذا صنع ديئان خلال تلك الساعات من الغفلة والجهل في لندن، كيف قضى نهاره وهو يحسب حَيّة مَن كانت ميّتة؟ ربّما حضر اجتماعات عمله باكراً، وهي موضوع سفره، ثمّ قام بنزهة في سان جيمس بارك، أو عبر حيّ هامستد أو تشيلسي، أو لعلّه اشترى هدية ما لمارتا في أثناء وقت فراغه، وإذا كانت الهدية والتذكار كذلك، فما كانت لتحصل عليها، ولا لتعلم أي سفر أو أي غياب جاء بها، ولا إن كانت مكافأة على انتظار أو عُراضة غزو، أو تهدئة ضمير معذّب: لأنها وصلت متأخّرة تأخّراً مفرطاً. وبذلك لن تبلغ الهدية، فتكون ذكرى، ولن يكون لها ماضٍ، ولا أصل، أو سيكون لها ذلك في ضمير آخر، وفي ذاكرة أخرى، إذا عزم ديئان على تقديمها إلى أحدٍ ما، ما إن علم بموت المُرسل إليها، وقد يهديها إلى بنت حميّه لويسا، أو إلى كنّة حميه ماريا، أو إلى جارته في المقبرة، ذات القفّاز البيج، أولن يهديها إلى أيّ منهنّ. قد تكون الهدية دبّوساً أو ثوباً، أو قرطاً أو منديلاً أو حقيبة، أو عطر غيرلان، مَن يدري أي شيء كان اختياره؟ ربّما كان ديئان تعشّى في سلون سكوير قريباً جداً من الفندق، كيلا يُضطرّ إلى الانتقال بعد تعب اليوم وحيداً أو بصحبة زملائه، أو معارفه أو أصدقائه، مَن يدري؟ ثمّ عاد إلى حجرته ذات النافذة المنزلقة، ونظر منها خلال ظلمة ليل لندن المعهود، صوب

الأبنية المحاذية أو صوب حجرات أخرى في الفندق ذاته، معظمها مظلم، ينظر صوب الحجرة المسنّمة المخصّصة للخادم السوداء التي تتعرّى بعد دوامها، فتنزع العصابة، وتخلع الحذاء والجوربين والصدّار والزّيّ الرسمي، وتغسل وجهها في مغسلة على الطريقة البريطانية. هو لا يشمّ رائحتها، لكنه قد يكون يعرف تلك الرائحة، فلعلّه التقاها في ممشى، أو على السّلّم. وربّما رنّ الهاتف حينئذ في ساعة غير موائمة في تلك المدينة، ولمّا رفع ديئان السمّاعة، وأجاب: "آلو!" مصحوبة بكلمة أخرى أغلقتُ مذعوراً الخطّ العمومي في مجمّع تجاري في مدريد، فقد كان خلفي رجل ذو أسنان طويلة، ينتظر حتّى أفرغ. رنين مخابرتي تردّد في حجرة ديئان، وأخاف العاملة التي كانت شبه كاسية، شبه عريانة، وجعلتها تشعر أنها يمكن أن تكون مَرئية، فتخطو خطوات وهي بالبنطال الداخليّ، وحاملة الثديَيْن على ثديَيْها، حتّى نافذتها وتفتحها، وتطلّ منها للحظة، وكأنّها تتثبّت من أن أحداً لا يتسلّق صعداً صوبها - أحداً من (التبرغلار)، في اللغة الإنكليزية كلمة نوعية تُطلق على لصّ الأبنية، وعلى الدخيل، كما كنتُ أنا الليلة الفائتة في بيت مارتا وبيت زوجها، وإن لم أدخله خلسة.، ثمّ تُغلقها حينئذ، وتُسدل الستائر بحرص كبير، فلا ينبغي لأحد أن يراها وسط وحشتها أو تعبها أو انحطاط قواها، لا شبه كاسية ولا شبه عريانة حتّى ولا جالسة عند قدم السرير، وكمّا برّتها المقلوبان ناشبان بمعصمَيها، ولربّما شُوهدت على هذا الوضع من غير أن تدري. "بل سيقول ديئان أكثر من ذلك"، فكّرتُ أيضاً. سيقول: "لكنْ، لن يشفيني ذهولُه وسأمه وذعره وسوء حظّه، لن يشفيني الرعب الذي انتابه للحظة، زالت عنه الآن، بل أريد أن ألقى هذا الرجل، كيما أكلّمه، وأطلب منه حساباً، وأقصّ عليه ما حدث جرّاء خطئه. سأقصّ عليه بالحقّ كيف قضيتُ ذلك النهار الذي كنتُ أحسِبُ في أثنائه مارتا حَيّة، لمّا كانت ميّتة، وكيف أرى ذلك النهار

اليوم حين يتردّد في كوابيسي، وأسمع الصوت الذي يقول: "فكِّرْ فيّ غداً، أثناء المعركة، وليسقط سيفكَ المفلول. فكِّرْ فيّ غداً، أثناء المعركة متى صرتُ ميّتة، وليسقط رمحكَ الصدئ. ولأُثقل على روحكَ غداً، ولأكُنْ رصاصاً في جوفكَ، ولتقضِ نحبكَ في معركة دامية. فكِّرْ فيّ غداً، أثناء المعركة، واقنطْ، ومتْ". ربّما هذا ما كان سيقوله؛ وإذا ما قاله، فلسوف أضع يدي على مسمعي، واسقط متكوّماً، أو ربّما سأضعهما على صدغيّ اللذين سينفجران، وسأرفعهما إلى صدغَيّ البائسَينْ، لأنني لن أستطيع تحمّل ما سيقول، وما يضطرّني إلى سماعه".

لكن ديئان لم يسقط الآن في الإغراء أيضاً. فلم يقلْ شيئاً من هذا، وإنما ظلّ صامتاً أو تمتم مرّة أخرى على شكل لا يُسمَع مدّة ثوانٍ عدّة، وكأنّه يعدّ حتّى العشرين هذه المرّة، ثمّ أجاب ببطء، وبصوته الصدئ، أو بصبر جميل مُلزَمون بأن نُوليه الكائنات التي أحبّها موتانا.

- انظرْ، سيّد دون خوان، لقد دخل في روعكَ أن الذنب يقع على عاتقي فيما حدث. لا بأس! قد يكون ذلك. على الأغلب، يقع عليّ جانب من هذا الذنب، وفوق ذلك، لن أجد وسيلة أقنعكَ بها بعكس ما تظنّ. أنا أستطيع أن أريكَ تذكرة الطائرة وفواتير الفندق والمطاعم، وفاتورة مشترياتي في لندن، لكنْ، إن كنت تؤثر الظنّ بأنني لم أكنْ هناك، وأن ذلك يخدمكَ في شيء، فثابرْ على هذا الظنّ، وآمِنْ به، فلن يغيّر من الأمر شيئاً سوى أن تقديركَ لي سيقلّ أيضاً، وليس ذلك بخطير، وأرجّح أننا سنكفّ عن التواصل قريباً، ولن تبقى رابطة تجمعنا الآن تقريباً. لا خطر فيما يعود إليّ. أنا لا أعلم أين وضعتْ مارتا الورقة التي تحوي عنواني، ربّما ألقتْ بها في حقيبتها، ثمّ ضاعت منها في الشارع، وربّما طارتْ من النافذة المفتوحة، وكَنَسَهَا الكنّاسون، ولا أستطيع أن أعرف. أعلم أني تركتُها، لكني لا أستطيع

أن أُثبت ذلك، لا عليكَ أن تُصدِّقني، أمّا صديقي فِرّان، فقد نسيتُ أن أودعه إيّاها حقّاً. لكنكَ على صواب في شيء واحد: لن أنسى هذه الساعات التي تشير إليها. - هناك أمور ينبغي للمرء أن يعرفها فوراً، كيلا يظلّ لحظة واحدة في الدنيا، وهو على اعتقاد جدّ خاطئ بأن الدنيا لم تتغيّر حوله. فليس من المقبول التفكير في أن كل شيء يظلّ كما كان في حين يكون كل شيء قد تغيّر، أو انقلب انقلاباً. والمدّة التي نظلّ خلالها على خطأ، تصبح لا تُطاق حقّاً. ما كان أغباني! نفكّر. في الواقع، لا ينبغي لهذا الأمر أن يؤلمنا كثيراً. سهل أن تعيش خادعاً أو مخدوعاً بل أقول أكثر من ذلك، هو وضعنا الطبيعي: فليس يبرأ منه أحد، ولا هو جرّاء ذلك مغفّل. ولا ينبغي لنا أن نقهر أنفسنا كثيراً، ولا نشعر بالمرارة، ومع ذلك، يبدو لنا أن الأمر فوق طاقتنا إذا ما علمناه في نهاية المطاف. أمّا ما يثقل علينا ويُسيء إلينا هو أن الزمن الذي كنّا نحسب خلاله ما لم يكن، يتحوّل إلى شيء غريب طافٍ، إلى سراب بنوع من السِّحْر أو الحلم الذي لا مفرّ له من أن يمّحي من ذاكرتنا، يمّحي فجأة، وكأنّنا لم نعشْ تلك المدّة قطّ. أليس كذلك؟ وكأنّنا مُلزَمون بأن نقصّ على أنفسنا القصّة مرّة أخرى، أو نُعيد قراءة كتاب، ونفكّر حينئذ أنه ربّما توجد طريقة أخرى نتصرّف بها، وشكل آخر نستعمل به هذا الزمن الذي ينتقل بانتمائه إلى اليمبوس أو بوّابات الجحيم. وقد يدفع بنا ذلك إلى اليأس، وإن هذا الزمن قد لا يظلّ في اليمبوس، وإنما في الجحيم. "وهذا أشبه بما كنّا نراه صغاراً في السينما ذات البرنامج المزدوج والعرض المستمرّ"، فكّرتُ "فكنّا ندخل القاعة المظلمة في منتصف الفيلم الذي نتابع مشاهدته حتّى النهاية مستنتجين ما قد يكون حدث من قبلُ، وما قد يكون حدث للأشخاص في الموقف الخطير الذي وجدناهم فيه، وأيّة أخطاء اقترفوها حتّى أصبحوا أعداء متباغضين. ثمّ يعرض فيلم آخر، حتّى إذا انتهى العرض يُعاد عرض

الفيلم الأوّل الذي ما إن يبدأ ونرى المقدّمة التي فاتتنا حتّى ندرك أن ما تصوّرناه ليس له أساس ما، ولا يتطابق والنصف الضائع. وينبغي لنا حينئذ أن نمحوَ من ذهننا ليس ما تخيّلناه فقط، وإنما ما رأيناه بأمّ أعيننا أيضاً، تبعاً لتلك التخمينات من فيلم غير موجود، أو على الأقلّ محوّر. واليوم إذ لا توجد دُور سينما من هذا الطراز يحدث لنا الشيء ذاته كثيراً، إذا ما شغّلنا التلفاز بالمصادفة، سوى إنه لا تُعرض البداية مرّة أخرى، ونظلّ ورؤيتنا الجزئية المفترضة والمتخيّلة، وإن كنّا نشهد الحلّ. فماذا فَهِمَ (أنتَ وحدكَ) من قصّة بونس وفلستاف والملك والأمير حاكمي لانكستر؟ وبأيّ تفسير غريب خرج من القصّة التي أثّرت فيه أيمّا تأثير خلال ليلة من الأرق؟ أنا على العكس منه، لم أرَ بداية فيلم ماك موري وستانويك ونهايته، ولم أسمع حوارهما، وإنما رأيتُه بالكتابة الجانبية الشبحيّة خلال ليلة من السهد من غير أن أعيره انتباهاً. فكان ينبغي لي الاهتمام بقصّتي الذاتية التي بدأت. - وتنفّس ديئان بعمق، وكأنّه يريد أن يأخذ نَفَسَاً، أو يهدّئ من تنفّسه قليلاً بعد حماسته الخفيفة التي انساق إليها انطلاقاً من تحفّظه الأوّليّ، وكأنّ تقديراته أفادتْه بتشكيلها أجساماً مضادّة لغضبه، أو بديلاً له. - هكذا أنتَ على صواب لمّا فكّرت في أن هذا اليوم سيتردّد عليّ، كنْ مطمئناً - قال. - لا تصدِّق كما سبق لكَ أن فعلتَ.

كان تييّث يدخّن غليونه بصمت، وكان الآن يقاوم نظرة صهره التي ما كان يستطيع تحمّلها، إذا ما كفّ عن الكلام: فنظر إلى جانب بعينَيْه الآسيويّتَيْن باحثاً عن رئيس الخَدَم، ليطلب منه الحساب، وأشار إليه أن يكتبه من غير إبطاء. - وكأنّه أراد بتلك الحركة أن يضع حدّاً للاجتماع، أو على الأقلّ، أن ينتقل إلى موضوع آخر. "ربمّا كان يعضّ على لسانه"، فكّرتُ، "ربمّا وددتُ حينئذ أن أكون على انفراد مع لويسا، لأخفّف عنها، فهي كانت على علم بالوضع". كانت لويسا غيّرت من موقفها تغييراً كاملاً، كان يبدو عليها

الأسى، ولم تتدخّل، ولم تحثّ ديئان على الإسراع باتّخاذ قرار ما، فلن يضيرها الانتظار بضعة أيّام أخرى. وكان تييّث يدخّن غليونه، ويبدو عليه كأنّما أثّرت فيه كلمات صهره. لكنّ تعنّته كان أكبر من فهمه: في الواقع، ما كان ينتظر غير أن يتبدّد قليلاً هذا الأثر من الشك والتقدير، وربّما الدهشة، ليعود، من ثمّ، لوضعه السابق من الاتّهام والحنق، وإذا عاد، فسوف يكون أكثر شططاً. ولمّا رأى أن ديئان منقبض ويشيح ببصره، زاود قائلاً:

- كيفما يكن الأمر، لم تكن هنا، كيفما يكن الأمر، لم تستطع أن تهتف لكَ، وإن كنتَ تؤثر على الأغلب، ألا تحاول ذلك، فلربّما كانت اصطدمتْ بخفّتكَ ولا مبالاتكَ. ولربّما كنتَ وصَمْتها بالذعر والمبالغة. ولمَا كنتَ حرّكتَ إصبعاً لتُعلمنا، ولا لتتّصل بطبيب. مَن يدري؟! فهي كانت تعرفكَ. ما نعلمه على كل حال، أنها ما كانت تستطيع الاعتماد عليكَ. - وعاد إلى استعماله صيغة الجمع العائلي التي تُقصي عنها ذلك الأرمل، ذلك الصهر. - ولا تكاد تجد بيننا رابطة الآن، وهذا صحيح. من جهتي، يمكنكَ أن تكون في لندن أوتامبيكتو أو في بيلونيزيا، فإني أعلم أنكَ لستَ قريباً منّي بأيّة حال، ولا يخطر على بالكَ أن تدفع هذا الحساب، فهنا يعرفونني جميعاً.

حفظ ديئان محفظته التي كان أخرجها بعد أنْ أشار حموه إلى رئيس الخدَم. يُفترض أنه كان سئماً. والطريقة الوحيدة للحفاظ على الصبر أحياناً هي الانسحاب، وعدم متابعة الاستماع. شقوق جلده الخشبي كانت تُرى على شكل أعمق، بسبب قتامة هيئته، وهكذا قد تصبح دائمة كلّما تقدّم في السّنّ. وكانت ذقنه القوية تبدو في حالة هروب، وعيناه بلون البيرة كانتا تجعلانه وحشيّاً ربّما جرّاء ضوء العاصفة الأخضر، كان يبقيهما مفتوحتَيْن جدّاً، وكأنّهما تُعانيان فرط الجفاف أو الهمّ. وتناول من غير جهد معطفه عن الشبكة العالية، حيث كان وضعه وارتداه، ووضع يَدَيْه في جيبيه.

- إذا كنتُ لن أدفع الحساب، فلستُ بحاجة إلى الانتظار. فأنا على عجلة كبيرة. وداعاً سيّد خوان. سنتكلّم في وقت آخر، يا لويسا. طاب مساؤكِ.

لم يشرب قهوته، وكانت الجملة الأخيرة موجّهة إليّ (إنصافاً منه، كيلا يكون فظّاً، وأجبتُ "إلى اللقاء!"، وقبّل لويسا على وجنتها (وأجابتْه هي: "سأراكَ في البيت" وكأنّ البيت بيتهما كليهما، أما تييّث، فلم يعقّب بشيء). وصل الباب، وهناك ودّع رئيس الخَدَم الذي شيّعه، وفتح له الباب، فأحد أقرباء تييّث جدير بأن يُزعج المرء نفسه من أجله. رفع ياقة المعطف قبل أن يتوغّل في المطر، كان الأشخاص الواقفون يعيقون خروجه، واضطرّوه إلى أن ينحّيهم. وفكّرتُ أني أصبحتُ لا أستطيع اللّحاق به، لو كانت تلك رغبتي بعد الغداء، ولم يبقَ لي خيار آخر سوى أن أتبع لويسا متى خرجنا من المطعم، إذ عزمت على اللّحاق بأحد، فليس لديّ شيء كبير، كيما أصنعه، فقد كنتُ كرّستُ ذلك الأسبوع للعمل بمعيّة تييّث لصالح الوحيد الأوحد، وحلقات المسلسل التلفزيوني التي بين يديّ، لا تتطلّب سرعة، وأرجّح ألا يُنجَز هذا المسلسل الذي سيُدفع لي أجره على كل حال. أمّا تييّث، فقد شرب قهوته التي صارت باردة من غير ريب، وشربها بجرعة واحدة، وكأنّها فودكا، حينئذ تنبّه إليّ مرّة أخرى، وأفترض أنه اعتذر لي، وقام بالاعتذار على شكل غير مباشر.

- ما كانت تستطيع ابنتي أن تطلب عوناً. - شرح لي وكأنّي لم أسمع:
- يقول الأطبّاء ما كان بالإمكان إنقاذها، لكن قلبي ينفطر، إذا فكّرتُ فيها تموت وحيدة على سريرها من غير عزاء، ويساورها القلق على الطفل الذي سيظلّ وشيكاً من غير أحد يعنى به. - قد زال عنه كل نيّة سيّئة ما إن غاب ديئان، وكأنّه كان مُرغَماً على إبدائها. - أنا لا أطيق ذلك. - أضاف.

- الغريب، يا أبي، أني قلتُ لكم ذلك مرّات عدّة. - قالت لويسا،

باستعمالها (لكم) كانت المرّة الأولى التي تتوجّه بها إليّ، أي "قلتُ لكَ ذلك"، فسّرتُ لنفسي الأمر بين قوسين، فليس من عادة البنت أن تخاطب أباها بالجمع، وإنما شملتني بالحسبان. - هي لم تُعلمنا نحن أيضاً، على الأغلب، لم تستطع أن تهتف لإدواردو في لندن، أما نحن، فكانت تستطيع أن تهتف لنا، ولم تفعل. - بدا لي كأنّها كانت تحاول بهذه الكلمات إنقاذ إدواردو من غير أن تشي بأختها الميّتة، كانت تُشفق عليها بلا ريب؛ ولبثتُ متفكّرة، وأضافت: - ربّما لم تحسب نفسها ستموت، وفكّرتْ في أن الأمر عارض، ولم تشأ أن تُزعج أحداً في وقت متأخّر. ربّما لم تعلم بالمرض، ولم يُثر القلق جدّاً حينئذ، ربّما كان التفكير فيه مقلقاً، وكذلك معرفته.

راودتْني الرغبة في أن أقول لتييّث: "لم تكن وحيدة في سريرها، وأنا أعلم ذلك، صدِّقني. ولم تمتْ وحيدة، ولم يكن الوضع رهيباً جدّاً، لأنها أبطأت حتّى أدركته. ولمّا أدركت قالت لي: "أمسكني، أمسكني، من فضلكَ، أمسكني"، وأمسكتُ بها، وطوّقتُها من الخلف، لأنها لم تشأ صُنع شيء آخر، وقالت لي: "لا تصنعْ شيئاً، انتظرْ"! لم تشأ أن أحرّكها ميليميتراً واحداً، ولا أن أهتف إلى أحد، فأمسكتُ بها، وطوّقتها، وهكذا ماتت على الأقلّ إزائي، وباحتكاك بي، وماتت في حمايتي، وماتت مستندة إليّ. ولم تتألّم ألماً كبيراً". - لكني ما كنتُ أستطيع قول ذلك.

- ما كان ينبغي لي أن أصطحبكم على الطعام - قلتُ. - أنا آسف حقّاً.

- كلا! الخطأ ليس خطأكَ. - أجاب تييّث. - بل نحن مَن دعاكَ إلى الطعام. الحقيقة، لم يكن في نيّتي العودة إلى الكلام حول هذا الأمر. - وترك الغليون يتصاعد منه الدخان مستنداً إلى المَنْفضة. ورفع يَدَيْه إلى رأسه. - يا لبنتي المسكينة! قال وكأنّه فَلْستاف، وكان يتصاعد منه الدخان.

وتوقّفت العاصفة فجأة. وكان الباب خالياً من الناس.

مكتبة t.me/ktabrwaya

ما أتعسكَ أن تعرف اسمكَ، إذا كنتَ لن تعرف وجهكَ غداً. فالأسماء لا تتبدّل، وتظلّ راسخة في الذاكرة ما بقيت من غير أن يستطيع أحد أو أي شيء أن ينتزعها منها. ورأسي طافح بالأسماء التي نسيتْ وجوه أصحابها، أو هي بقعة طافية فوق منظر، في شارع، في بيت، على صفحة عمر، أو على شاشة. أو هي أسماء أمكنة ومؤسّسات تبدو مخلّدة، لأنها قائمة منذ وصولنا، أو منذ ولادتنا، كبقّالية فلور سيبيانا، وسينما الأمير آلفونسو، وماريا كريستينا، والبوي وسينما إكس ومكتبة بوشهولز القريبة من ثيبيلِس أو المطاعم الرخيصة التي تحافظ على لوحة الإعلاناتِ التي تقول: بيينا كابيّانِس، وحلويات الأخوات ليسو، وفندق آتلانتيك وفندق آخر، فندق لندن وإنكلترا، وأورييل وسان تروباسو وثاتيرّه، وهاليفاكس، أسماء شوارع ومحلات وأحياء لا نهاية لها - كلاتانيا ثور وسيلزوكولمار ومِيْلكْ؛ ميدينا ديلكامبو، أسماء ممثّلين وممثّلات لا حصر لها، شاهدناهم منذ عهد الطفولة، وتتردّد في ذاكرتنا دائماً من غير أن نستطيع رؤية ملامحهم جيّداً، إدواردو تشيانيلي، ديان بارسي، وبيّلا دارفي، وإيفان تريسو، وليورادانا، وغي ديلمور، فرانك ديكوفا وبريجيد بازلين، وما نزال نستطيع أن نجدّد بهم الذكرى، لو وُفّقنا في استحضارهم أمامنا، إلى حيث رأيناهم منذ فترة بعيدة في أفلام، لا تعرف الشحوب. أما الأمكنة، فعلى العكس من ذلك، تغيّرتْ، واختفتْ محلات السمانة أو حلّت محلّها مصارف، وما ظلّ منها قائماً، إنْ هو غير ظلال رقيقة لها. ننظر إليها من الشارع من غير

أن نجرؤ على دخولها، ونتعرّف على شكل غامض من خلال واجهاتها، إلى موظّفيها أو أصحابها القدامى، الذين كانوا يقدّمون لنا السكاكر، ويُلقون علينا النكات، لمّا كنّا صغاراً، نراهم فجأة وقد تقوّست ظهورهم، وصاروا هزيلين، وفي خراب ملقين بحيواتهم التي لم نشهدها إلى الخلف، ويقومون بالحركات ذاتها وراء منصّاتهم الخشبية أو المرمرية، لكنْ، بثقة أقلّ، وبطء أكبر. صار يشقّ عليهم الالتفات، ويصعب عليهم صرُّ ما يبيعون، أكاد لا أرى ملامح خادم شابّة شقراء كنتُ أجلبها وأنا في التاسعة أو العاشرة، إلى السرير بحجّة واهية، وأدغدغها إذا ما خرج والدي، لكن اسمها يرد إليّ فوراً. إنها كاتي. أتذكّر تذكّراً رديئاً تقاطيع وجه ذلك المعوق الذي يتقدّم فوق عربة ذات عجلات، تُقاد بذراع تدوير، ويبيع التبغ والعلك وعلب أعواد الثقاب، حيث كنّا نصطاف. - كان شبه إنسان، عليه ملامح الغرور والسذاجة، لكن اسمه ما يزال واضحاً نقيّاً، إنه إيليسو؛ ورفاق المدرسة الذين ازدادت وجوههم انطفاء، أو أولئك الذين لم أكن صديقاً حميماً لهم، يظهرون لي متلاشين ووجوههم الصبيانية التي كفّت عن أن تكون كذلك، لكنّ كُنَاهُم ترد إلى ذهني وكأنّي أسمعها من فم الآنسة بيرنس، وهي تستعرض الجدول: لامبيا، لانتيرو، رينا، وتاتاي، وتيولون وبيدال. لا أرى مطلقاً فئة أخرى من الصغار أقلّ وضوحاً، ضاربتُهم مرّات عدّة في الحديقة العامّة صيفاً، لكني لن أنسى أبداً كُنَاهُم ذات الحروف الكثيرة، إنهم: كاسلدويرو، وماتِزِيغو، وبِيّوؤنيدا، أو تشوتورينا. لا أعلم كيف كان مظهر الحلاق الذي كان يأتي جدّي الطبيبَ ليحلق ذقنه، وينظّم شَعره الذي صار مخلخلاً، لكني أعلم أن اسمه كان ريميخيو، ولا لبس فيه. أمّا ماسح الأحذية الخشن والأصلع وذو الشاربين الضخمين والسالفين الطويلين، والذي كان يجلس متربّصاً على صندوقه، ويلبس ثياباً سوداً، ويضع منديلاً أحمر على عنقه، فأنا أعرف اسمه جيّداً: إنه مانوليته. لا

أذكر اسم هذا الرجل الصغير الحجم ذي الشاربين الصغيرين الممسّدين وصاحب المكتبة، لكني، نعم، أذكر اللقب الذي كنّا ننبزه به، أنا وإخوتي، إنه ويلّم ديكّر، باسم شخص مداهن جبان، كان يظهر في فيلم، يدعى بيت الصقور السبعة، وكنّا نرسل إليه رسائل تهديد موقّعة باسم اليد السوداء، مكتوبة على أوراق محروقة بعدسة: ("أيّامكَ صارت معدودة، يا سيّد، ويلم ديكر"). أذكر رسوبي في مادّة الرياضيات ذات عام، ومجيء أستاذ في الصيف، لا أرى منه سوى رأسه اللافت للنظر الذي كانت تشقّه ندبة من أيّام الحرب، وقد سرّح شَعره جيّداً بالماء العادي، لكن اسمه يرِد إلى خاطري كاملاً إنه بيكتورينو، هي أسماء عتيقة، أصبحت لا تُطلَق على أحد، إنها أسماء من الماضي. لستُ أرى من وجه ذلك الرجل الطوّال الصبور الباسم الذي كان يبيع أُسطوانات، سوى ما يسمح به لي اسمه: إنه بِيْثن بيلا، وهكذا كان اسم محلّه. لا أرى بوضوح البوّاب العجوز الذي ظلّ خلال عامين يُلقي عليّ من مقصورته تحيّة الصباح كل يوم رافعاً يده الخفيّة، لكني أتذكّر اسمه: إنه توم.

ما أتعسكَ أن تعرف اسمكَ، إذا كنتَ لن تعرف وجهكَ غداً، الوجه الذي سنكفّ عن رؤيته ذات يوم، وسيتهمك في خيانة نفسه وخيانتنا خلال الزمن الذي صار ملكه وفي راحته، سيأخذ بالابتعاد عن الصورة التي ثبّتناه فيها، ليستقلّ بحياته في غيابنا الطوعي أو التعيس. وجه أولئك الذين مضوا عنّا تماماً، لأننا لم نحتجزهم، أو لأنهم ماتوا، سيُغيّم في ذاكرتنا التي ليست ذات قدرة بصرية، وإن كنّا نخدع أنفسنا أحياناً، ونحسبنا ما نزال نرى ما أصبح غير ماثل أمامنا، وإنما نثير ذكراه ملفوفة بالضباب فحسب. والعين الداخلية أو عين العقل هي تلك الصورة الغائمة من سراباتنا، أو صور جهلنا، أو اللّعنة التي حلّت علينا. أنا أستطيع الزعم أنني لا أعرفكَ، إذا كنتُ لا أعرف اسمكَ الذي يظلّ ثابتاً من غير أدنى تدهور فيه محافظاً

على بريقه البكر، وهكذا سيظلّ، وإن غبتَ عنه غياباً كاملاً، حتّى وإن متَّ، هذا ما يبقى، ولا فرق البتة بين التسمية الحَيّة، والتسمية الميّتة، وليس هذا فحسب، وإنما هو الشيء الوحيد الذي يصلح كيما نتعارف، ولا نفقد عقولنا. فإذا ما أنكر علينا أحدٌ ما اسمنا، وقال لنا: "لستَ أنتَ، وإن كنتُ أراكَ، لستَ أنتَ أنتَ، وإن كنتَ تشبه ذاتكَ"، حينئذ نكفّ عن أن نكون مَن نحن في نظر مَن يقول لنا ذلك، ويُنكرنا، ولا نصبح مرّة أخرى ما نحن حتّى يعود إلينا اسمنا الذي لازمنا ملازمة الهواء نفسه لنا. "وأنا لا أعرفكَ، يا عجوز"، قال فلْستاف، "لا أعلم مَن أنتَ، ولم أركَ قطّ في حياتي، ولا تطلبْ منّي شيئاً، ولا تتملّقني، لأنني لستُ ما كنتُ، ولستَ أنتَ أيضاً ما كنتَ. خلّفتُ ورائي (أناي) القديمة. فإذا ما سمعتَ أني أصبحتُ مرّة أخرى ما كنتُ، فتعالَ إليّ، ولسوف تكون ما كنتَ"، وإذا ما حدث لنا ذلك، فلسوف نفكّر بذعر: "كيف يمكن له ألا يعرفني، ولا يناديني باسمي". لكننا نستطيع أيضاً أن نفكّر أحياناً براحة: "يخفّف من الشّرّ ألا يناديني باسمي، ولا يعرفني، فهو لا يقبل أن أكون أنا مَن يستطيع صُنع أو قول أشياء لا تليق بي، فإذا رآها تحدث، وإذا سمعني أقولها، ولا يستطيع نفيها، فإنه يُنكرني إشفاقاً عليّ، لئلا أكفّ عن أن أكون ما كنتُ في نظره، وبذلك يُنقذني".

شيء من هذا حدث لي ذات ليلة منذ مدّة بعيدة، وقبل أن أعرف اسم مارتا تييّث واسم أبيها واسم زوجها ولويسا واسم أوخينيو، وكان الإنكار متبادلاً، إن كان هناك مجال للإنكار، أو إن كان هناك مجال للتعارف. كنتُ عائداً إلى بيتي في وقت متأخّر ذات ليلة، لمّا رأيتُ امرأة واقفة في شارع الأخوَيْن بيكر، هذا الشارع الذي ينحني انحناءً كبيراً، وينحدر انحداراً كبيراً، وينتهي بشارع كاستيّانا؛ انحناءً وانحداراً جدّ كبيرَيْن حتّى يبدو جانباه عموديَّيْن على بعضهما البعض، وفي مستويات عدّة، وكأنّ الجانب الأعلى

جسر أقصر من الجانب الأدنى، شارع راقٍ، تكمن فيه العواهر والمأبونون بكثرة، لكنْ، على الأصحّ تكمن واحدة إثر أخرى، أو واحداً إثر آخر، وفي العادة، تكون امرأة وحيدة تُرى في هذه الناصية عند نهاية النزلة، بينا العدد وافر في شوارع أخرى بعيدة وذات اتّجاهين مختلفين، وتقع على الجانب الآخر من شارع كاستيّانا، وما وراء ماريّاده مولينا، والعواهر فيها أكثر تجمّعاً، ويشكّلنَ زمراً، ويتبادلنَ الحسد، بينا ينتظرنَ لابسات ثياباً خفيفة تتناقض وفصل الشتاء والخريف أيضاً. والمرأة التي تحتلّ هذا الركن الذي أمرّ به كثيراً تبدو امرأة مختلفة دائماً، أو لا تبدو أنها هي هي قطّ، وتثير انطباعاً بأنها زائدة أو مَنفيّة، أو أن العواهر يُجرينَ قُرعة كل ليلة لشغل المكان، لأنه مكان معزول ومَخفيّ، وفيه شيء من الحركة في آن واحد، ويتمتّع بحراسة لصيقة (السفارة الأمريكية قريبة جدّاً منه)، فهو بذلك مركز ممتاز لتجارتهنّ المتجوّلة. أوقفتْني هذه الليلة الإشارة الضوئية كالعادة، ونظرتُ إلى العاهرة من العربة بمزيج من الفضول والفانتازيا والسلطة والحزن نظرة الرجال الذين لا يقعون في شباكهنّ - أو أن ذلك كله هزل بهزل، - ولمّا فُتحَت الإشارة، لم أتقدّم، وإنما ظللتُ أنظر من خلال النافذة التي كان ما يزال بلّورها مرفوعاً لأنني بعد أن تحقّقتُ من أنها امرأة، وليس تمويهاً ناجحاً، بدا لي أني أعرف اسمها. كانت تلبس معطفاً قصيراً، يسمح برؤية نصف فخذَيْها اللذَيْن كان يسترهما جوربان أسودان، وكانت تكتف ذراعَيْها على هيئة مَن أحسّ بالبرد الذي كان ما يزال بالمستطاع احتماله، ولمّا رأت أن عربتي لم تتحرّك بوجود النور الأخضر، أولتها اهتماماً أكبر، ففكّت عقدة ذراعَيْها، لتسمح لي - بل لتسمح للسائق، فهي كانت ما تزال لا تستطيع رؤيتي - بتأمّل تنّورتها الأقصر من المعطف، ورؤية نوع من البَدَنة كانت تليق بها جدّاً، من أجل إبراز ثدييها يقيناً - هكذا أخذت تفتحه كثيراً أو قليلاً بحركة استعراضية بطيئة. كنتُ واقفاً هناك مفسحاً المجال عن يميني لمرور العربات التي قد تأتي من

الرصيف، وهو أمر ربمّا أوجب عليّ التّقدّم خطوة إلى الأمام، واهتماماً غير خفي، قد يرغمني على أن أكلّمها، على أن أتبادل معها على الأقلّ بعض الكلمات. لئن كان أصبح اهتمامي بها مخيفاً وضخماً، فالثابت أني لم أكن مدى تلك الثواني المعدودات، على يقين من أني راغب في أن أكلّمها، ولا أن أراها على شكل أفضل، لأنني كنتُ أخشى أن أعرف اسمها، وأتعرّف إليها، لأن الاسم الذي كنتُ أحسبني أعلمه هو اسم ثيليا، ثيليا رويث، ثيليا رويث كومِنْدادور، لأنها كانت تستعمله بالكنيتَيْن كاملاً، وهو اسم مَن كنتُ تزوّجتها منذ سنوات خلت، واسم مَن انفصلتُ عنها أيضاً، ثمّ اسم مَن طلّقتُها منذ مدّة ليست ببعيدة.

كنتُ سمعت فوق ذلك، كلاماً عنها، وكنتُ سمعتُه من أحد المطّلعين على كل شيء ومعلوماته صحيحة وجديرة بالتصديق عادةً، إذا لم يكن في نيّته خديعة أو غشّاً: سمعتُه من رُويبِرْث تورِّس، وإن كنتُ لا أوليه ثقتي في هذه المناسبة.

زواجي لم يكن رديئاً كل الرداءة في هذه الأزمنة القلقة التي تجري سراعاً، طيلة مدّة دوامه؛ وقد دام ثلاثة أعوام، وتلك مدّة كافية في نظر فتاة شابّة جدّاً، تصغرني أحد عشر عاماً، لمّا ارتدت ثياب العرس، ولا أدري إن كانت ما تزال بذات الشباب، فبعض الأحداث وبعض الرؤى تُغيّر الأعمار، وتقلبها رأساً إلى عقب. كانت هي في الثانية والعشرين، وأنا في الثالثة والثلاثين، لمّا تزوّجنا بإلحاح منها، إلحاح مَن لا يرى إلى أبعد من سنتَيْن أو ثلاث سنوات ممّا يفهمه من عبارة: "إلى الأبد" (عبارة تبدو له مرغوباً فيها، وودّية بالتالي)، أو إذا شئتَ من عبارة "بلا حدود". فعهدها بالطفولة ما يزال قريباً للغاية حتّى تتصوّر مستقبلاً مختلفاً عمّا هو معطىً، وعمّا هو حاضر! بل هو نوع من الطيش أشدّ رسوخاً، بل هو

علامة ثابتة حقّاً. كنتُ أعاني نوبة ضعف أو حماس، وكلاهما ذو شأن في السنة الأولى التي يشقّ عليّ أن أتذكّرها؛ ثمّ كانت الشّابّة تصفح عنّي، وهو أهمّ ما يُرجى من فتاة شابّة، وبذلك لقيتُ منها ما كفى، ثمّ سامحتُها من غير صخب، وبعد مدّة وجيزة، صار كل منّا يثير غضب الآخر، وكان علينا الانتظار، لنهدأ بصمت، ونتبادل القُبل، والمصالحة العاطفية والجنسية مفيدة جدّاً، إذا أمكن الحصول عليها، أو حتّى إذا فُرضت فرضاً: فهي تُطيل من مدى ما هو مُنجَز، ولكنْ، ليس على شكل دائم؛ أنا كنتُ مَن هجر البيت المشترك كما هو متوقّع، فجئتُ للسَّكَن حيث ما أزال أقطن حتّى الآن، وقد مضى على ذلك كله ثلاثة أعوام. وإذا كانت هي أصغر منّي سنّاً، فإن ثورات غضبها كانت عابرة، وما كانت تتراكم لديها، أي كانت كل ثورة منها تتبدّد على حدة، ولم تكن ثورة الغضب التالية ولا الأخيرة مهما تبعد، بأخطر وأشدّ وطأة من الأولى، فقد كانت خلوّاً من الحقد. ولم تكن شتائمها المتتالية تُلحِق الإهانة، إذ كان ينبغي لها أن تُفصَّل تفصيلاً أو حتّى تُشرَح شرحاً، كي يفهمها المرء. كان يجب تفسيرها. أما أنا، فكانت ثورات غضبي تتراكم في صدري، وكنتُ فارغ الصبر كهذه الأزمنة التي تجري سراعاً. أعني أنها لم تدرك الوضع، بالتالي دبّ اليأس إليها، وأبدت نشوزها، لذلك أنهينا القضية في وقتٍ لاحق على سوء، بعد أن وضعنا حدّاً للعيش المشترك. فقد عزمنا خلال هدنة للتهدئة على ألا نرى بعضنا، أو على الأقلّ، أردنا ذلك طيلة أشهر معدودات، بانتظار أن يمسي كل منّا مغايراً لما عهده فيه الآخر، ما عدا اسمَيْنا. أنا كنتُ أرسل إليها نقوداً بحوالة مصرفية شهرية، يحملها إليها مراسل (كلانا كان يرى وجه المراسل، ولا يرى أيّ منّا وجه الآخر)، وليس ذلك لأني أنا مَن غادر البيت، وأتمتّع بموارد أكبر، وإنما لأن ذوي التجربة يميلون إلى تحمّل المسؤولية عن الأغرار، وإن يكونوا بعيدين، ويخشون عليهم على كل حال. وما أزال أرسل

إليها شيكاً على شكل قانوني، وأمدّها أحياناً بالنقود شخصيّاً. هي معونة تُعطى لها كما تُعطى (عيدية لطفل)، ما احتاجت إليها. ولعلّها عمّا قليل لن تحتاج إليها. لا أحبّ الكلام في العادة عن ثيليا.

أخذتُ أعلم ما يُعلم في مدينة، حيث الناس كلهم يلاقون بعضهم بعضاً، وحيث الهواتف تزمّ الوقت كله، وليست نادرة المخابرات التي ترد في منتصف الليل؛ بل هناك قسم من السّكّان لا ينام، ولا يدع مَن يحاول النوم أن ينام. وقد قال لي أحدهم إنه رأى ثيليا هنا وهناك، ومع هذا الشخص أو ذلك ممّن هو معروف أو غير معروف، فما كان ينقصها مغازلون. واستنتجتُ من هذه المعلومات أنها لم تكن تُجهِد مخيّلتها، وتتظاهر بالانشراح، وترقص، وتضجر، ولا تنسحب كيما تنام، وتشرع أحياناً في البكاء آخر الليل أو مطلع الفجر؛ وكانت تحاول أن توصِل إليّ أخبارها، وتسأل عنّي وكأنّها تسأل عن أحد المعارف البعيدين، وأنا أعرف نوع هذه الأسئلة حين ترتعش الشفاه، وتشي بنا، ويرتعد صوتنا. كان هاتفي يرنّ أحياناً كلّ آن، وإذا ما رفعتُ السمّاعة، لا يجيبني أحد. كانت تريد أن تعرف إن كنتُ في البيت فحسب، أو ربّما لم يكن الهدف بهذه الدناءة؛ بل لتسمع صوتي، ولو للحظة واحدة، وأن تسمع كلمة واحدة منّي مكرّرة ومستفهمة؛ وأنا أيضاً، دقّقتُ ذات ليلة رَقْم هاتفي القديم قبل النوم، بينما كنتُ أتعرّى جالساً عند قدم السرير، فلم أنطق بكلمة واحدة، لمّا أجابتْني، وخطر لي خاطر أنها في صحبة أحد ما. وتركت لي ثيليا ذات مرّة ثلاث رسائل متتاليات في المسجّل: فقالت فيها أشياء جمّة محمومة وفظّة وساخرة ومهدّدة. لكنها شرعت تتوسّل إليّ قبل أن ينفد الوقت المخصّص للرسالة الأخيرة، وقالت: "أرجوكَ... أرجوكَ... أرجوكَ". إذاً، أنا كنتُ سمعتُ هذه العبارة من قبل، ومنذ سنوات خلت في مسجّل هاتفي ذاته: لم أجرؤ على أن أجيبها عن رسالتها، وكان من الخير ألا أجيب.

جاءني بعد ذلك هذا الخبر الذي لم أعره اهتماماً، وإن كان رُوبِرِّث تورِّس مَن تكفّل أن يبلغنيه: أوّلاً على شكل أنصاف كلمات، يختبرني فيها اختباراً، ثمّ على شكل صريح، فسألني ذات يوم ماذا أعلم عن ثيليا هذه الأوقات الأخيرة.

ولمّا أجبتُه أني لا أعلم شيئاً منذ أشهر عدّة، نظر إليّ باهتمام مصطنع، أي بشيء من المتعة في حقيقة الأمر، وهذا ما استطعتُ أن ألحظه عليه. "لا أدري إن كان يجب عليكَ أن تتدخّل قليلاً في حياتها، وتلتفت إليها من حين لآخر"، قال لي. "كلا! خير لي ألا أتدخّل"، أجبتُ، "ينبغي لفراقنا أن تمضي عليه مدّة أطول، لا أريدها أن تستردّ عادتها في الاعتماد عليّ لحلّ مشاكلها، أو أسمعها تقصّها، وأقدّم لها المشورة. هذا يشكّل دائماً رابطة قوية وحجّة جيّدة، ولقد تعبتُ كثيراً حتّى قطعتُ كل صلة لي بها ما خلا الشيكات التي أرسلها إليها". "إذاً، ينبغي لكَ على الأغلب، أن تجعل هذا الاتّصال بها أكثر تردّداً، وأجزل عطاءً"، أجابني. ولمّا سألتُه ما الدافع إلى ذلك، وماذا يعلم هو عنها؟ قصَّ عليّ بشيء من التّكلّف والسرور الخفيف ما بدا لي أنه حماقة حينئذ، وهو: رأى أحدهم ثيليا آخر الليل في خمّارة، ترتادها العواهر، وهي تتناول هذه الأقداح بصحبة أفراد غير معروفين، وهما رجلان، لهما مظهر مقاولين متوسّطي الحال من بيلباو أو من برشلونة أو بلنسية موجودين عَرَضاً في المدينة، أناس لا يليق بها أن تعاشرهم تحت أيّ شكل، ويبدو شيئاً لا يُصدَّق - إذا شئنا القول - أن تأتي هذا المكان قادمة من مكان آخر". فقلتُ: "وماذا في ذلك؟ علامَ يخطر في بالكَ أن تحصل؟" قلتُ له بشيء من الغضب. "حسن! هذا يبعث على التفكير، وهو مُقلِق قليلاً. أليس كذلك؟ أنا أريدكَ أن تكلّمها". "ما أكبر حماقتكَ!" أجبتُ، "ثيليا كانت تجد دائماً متعة وسروراً في الذهاب إلى كلّ مكان. وكلّما كان المكان أمعن في الغرابة أو الندرة، كان أفضل، بذلك

كانت تحسّ بأنها مغامرة، فهي جدّ شابّة. لمّا كانت زوجتي ذهبتْ مرّتَين وزميلات لها إلى بار للسُّحاقيّات، ولم يخطر في ذهني أنها قصدت المكان لهذه الغاية". "حقّاً! حقّاً" أجاب رُويبِرّث، "لكن الأمر مختلف الآن"، "ولِمَ ينبغي له أن يكون كذلك؟". "هي الآن ليست زوجكَ، أوّلاً؛ وهي ليست مع صديقاتها، ثانياً؛ وقد شُوهِدَت أكثر من مرّة في مكانَيْن مختلفَيْن بصحبة عواهر، ثالثاً". وكان رُويبِرّث يرفع على التوالي الخنصر والبنصر والوسطى من أصابع يده اليمنى تبعاً للتعداد. "إذاً، ما أكثر الأشياء التي رآها أصدقاؤكَ!" أجبتُ، "ربّما كانوا فجّاراً هائجين، إذْ أكثروا من التردّد على هذه الأمكنة. ثمّ ماذا؟ ألم يروها تضع أوراق النقد في عبّها أيضاً؟ لا يعرف الناس أيّ شيء يختلقون. وثيليا ذات نزوات: فقد تُعجَب برجل من الناس، وتخرج معه من غير أن تتروّى، أو تذهب إلى مكان أو مكانين كل ليلة، وبعد خمسة عشر يوماً، تسأم الأمكنة والأصدقاء الجدد، فتحتبس في البيت لمدّة خمسة عشر يوماً آخر. هكذا كانت لمّا عرفتُها، وستظلّ كذلك، ما دامت لا تعرف الاستقرار، ولا تنظّم شؤون حياتها. فوق ذلك: أنا أرسل إليها نقوداً كافية، وأنا على ثقة بأن أبويها يعينانها بإرسال المال إليها من سنتنديِر. وهي تقوم أيضاً ببعض الأعمال من حين لآخر، لذلك لا أحسبها تعاني مشاكل". "المال يكون كافياً أو غير كافٍ تبعاً للحاجات وللحياة التي يسلكها المرء. وهو منوط بمَن ينفقه. وهي تخرج كثيراً. على الأغلب، هي مدمنة على شيء ما". "كلا! هي كانت تخشى دائماً الإدمان على شيء ما عدا الكحول والتبغ، وهي لم ترد قطّ الحصول على "جرعة"، ولا أن تذوقها، ولن تعدم مَن يدعوها إلى ذلك، إن خرجتْ"، أجبتُ، "لكنْ، حذارِ: من الآن حتّى تتدعّر توجد مسافة كبيرة، فلا تسردْ عليّ سيّد رُويبِرّث قصصاً تافهة سيّئة القصد". ظلّ رُويبِرّث صامتاً للحظة، ثمّ مسح تموّجات شَعره المشابه لشعر موسيقي، في حين كان ينظر إلى الأرض،

وكأنّه يشكّ بأن يورد برهاناً آخر، أو يكفّ عنه. "حسن، هذا شأنكَ!" قال، "أنا قصصتُ عليكَ ما شاهده الآخرون، وما حكوه لي، خُيِّل إليّ أنكَ على اطّلاع". "هيّا! ماذا شاهدوا أيضاً؟ هاتِ كلَّ ما عندكَ، وانثره، ماذا تعلم أيضاً؟" قلتُ له، وقد نفد صبري. لم يستطع أن يتحاشى بسمة كاشفاً عن أسنان لامعة كَمَن يُضبط متلبّساً بالخطأ، وكان هذا يجعله مضحكاً، فانقلبت شفته مبيّنة قسماً ضئيلاً من اللّثّة. "لا شيء آخر عندي. هذا هو كل شيء؛ وفي نظري هو كافٍ، وفي نظركَ أكذوبة. إذاً، لا بأس، ولندعْ هذا عنّا. فلا أريدكَ أيضاً أن تغار". وساورني شكّ مفاجئ، فسألته: "أرأيتَها؟ أرأيتَها بأمّ عينيكَ؟" فنفخ صدره، وأخذ نَفَساً عميقاً جدّاً، ربّما كَمَن يأخذ كمّيّة الهواء الضرورية، ليكذب بيُسر، ومن غير أن يرتعش صوته (لكني لم أفكّر في هذا الأمر حينئذ، وإنما بعد ثلاثة أسابيع من ذلك بينما كنتُ واقفاً أمام الإشارة الضوئية في شارع الأخوَيْن بيكر، عند نهاية شارع أشدّ انحداراً منه، وهو، في الواقع، بداية شارع الجنرال أورا - آ، تبعاً لما علمتُهُ من اللّوحة، لكني نظرتُ دائماً إلى هذا الجانب على أنه من شارع الأخوَيْن بيكر، وكذلك نظر إليه سائقو سيّارات الأجرة وسائر المدريديين. "لا، لم أرها، لو رأيتُها، لكنتُ قلتُ لكَ، لأقنعكَ بأن تكلّمها على الأقلّ. اطمئنّ إلى أن ذلك غير صحيح، فكلّمها".

لم أكلّمها، ولم أصدّق الخبر، ولم أشأ أن أهتف إلى ثيليا ممزّقاً صمتاً، استقر بقوّة الإرادة وببطء، ومن الملائم أن يدوم مدّة أخرى أطول، لكني كلّمتُ إحدى صديقاتها التي تلتقيها عادة، وشرحتُ لها ما كنتُ علمتُ من رُويبِرّث. وكنتُ أنوي أن أطلب إليها أن تتحقّق من ثيليا، لتحديد السبب المحتمل لهذه الإشاعة أو مصدرها. لكني لم أحتج إلى ذلك. فقد قالت ما كنتُ قلتُه قبل أن أتمكّن من أن أطلب إليها ذلك الطلب. وهذا ما جعلني أفكّر في أنه لا يكون لها سبب ولا مصدر: "لكنْ، ما لهذه

الحماقة وسوء النّيّة، فالناس لا يعرفون ماذا يختلقون، لذلك لا يجدون بدّاً من تكوين فكرة سيّئة؛ مسكينة ثيليا!" طلبتُ منها حينئذ، ألا تذكر لها مخابرتي، لكنني أفترض أن هذا الطلب محال، فالتحالف بين الصديقات له الغلبة دائماً، فيقصصنَ على بعضهنّ كل ما له أهمّيّة عند هذه أو تلك. ولئن كنتُ أرى أنها قد لا تقصّ عليها في هذه المناسبة شيئاً ممّا قلتُ، ليس إكراماً لي، وإنما لتوفّر عليها الاستياء. وظللتُ على كل حال مطمئناً. فلم أصنع شيئاً حيال هذا الأمر، ولم أُولِه مزيداً من التفكير.

وها أنا الآن أقف أمام الإشارة التي أُغلقَت مرّة أخرى، ناظراً ناحية الأشجار المائلة في شارع لاكاستيّانا - كانت ما تزال تكتسي بأوراقها في الخريف، ولعلّ الأشجار مالت جرّاء العواصف خلال عقود.. ، ناظراً ناحية العاهرة التي كانت تقوم بنوبتها أمام واجهة شركة تأمين، وردية وخضراء، ومفسحاً المجال لموقف افتراضي فجائي بينا كنتُ أتحرّى تلك المرأة التي خُيّل إليّ أن اسمها ثيليا رويث كومندادور. والفرضية الطارئة كانت: لو كانت المعلومة صحيحة، ورأى رُويبِرّث ثيليا بأمّ عينيه تتدعّر ذات ليلة، فلربّما تمكّن من استئجار تلك الليلة، وصنع ذلك بانشراح وسرور. وشغله بعد ذلك فقط، شاغل صادق قَدْر ما هو غير صادق، فرُويبِرّث ما كان يبدو له أي شيء ذا خطر كبير، وما كان ليأبه لشيء كثيراً، أو ربّما لأنه كان يرى الحياة على أنها كوميديا فقط، فلو كانت هي هي، وتطابق اسماهما - لأن الوجه لا يكفي، فهو يشيخ ويُغطّى بالمكياج، ويتغيّر - إذا كانت هي هي التي آجرها رُويبِرّث، وقضى ليلة معها، فإنّ ثيليا، قد توطّد حينئذٍ بين الرجلَيْن كلَيْهما - أي بيني وبينه - صلة قرابة، لا تعكسها لغاتنا الحَيّة بدقّة، إنما تعكسها إحدى اللغات القديمة. فإذا ما علمتُ بخيانة زوجية، أو شهدتُ تبادل الأزواج، أو زواجاً ثانياً، وكذلك إذا رأيتُ في الشوارع عواهر عند مروري بعربتي، أو بسيّارة أجرة أو راجلاً - أتذكّر دائماً مرحلة دراستي

الفيلولوجيا الإنكليزية، لمّا علمتُ بوجود فعل مهجور قديم، فعل آنغلو سكسوني، لم يُكتب له الاستمرار في الحياة، وفوق ذلك لا أتذكّره على وجه صحيح، وإنما سمعتُ الأستاذ يذكره ذات مرّة في الصّف، ونُقش في ذهني إلى الأبد معناه الذي أنا على وعي به، لكني لا أعرف صورته. هذا الفعل يبيّن العلاقة أو صلة القربى القائمة بين رجلَيْن أو أكثر من رجل ناموا أو اضطجعوا مع المرأة ذاتها، وإن يكن في أوقات مختلفة، وبوجوه شتّى لها، وبذات الاسم في الأحيان كلها، على أغلب ظنّ، كان للفعل السابقة. ge، التي كانت تعني في الأصل (معاً)، وتدلّ في الأنغلو سكسونية أحياناً على: رفقة، وجماعة، وصحبة، كما في الأسماء التي لم أنسها مثل: ge – fera (رفيق العمر) أو ge – sweostor (أخوات). أفترض أنه أشبه بالسوابق في كلامنا مثل: " con – com – co" الشائعة جدّاً في كلمات أمثال copar ti'cipe شريك، مشارك - وcomilito'n،comensal أكيل - compinche رفيق - co'mplice متواطئ - conyugue' قرين، وفي كلمات أخرى كثيرة. وهذا الفعل المهجور الذي أصبحتُ لا أتذكره ربمّا كان ge - licgan تعني "يضطجع"، وترجمتها والفكرة التي تشير إليها بالتالي هي "يضطجع مع" أو "يواقع" إذا استعملنا كلمة أخشن. وقد لا يكون فعلاً ما تنقله الفكرة، وإنما اسم ربمّا كان ge – bryd – guma التي قد تعني: "عريساً مشتركاً" أو ربمّا ge _ for – liger ضِماداً،(*) وما أدراني! أخشى ألا أعرف الكلمة مرّة أخرى أبداً، لأني لمّا أردتُ دعم الذاكرة واسترداد الكلمة إضافة إلى الفكرة، وهتفتُ إلى أستاذي القديم أسأله، قال لي إنه لا يتذكّر، فاستشرتُ كتاب النحو الأنغلو سكسوني القديم، فلم أعثر على شيء، ولا في المعجم المُلحَق به، ولربّما اخترعته ذاكرتي، لذلك اكتفيتُ بتخمين هذه الاحتمالات التي بحوزتي، إن اقتضى

*) هو أن تخادن المرأة أكثر من رجل، لتأكل عند هذا أو ذاك، ولأسبابٍ أخرى.

الأمر ذلك. وسواء أكان هذا الفعل أو الاسم القروسطي موجوداً أم غير موجود، فقد كان على كل حالٍ نافعاً وهامّاً وباعثاً على الدوار أيضاً، وهذا الإحساس بالدوار ما انتابني، لمّا رأيتُ العاهرة، والتفكير فيما إن كانت تُدعى ثيليارويث كومندادور، جعلني على صلة قربى على الطريقة الأنغلو سكسونية بكثير من الرجال إضافة إلى رُويبِرْث حسب الفرضية. ونحن، رجالاً ونساء نجهل هذه القرابة أو الصلة، وتجلّيها الملموس والمَرئيّ هو المرض الذي يتعرّض له أكثر مَن يتعرّض، أولئك الذين يأتون من بعدُ، أو في وقت آخر، أو اللاحقون، والتابعون، - ولربّما كانت العذارى يحظينَ لهذا السبب بتقدير كبير، صار مُخلَّفاً إلى حدٍّ ما، وصلة القربى هذه لا تُختار اختياراً أيضاً، وقد تكون مزعجة أو مؤذية أو بغيضة، إذا عُرفت أو اشتُبه بوجودها، وحيارتها تدفع الناس إلى أن يبغضوا بعضهم بعضاً، ويقتلوا أنفسهم، وهذا أمر نادر وعامّ في آن واحد، ولعلّ ذلك الفعل كان يشير إلى رابطة، تقوم أساساً على البغض، لذلك لم يُكتَب له الاستمرار في الحياة في لغتنا الموروثة، ولا في أيّة لغة أخرى، هو عقدة من المنافسة والبؤس والغيرة والمرارة، هو شبكة من جبال وروافد عدّة، يمكن أن تقود حتّى اللانهاية، فلا نرغب حقّاً في أن نسمّيها أو نحفظها في لغتنا وإن كنّا نتصوّرها في الفكر والوقائع، وما هو أيضاً باعث مضجر على الذكرى، هم المضاجعون والمواقعون بالشراكة، وقد يكون العكس محتملاً أيضاً، وإذا علمنا أن بعض الروابط الجنسية المتداخلة للمرأة وللرجل تضفي صيتاً أو نبلاً على مَن يؤسِّسها أو يتعاقد عليها أو يحوزها، وتضفيه على من يأتي تالياً، وهم الذين يتلقّون المرض كما يتلقّون الاستحسان في يومنا الحاضر يقيناً أكثر من أي عصر آخر، أو على شكل عَلَني لم يُعهَد مثله، فأنا لم أشعر بالنبل تبعاً لهذه الفرضية، وإن جئتُ (سابقاً) حسب هذه الفرضية أيضاً.

خَطَت المرأة ثلاث خطوات أو أربعاً مستطلعة وغير مطمئنّة صوب الطريق، لمّا رأتني واقفاً والإشارة الضوئية مفتوحة ومحرّك السّيّارة شغّال (ما كانت تستطيع أن ترى إحساسي بالدوار والحيرة)، وقد فكّرتُ بلا ريب أنها تدنو قليلاً، وتسمح لي بتأمّلها على شكل أفضل كيما أتّخذ قراراً. فلربّما لم تصحب أحداً تلك الليلة من ذلك الثلاثاء البارد بزيارة واحدة إلى شقّة أو عربة، على أن خطاها وزياراتها مكرّسة لئلا تترك أثراً على أحد، أو لئلا تتراكب في ذاكرتها المضطربة الكئيبة والهشّة. وبدا لي حينئذٍ مُفرطاً، بل مُذِلاً إرغامها على عبور الإسفلت والاقتراب من نافذتي الصغيرة، معرِّضة نفسها للخطر. نظرتُ، فلم أرَ أحداً يقدم عن يميني، فقرّبتُ العربة من الرصيف مخلّفاً ورائي محطّة الأتوبيس (16 - 61) التي ربّما كانت تحتمي بها هي أو رفيقاتها بالتناوب، إذا ما أمطرت السّماء، وقد انعطفتُ قليلاً جهة شارع كاستيانا موقفاً السّيّارة على الناصية ذاتها. وغذّتِ الخطى قبل أن تتحقّق من هدف مناورتي، ورفعت ذراعها، لتحتجزني بالإشارة وحدها فقط، وكأنّها تخشى أن تفقد زبوناً لتردّدها أو كبريائها، أو كأنّ تلك كانت عادتها في طلب سيّارة أجرة. لم أطفئ المحرّك، وكنتُ ما أزال لا أدري إن كنتُ أبادلها بضع كلمات، أو أدعوها إلى صعود العربة، وهذا ليس منوطاً بمعرفة الاسم. رأيتُ ساقَيْها القويتَيْن البرّاقتَيْن بسبب حرير الجورَبَيْن، فأنزلتُ زجاج النافذة اليمنى الصغيرة آليّاً. فانثنت حينئذ لترى وجهي، وتكلّمني، انحنتْ، واستندتْ فوراً بمرفقها إلى النافذة المفتوحة، ولعلّها حيلة منها، كيلا يستطيع المرء أن يرفع الزجاج مرّة أخرى بسرعة، إذا ندم على ما جاء به، نظرتْ إليّ من غير أن يرفّ جفنها، وكأنّها لم ترني قطّ. وإنما بدا لي أنها حبست نَفَسها فقط: لو كانت ثيليا لربّما كانت آخذة بتحضير الجملة الأولى أو الجواب ونغمة الصوت المشوّه أيضاً، أو طريقة الكلام المختلفة عن المألوف، كانت تعمل لكسب الوقت. كان وجهها

وجه ثيليا الذي أعرفه جيّداً، ولم يكن هو في آن واحد، أعني أن تسريحة شَعْرها كانت تسريحة وحشية غير معهودة فيها، فأرسلتْ شعرها عقائص وذوائب أميل إلى الشقرة، ولم أرَ مثل زينتها قطّ. فالشفتان مطليّتان بأحمر دموي أكثر ممّا هو مألوف، وعيناها ذات أشفار صنعية، لا شك فيه، وصبغت طرفيهما بخطَّيْن طويلَيْن حتّى جعلاهما أضخم وأكثر إثارة. وكذلك ثيابها لم تكن ثياب ثيليا، فالتّنّورة مفرطة في قصرها، والبدنة مفرطة في ضيقها، والمعطف وحده كان معطفها، لأني لمّا رأيتُها تحت مزيد من الضوء وعن قرب لحظتُ أنه لم يكن معطفاً. وإنما هو مِمْطر، كما كانت تلبس أحياناً، وحذاؤها ذو الكعب العالي أيضاً يمكن له أن يكون حذاء ثيليا ليالي كنّا نخرج فيها لحضور حفلة ما. وألقتْ وهي مستندة بمرفقها إلى نافذة السّيّارة الصغيرة نظرتَيْن سريعتَيْن جهة اليمين، فكانت ترصدها عاهرتان أخريان، كنّا نراهما الآن كلانا من الناصية، وقد صعدتا درجات بوّابة شارع كاستيانا النبيلة، يقيناً كانتا تنتظران نتيجة مفاوضاتنا، فقد تواتيهما الفرصة، إذا لم تفض إلى نتيجة حسب ظنّهما، كانت إحداهما تنظر إلى فوق صوب أشجار الجادّة أو الممرّ، صوب تيجانها الورقية، وكأنّما يجذبها تذبذب الأغصان الخفيف من غير انسجام فيه، أو بالحَريّ تذبذب الأوراق، فكان الهواء يهبّ نسيماً والسحب منعقدة. كانتا أقلّ جمالاً، أو أقلّ حسن منظر، كما تظهران من بعيد.

"اصعدي" قلتُ لها، وفتحتُ الباب، وقد أرغمتُها على التّنحّي عن النافذة للحظة. ما كنتُ أعلم كيف أتوجّه إليها بالكلام، فقلتُ لها بشكل ما، ما كنتُ سأقوله لثيليا، لو وجدتُها في هذا الشارع هذه الساعات. كنتُ السائق أو الرجل ذا اليَدَيْن الضخمتَيْن جدّاً والأصابع الغليظة والقاسية موضوعةً على المقود (أصابعي كانت كمفاتيح البيانو)، كنتُ الرجل الذي دعوتُها من مقعدي لتصعد العربة وبابها مفتوح، وأنا كنتُ مَن يصدر

الأوامر، ويقول ما ينبغي لها أن تصنعه بطريقة تختلف عن طريقتي في التعامل مع ثيليا. لكنْ، لمّا يحنِ الحين، والمفاوضات لمّا تفضِ إلى شيء.

- "إيهْ! مهلاً! إلى أين نحن ذاهبان، وبأيّة شروط؟" قالت وقد خَطَت خطوة إلى الوراء - أو جرّت كعب حذائها - واستندت بقبضتها إلى كشحها. فسمعتُ صليل الأساور، لمّا قامت بهذه الحركة. وكانت ثيليا تصنع الضوضاء ذاتها، ولو كانت أكثر جفافاً، إمّا لأن أساورها لم تكن كثيرة، أو أنها أكثر إحكاماً على يدها. - "سنقوم بجولة في هذه الأنحاء كبداية، وأنا مليء جدّاً، فلا تهتمّي. واختاري. بذلك تكونين أكثر ودّاً"، أجبتُها. وأخرجتُ بعض الأوراق النقدية المختلفة من جيب بنطالي، فقد كان معي ما يكفي من النقود، فما كانت توجد أدنى مشكلة من هذا الجانب، هذا ما أردتُ أن أقوله لها، وهكذا فهمت هي الأمر أيضاً، وما إن بسطتُ يدي ممسكاً بورق النقد كأنّه ورق لعب، حتّى فكّرتُ أني ارتكبتُ حماقة، إذا لم تكن هي ثيليا: ذلك كأنمّا أدعوها إلى سلبي بشكل ما .. وربمّا هذا ما يسمّيه الناس قبلة النوم - فنحن نريد الاحتفاظ بكل ما نرى أنه قائم، وفي متناول اليد. لكنها كانت تشبه ثيليا شبهاً كبيراً، فلا أفقد الثقة سريعاً جدّاً، وأقرّر أنها ليست هي: بل إنها هي هي، وإن لم تكن كذلك.

- "حسن! سآخذ منكَ هذا المبلغ مؤقّتاً لقاء النزهة القصيرة. ما رأيكَ؟" قالت وقد أخذت منّي ورقتَيْن نقديتَيْن، كأنّهما ورقتان من ورق اللعب، بحذر كبير، وكأنّها تطلب إذناً في ذلك، ووضعتْهما في الحقيبة. " الآن طاب الكلام، إذا أحببتَ أن تذهب بعيداً عن هنا، فليكن إلى براخاس أو وادي الحجارة. وإذا أردتَ الذهاب إلى برشلونة، فسوف تبدو أمين صندوق آليّاً".

- "هيّا، اصعدي"، قلتُ لها وقد ضربتُ المقعد على يميني براحة يدي، فتصاعد الغبار.

فصعدتْ، وأغلقتِ الباب، ولمّا أقلعتُ، رأيتُ العاهرتَينْ الأخريَينْ جالسَتَينْ على الدرج الحجري، فقد تبخّرت فرصتَيْهما، وربّما كانتا تحسّان بالبرد فوق الحجر منتظرتَينْ جلوساً ومرتديَتَينْ تنّورتَين جدّ قصيرتَين، فقد كانت السماء أمطرت من قبل، والأرض لمّا تجفّ جفافاً تامّاً، وكانت تنّورة ثيليا قصيرة جدّاً أيضاً، حتّى خُيّل إليّ أنها لا تلبس تنّورة، لمّا صارت قربي، ورأيتُ جانباً من فخذيها، لا يغطيه الجوربان الأسودان الخاليان من الأربطة، رأيتُ شريطاً من جِلْد أبيض ناصعاً، بل هو مفرط في البياض خلافاً لذوقي، وكان الوقت خريفاً، وشرعتُ أبتعد عن المنطقة باتّجاه كاستيانا العليا.

- "مالكَ! إلى أين ذاهب؟ " قالت، "خير لنا لو اندسسنا في أحد هذه الشوارع الخلفية. وكانت تشير إلى شوارع فورتوني، وماركيس، وبيريسكال ومونْتِه إسكيناث وخِنَّر، فِرنْاندو إيل سانتو، شوارع معزولة وتخلو من حركة المرور تقريباً، شوارع تحتلّها سفارات دول ثريّة محاطة بسياج من القضبان السود، وذات حدائق من العشب الخاصّ الموحّد شكلاً ولوناً والمشذّب غاية التشذيب، شوارع مشجّرة جدّاً، وهادئة ليلاً ونهاراً أيضاً، شوارع قضيتُ قربها عهد الطفولة، لمّا كانت الحافلتان اللتان أصبحتا اليوم مستطيلتَيْن وحمراوَيْن، وتحملان الرَّقْم 16 و61 والتقطت من عند موقفهما ثيليا الزائفة أو ثيليا ذاتها، مكونّتَيْن من أوتوبيس ذي طابقين كأوتوبيسات لندن، ومن تراماواي، يجري فوق قضبان ما تزال تُرى قطع منها كأنّها أحافير ناقصة فوق إسفلت مساره، كلتا الحافلَتَيْن: الترامواي والأتوبيس ذي الطابقَيْن كانت بلون أزرق، وأركبها كل يوم في الذهاب إلى المدرسة أو في العودة منها، ولم يبقَ منهما غير الرَّقْم، أي الاسم، وهو 16، 61. في هذه الشوارع يمكن لعربة أن تقف وتُطفئ المحرّك لوقت من غير أن يبهر شاغليها أضواءُ السّيّارات الأخرى، أماكن تصلح للاستنشاق، وضرب

مواعيد الغرام واللعق(*). ويمكن للصغار أن يدخّنوا فيها خلسة قبل دخولهم صفوفهم، هي أكثر الشوارع تحرّراً وامتلاء بالأجانب.

- "لا تهتمّي، سنعود قريباً، وسأضعكِ مرّة أخرى على ناصية شارعكِ، أو في أي مكان تشائين، ولن تضطرّي إلى أن تستقلّي سيّارة أجرة. أفترض أن سائقي السّيّارات لا يرغبون دائماً في أن ينقلوكنّ". كان هذا منّي تعليقاً سخيفاً، وربّما مهيناً، إذا لم تكن المرأة ثيليا. "يطيب لي أوّلاً أن أقود السّيّارة قليلاً والشوارع خلوّ من حركة السير".

- "ليكن، أنتَ تأمر"، أجابتْ، "نبّهْني متى ضجرتَ، لكنْ، لا تُبطئ كثيراً، أو أنّي سأحسّ بنفسي كأنّي خطيبة سائق تكسي، يطوف بها من غير توقّف".

جعلتْني جملتها الأخيرة أضحك، كما كانت ثيليا تثير ضحكي، إذا انقضت نوبة انفعالي أو ضعفي إزاءها، ثمّ تصفح عنّي. حقّاً إن هناك بعض سائقي سيّارات الأجرة الشّبّان يقلّون ليالي الجمعة والسبت معهم خطيباتهم، لأنهم مضطرّون إلى العمل، وركوبُ السّيّارة الطريقة الوحيدة للخروج معهنّ ولقائهنّ، وهنّ إمّا أن يكنّ ذوات صبر كبير، أو عاشقات مولّهات أو يائسات، حتّى إنهم لا يستطيعون تبادل أطراف الحديث طويلاً بوجود راكب دائماً وراء ظهورهم ناظراً إلى أعناقهم، وربّما متنصّتاً، ناظراً على وجه خاصّ إلى عنق الخطيبة، إذا كان هذا الراكب رجلاً يائساً أو وحيداً.

سقتُ السّيّارة بصمت عبر شارع لاكاستيانا المعروف جدّاً، بعض الأمكنة تظلّ في مواضعها وهي ليست كثيرة، (الكاستيانا هيلتون) كان يُسمّى بهذا الاسم من قبل، لكني أعرفه باسم الهيلتون فحسب، وكانت

---

*) كناية عن تناوُل المخدّرات.

لوحة (ماخور مينغ) واضحة جدّاً، وهو مكان واسم سرّيّان، يُحظر دخوله أو النطق به أيّام الطفولة، ثمّ التشامارين ملعب ريال مدريد الذي يجلب أيضاً إلى الذاكرة أسماء لم تمّح قطّ، ولن تمّحي أبداً، صفّ كامل من الأسماء ما أزال أعرفها عن ظهر قلب، تجلب أحياناً شكل وجوه عرفتُها في صور معدنية ملوّنة، كنتُ ألعب بها "وجهاً وقفا" وأحد إخوتي: كوجوه مولوني، وليسمس، وريال إي كوبا، والسمين بوشكاش، وبيلاثكِث، وستْتسْتِبان وثارّغا، لاعبون قد لا أعرف وجوههم الآن، لو أُتيحت لي فرصة رؤيتها، أمّا أسماء كُنَاهم، فباقية، وبيلا ثكث كان عبقرية.

سقتُ السّيّارة برفق (صامتاً)، لأني كنتُ أنظر إلى العاهرة بمؤخّر الطرف، لأرى إن كانت تحسّ الإحساس القديم ذاته بنقلي ثيليا المتعبة الجالسة إلى جانبي، كما كنتُ أفعل ليالي كثيرة عند عودتنا معاً إلى البيت. كنتُ أريد أن أراها وجهاً لوجه، وعلى مهل، وأن أمعن النظر جيّداً في قسماتها، لكني سأجد فسحة من الوقت من أجل هذا، فالوجوه خدّاعة، وأنا أكثر ثقة أحياناً بالانفعالات والأحاسيس الذاتية إزاء هذه الوجوه والتفاصيل اللاإرادية لدى الشخص الآخر كإيقاع التّنفّس، أو النحنحة، أو إيماءة ما، أو عيب في النطق، ولثغة في الكلام، والرائحة، - تبقى رائحة الموتى حين لا يبقى منهم شيء آخر.، والمِشية وطريقة تصالُب الساقين، والنقر بالأصابع بقلق، أو بحَكّ ما تحت الشفتَيْن بالإبهام، أو الضحك. فالضحك يشي بمَن يتصنّع ويُنكر اسمه، وهو أمر لا لبس فيه لدى كل شخص، وسألتُ نفسي إن كان ينبغي لي أن أغامر بأن أحاول إضحاك العاهرة التي كنتُ صحبتُها في عربتي، فلعلّ ذلك يُرغمني على أن أتثبّت منها. سقتُ السّيّارة صامتاً أيضاً، لأني كنتُ أسأل نفسي ما الذي يدعو ثيليا لتطوف الشوارع، إن كانت هي ثيليا التي لم تكن بحاجة إلى المال. نعم، ربّما فيها شيء من الخفّة، وجرعة كافية من المغامرة، وهي كلمة

سوفييتية على شكلٍ بارز، مغامرة كلمة تسمح بالقول: "أنا جرّبتُ"؛ أو ربمّا كان ذلك منها ثأراً وانتقاماً، اتّخذ سبيله كيما يُدرك لمّا رآها أصدقاء رُوبِرِّث في مكانين مختلفين، أو لمّا رآها رُوبِرِّث نفسه الذي ربمّا اتّفق معها على قضاء تلك الليلة التي رآها فيها، ثأر قد يُدرَك الآن إدراكاً تامّاً، لو كنتُ أنا أنا، وكانت هي هي، وهي أيضاً قد يكون لها شكوكها حولي، فكل امرئ على وعي ضئيل بالتّغيّرات التي تحصل له، وأنا على غير وعي بالتّغيّر الحاصل لي، الذي ربمّا كان خطيراً وحاسماً، وفيما يكمن هذا الثأر، قلتُ لنفسي صامتاً، إن لم يكن بإقامة صلة قربى مختلطة بأناس مجهولين، لا أعرف عنهم شيئاً، لا أعرف مَن هم، وكم هم، وهي نفسها قد لا تعرفهم جيّداً، فتسألهم عن أسمائهم التي لا يفصحون لها عنها.

- "ما اسمكِ؟" سألتُ العاهرة عند نهاية شارع لاكاستيانا، لمّا انعطفتُ لأسير في الاتّجاه المعاكس.

- "فيكتوريا"، - كذبتْ عليّ، إن كانت ثيليا، وربمّا هي كاذبة أيضاً، إن لم تكن. لكنها إذا كانت هي ثيليا، فقد كذبت بقصد وسخرية وخبث، أو حتّى بخديعة. لأن هذا الاسم مؤنّث اسمي. وأخرجتْ علكة من حقيبتها، وعبقت رائحة النعناع بالسّيّارة.

- "وأنتَ؟".

- "خابيير"، كذبتُ عليها بدوري، وأنا على وعي بأني كنتُ سأكذب في الحالتَيْن، سواء أكانت فكتوريا أم زوجي ثيليا التي أصبحت غير زوجي.

- "خابيير آخر"، علّقتْ، "المدينة ملأى بهم، أو إنه الاسم الذي تُعجبون به جميعاً، لا أدري ماذا يجديكم ذلك".

- "جميعاً؟ مَن؟" سألتُ، "أهُم زبنكِ؟".

- "الرجال عامّة، الرجال، أم تحسبني لا أعرف غير الفجّار منهم؟".

كان فيها شيء من الهَوَج، ما كانت تعرفه ثيليا، ولا تعرفه، فلو كانت هي هي، فقد أجادت التمويه إلى حدّ كبير، أو لعلّ الزمن الذي قضتْه في الممارسة أفادها في أن تلتقط بعض صيغ الكلام، (ربّما لم أرها، ولم أكلّمها منذ ما يزيد على شهر أو شهرين أو حتّى أربعة شهور أو خمسة).

وخطر لي أنها ربّما كانت غاضبة لسرعة اتّفاقها معي، بأن دفعتُ لها مقدّماً؛ ولعلّها سائلة نفسها إن كنتُ اصطحبتُها على الشبه، وعلى شكل استثنائي، أو أني أحد الفسّاق المعهودين كانت جهلته خلال مدّة زواجنا.

- "لا أتصوّر ذلك حقّاً، فمعذرة. أفترض أن لكِ عائلة".

- "هي في هذه الأنحاء، وأنا لا أراها، ولذلك لا تسألني عنها". وألحَّت بحنق، تجلّى في عينيها اللتَيْن انطبع الليل فيهما. "اسمعْ، أنا أتعامل مع كثير من الناس".

- "حقّاً، حقّاً، ومعذرة". - قلتُ.

لم تكن المحادثة سهلة، وربّما كان من الخير الاستمرار في الصمت. كنتُ أفكّر أنها ثيليا للحظة، وأننا نستطيع التّخلّي عن التمويه، فنتكلّم عن كل شيء، أو نتكلّم ما نتكلّمه عادة، أو نسأل أنفسنا بصراحة، وفي لحظة تالية، كنتُ أفكّر، لا يمكن لها أن تكون هي، وأن الأمر كله مجرّد تشابه فائق للعادة، يحدث أحياناً مع ذلك وكأنّها هي هي بحياة أخرى وتاريخ آخر، كأنّها الشخص ذاته، وقد أُبدل في المهد طفلاً، كما يُسمَع في قصص من قصص الأطفال، أو في مآسي الملوك، إنه الجسم ذاته بذاكرة أخرى، وباسم آخر، وماضٍ آخر، أنا غير موجود فيه، ربّما كان ماضي طفلة غجرية تتربّع على كومة الأغراض المستعملة والمعدومة النفع، تحملها عربة، تجرّها بغلة، طفلة هي شفيعة تجار البالة، وترتطم بأغصان الأشجار المائلة، وتنظر

إلى الفتيات البرجوازيات يمضغنَ العلكة في الطابق العلوي من حافلة ذات طابقين (لكنها هي جدّ صغيرة حتّى تكون عرفتْ تلك الحافلات). ولئن كانت الحاجة غير ماسّة أيضاً إلى فهم الوضع، فإن الحدّ الفاصل دقيق، وكل شيء مُعرّض للانقلابات الكبرى - إنه قفا الزمن ومتنه الأسود.. انقلابات رأيناها في الحياة، كما رأيناها في الرواية والمسرح والسينما، رأينا كتّاباً وعلماء شحّاذين، وملوكاً بلا ممالك، أو مُستبعَدين، وأمراء محبوسين في بروج، وقد خُنقوا بوسادة، وأصحابَ مصارف منتحرين، وربّات جمال تحوّلنَ إلى مسوخ، إذا شُوّهنَ بقطعة زجاج أو سكّين، ونبلاء غائصين في دنان من الخمر الفاسد، ومعبودي جماهير مُعلَّقين من أقدامهم كالخنازير، أو مسحولين، تجرّهم الجياد، وشذّاذ آفاق صاروا آلهة، ومجرمين تحوّلوا إلى قدّيسين، وعباقرة تضاءلوا إلى وضع سكارى أفظاظ، ومعوقين متوَّجين يغوينَ أجمل الجميلات تحاشياً لحقدهم، أو تحويراً له؛ ورأينا عشّاقاً يغتالون مَن يحبّون. الحدّ دقيق، وتكفي غفلة ما للسقوط في الجانب الذي يُهرَب منه، فالحدّ على كل حال يقطع، وينتهي الأمر بالسقوط في هذا الجانب أو ذاك خلال مدّة بسيطة؛ حسْبُ المرء أن يشرع في السير، حسْبه أن يظلّ هادئاً.

- "كيف حال القيادة؟"، - سألتْني فيكتوريا بعد مدّة صمت جديدة. "أتتدرّب من أجل سباق فورمولا (1)، أو أنكَ ما تزال تفكّر في المكان الذي تبغي أن نذهب إليه؟ أتريد أن أريكَ الخارطة؟ على الأغلب أنكَ ضعتَ". فتحتْ صندوق الأدوات القَفّاز في السّيّارة، لتبرز بهذه الحركة تعليقها.

- "لا تكوني مستعجلة، فأنتِ مَدينة لي بكل هذه المدّة من الوقت"، أجبتُها مستاء، وأغلقتُ الصندوق بعنف. "ولا تشتكي، فخير لكِ أن تكوني هنا من أن تتلقّي البرد على الناصية. كم أتى عليكِ من الوقت لم يصحبكِ أحد؟".

- "هذا لا يعنيكَ، أنا لا أتحدّث عن عملي .. فإذا كنتُ، إضافة إلى العمل، مضطرّة إلى الكلام عنه، فقل لي ما هو غرضكَ؟". كانت تمضغ العلكة بقوّة، وفتحت النافذة قليلاً لتبديد رائحة النعناع التي اختلطت برائحة عطرها اللطيف، وهو لم يكن عطر ثيليا المألوف.

- "حقّاً، لا تريدين أن تتكلّمي عن عملكِ، ولا عن عائلتكِ، ولا عن شيء: وهذا ما يجعل النقود تصبّ في حقيبتكِ من غير أن تتعبي في كسبها".

- "ليس كذلك، يا رجل". أجابتني، "إذا شئتَ، أعيدها إليكَ، ثمّ تعطنيها ما إن ننتهي، فأنا لستُ هنا لأعلّمكَ. وكل شيء في مكانه. فتنبّه!".

- "أنتِ هنا للاستجابة لما أقوله لكِ". وشعرتُ بالدهشة من نفسي أنْ قلتُ هذا القول لفيكتوريا أو لثيليا وهما سواء. فنحن - الرجال - لدينا القدرة على إثارة خوف النساء لمجرّد تغيير بسيط في الصوت، أو بجملة تهديد باردة، وأيدينا أقوى وهي تضغط منذ قرون. وكل ذلك حماقة.

- "فليكنْ، فليكنْ، لا تغضبْ منّي"، قالت بلهجة مصالحة. واستعملتْ كلمة (منّي) لتهدئتي، جعلتني أحسّ أني قريب منها قليلاً.

- "أنتِ مَن يثير الغضب منذ أن صعدتِ العربة، فأنتِ تعلمين ماذا حدث لكِ مع زبونكِ السابق". وبدا لي أننا ننزلق نحو جدل عائلي أو جدل مراهقين محال. وأضفتُ فوراً: "معذرة، أنتِ لا تحبّين الكلام عن عملكِ، لأن الآنسة تحافظ على سرّ المهنة".

- "وأنتَ، أتحبّ الكلام عن مهنتكَ؟" أجابت العاهرة فيكتوريا: "إذاً، ما عملكَ؟"

- "أنا لا أخشى الكلام عن عملي: أنا منتج تلفزيوني"، كذبتُ مرّة أخرى،

وإن يكن بحذر، لأنني كنت أعرف منتجين عدّة، وأستطيع تمثيل الدور إزاء عاهرة تمثيلاً متقناً. وتوقّعتُ أن تسألني أيّة برامج أُنتجها، أو تطلب منّي برهاناً، لكنها لم تُصدّقني، ولذلك لم تصنع شيئاً من هذا (ربّما لم تصدّقني، لأنها ثيليا، وهي في هذه الحالة تعرف عملي).

- "في هذه الساعات المتأخّرة من الليل، أنا تحت أمركَ"، "نحن هنا كيما نمنحكم اللّذّة، أنتَ قلتَ بنفسكَ".

الآن، نعم، قرّرتُ أن أدخل هذه الشوارع الهادئة والدبلوماسية التي أشارت عليّ بها في البدء، وأبحث عن فسحة لصفّ السّيّارة. ووجدتُها في شارع فورتوني، ليس بعيداً عن السفارة الألمانية التي كانت تبدو مهجورة تلك الساعات، وكان ضوء المحرس مطفأ، ولعل الحارس كان يستطيع أن يرى بذلك على شكل أفضل في الليل، من غير أن يُرى. خلّفنا وراءنا مأبونَيْن، لا لبس فيهما على ناصية شارع إدواردو واتو ينتظران جالسَيْن على مقعد خشبي ما يزال رطباً تحت الأشجار، ومحاطين بالأوراق الصفر المتساقطة والمتكوّمة، وكأنّها تفرّ من كنّاس في أوج مهمّته.

- "كيف تتصرّفنَ مع هذين؟" - سألتُ فيكتوريا بعد أن أطفأتُ المحرّك، وأشرتُ بإبهامي إلى الخلف. والآن استعملنا كلانا صيغة جمع تجرّدنا من شخصيتنا الفردية.

- "قبحاً لهما!" قالت. لكنها هذه المرّة أجابت. وكان لا مفرّ من إزالة الجفاء، ولو فترة بسيطة جدّاً، إذ لا يمكن إقامة اتّصال جسدي بوجود جفاء، مهما تكن شروط الاتفاق على هذا الاتّصال، ومهما يكن مقنّناً ومدفوع الأجر، "حسن! نحن وإن كنّا في المنطقة نفسها، فإننا لا نلتقي. هم يحتلّون هذه الزاوية، ليصطادوا منها. لكنْ، إذا لم يجيء أحد منهم

ذات ليلة نستطيع أن نحلّ محلّهم. وإذا ما ظهروا، انصرفنا. لا مشكلة بيننا وبينهم. المشاكل يثيرها الزبن دائماً".

- "ماذا جرى! ها نحن صرنا غاضبين!"

- "بعضكم يثير الخوف"، أجابت فيكتوريا، "والبعض منكم بهائم".

- "أوَ أثيرُ الخوف فيكَ؟" سألتُها بغباء، لأني ما إن قلتُ ذلك حتّى صرتُ على يقين من أني لن أسرّ بأي الجوابين المحتملين. إذ لا يمكن لي أن أثير فيها الخوف، لو كانت ثيليا، لكنها كانت تتصرّف، وكأنّها ليست هي، أمّا أنا، فكنتُ أتصرّف كما أتصرّف، إذا استثنينا الأكاذيب الصغيرة، أو قد لا توجد ضرورة إلى استثنائها.

- "في هذه اللحظة، لا أشعر بالخوف، لكنْ، سنرى كيف ستتصرّف معي"، أجابت بنوع من الحدّ الوسط، وكأنّها تحزر فكرتي العابرة، أو أنها لم تبلغ ذلك. وشملتْني مرّة أخرى بكلمة "معي" محاولة أن تكسبني بها. "أيّ وضع تريد؟ على الطريقة الفرنسية؟" ولمّا قالت ذلك، أخرجت العلكة من فمها، ووضعتْها بين أصابعها من غير أن تُقرّر إلقاءها. في هذه الكتلة الصغيرة، تبدو آثار أضراسها التي تصلح للتّعرّف إلى جثّة قتيل من غير شك إذا عُثر على طبيب أسنان هذا القتيل.

- "ألا يخيفكِ صعود عربة إنسان مجهول مرّة بعد أخرى؟" ألححتُ عليها، وسألتُ الآن هذا السؤال فعلاً وأنا مشغول الذهن بثيليا وبفيكتوريا أيضاً، لكن انشغالي بفيكتوريا كان أقلّ. "لأنكِ لن تعرفي ماذا ستلقين".

"بالطبع، أشعر بالخوف، لكني لا أبالي، ولِمَ؟ أينبغي لي أن أخشاكَ؟" كان في صوتها شيء من الذعر، ورأيتُ أنها كانت تنظر إلى يدي اللتَينْ كانتا ما تزالان على المقود. وسرعان ما زالت عنها كل سخرية، لأن التفكير في

الخوف جلب عليها الخوف، وكذلك إلحاحي. فكان أسهل إدخال فكرة أو خوف ما، أو احتمال ما في رأس الشخص آخر! فكل شيء ينتقل بالعدوى بسهولة بالغة، ويمكننا أن نقتنع بكل شيء، أحياناً تكفي إشارة بالموافقة للحصول على الأهداف، يكفي أن يتظاهر المرء بالمعرفة، أو يشتبه بريبة الآخر فينا، ليكتشفنا من غير رغبة منه بدافع الخوف، أو ليكشف عمّا نحتفظ به سرّاً. ثيليا أو فيكتوريا تخشاني الآن، وأنا أدرك خوف فيكتوريا، ولكنْ، كيف كانت تثأر منّي بصلات القربى غير الدموية التي تفرضها عليّ، أو كانت تفرضها عليّ، أو كانت فرضتها من غير رضا أو معرفة منّي؟ لكنْ، كيف لي أن أرضى؟ ربّما ستُقيم صلة قربى بي نفسي، قربى بين خابيير وفيكتور، نعم، في هذا ستحصل على الموافقة.

"لا، بالطبع لا"، قلتُ ضاحكاً. لكني لا أدري إن كان كافياً بعد أن تغلغل الخوف في ذهنها؛ لأن النساء يعلمنَ أن كل ما يحصلنَ عليه من الرجال ما هو غير تنازلات، هو تخلّ طوعي عن استعمال القوّة، هو استراحة عارضة للتّسلّط.، وأن هؤلاء يستطيعون سحب هذه التنازلات في كل لحظة.

"إذاً، لِمَ تسألني إن كنتُ لا أخشى صعود عربة مع مجهول، وكما صنعتُ منذ قليل حيالكَ؟" قد كان أفزعها تسلّل الخوف إلى نفسها، فكانت تحاول أن تنفضه عنها قبل أن تستقرّ في مكانها. ووضعت العلكة مرّة أخرى في فمها، وحسناً فعلت أنْ لم تلقِ بها. "هي رغبتي في العذاب. وأنتَ أيضاً غريب عنّي. ماذا تحسب نفسكَ؟".

وسألتُ نفسي: لِمَ أؤكّد ما هو واضح، إذا كنتُ أنا أنا، وكانت هي فيكتوريا؟ كنتُ أرى الآن وجهها وقد أضيء إضاءة سيّئة بمصباح منخفض الارتفاع ذي ضوء ضارب إلى الصفرة تحجبه الأغصان أو يتغلغل خلالها، كان يضيء وجه ثيليا، لكنه لا يضيء اسمها. كانت ثيليا حينئذ في الخامسة

والعشرين، وكانت فيكتوريا تقارب هذي السنين، أو تناهزها، فكانت في الثامنة والعشرين أو التاسعة والعشرين، وكأنّها كانت إنباء لأجل قصير، لم يتحقّق، بما سيكون عليه وضع ثيليا من ظهور الغضون الأوّل والإرهاق والخوف اللذين استقرّا في نظرتها، والتّنبّؤ بتحطّم حياتها، أو ربّما بحدوث صدع سيّئ فقط فيها، ومن زينة مبالغ فيها لشابّة جدّ شابّة، وثياب تكشف أكثر ممّا تستر، ونهدين ناهدين أبرزتهما تلك البَدَنَة البيضاء، وساقين مكشوفتَيْن تحت تنّورة صغيرة جدّاً، تحوّلت إلى خرقة بالية لكثرة الجلوس على مقاعد جانبية في شتّى السّيّارات الليلية، ومن ثمّ الركوع وحتّى الوقوف على أربع؛ وبتجلّي الخوف أو الاستياء على وجهها حسب الأوقات، وانطفاء الودّ أو اختفائه إرادياً منها، كانت تلك المرأة صفحت عنّي خلال مدّة طويلة من الوقت، وهي في تلك اللحظات كانت تصفح عنّي مرّة أخرى، مرتدية ممطراً لمّاعاً، ولا تفتر عن تحريك فمها حركة دائبة، وإطلاق الكلمات البذئية، وفي عينيها انطبع الليل الأسود والخوف أيضاً من يدي ومن رغبتي ومن أوامري الملحّة. فما أتعسكَ أن تعرف اسمكَ، وإن كنتَ لا تعرف وجهكَ اليوم، وستكون أقلّ معرفة به غداً! وضعتُ يدي المخيفة على فخذها، ولمستُ شريط الجِلْد الواقع بين الجورب والتّنّورة، وداعبتُ هذه المنطقة. "ألستُ أنا؟" قلتُ لها ممسكاً باليد الأخرى ذقنها، وفَتَلْتُ وجهها، وقد أرغمتُها على النظر إليّ وجهاً لوجه. فخفّضت بصرها غريزياً، وقلتُ لها: "انظري إليّ، ألا تعرفينني؟ قولي لي إنكِ لا تعرفينني". فتملّصتْ من قبضة يدي بحركة من ذقنها، وقالت: "اسمع، ماذا جرى لكَ؟ أنا لم أركَ في حياتي قطّ. الآن، نعم، سوف تثير فيّ الخوف. انظرْ: ليس من السهل عليّ أن أتذكر الناس كلهم، لكني على ثقة بأني لم ألقكَ من قبلُ، ولا أدري إن كنتُ سأظل معكَ في هذه المرحلة. لكنْ، ماذا دهاكَ؟" "كيف يمكن لكِ أن تكوني واثقة؟ كيف تعلمين أنكِ لم تلقيني؟

أنتِ نفسكِ قلتِ ليس من السهل لكِ أن تتذكّري الناس كلهم، فالوجوه تلتبس على فرد مثلكِ، أو على الأغلب، تصنعين ما أمكنكِ، كيلا تنظري إليها وتريها. وهكذا تستطيعين أن تتخيّلي نفسكِ أنكِ مع الرجل ذاته دائماً، مع خطيبكِ، أو مع زوجكِ، وأنا أرجّح أنكِ متزوّجة، أو كنتِ متزوّجة".

- "أتظنني لو كنتُ متزوّجة، أجيء إلى هنا؟ يا الله، ما أذكاكَ! بل على العكس من ذلك، نحن ننظر إليكم جيّداً جدّاً من الأمام ومن الخلف، كيلا نكرّر المحاولة، إذا انقلبتم بهائم، أو إذا وجدنا مقلباً سيّئاً. في لقاء رجل أوّل مرّة يمكن أن يحدث كل شيء، أمّا في المرّة الثانية، فهو غباء. في المرّة الأولى نرى ماذا يريد الرجل. وهكذا، قل لي ما قصدكَ، ولننهِ الأمر".

كان في نغمة الجملة الأخيرة ميل إلى الصلح مرّة أخرى، على الرغم من تسارع الكلمات. "أنا ضحيّة مقلب سيّئ"، قلتُ.

- "من الخير ألا تأخذ بصنعه متحدّثاً عن الخوف، وعمّا إذا كنتَ تخيفني، أو إذا كنتُ أعرفكَ".

- "أنا آسف!" قلتُ.

وساد صمت، وانتهزتْ هي الفرصة لتخلع الممطر - وكانت تلك إيماءة أخرى للتهدئة. - ولم تلقِ به على المقعد الخلفي بأي شكل، وإنما طوتْه، ووضعتْه بحرص وكأنّها في قاعة سينما. لم تكن ترتدي حاملة ثديَيْن، بينا ثيليا كانت ترتديها دائماً. "انظرْ!" قالت، "نحن هنا جميعاً مصابات بالهسترة. منذ حوالي شهر قُتل صبي التُقِط من شارع الأخوَيْن بيكر من المكان ذاته الذي التقطتَني منه، لذلك لا يقف المأبونون هنا، فهذا يصيبهم ببرد شديد، وتخلّوا لنا عن الناصية. حتّى إذا حدث لإحدانا حادث، فسوف نهرب حينئذ. والمكان مشبع بالتّطيّر. كان فتى شابّاً جدّاً، وناعماً جدّاً ورقيقاً جدّاً، وليس مثل هذين

الجلفين"، وأشارت بإبهامها إلى الخلف، كما كنتُ صنعتُ من قبل، "كان يبدو حقّاً كالبنت الصغيرة، وكان وصل حديثاً من بلدته مَلَقَا. وصعد سيّارة غولف كهذه السّيّارة سوى أنها بيضاء، وجاء أحد هذه الشوارع، ليشبع نزوة بعض أبناء القحبة، وفي اليوم التالي، عُثر عليه مُلقى به على الرصيف مهشّم الرأس ممتلئ الفم بالدم. وكان ما يزال لا يعرف السير بالكعب العالي، وكان المسكين في الثامنة عشرة من عمره. وماذا جرى بعد؟ اضطُررنا في الليلة التالية إلى الخروج مرّة أخرى، وننسى هذا الشّابّ، وإمّا لا، فلن نخرج، لا نحن ولا هم. وهكذا ليست الأمور كيما تبادرني بإثارة الخوف، أو إن كنتُ أعرفكَ، أو لا أعرفكَ، لا أدري إن كنتَ تفهمني".

لا يمكن لها أن تكون ثيليا، فكّرتُ، فلربمّا رأى رُوبِرِّث أو أصدقاؤه في العاهرة فيكتوريا طبقاً لها، ولربمّا أرادوا التفكير أنهم بصددها، لعلّهم يحسبون أنفسهم يواقعون ثيليا بدفع أجر لها، إذا صنعوا ذلك بفيكتوريا، وما كان يمكن لها أن تتغيّر كثيراً في المظاهر الأخرى، ولا يمكن لها أن تكون هي، اللهم إلا إذا موّهت نفسها تمويهاً دقيقاً متقناً باختلاق قصص لتخيفني، وتجعلني أزيد اهتمامي بها حتّى أبلغ مدى أريد فيه أن أنقذها من تلك الحياة، ومن تلك الأخطار لإعادتها إليّ، لئلا تضطرّ إلى المجيء إلى هنا، ولا إلى أي مكان آخر، ولا إلى شارع الأخوَيْن بيكر سيّئ الحظّ. (هي كانت قالت: أتحسب أني لو كنتُ متزوّجة، أجيء إلى هنا؟ يا لله، ما أذكاكَ!) لم أقرأ شيئاً في الصحف عن ذلك المأبون الصغير المهشّم الرأس فوق الرصيف، فقد كان من عادتي أن أقف عند أمثال هذه الأخبار بحكم عملي. كانت ثيليا خصبة الخيال قليلاً، وكذوباً قليلاً، لكنْ، ليس إلى هذه الحدود، ولم يكن من عادتها اختراع قصص الكوارث، بل كانت ذات طباع متفائلة مرحة. وفكّرتُ، مع ذلك، لو كانت هي هي، فقد أتى عليها في الواقع حين من الدهر وهي تمارس الدعارة، وأصبحت بالتالي عاهرة، ولعلّها عرفت

هذا الوسط، وليست مضطرّة إلى اختلاق شيء، وهذا يفسّر طريقتها الفظّة وكلامها الخشن وقولها الجاف، وكل شيء ينتقل بالعدوى، في الواقع، هي لا تتصنّع شيئاً تصنّعاً. فكيف يمكن لي أن تساورني الشكوك؟ وكيف يمكن لي ألا أتثبّت إن كنتُ مع امرأتي أو مع عاهرة (مع امرأتي التي صارت عاهرة، أو مع عاهرة، أحسّ بها كأنّها زوجي القديمة)؟ كنتُ عشتُ معها ثلاثة أعوام، وكنتُ على صلة بها لمدّة عام آخر من قبل، كنتُ معها، وأستيقظ يوميّاً، وكنتُ رأيتُها من الزوايا كلِّها، وعرفتُ حركاتها كلها، وسمعتُها تتكلّم خلال ساعات طوال تحت كل شكل من الطباع المتخيّلة - كنتُ نظرتُ إلى عينيها في أزمنة أخرى وهي مستلقية على المخدّة. لكني أصبحتُ لا أراها منذ أربعة أشهر أو خمسة فقط، وما أكثر تغيّر الناس خلال هذه المدّة، إذا كانت مدّة غير طبيعية، يسودها الشذوذ أو المرض أو العذاب أو إنكار كل ما كان من قبل! وشعرتُ بحزن مباغت لاحتمال خلوّ جسمها من أيّة ندبة جرح أو حزّ أو شامة واضحة جدّاً، إذاً، لكنتُ نقلتُها إلى البيت على علاتها، كيما أعرّيها عرياً كاملاً مخاطراً بالتّثبّت من ظنوني. أو ربّما ما كنتُ أتذكّر هذه العلامات المميّزة في جسمها، فالإنسان نَسيّ، ولا يتثبّت قطّ كثيراً من شيء. ولِمَ ينبغي لي أن أصنع ذلك، إذا كنتُ لا أجد شيئاً كما هو؟ فلا شيء مستقرّ في كيانه، ولا هو بدائم؛ لا شيء يدوم، ولا يتكرّر، ولا يتوقّف، ولا يلحّ، والحلّ الوحيد لذلك أن ينقضي كل شيء، ولا يبقى شيء، وهو حل ما كان يبدو (للوحيد) سيّئاً أحياناً تبعاً لما قاله على شكل عَدَمي. بل العكس صحيح، كل شيء يسير متسلسلاً من غير انقطاع، هي أشياء تجرّ أشياء أخرى، وتجهل بعضها البعض، وكل شيء يرحل صوب تلاشيه ببطء، ما إن يحدث، بل حتّى في أثناء حدوثه، أو بانتظار أن يحدث حتّى لو لم يحدث، ونتذكّر ما هو قيد المستقبل على أنه ماضٍ، وربّما انتهى الأمر به حتّى لا يتمّ، فنتذكّر ما لم يكن. كل شيء يرحل ما عدا الأسماء سواء أكانت

حقيقية أم مزيّفة، بل تظلّ محفورة دائماً في الذاكرة، كأنّها منقوشة على لوح حجري، مثل ليون سوارث آلداي أو مارتا تييّث آنغولو، ولربمّا نُقش اسم مارتا، ولن يكون مختلفاً عن نقش صاحب قبر 1914. ولربمّا كنتُ علمتُ أن فيكتوريا هي ثيليا، لو أجابتني فيكتوريا أن اسمها (ثيليا)، لمّا سألتُها عنه. ولربمّا كنتُ أجبتُها أن اسمي فيكتور، لمّا سألتني عنه. إذاً، لكنّا تعارفنا، وتعانقنا، ولَمَا كنّا ذهبنا إلى شارع فورتوني تحت ظلال الأشجار التي ما تزال وارفة، وبوجود مصباح أصفر اللون، بل كنّا ذهبنا إلى بيتنا القديم الذي صار بيتها الآن وحدها، أو كنّا ذهبنا إلى بيتي الجديد، وما كان ليحدث شيء ممّا هو حادث في سيّارتي، ولَمَا كنتُ أثرتُ الخوف فيها.

- "نعم، أفهمكِ، ومعذرة"، قلتُ، "أكنتِ تعرفين هذا الشّابّ؟". "لا وإنما التقيتُه في هذه المنطقة مرّة أو مرّتَيْن فقط، وتبادلنا بعض الجمل، كانْ يجرّ كعبيه العاليَيْن، وكأنّ الحذاء متشبّث بقدميه لنقص في العادة، أو على الأغلب، لأنه مريض. كان يبدو هشّاً، ويسير تائهاً. كان جميلاً جدّاً وخجِلاً جدّاً ومهذّباً كثيراً، وكان يشكر دائماً كلّما سأل سؤالاً". ولبثت فيكتوريا متفكّرة للحظة، وداعبت بسبّابتها طرف أحد حاجبيها، كما كانت تصنع ثيليا رويث كومندادور، لمّا كانت تقف وسط جدل أو حكاية للتفكير في الكلمات التالية، أو كانت تبحث عنها لتُحسن اختيارها. ومع ذلك، لم تبد لي المصادفة حاسمة في تلك اللحظة. "كان ينتمي إلى نوع من الأشخاص، إذا نُظر إليهم جيّداً، لبدا طبيعياً ألا يعيشوا طويلاً، هم يُلمَحُون من بعيد، ويبدو أنهم فائضون عن الحاجة، وكأنّ العالم لا يطيق وجودهم، وهو على عَجَل لطردهم. إذاً، ربمّا كان من الخير ألا يُولَدوا، لكنهم، في الواقع، يُولَدون، وها هم هنا، ويثير الرعب أن يموت الناس الذين يعرفهم المرء، وإن كانت معرفته بهم بسيطة، ولا يُفهَم زوال مَن كان موجوداً، أنا على الأقلّ، لا أفهم ذلك،

كان يدّعي أن اسمه: فرانيّ، وأنا أحسبه فرنسيسكو. إنه موت رقيق". وأبدت لي الآن فيكتوريا قفاها، لمّا التفتت بوجهها صوب الشارع الذي كنّا نُوقِف العربة قربه. ولعلّها كانت تتصوّر رأس ذلك المأبون، مهشّماً على هذه الأرض ذاتها، أو على أرض أخرى قريبة منها. "الموت الرهيب، الموت المضحك"، فكّرتُ، "الموت والرأس بين الفخذين في اللحظة ما قبل الأخيرة، واحتقار الميّت لموته ذاته. لعنة أيّة لعنة! والآن صار ينبغي لي أن أتذكّر أيضاً هذا الاسم الذي لا أعرف وجه صاحبه. ولبثتُ أنا أيضاً صامتاً بينا كنتُ أفكّر فيه مستنداً بمرفقي إلى المقود، وأحكّ بالإبهام أسفل الشفتَيْن، لكنّ ذلك دام زمناً قصيراً. فلربّما كنّا نُراقَب من بعيد، من مَحرَس السفارة الألمانية المظلمة.

"ما رأيكِ لو رجعنا إلى المقعد الخلفي؟"، قلتُ لفيكتوريا، لأخرجها من أحلام يقظتها، وأقطع تلك الحركة من سبابتها، وضعتُ يدي على كتفها، ثمّ داعبتُ نقرتها. "ما يزال ينبغي لكِ أن تكسبي رزقكِ"، وأشرتُ إلى الحقيبة.

نظرتْ إليّ، ولفظت العلكة؛ فتحت هذه المرّة النافذة، ورمتْ بها إلى الرصيف.

متعب أن تتحرّك في الظلام، وتتجسّس من غير أن تُرَى، أو محاولاً ألا تُكشَف، كما هو متعب الحفاظ على السّرّ، أو الحصول عليه. ما أتعب العمل السّرّيّ والشعور الدائم بأن المقرّبين منّا لا يمكنهم أن يعلموا جميعاً الشيء نفسه، فنحن نخفي عن صديق شيئاً، ونخفي عن صديق آخر شيئاً مختلفاً، يكون الأوّل على علم به، ونخترع من أجل امرأة قصصاً معقّدة، فينبغي لنا، من ثمّ، أن نتذكّرها دائماً تفصيلاً، وكأنّنا عشناها مع المخاطرة بأن نشي بأنفسنا في وقت لاحق، ونقصّ على امرأة أحدث عهداً، حقيقة كل شيء ما عدا تلك الأشياء التي لا غناء فيها، ونشعر بالخجل من أنفسنا منها: كقدرتنا على قضاء ساعات طويلة في الفرجة على مباراة كرة قَدَم في التلفاز، أو على المسابقات السخيفة، وكقراءتنا ترّهات، وإن كنّا كباراً، أو كاستلقائنا على الأرض، لنلعب (وجهاً وقفا)، إذا وجدنا مَن يلاعبنا، أو هلاكنا في القمار، أو إعجابنا بممثّلة، نعلمها بغيضة، وحتّى مصيبة من المصائب، أو كأنْ نكون في مزاج رديء، وندخّن عند استيقاظنا من النوم، أو كتَخيُّلنا ممارسة جنسية، تُعدّ شاذّة، ولا نجرؤ على طرحها. ولا يكون الإخفاء دائماً بسبب مصلحة ذاتية أو خوفاً، أو بسبب ارتكاب خطأ حقيقي، وليس هو دائماً إنقاذاً للنَّفْس، وإنما نخفي الأشياء أحياناً كثيرة، كيلا نثير الاستياء، أو نُعكّر الصفو، أو نُلحق الضرر، وأحياناً أخرى بدافع حضري محض، فليس من حسن التربية ولا الحضارة الانكباب على معرفة كل شيء، فضلاً عن تعلّم الجنون والنقائص. ما يُسكت عنه أحياناً، أو يُزوّر

هو الأصول، لأننا جميعاً تقريباً نؤثر نَسَباً مختلفاً، يأتينا من أحد أصولنا، فالناس يُخفون آباءهم وأجدادهم وإخوتهم، يُخفون أزواجهم أو نساءهم، وأحياناً أبناءهم الأشكل بهم، أو الأشكل بأحد الزوجين، يسكت المرء عن إحدى المراحل في حياته ذاتها، كأن يُبغض شبابه أو طفولته أو كهولته، ففي كل مرحلة من الحياة حدثٌ معيب أو محزن أو مشؤوم قليلاً أو كثيراً - أو كُلّيّاً - يرى الآخرون خيراً بألا يكون، ويرى المرء ذاته خيراً في ألا يزوّره. نحن نخجل من أشياء جمّة، نخجل من مظهرنا ومعتقداتنا السابقة، من سذاجتنا وجهلنا، ومن الخنوع أو الكبرياء التي نُبديها ذات مرّة؛ نخجل من أن يحبّنا مَن أحببناهم، أو نكون أصدقاء مَن صادقناهم، وحياة الناس هي غالباً خيانة وإنكار متواصلان، لما كان من قبلُ، فينقلب كل شيء ويتشوّه تبعاً لمرور الزمن، ونظلّ مع ذلك، مهما نخدع أنفسنا، على وعي بأننا نحتفظ بأسرار، وننطوي على أسرار، وإن يكن معظمها تافهاً. ما أشقّ التّحرّك في الظلام! بل هناك ما يفوقه مشقّة، هو التّحرّك في الغبشة التي لا تعرف تجانساً قطّ، وليست أطرافها سواء، فيرى كل شخص فيها مناطق مضاءة، ومناطق أخرى مظلمة، وتأخذ بالتّغيّر تبعاً لمعرفته وللأيّام والمحادثين والأطماع، ونقول لأنفسنا دائماً: "أصبحتُ غير ما كنتُ، وأوليتُ (أناي) القديمة ظهري". وكأنّنا نعتقد أننا مختلفون عمّا كنّا نحسب أن نكون، لأن المصادفة وسير الزمن الأهوج تغيّر الظروف الخارجية وثيابنا ذاتها، كما قال (الوحيد) ذلك الصباح، لمّا شرع يشرح أفكاره من غير نظام: "أو أن دروبنا وطُرُقات جهدنا الملتوية ما يغيّرنا، ونحسب ذلك من فعل القدر، وينتهي بنا المطاف إلى رؤية حياتنا على ضوء آخر شيء أو أحدثه عهداً، وكأنّ الماضي كان بمثابة تحضير فقط، ثمّ نأخذ بفهمه، كلّما ابتعد عنّا حتّى نفهمه في النهاية فهماً كاملاً". لكنّ الثابت أيضاً هو أننا كلّما مرّ الزمن وتقدّم العمر بنا، يقلّ ما نُخفيه، ويكثر ما نستردّه ممّا

أصبح مَلغيّاً ذات مرّة جرّاء التعب وفقدان الذاكرة أو ما يقرب من هذا المصطلح. والعمل في الخفاء والسّرّ والظلام يتطلّب ذاكرة لا تخيب، تتذكّر مَن يعرف الـ (ماذا)، ومَن لا يعرف، ويعرف (لِمَ) يجب التمويه إزاء كل امرئٍ، تتذكر مَن يعلم قفا كل شيء، وكل خطوة مسمومة، وكل خطأ وجهد ووخزة ضمير ومتن الزمن الأسود. نقرأ أحياناً أن أحداً ما أقرّ بجريمته بعد أربعين عاماً من ارتكابها، وأن أشخاصاً يسلكون حياة محترمة، يسلّمون أنفسهم للعدالة، أو يكشفون على انفراد عن سرّ يدمّرهم، ويحسب السّذّج وأهل الصلاح ورجال الأخلاق أن هؤلاء غلب عليهم الندم أو الرغبة في التّطهّر أو عذاب الضمير، في حين أن ما غلب عليهم وحرَّكهم إنْ هو غيرُ التعب والرغبة في أن يكونوا منسجمين وأنفسهم، وعجزهم عن متابعة الكذب أو السرقة، وليتذكّروا ما عايشوه وصنعوه وما تخيّلوه أيضاً، ليتذكّروا حيواتهم المبدّلة أو المختلفة علاوة على حيواتهم التي عاشوهم حقّاً، ولينسوا ما قد حدث فعلاً، وليستبدلوا به ما هو متوهّم. والتعب وحده الذي يجلبه الظلام ما يدفع أحياناً إلى قصّ الأحداث، كما يكشف عن نفسه مَن كان يجلبه، يستوي في ذلك المُطارِد والمُطارَد، لكي تنتهي اللّعبة ببساطة، وليخرج ممّا تحوّل إليه بنوع من السِّحْر. كما كشفتُ عن نفسي للويسا ذلك المساء بعد أن تبعتُها عند خروجها من المطعم! أو ليس كذلك؟! وإنما بعد أن رافقْنا كلانا تيبّث حتّى بوّابة بيته. وصلنا نحن الثلاثة سيراً على الأقدام لقُرب المسافة، كنّا أنا وهي نحيط بالشكل الذي يتأرجح كإشارة ضوئية طافية، فوق قدمين صغيرتَيْن، تشبهان قدمي راقص متقاعد، لحسن الحظّ، لم يكن تأرجحه، كما كان في المقبرة، فهذا اليوم. لم يكن العمر وحده ولا كبر حجمه ما يفقده توازنه. وهناك ودّعنا بعضنا بعضاً جميعاً، ورأينا كيف فتح الأب باب المصعد القديم، وجلس على مقعد عتيق، ليستريح خلال المسافة القصيرة العمودية، واختفى داخل الصندوق

الخشبي صعوداً إلى فوق كآلهة عطشى منتصبة، حينئذ قالت لي لويسا: "حسن، إلى اللقاء!"، وأجبتُها، "سنواظب على لقاءاتنا" أو بشيء من هذا القبيل، وكنّا كلانا نفترض أننا ربمّا التقينا خلال بقية الأسبوع التي سآتي بها للعمل لصالح تييّث في ذلك البيت.

شرعتْ هي تسير باتّجاه، وتظاهرتُ بسلوك اتّجاه معاكس، لكني توقّفتُ بعد خطوتَينْ أو ثلاث خطوات، ورجعتُ على عقبي. ولمّا رأيتُها تبتعد مولية ظهرها، وبدت لي ساقاها شبيهتَينْ بساقي أختها مارتا - (أو ربمّا كان الشبه في طريقة المشي، وليس بشكل الربلتين) - عزمتُ على أن أتبعها لهنيهة، إلى أن أضجر أو أتعب. اجتازت بخطى ثابتة زوجاً من كتل الأبنية، وكأنّها تعلم إلى أين تتّجه من غير عجل، أو لم تخفّض من سيرها إلا لمّا سلكت شارع بلاثكيت، وبدأت تميل ميلاً قصيراً نحو واجهات المحلات، أوّلاً مدى ثوانٍ معدودات، وكعبها مائل والأرض مبلّلة - كَمَن يحدّد أمكنة، ويفكّر في التدقيق فيها بإمعان في يوم آخر، ثمّ زادت من مدّة وقوفها - وكعباها مستقيمان والأرض مبلّلة - إلى أن دخلت أخيراً محلاً لبيع الملابس، وتذكّرتُ حينئذ أنها كُلِّفت بشراء هدية لمارتا فرناندث بيرا زوج أخيها، بمناسبة عيد ميلادها، ووقفتُ بحذر كبير أمام هذا المحل، وواتتني الجرأة على أن أرقب داخله من إحدى زوايا الواجهة، خاصّة لمّا رأيتُ لويسا تولي الشارع ظهرها بينا كانت تكلّم إحدى الموظّفات. ثمّ قصدتْ جهة التنانير، وأخذت تنظر إليها وتلمسها بصحبة الموظّفة دائماً - وهي من تلك الشّابّات اللاتي لا يدعن مجالاً للزبون بالتفكير باندفاعهنّ أمام بصره. وكانت تُخرج لها قِطَع الملابس التي كانت ترفضها لويسا بإيماءة من رأسها، إلى أن تناولت أخيراً إحداها، وغابت داخل كبينة التجربة. كانت إمّا مهملة أو شديدة الثقة بالناس، فتركت حقيبتها خارجاً فوق ما كان منضدة من زجاج أكثر ممّا هو منصّة، وبعد دقيقتَينْ اثنتَينْ، ظهرت

مرّة أخرى لابسة التّنّورة مُدخلة البلوزة فيها. لم تكن مناسبة لها جيّداً، فقد كانت طويلة جدّاً، ولونها غير مستساغ، ومع ذلك، كانت تليق بها خيراً من تنّورتها. وخطت خطوتَيْن إلى الأمام وإلى الخلف بينا كانت تتراءى في المرآة - ما تزال بطاقة التسعير معلّقة - نظرت إلى نفسها إلى جانب، ونظرت إلى الخلف، وبحركة منها، رأيتُ أنها كانت تخلعها، فانسحبتُ من موقعي الذي أتجسّس منه، وابتعدتُ، وأخذتُ أتحرّى أحد الأكشاك إلى أن تخرج لويسا، واضطررتُ إلى شراء صحيفة أجنبية، ما كانت تهمّني في شيء. نظرت إلى ساعتها لمّا صارت في الشارع، ربّما كانت تبدّد الوقت من أجل صنع شيء آخر، فما كانت تبدو لي التّنّورة هدية ملائمة، يهديها تييّث إلى كنّته، ولسوف يتبيّن بوضوح أنه لم يبتعها، وإن كان هذا الأمر غير هام. تابعت لويسا تقدّمها في شارع بيلاثكث، ولمّا وصلت إلى ناصية شارع ليستا، أو على الأصحّ أورتيغا إيغاسّيت (تغيّر اسم هذا الشارع منذ مدّة بعيدة. لكن الاسم القديم ما يزال سائداً، وهو ما يُعرَف به، فيا لسوء حظّ الفيلسوف!)، ودخلت إحدى مؤسّسات البيع الكبرى، وهي فسيحة جدّاً متنوّعة المواد، ممّا يتيح لي الدخول أيضاً إثرها، فأرقبها من بُعد، من غير أن تراني إذا تحرّكت بحذر. رأيتُها تنظر إلى قسم الكُتُب، وتناولت أحدها، وراحت تقرأ طيّة الغلاف الداخلية، أو صفحة العنوان على شكل مائل، ثمّ أعادته مرّة أخرى إلى الكومة، ولم تبلغ أن تتصفّحه (في هذه الأمكنة وحدها تقريباً نجد هذه الطرافة، وكثير من الكُتُب مغلّف بالسيلوفان، وهذا شيء مملّ)، وأخيراً، أخذت أحد الكُتُب، ولم أستطع في البداية أن أرى ما هو، ثمّ مضت إلى قسم الأُسطوانات، وظللتُ أنا بعيداً عنها موليها ظهري متظاهراً أني أنظر إلى أفلام الفيديو، ملتفتاً برأسي من حين لآخر، كيلا تغادر المكان من غير أن ألمحها. وانتابتْني لحظة من الذعر، لمّا رفعتْ بصرها فجأة إلى حيث كنتُ أقف، فأخذتُ فيلماً كيفما اتّفق لي، وكأنّني

كنتُ أتقصّد شراءه كيلا أبدو بطّالاً جداً. إنها حركة محالة، لأن نتيجة ما كنتُ أصنعه واحدة سواء اكتشفتْني أم لم تكتشفني، لكن لويسا لم تكن على عجلة من أمرها، أو أنها كانت ما تزال تبحث عن هديّة، وبعد دقائق معدودات، مضت والكتاب في يدها إلى قسم الأغذية من غير أن تبتاع أيّة أسطوانة، وانتقلتُ أنا حاملاً فيلم الفيديو إلى قسم الصحف، وشرعتُ أتصفّحها ناظراً بمؤخّر طرفي، وعلى الأصحّ واقفاً وراءها دائماً، وهي القاعدة الوحيدة الثابتة لمَن يلاحق أحداً. وفكّرتُ حينئذ أنها قد لا تتأخّر في العودة إلى بيتها، أو إلى بيت ديئان (في العودة إلى بيت، أي بيت كان)، لأنها أخرجت إناءين كبيرين من آيس كريم هاجّن - داس من الثلاجة، ولمّا فتحت البويب الزجاجي الشفّاف، رأيتُ وجهها محاطاً ببخار بارد مدّة ثوان معدودات، وهذا ما جعلها تتردّد في اختيار النوع، وتشكّلت سحابة من ضباب، جعلتها تبدو محمرّة من الخجل. ولو أبطأت في العودة إلى البيت، فلسوف يذوب الآيس كريم الذي كان من ذات النوع الذي كانت قدّمته لي مارتا على العشاء البيتي، وها هي لويسا تبتاعه أيضاً، لتقدّمه للطفل الذي يحبّه، وكلتا الأختَيْن كانت تؤمّنه له - مارتا اعتمدتْه حلوى مرتجلة بعد الطعام، فما كانت تعلم أنها ستدعو أحداً حتّى المساء .، لكن المثلّجات في الشتاء لطفل جدّ صغير أمر غير حكيم، صحّحتُ تفكيري فوراً، وإن كنتُ لا أملك فكرة كبيرة عمّا يأكله الأطفال في هذه السّنّ، ولا أيّة سنّ أخرى، وينبغي للويسا أن تتعلّم ذلك إن كان عُرض عليها أن تكفل الطفل. كان ذلك لمّا سألتُ نفسي عن هذا الطفل وبصحبة مَن ظلّ تلك المدّة، فلا يمكن للأطفال أن يظلّوا وحيدين في تلك السّنّ - وهذا ما أعلمه - إلا إذا كانوا نياماً، مثلما حدث تلك الليلة في شارع كونده ديلاثميرا، لمّا انصرفتُ وتركتُه حقّاً وحيداً، ولم يحدث له مكروه. ربّما وُضع مؤقّتاً في عهدة خاله غيّرمو وزوج خاله ماريا فرناندث بيرا، بينا كان ديئان ولويسا

يتغدّيان مع تييّث لبحث مستقبله، وقد حلْتُ بينهما وبين ذلك جزئياً بحضوري. ابتاعت لويسا أيضاً كمّيّة من السجق الجيّد وبعض البيرة المكسيكية ماركة كورونيتا، ولربّما كانت تنوي أن ترتجل أيضاً عشاء بهذه العناصر البسيطة جدّاً، لكنها لن تتناوله معي، فقصدتِ الصندوق لتدفعَ، وكنتُ أقفو أثرها، فمضيتُ إلى القسم الذي كانت غادرتْه، فأخذتُ أيضاً علبة من الآيس كريم من الثلاجة، ورأيتُ نفسي محاطاً بالبخار، ثمّ وقفتُ في الصّفّ أمام الصندوق، كيلا يفصلني عنها زبن كثيرون، بكلامٍ آخر، كيلا تغيب عن ناظري متى خرجتْ. لحسن الحظّ، كان يقف بيني وبينها زبون واحد، ولم يكن هذا الزبون طويلاً، فما كان يحجبني عنها. وظللتُ قريباً جدّاً منها، وكنتُ أرى قفا رقبتها بوضوح (لحسن الحظّ لم تلتفت التفاتاً مفاجئاً). رأيتُ حينئذ عنوان الكتاب الذي اختارتْه، وكان (لوليتا). رائع! لكنه بدا لي في هذه الظروف غريباً قليلاً، ولم يكن هدية موفّقة لكنّتهم. وأنا أيضاً لم أتنبّه إلى الفيلم الذي حصلتُ عليه من غير أن أختاره، إلا لمّا كنتُ أدفع ثمنه وثمن الآيس كريم، وكان بعنوان: مئة كلب دلماسي، وكلب واحد بالصور المتحرّكة، وما كنتُ أهتم به أدنى اهتمام، لكني ما كنتُ أسمح لنفسي بأن أهرع، لأُبدله آخرَ، فقد خرجت لويسا تييّث، وانحدرت في شارع ليستا باتّجاه لاكاستيّانا، وغاصت في شارع جديد قبل بلوغها شارع سيرانو، ودخلت أحد محلات بيع الملابس ذا واجهات زجاجية ضخمة، فإذا أردتُ مراقبتها، عرّضتُ نفسي كثيراً للخطر بأن أُكتشَف، وكان بمستطاعي الانتظار في حانة قريبة، لكني كنتُ أؤثر مراقبتها، وهكذا عزمتُ على المرور من حين لآخر من أمام المحلّ ملقياً نظرات، من غير أن أقف، وكأنّني أحدٌ ما في فيلم يغيب عن مجال الرؤية فيه، ويظهر مخترقاً الشاشة من طرف إلى آخر، وهكذا هو حالي لو أمعنتِ النظر بالمصادفة، ورأتْني. ولسوف تنظر إليّ أوّل مرّة تراني فيها على أنها المرّة الأولى التي أعبر فيها

هذا الشارع المركزي بالمصادفة، وهناك مصادفات أغرب من هذه المصادفة. كان بلاط الرصيف قد خُسِف قليلاً في ذلك القسم، وتشكّلت برك مائية، وكان ينبغي لي كلّما مررتُ أن أتحاشاها، وكلّما فعلتُ ذلك، كنتُ أنتهز فرصة التّوقّف الصغير، لأنظر صوب الداخل نظرة خاطفة. كانت لويسا تكلّم العاملات الفارغات من العمل، وكانت تلمس كل شيء، وتفحص كل شيء، فقد كانت متردّدة .. تناولت تنّورة أخرى ونوعاً من قميص داخلي أنيق (وتحقّقتُ من أناقته لمّا رأيتُه لاحقاً)، واتّجهتْ صوب حجرة التجريب تاركة مرّة أخرى حقيبتها اليدوية وحقيبة المشتريات، وانتظرتِ العاملات حتّى تخرج وهنّ يتثاءبنَ واقفات عاقدات أذرعهنّ على صدورهنّ، فلم يكن لديهنّ زبن آخرون ذلك المساء المضطرب، وكنّ يلبسنَ ثياباً من بضاعة المحلّ ذاتها، وتنبّهتُ فوراً إلى أن المحل هو /آرماني/ المركز التجاري العالمي. أخذ التعب يدبّ إليّ بسعيي من هذا الجانب إلى ذاك، (أخذتُ أخفّف من حركتي)، لمّا خرجت لويسا مرتدية التّنّورة والقميص الداخليّ، كانت التّنّورة قصيرة جدّاً، وذات لون أحمر، وتليق بها لياقة كاملة، بل هي أفضل من تنّورتها ذاتها. وخرجتُ فوراً من مجال رؤيتها، وانتظرتُ الآن أكثر من دقيقة كيما أمرّ مرّة أخرى، ولمّا مررتُ أخيراً، رأيت لويسا تقوم بحركة مزدوجة: فقد بدأت دورتها كيما تعود إلى غرفة التجربة بعد أن تراءت في مرآة، وشرعت تخلع في طريقها إليها القميص الأنيق ذا اللون الخام. بلغتُ أن أرى حاملة الثديَيْن رافعة يديها وكمّاها مقلوبان، فرأيت إبطيها الناعمين النظيفين، لم أستطع أن أتحاشى الإمعان في النظر إليها، فغاصت قدمي اليمنى في الحفرة، فتشرّب الحذاء ماءً، وشعرت به في جوربيّ وفي جسمي، وكان عذاباً حقيقيّاً، بل مِن أكثرها سوءاً. ولمّا رفعتُ بصري، كانت اختفت في حجرة التجربة، لكني صرتُ الآن أعلم علم اليقين أن المرأة التي كانت تخلع ثوبها في مخدع مارتا وتنظر من النافذة

في الليلة التالية لزيارتي، لم تكن غير الأخت لويسا تييّث نفسها، وهي التي كانت نظرتْ بالتالي من عل. بينما كنتُ أقف قرب سيّارة الأجرة متظاهراً بأني كنتُ أنتظر نزول أحد ما، ومفكّراً خلال ثانية أن ذلك الظلّ يمكن أن يكون مارتا حيّة. لقد فكّرتُ في ذلك، وأنا على علم بأنه محال. إحداهما كانت تحتفظ بالآيس كريم في البيت، والأخرى كانت تبتاعه الآن، الأولى كانت تلبس قميصاً داخلياً مشجّراً من صنع آرماني، وقد ساعدتُها على خلعه، والأخرى كانت تجرّبه الآن أمام عيني ذاتهما، كنتُ ما أزال تحت وطأة سِحْر، فكّرتُ، أو أن السِّحْر كان في اطّراد، لكن القميص الجديد ربّما كان مُهدى إلى الكنّة من حميّها تييّث المتموّل الذي راكم ثرة منذ عهد فرانكو. ورأيتُ لويسا تدفع الثمن بطاقة ائتمان، وقد وضعت كل مادّة في كيس، وتنحّيتُ بضع خطوات، لأتبعها ما إن تخرج من المحل: فعادت إلى شارع أورتيغا إيغاسّيت أو ليستا وبلغت لاكاستيانا، هذا المنتزه الذي يشبه نهراً في المدينة، وهو شريط طويل على شكل خطّ تقسيم مياه ضفتاه محفوفتان بالأشجار، لكنّه شديد الاستقامة، ومن غير انعطافات ولا ماء، وإنما كله إسفلت وأرصفة غير مرتفعة. وكانت العاصفة اقتلعت إحدى تلك الأشجار، بل قصمتْها من قاعدتها، وتناثرت الشظايا على أرض الشارع، ولا ريب في أن العاصفة التي شاهدناها من المطعم كانت عنيفة حقّاً، تتخلّلها ريح كالإعصار، اللهم إلا إذا كانت الشجرة سقطت منذ أيّام عدّة ولمّا تُرفَع، ففي مدريد، لا يسدّ النواقصَ أحدٌ فوراً، وأغصانها لما تُقطَع. وأيّاً يكنِ الأمر، فقد انقلبت جهة المنتزه، وليس جهة الإسفلت المزدحم دائماً بالعربات كأنّها نهر. ولربّما قتلت أحد عابري الطريق. لم نكن بعيدين عن شارع الأخوَيْن بيكر، أي عند الناصية في شارع لاكاستيانا التي التقطت منها منذ ما يزيد عن سنتَيْن فيكتوريا، ثمّ أعدتُها إليها في ساعة متأخّرة من الليل، لأنها كانت طلبت أن أضعها في المكان

ذاته الذي أخذتُها منه، وهذا ما صنعته. ولمّا عدنا إلى احتلال المقعدين الأماميَّيْن في عربتي الرابضة في شارع فورتوني، شككتُ قبل أن أشغلها في أن أعرض عليها كسب مزيد من النقود، فأدعوها إلى منزلي حتّى الصباح: فلو كانت ثيليا، فلسوف تشعر بالضيق والكآبة، ولو كانت فيكتوريا، لكانتْ قبلت مسرورة، قضاء ليلة ثلاثاء كاملة، والعدّاد شغال، ليست ليلة مألوفة، وإنما هي حسن حظّ عظيم. لم أعرض عليها شيئاً مع ذلك، ربّما كيلا أتيقّن من حقيقتها مرّة أخرى، أو ربّما كيلا أتذكّر وجهها في مخدعي، فمن الصعب طرد الأشباح التي استقرّت في حجراتنا.

- "أتريد شيئاً آخر؟" قالت لي بينا كنتُ أفكّر؛ وهو السؤال الذي يُسأله المرء في المحلات التجارية.

- "وأنتِ، أتريدين شيئاً آخر؟" أجبتُها مجرّباً حظّي.

"آه!" أجابت بدهشة خفيفة وانتقام، "تذكّرْ أني هنا من أجل تنفيذ ما تقول، فأنتَ صاحب الأمر". كانت أخذت المعطف من المقعد الخلفي، لكنها لم تلبسه بعد، وإنما وضعتْه مَطويّاً بعناية فوق فخذيها شأن مَن يتأهّب للانصراف، فلم أقل شيئاً. وأخرجتْ حينئذ علكة أخرى من حقيبتها، وبينا كانت تفلشها، أضافت ساخرة ناظرة إلى العلكة المستطيلة الشكل الصغيرة: "تذكّرْ أنكَ تستطيع حتّى أن تقتلَني". سمحتْ لنفسها بهذا التعليق الآن، لأنها صارت مطمئنّة، وأصبحت لا يساورها أدنى خوف، فهي كانت قالت: "نحن نعرف منذ اللحظة الأولى، من أيّ طينة - أنتم الرجال". وقد كانت عرفتْ طينتي.

- "ما أشأمكِ!" أجبتُ، وكان ذلك لمّا شغّلتُ المحرّك كتتمّة لجملتها أو كخاتمة لها. وأدّت الضوضاء إلى إشعال الضوء في مَحرس السفارة

الألمانية، لكنه سرعان ما غرق في الظلمة بعد ثانية واحدة. ولعلّ الحارس لم يتنبّه إلى وجودنا، ولعلّه كان غافياً، فأيقظه مفتاح التشغيل من حلم مزعج. "أين تريدين أن أدعكِ؟".

"حيث لقيتَني"، أجابتْ، "فأنا لمّا ينقضِ ليلي"، ووضعت العلكة في فمها: هذه المرّة كانت برائحة الفريز التي اختلطت بروائح العربة الأخرى، وكانت الآن روائح جديدة ونفّاذة.

مكتبة t.me/ktabrwaya

لم آبه بما كانت قالتْه مؤخّراً، أي لم يخطر لي أن أفكّر في شيء كهذا، وهذا ما دفعني إلى التصميم على أن أتبعها أيضاً، أو على الأصحّ، لن أذهب بعد أن أضعها على ناصيتها التي لم تجلب عليها سوء حظّ في هذه اللحظات. كنّا جدّ قريبين منها، فلم أحتج إلا إلى جولة صغيرة حتّى عدتُ إلى شارع الأخوَيْن بيكر، لكي أستوعب هذه الفكرة الطارئة، وأكسب وقتاً، وأعطيتُها قبل أن تنزل ورقة نقدية، وضعتُها في يدها، وتقديم النقد من يد إلى يدٍ شيء غير مألوف.

"وهذا من أجل أيّ شيء؟".

"من أجل الخوف الذي سبّبتُه لكِ"، أجبتُ.

"ما أكبر هذا الالتزامَ! حتّى الخوف لم تُثره فيّ!" قالت. "لكنْ، لا بأس بها على كل حال، وشكراً". فتحتْ باب السّيّارة، وغادرتْها، وشرعتْ ترتدي معطفها قبل أن تطأ الرصيف وقد صارت تنّورتها المختزلة أكثر تجعّداً، لكنها لم تكن ملوّثة أو مدعوكة، أو على الأقلّ، لم يكن لي ضلع في ذلك. ثمّ أقلعتُ على عجل، لمّا كانت أدخلت يدها في أحدِ الكمّين. وانعطفت صوب اليمين، ولم أجد غير عاهرة من العاهرتَيْن الاثنتَيْن عند بوّابة شارع لاكاستانيا، وكانت الأرض ما تزال رطبة، ولربّما تجمّدت العاهرة من البرد.

لكني لم أعد إلى ذلك البيت، وإنما درتُ دورة في أوّل شارع، وأوقفتُ السّيّارة فيه قرب (درسدن بنك) ذي الحديقة الفسيحة المغطّاة بالعشب، والبوّابة خلف القضبان. في نظري ما يزال البناء يمثّل (مدرسة آلامان) التي كانت قريبة من مدرستي، وكانت هذه الحديقة فناء من الأرض، كنتُ أنظر إلى الصغار من أترابي، يلعبون فيه أحياناً خلال الفرصة بمزيج من الحسد والراحة، لأني لستُ واحداً منهم، ذلك كما ينظر الصغار دائماً إلى الصغار الآخرين الذي يجهلونهم. إزاء هذا المصرف أو المدرسة توجد ثلاثة أو أربعة مواضع متهافتة مهجورة، تأوي إليها بلا شك عواهر المنطقة كلها، إذا أحسسنَ بالحاجة إلى تناول (سحبة)، أو إذا وصلت الرطوبة حتّى عظامهنّ. دنوتُ مشياً حتّى الناصية التالية التي احتلتْها مرّة أخرى ثيليا أو فيكتوريا، الناصية العليا، حيث ينتهي القسم الأوّل من المنحدر الذي تحدّثتُ عنه سابقاً - أو الجسر الزائف - ويبدأ القسم الثاني عموديّاً عليه، وهو تتمّة شارع الأخوَيْن بيكر الحقيقية حسب اللوحة، وفي هذا الجزء من القسم، تقوم أشجار، تلتفّ حولها نباتات متسلّقة، وجذوعها مغطّاة بأوراق دائمة، وأغصان معمّرة، تعلو الأرض بارتفاع قامتي. ومن هناك شرعتُ أنظر مختفياً، فرأيتُها تستند بتعب وصبر بظهرها إلى جدران شركة التأمين التي تقوم إزاءها شركة تأمين أخرى، وهي بناء ذو أصداء توراتية غامضة، وانحدار جامح، يُذكّر بأسوار أريحا، كما كنّا نراها في الصور وفي السينما، وإن كنتُ لا أراها من موضعي، وما كنتُ أرى العاهرة جيّداً أيضاً. فبين ناصية وناصية أخرى مسافة كبيرة، حتّى إني نزلتُ بضع خطوات في الشارع، حيث تنتظر، أي شارع الجنرال أورا - آ، وليس الأخوَيْن بيكر حسبما تقول اللوحة مخاطراً بأن تراني، لو أجالت النظر بإمعان جهة اليسار، جهة الجانب الذي كانت تقدم منه السّيّارات التي يمكنها أن تقف كما وقفت سيّارتي، وتفتح لها أبوابها كيما تبتلعها. ظللتُ واقفاً أمام حانة مغلقة،

تسمّى سنسيت بار، وكان معطفي بلون الخام، وسوف يكون بقعة مرئية في الليل المضاء بمصابيح صفر. ظللتُ هناك هادئاً دقائق كثيرة ملتصقاً بالحائط وكأنّني بيتر لور في فيلم (م) - بدور وطواط دوسلدروف - وهو فيلم، كنتُ شاهدتُه. كانت حركة المرور أكثر تخلخلاً عمّا كانت عليه، لمّا مررتُ فيه، وكشفتُ عن نفسي بغتة أملاً بألا يمرّ أحد، ورغبة في ألا يصطحبها أحد، وهكذا ينقضي ليلها خلافاً لما فكّرتْ فيه، أو أعلنتْه لي. كانت تلك الرغبة طبيعية ما دمتُ على غير يقين تامّ من أنها لم تكن ثيليا، لكنني أدركتُ وأنا ملتصق بالحائط أن هذه الرغبة كانت تراودني أيضاً، لو كانت فيكتوريا، وانتهى بي الحال إلى معرفتها، وإن كنتُ لن أراها مرّة أخرى، لن أراها مرّة أخرى أبداً. ما أغرب هذا الوصال، الوصال الحميم! وما أقوى روابط، لم تكن موجودة، فخلقها فوراً، وإن تلاشت وتفكّكت ونُسيت من ثمّ، أحياناً يرهق المرءَ أن يتذكّر أنها كانت قائمة ذات ليلة، أو ليلتَيْن أو أكثر، يرهقه في خاتمة الزمان. لكنْ، ليس كذلك مباشرة بعد إقامتها أوّل مرّة، فتبدو حينئذ علاماتٍ وُسِمَت بالنار، حين يكون كل شيء فيها طازجاً، وما يزال مرتسماً في العينَيْن، وفي وجه الشخص الآخر الذي نتنفّس رائحته، وجه مَن يصبح المرء خلال مدّة معيّنة مستودع أمانات له، وهذا ما يبقى بعد الوداع، فوداعاً، يا عنفوان، وداعاً، يا منغّصات، وداعاً، يا ذكريات، وأنا كنتُ ما أزال أفوح برائحة فيكتوريا أو ثيليا التي ليست هي رائحة ثيليا، لمّا كانت تعيش معي، وكان بالإمكان أن تكون رائحتها وحدها فقط؛ وفكّرتُ بغتة أن من المحال عليّ ألا أسعى لرؤيتها مرّة أخرى، أو من المحال أن تصعد هي عربة أخرى، وإن كان عملها يكمن في ذلك، وإن كنتُ لا أريد الحفاظ على علاقة أخرى بها؛ فلو كانت ثيليا، فقد تخلّيتُ عن إقامة تلك العلاقة بإرادتي الذاتية وبألم كبير، ونبذتُها إلى أن استسلمت أو تعبت، أو ربّما كانت تسعى فقط لاسترداد قواها متيحة لي أن أفتقد

إلحاحها، تسعى للتأجيل. خطت ثلاث خطوات أو أربعاً صوب الإسفلت تجرّ كعبَيْها، لحسن الحظّ، كانت خطاها باتّجاه لاكاستيانا أكثر ممّا هي باتّجاه شارع الجنرال أورا - آ، أو الأخوَيْن بيكر، حيث كنتُ أكمن، ولو فعلتْ ذلك، لكانت رأتْني، والآن زادت حركة السير في جانب لاكاستيانا، ويرجّح أن العاهرة الأخيرة وجدت زبوناً بينا كنتُ أوقف السّيّارة، وأطوف، بالتالي لم تكن فيكتوريا تعتدي على مجال أحد، إذا أطلّت من هذا الجانب. وعبر فوق الرصيف أو الطريق المشجّر رجلان ذوا مظهر مخيف، قالا لها شيئاً، لم أسمعه جيّداً، ولعلّه مسبّة، وإنما سمعتُها تجيبهما بكلامٍ قبيح، فخفّفا من سيرهما، ليلتقياها وجهاً لوجه، وفكّرتُ ربّما وجب عليّ أن أتدخّل، فأكون ذا نفع لها أخيراً، وأحامي عنها - كالوطواط النافع - وأُعيد علاقتي بها، على الرغم من كل شيء، وخلافاً لما هو متوقّع، أن أُقيم علاقة بها تلك الليلة على الأقلّ، فلا يستطيع المرء أن يتخلّى عن التدخّل أحياناً فيما يحدث أمام عينيه، فيحاول إيقاف سكّين مشهر سيُغرز في بطن أحد ما، إن أُتيح له هذا، مثلاً. "كسك رخو، كسك قذر"، صاحا بها. "هيّا، تعالا عضّا به"، صاحت هي بهما، واقتصر كل شيء على ذلك، فلم يقف الرجلان، بل تابعا سيرهما المضطرب متلاعبين بأصابعهما، نافخَيْن سترتَيْهما الجلديّتَيْن، وخرجا من مجال الرؤية.

وما هي غير دقيقتَيْن اثنتَيْن حتّى وقفت تلك العربة قرب ثيليا أو فيكتوريا، فدنت منها كما دنوتُ بعربتي سوى إنها لم تكن قادمة من شارع الأخوَيْن بيكر، وإنما من شارع لاكاستيانا، وكانت هي أيضاً سيّارة غولف ذات لون أحمر، يبدو أننا أصحاب هذه السّيّارات - أكثر الناس عزلة وطوافاً في الليل. كانت توليني ظهرها الآن، فتشجّعتُ على الدنوّ خطوات أخرى، وخلّفتُ ورائي مظلات بار سنْسيت، وخاطرتُ بأن أُرى، وإن ظللتُ دائماً ملتصقاً بالحائط كالضّبّ، فكنتُ أريد أن أرى، وأريد أن أسمع، وخطر لي

أنهما قد لا يصلان إلى اتّفاق إذا حالفني حسن الحظّ. فقد يكون ذلك الرجل كزّ اليَدَيْن، أو أنه يثير نفور فيكتوريا لسبب ما. فاقتربتْ هي من حرف الرصيف، وفكّرتُ في أنه سيفتح لها الباب الأيمن، وبالتالي لن أراها أبداً، ومع ذلك رأيتُها، لأن ما فتحه كان الباب الأيسر، وخرج من العربة، ليكلّمها من فوق سقفها مستنداً بيده اليسرى إلى الباب الموارب. أنا وإن كنتُ أراها من الخلف، فقد تعرّفتُ فيها إلى حركة الإغراء الخافتة برفع الممطر ويداها في جيبيها، لتزيد في الكشف عن جسمها الذي أقمت معه منذ قليل هذا الوصال الغريب الحميم الذي يخلق وَهْم صلة أو علاقة مباشرة، وإن يكن من خلال مواقعة. خلعتُ معطفي، لكي أخفّف من إمكانية أن أُرى لو خطر للرجل أن ينظر إلى حيث كنتُ، ويشخّصني في الليل؛ ووضعتُه على ذراعي، وأحسستُ بالبرد. "ماذا تريدين منّي لقاء ربع ساعة قصيرة؟ فأنا على عجل". سمعتُه يقول لفيكتوريا والسّيّارة بينهما. لم أسمع جوابها، لكنه كان جواباً بالقبول، لأنّ ما رأيتُه بعد ذلك كان إيماءة برأسه، إيماءة كانت تقول لها: "ادخلي"، من غير لجلجة ولا اعتبار، واندسّ الرجل مرّة أخرى في العربة وثيليا أيضاً، التي فتحت الباب الأيمن وانطلقا بزمّان، وضاعا من مجال الرؤية، فالرجل كان مستعجلاً. كان رجلاً في مثل عمري الآن، وكان أشقر اللون ذا قرنين ناتئين جدّاً، وبدا لي أنه ليس من طينة سوء، وكان حسن الهندام إلى هذا الحدّ أو ذاك، ولا تبدو عليه علامات سُكر أو يأس أو سوء نيّة، بل خُيّل إليّ أنه قد يكون طبيباً، فربّما وافاه النوم باكراً وعلى شكلٍ حسن إذا آوى إلى السرير بعد أن يقضي منها وطراً، أو بعد مداعبة سريعة من غير أن يتخلّى عن المقود، هو شيء ما صحّيّ بعد ثماني ساعات من المناوبة في عيادة ملأى بممرّضات متعبات لابسات جوارب بيضاً، وذات عقد عند خطّ الدرز. وشعرتُ حينئذ بوخزة، لمّا ظللتُ وحيداً كالقاتل الهارب M، وكانت العواهر انصرفنَ جميعاً، لكنّ

واحدة منهنّ ستجعلني وشيكاً موضوعاً للفعل المهجور ge-lucgen على رغم أنفي، أو شريكاً في الاسم المَنسيّ ge-for-liger ما دمتُ وحيداً، أو أنها ستحوّلني إلى الأبد إلى ge-bry'd-guma وهميّ لذلك الفرد من غير رضا منّي، - لكنْ، أنىّ يكون رضا؟ - إذا كانت جعلت لي خِدْناً، وشريكاً في الفاحشة، وقرنتْني بذلك الطبيب المتخيّل الذي رأيتُه للحظة من بعيد، وهو بخلافي كان على عجل، حتّى لم أكن على علاقة به أيضاً. ونشأت لي في تلك اللحظة أو في ربع الساعة القادم صلة قربى آنغلوسكسونية غير مرغوب فيها، ولا أبَ لها بطبعها، وإني أجهل مداها ومعناها الصحيحين، لأن لغتي لا تحتويها، ولا تُسمّيها، ولا أستطيع صنع شيء إزاءها: هناك فرق بين أن تعرف الأمر وبين أن تراه بأمّ عينيكَ، أو ترى التحضير له، هناك فرق بين تصوّرنا الزمن الذي تجري فيه الأحداث التي تسيئنا أو تؤلمنا أو تؤنسنا وبين قدرتنا على القول بثقة: "هذا ما هو حادث الآن، بينا أنا أقف هنا وحيداً ولاصقاً بالجدار من غير أن أعرف ماذا أصنع في منتصف الليل المملوء بأوراق الشجر المسحوق والرطب، سأطؤها وأنا راجع إلى عربتي الواقفة قرب درسدن بنك، أو مدرسة آلامان أيّام طفولتي، وأركبها وأشغّلها، وقد كنتُ فيها منذ دقائق معدودات، لمّا كنتُ في شارع فورتوني بصحبة فيكتوريا أو ثيليا مقيماً هذا الوصال الغريب الحميم في المقعد الخلفي، أو مشغولاً بالحديث إليها من قبلُ في المقعد الأمامي، من غير أن أجرؤ على الحصول على يقين، أحسبني حصلتُ عليه الآن بدافع الغيرة محاولاً ألا أتعرّف إلى مَن كنتُ أعرفها، وغيرَ راغب في آن واحد، في أن أعدّ زوجي المهجورة ذاتها إحدى العواهر المجهولات. وأنا الآن، على العكس من ذلك، واثق ثقة، لا شأن لها بالهوية ولا الاسم، فأنا أعلم أن هذه المرأة في عربة أخرى، وأن جسدها بين يدَيْن أخريَيْن، وهما يدان تسعيان في الاتّجاهات كلها من غير لجلجة ولا اضطراب، يدان تضغطان أو تداعبان أو تتقرّيان

وتضربان أيضاً. (أوه، كان من غير رغبة منّي، ولا إرادة، لم أتنبّه إلى ذلك)، هي حركات آلية، تقوم بها يد الطبيب الدافئة التي تتقرّى كامل جسم، كان ما يزال لا يعلم إن كان يلذّ له. وبينا كنتُ أقود السّيّارة في الشوارع ذاتها التي طفتُ فيها من قبل بصحبتها محاولاً أن أجد الغولف الحمراء واقفة - ولم أجد لها أثراً في شارع فورتوني نفسه، ولاماركِث ديريكال ومونتِه اسكْيناس، وخينرّ وفرناندو إيل سانتو - وفكّرتُ بذعر وأمل مخمد أني حتّى من هذا الأمر لستُ على يقين، لأني لم أشهده، فلربّما لم تحدث تلك المجامعة، ولا تلك المداعبة واليد على المقود، ولو كانت أصابع ذلك الرجل أو الطبيب جافية قاسية، كأنّها مفاتيح بيانو، وصمّم على استعمالها قبل أيّ وصال بالضغط على عنق فيكتوريا أو ثيليا أو وجنتيها أو صدغَيْها، صدغَيْها البائسَيْن حتّى يقضي عليها، ويطرحها جثّة هامدة على إسفلت الشارع وأوراق الشجر الرطبة. أقررتُ بهزيمتي، وعدتُ لبيتي أخيراً، وقد انقضى ربع الساعة، وإن كان ربع الساعة هذا شكلاً من الكلام فحسب. وربّما ما يزالان كلاهما في سيّارة الغولف الحمراء، أو أن الطبيب عزم على دعوتها إلى بيته حتّى الصباح، فلم أرغب من قبل في أن أمكّن هذه الذكرى أو الشبح من ولوج مخدعي، وإني آلم لذلك. وفكّرتُ في تلك الأثناء أني سأضطّر إلى قراءة الصحف بإمعان وروحي معلّقة بخيط باحثاً عن نبأ، أخشى أن يجعلني أرملَ، إن كانت فيكتوريا ثيليا، ويجعلني أندم على مخاوفي حتّى آخر عمري، لو كانت فيكتوريا فيكتوريا، فكانت العربة تعبق برائحتها، وكنتُ أنا أعبق بها.

وصلتُ بيتي وأنا مثار غاية الإثارة، ولا يوجد شيء يمكنه أن يجلب النوم إليّ، وقد كان بإمكاني أن أنصرف أيضاً بعد أن تركتُ العاهرة على ناصيتها، وبمكوثي تصوّرتُ أن القضيّة مجرّد تسلية، مجرّد تزجية وقت، لكن التّصوّر هو لعبة فحسب بينا الرؤية أمر خطير، يتحوّل إلى دراما أحياناً،

ولن أجد العزاء عن عدم اليقين من ذلك حتّى ينفد الزمن. لكني كنتُ رأيتُ نفسي وامرأةً في عربتي، وهذا يكفيني كيما أراها الآن أيضاً بصحبة الطبيب شريكي في الضّماد، أو بصورة أدقّ في الوِقاع، نعم، هو قد يكون أثار الخوف فيها. شغّلتُ التلفاز، كما شغّلتُه بعد عامين ونصف العام في شارع كونده ديلاثيميرا، من غير أن أعرف ماذا أصنع بينا كانت امرأة تنازع إلى جانبي، وما كنتُ أصدّق أنها تُنازع، وما كانت هي أيضاً تؤمن بأنها تُنازع حقّاً؛ كما شغّله (الوحيد) في قصره ليلة عانى فيها الأرقَ، وخرج من مخدعه، كيلا يُزعج أحداً، ويستدعي بذلك النوم إزاء الشاشة، فتشغيل التلفاز في حالتي يُعدّ حركة طبيعية، إذا وصلتُ البيت متأخّراً في الليل، أفترض أنها حركة طبيعية، تصدر عن أمثالنا نحن الذين نعيش وحيدين، وفوق ذلك، لسنا أحداً من الناس، ننظر فيه، لنرى ماذا حدث في العالم في أثناء غيابنا، وكأنّنا لسنا في غياب دائم عن العالم. كان الوقت قد تأخّر كثيراً، وكانت قناتان ما تزالان تبثّان، وأوّل ما رأيتُ في إحداهما كان سيّداً شاكي السلاح، يسلّم روحه إلى مشيئة ربّه راكعاً أمام خيمة في حقل، وكان الأمر يتعلّق بلا ريب بفيلم بالألوان غير جديد، فخير البرامج تُعرَض في الفجر دائماً وقت لا يراها أحد. وتغيّر المشهد فوراً، وشاهدتُ حينئذ رجلاً مضطجعاً ومرتدياً ثيابه، وفكّرتُ في أنه ملك، لمّا رأيتُ كُمّي قميصه ينتهيان بأهداب كثيرة، ملك يعاني أرقاً، أو ربّما كان ينام وعيناه مفتّحتان، وهو أيضاً كان في خيمة في حقل، وإن كان منسطحاً فوق سرير حقيقي بتوابعه من وسادة وملاءات، لا أتذكّر كثيراً عنه، لكني أتذكّر هذا التفصيل. ثمّ أخذت تظهر له أشباح شبح وراء شبح، تبعث على التأثّر الشديد في منظر طبيعي، ولربّما كان الحقل حقل معركة وشيكة أو قادمة: أخذ يظهر رجل، ثمّ طفلان، ثمّ رجل آخر، وامرأة، وأخيراً رجل ثالث رافعاً قبضَتَيْه، وهو يحرّكهما، وكان يصرخ كَمَن ينادي بالثأر، أمّا الآخرون، فكانوا

جميعاً ذوي وجوه متألمة وحزينة وشعور بيض، وكلمات مرّة، تنطلق من بين شفاه شاحبات، تبدو أنها تقرأ بصوت خفيض أكثر ممّا تنطق نطقاً، فالأشباح ليس بمستطاعها أن تُكلّمنا دائماً من غير صعاب. كان الملك مسكوناً Haunted بالأشباح، وهو تحت وطأة سِحْر أو آخذ بأن تنتابه 'Haunted or hante خلال تلك الليلة أطياف أقربائه الذين كانوا يلومونه على مِيْتتهم ذاتها، وكانوا يتمنّون له الكوارث في معركة اليوم التالي، وكانوا يقولون له أشياء رهيبة بأصوات حزينة، أصوات مَن خانهم أو قتلهم مَن كانوا يحبّونه: "فكِّرْ فيّ أثناء المعركة"، كان يقول له الرجال والمرأة والطفلان واحداً إثر الآخر، "وليسقط سيفكَ المفلول: واقنطْ، ومتْ". "ولأُثقلْ على روحكَ غداً، ولأكنْ رصاصاً داخل جوفكَ، ولتكنْ خاتمة أيّامكَ في معركة دامية: وليسقطْ رمحكَ"، "فكِّرْ فيّ إذا متّ: واقنطْ، ومتْ".

كانوا يكرّرون عليه ذلك جميعاً واحداً وراء الآخر، كان يكرّره الطفلان والمرأة والرجال الثلاثة. أتذكّر جيّداً هذه الكلمات، وخاصّة الكلمات الأخيرة التي كانت تنطق بها المرأة موجّهة الخطاب إليه، امرأته التي كانت تجري مدامعها على خدّيها، وتقول: "هذه هي أنا امرأتكَ التعسة التي لم تبتْ ليلة واحدة قطّ معكَ مطمئنّة، وتملأ أحلامكَ بالاضطراب. فكِّرْ فيّ غداً، أثناء المعركة، وليسقط سيفكَ المفلول، واقنطْ، ومتْ". وهذا الملك ينهض أو يستيقظ مذعوراً وهو يزعق إثر هذه الرؤى التي رآها تلك الليلة الرهيبة، وأنا أيضاً أُصبتُ بالهلع، لمّا رأيتُها، وسمعتُ عواءها من الشاشة، وأحسستُ بقشعريرة - أحسبها قوّة التمثيل - فغيّرتُ القناة بجهاز التّحكّم عن بعد، وانتقلتُ إلى القناة الثانية التي كانت ما تزال تبثّ، وكان فيها فيلم آخر بالأبيض والأسود، وكان فيه طائرات من طراز سباتفاير بحرية وشتوكا وهوريكان وميّسر شميت 109، وبينها أيضاً لانكستر باسم سلالة الأمير هنري V والملك هنري IV؛ ربّما كان يتناول قصّة معركة إنكلترا التي أتاحت

لتشرشل أن يقول إحدى جمله الأكثر شهرة: "لا نجد في مجال الصراع البشري قطّ خَلْقاً بهذه الكثرة يَدين لعدد قليل من الناس"، ويُستشهد بها دائماً مختصرة مثل تلك الجملة أيضاً: "الدم والعَرَق والدموع" التي حذفت منها كلمة: "التعب". طائرات شتوكا ويونكر قصفتْ مدريد في أثناء حربنا الأهلية، خاصّة الأخيرة منها، كان الناس يسموّنها "دجاجاً روميّاً" بسبب بطئها حين كانت تقترب بحمولتها المدمّرة عبر هذه السماء نفسها التي أراها من نافذتي، أمّا المطاردات الجمهورية، فكانت في المقابل "جرذاناً"، كما كانت تُسمّى طائرات الميغ الروسية السريعة، وكورتيس الأمريكية القديمة. أحسستُ براحة كبرى في هذا العالم من المعارك الجويّة غير الخارقة للطبيعة، وأقرب إلينا في الزمن، أما أولئك الأشخاص الآخرون شاكوّ السلاح وذوو الأردان المهدّبة في القناة الأولى، فهم أقرب إلى استعمال الفعل ge - licgan أو الأسماء ge - bryd - guma و ge - for - liger التي اضطررتُ إلى التفكير فيها هذه الليلة، أو ربّما اخترعتُها اختراعاً، لكنهم ليسوا أكثر قرباً إلى التفكير فيما كانت تعنيه: لا أريد أن أراهم، أيّاً يكنْ هؤلاء، بل أوثر أن أظلّ في عصري، وفي موتٍ ناجم عن الحرب، إذْ كانت تُشَنّ في القناة الأخرى معركة أخرى، ويسقط ضحية الحرب قَتلى جدد، وليس اغتيالاً يُنفِّذه رجال وامرأة وطفلان. كنتُ أرى الطائرة بينما كنتُ أشكّ مفكّراً، لكنّي برؤيتي لها، استقرّت في رأسي صاخبةً وطافية لعناتُ أشباح ذلك المشهد من القلق والنوم المضطرب. لذلك فكّرتُ فيها، أو على الأصحّ تذكّرتُها في وقت لاحق بعيد، لمّا اصطدمت في العتمة في حجرة طفل مارتا تييّث بشيء، ورأيتُ متدلّية من السقف الطائرات المصغّرة التي كانت بلا ريب من مقتنيات الأب، وهي أكثر ممّا كنتُ أملكه في طفولتي، وخير منها، وكانت الطائرات المعلّقة بالخيوط تستعدّ كل ليلة بكسل، لتشنّ معركة ليلية مُضنية، مصغّرة شبحيّة ومحالة لم تحدث قطّ، أو أنها تحدث دائماً خلال سهدي، وفي أحلامي المضطربة.

ما حدث هاتَيْن الليلتَيْن نُقِشَ في ذهني. وكل شيء خلَّفَ أثراً.

تردّدتُ في أن أهتف لثيليا، فقد كان الليل تقدّم كثيراً، فلو كانت في البيت، لكانت نائمة على أغلب ظنّ. فأنا لا أعرف عنها شيئاً منذ أربعة أشهر أو خمسة، إلا بطريق غير مباشرة، وليتني لم أعلم شيئاً، فما كنتُ أهتف لها، ولا هي كانت تهتف لي. فلا أستطيع شرح هذا الكسر في موقفي، ولا هذا الدافع المفاجئ من غير أن أقصّ عليها كل ما حدث لي، من غير أن أقول أن سبب مخابرتي العاصفة هو أني كنتُ أحسبني بصحبتها منذ قليل، وأني فتحتُ لها باب العربة، وأعطيتُها نقوداً في الشارع، وأني نقلتُها إلى ركن منعزل في الشارع، كيما أُتيح لها أن تكسبها: أن أقول إني أحسبني ضاجعتُها، ولسوف تعدّني مجنوناً إن أجابتْني. ومع ذلك، يصعب مقاومة الاتّصال بالهاتف، إذا عُوّل على القيام به، كالحصول على رَقْم يغري دائماً باستعماله فوراً. وكان رَقْم ذلك الهاتف رَقْمي منذ عهد غير بعيد. كانت الساعة تجاوزت الثالثة، وكانت الميسر شميدت تطارد وتقصف سباتفاير التي تطير في فضاء الشاشة، لمّا رفعتُ السمّاعة من غير أن أسمح لنفسي بمزيد من التّردّد. فلو أجابت ثيليا، لعلمتُ على الأقلّ أنها ليست فيكتوريا، وأنها ليست في خطر، فيكتوريا التي ربمّا لم يُتح لها الوقت لتتخلّص من يدي الطبيب، وتعود إلى البيت، وليلها فوق ذلك، لمّا ينقضِ. لكنها إذا لم تجب، فسوف يكون ذلك أسوأ لي، ولسوف يزداد قلقي لسببين أو لخوفين: أن تكون ثيليا فيكتوريا حقّاً، وحدث لها أمر سيّئ، أمر جدّ سيّئ حتّى تظهر لي لا محالة ذات يوم في أثناء سهدي، أو في نومي، لتقول لي ما تستطيع قوله في النوم، أو في السّهد فقط: هذي أنا ثيليا امرأتكَ التعسة التي لم تبتْ ساعة مطمئنّة معكَ، تملأ أحلامكَ بالاضطراب". أو تملؤها بالسِّحْر واللعنات، لأنكَ حذفتَها من حياتكَ، وتخلّيتَ عنها تلك الليلة، هذه الليلة التي كان بمستطاعي أن أجلبَها إلى البيت تحت اسم

آخر، وأنقذها. وكانت المخابرة، إذاً، خطأ، ومع ذلك كله هذا ما صنعته: دوّت الرنّة الأولى، ثمّ الثانية فالثالثة، لم يفتْ وقت طويل بعدُ، لأغلق الخطّ، ولأظلّ على شكيّ، وقفز المسجِّل الآلي، وسمعتُ صوتاً مُسجَّلاً: "أهلاً، هذا هو الرَّقْم 5496001، لستُ الآن في البيت، لكنْ، إن شئتَ أن تترك رسالة، اتركها بعد أن تسمع الإشارة. وشكراً". كانت تخاطب مَن يطلبها من غير كلفة، وهو شأن خاصّ بالشباب، وكانت هي شابّة مثلها مثل فيكتوريا. سمعتُ صفرتَيْن أو ثلاث صفرات قصيرة عائدة لمخابرات سابقة متراكمة، ثمّ تلتها الإشارة الطويلة، وعزمتُ على الكلام خائفاً خلافاً لتلك المرّة الأخرى، لمّا ركّبتُ رَقْم هاتفي القديم بينا كنتُ أخلع ثيابي جالساً عند قدمي السرير ذات ليلة كئيبة أو مُحبطة: "ثيليا"، قلتُ "أأنتِ هنا؟" لأن المسجّلات تكذب معظم الأحايين. "هذا أنا فيكتور. ألستِ هنا؟ ربّما كنتِ نائمة وقد خفّضتِ صوت الهاتف، لستُ أدري!" كنتُ أقول ما أرغب في قوله، لما تحقّقت هذه الرغبة، وقاطعني صوت ثيليا غير المسجّل، إذْ كانت في البيت، ورفعتِ السمّاعة، لمّا سمعتْني. إذاً، هي لم تكن فيكتوريا، ولمّا يحنِ الحين، لمّا يحنْ، فكّرتُ فوراً، لمّا يحنِ الحين، لأنها كانت حيّة. "فيكتور، أتدري ما هي الساعة الآن؟" قالت. "لمّا يحنِ الحين"، فكّرتُ، كما لمّا تحنْ ساعة طيّار السباتفاير البحرية MK XII، الذي كان ما يزال يرى العالم من عل، ويفرّ. كان صوتها يدوّي مستيقظة، أنا أعرف صوتها نائمة، كما أتذكّر وجهها نائمة، ومن غير زينة، وكان يبدو السؤال لوماً شكلياً أكثر ممّا كان حقيقيّاً، فلم أنتزعْها من نومها، وأنا على يقين من ذلك. "ماذا حدث؟"، قالت. لم أكنْ أعددتُ حجّة قابلة للتصديق، وكيف أعدّها، إذا كانت موجودة؟ وجعلتْني حالة الإثارة طائش اللّبّ، وهكذا قلتُ لكسب الوقت: "هناك أمر أريد أن أحدّثكِ عنه. أأستطيع المجيء لألقاكِ لحظة؟". "الآن؟" أجابت، "أأنتَ مجنون؟ لكنْ، أتعلم كم الساعة الآن؟"

"بلى، أعلمها"، قلتُ، "إنّه أمر عاجل، وأنتِ لستِ نائمة، أليس كذلك؟ ولا يبدو أنكِ كنتِ نائمة". وساد صمت قصير، وقالت قبل أن تجيب: "انتظرْ لحظة"، قد تكون اللحظة اللازمة لبلوغ منفضة، إن كانت أشعلت لفافة، وإن لم أسمع صوت عود الثقاب الذي يُسمَع عادة عبر الهاتف، حتّى تُسمَع أحياناً نفثات ما ندخنه. "لا، لستُ نائمة، لكنكَ لا تستطيع المجيء الآن". "ولِمَ؟ أؤكّد لكِ أني لن أطيل كثيراً". صمتت ثيليا مرّة أخرى للحظة، وسمعتُها تتنهّد غاضبة. "فيكتور"، قالت وعلمت حينئذ غضبها، إذْ لا يُسلّم لنا بما نطلب إذا خوطبنا باسمنا: "لكنكَ تعلم أنكَ منذ أشهر لا تريد أن تعلم شيئاً. ولم نلتقِ منذ أشهر، ولا نكلّم بعضنا بعضاً، وها أنتَ تهتف لي فجأة في الساعة الثالثة والنصف فجراً، وتطلب منّي أن أستقبلكَ، لكنْ، ماذا تحسب أنتَ؟" هذا النوع من الجمل يجرّد المرء من سلاحه دائماً: "لكنْ، ماذا تحسب أنتَ؟" كانت على صواب، فلم أقلْ شيئاً، وإن كانت الساعة لم تبلغ نصف الساعة بعد الثالثة، لأني كنتُ أنظر إلى الساعة، وأضافت هي شيئاً لا ضرورة له، وإنما قالته نكاية بي لأني ما كنتُ أنوي أن ألحّ، وما كانت بحاجة إلى قوله: "فوق ذلك، لا تستطيع المجيء الآن، لأني لستُ وحيدة". "آه، لستِ وحيدة!" قلتُ كالمغفّل. تركت ثيليا الجملة تُحدث أثرها، فلا يستوي تصوّر ما يحدث من قبلُ ومن بعد، ومعرفته وقت حدوثه. ثمّ تكلّمت مرّة أخرى بودّ أكبر: "اتّصل بي غداً في ساعة متأخّرة من الصباح، وسنتحدث عن كل ما تشاء. وإذا شئتَ، نتناول الطعام معاً، ما رأيكَ؟ اتّفقنا؟ اهتفْ لي غداً"، وأغلقت الخطّ من غير وداع. وهدأ بالي للحظة، ورأيتُ طيّاراً ذا شاربَيْن صغيرَيْن يرفع بصره إلى السماء ويقول: "ميتش! لا تستطيع مقاومة السباتفاير، ميتش! لا تستطيع مقاومتها". بدا لي أنه دافيد نيفين كان يكلّم ميّتاً؛ ثمّ سلكت الطائرات طريقها نحو شمس، تعترضها غيوم، وظهرت عبارة تشرشل مكتوبة، لقد انتهت المعركة، فغيّرتُ

القناة مرّة أخرى بفضول فجائي، أو بعجلة، لأعرف الآن أيّة معركة تُشَنّ في القناة الأخرى، وأي فيلم بالألوان وذي وقائع مشهودة وفيه ملوك وأشباح، ولكني وجدتُه قد اختُتم، فلم أستطع معرفته. وشهدتُ بدلاً منه فتيات خرعات يلعبنَ تمارين رياضية على أنغام أشرطة راقصة، وكانت تتولّى التعليق فيه سحاقيات متشدّدات، يبدو لهنّ كل شيءٍ سيّئاً. رحتُ أنظر وأستمع لهنّ (أنظر إلى الفتيات، وأستمع إلى السحاقيات)، وعدتُ إلى قناة المعارك الجوّيّة، فأُصبتُ بالذعر: إذْ كان يُعرض فيها بداية إرسال ديني (لا أدري ما المناسبة، وأجهل السبب) وإنما كان مجموعة من المؤمنين غاية في القبح ينشدون صارخين في كنيسة نشيد: المسيح راعي حياتي، وأغاني دينية أخرى. أغلقتُ الجهاز، وبحثتُ عن الصحيفة، لألقي نظرة على البرامج التي رأيتُ منه فيليمن جزئياً، لكن الشغّالة كانت أخذتها، فقد جاءت اليوم في غيابي، وهكذا يؤخذ منّي كل شيء قبل الأوان، كما يصُنع بالوحيد في قصره، وبذلك يثيرون نفوره، كما اكتشفتُ في وقت لاحق بعيد. كان ذلك لمّا بلغ هدوء بالي القصير نهايته، فهو لم يدمْ طويلاً، لأن رأسي لا يعرف الراحة تقريباً، لأنه يتصوّر ويعمل من غير انقطاع: "فإذا كانت فيكتوريا غير ثيليا، وثيليا بصحبة أحدهم"، فكّرتُ، "فثيليا، وليس فيكتوريا وحدها تجعلني أيضاً خاضعاً للفعل، وموضوعاً لصلة القربى القديمة، وكذلك أنا جعلتُها موضوعاً لها بمضاجعتي هذه الليلة العاهرة فيكتوريا التي طالما كانت أشبه بها، لأن الفعل والأسماء تسري ذات السريان على النساء، وأحسب أن هذا الإحساس بأني غرض مزدوج، أو GE-BRYD - GUMA مزدوج، في آن واحدِ - وهو إحساس باعث على القلق، ما جعلني أذهب بتفكيري بعيداً، وهذا التفكير الجديد كان أسوأ أيضاً، فقد محا فجأة أثر مخابرتي المهدّئ جزئيّاً، قياساً لخوفي الاثنين فحسب: كانت ثيليا رفعت سّماعة الهاتف. إذاً، هي كانت في البيت، لكنْ، كانت رنّت صفرتان أو

ثلاث صفرات تشير إلى مخابرات سابقة متراكمة قبل أن أدع رسالتي في المسجّل، لذلك أرجّح أن ثيليا كانت دخلت الباب لتوّها ورفيقها، لمّا رفعتُ السمّاعة، ولم يُتح لها الوقت لتسمع هذه الرسائل السابقة: بالتالي أرجّح مرّة أخرى أن ثيليا هي فيكتوريا، وقد عزمتْ والطبيب على الذهاب إلى بيتها، فهو رجل متزوّج، ووصلا هذه اللحظة ذاتها بُعيد وصولي بيتي، ربّما بعد جولة في المدينة الخالية من حركة السير، أو بعد توقّف سريع في شارع منعزل، وقد تخلّى الرجل عن عجلته. إذا كان الوضع كذلك، إذا كان صاحبها أو الطبيب معها الآن، فالخطر لم يزل في هذه الحالة، ولمّا يحنِ الحين على ثيليا، ولا على فيكتوريا، لمّا يحن؛ لمّا يحنِ، لكنْ، مَن يعلم إن كان يحين غداً أو خلال لحظة؟ "مَن يعرفني يسكت، وإذا سكت يدافع عنّي"، لا أستطيع أن أهتف لها مرّة أخرى، فكل شيء صار ممكناً، وهذا هو ثمن عدم اليقين، وربّما هُرِّئتُ، وقد غلبني غضبها وشتائمها. كنتُ في حالة لا معنى معها لمحاولة النوم، وكان ينبغي لي أن أترك الزمن يمضي على الأقلّ مدى مجامعة أو مجامعتَيْن معاً، تستغرقان المدّة ذاتها إلى هذا الحدّ أو ذاك؛ في الواقع لا تدومان طويلاً، بل تدومان نصف ساعة أو ساعة واحدة مع المقدّمات، وهي تدوم أقلّ من ذلك مع عاهرة، فهي لا تحتاج إلى مقدّمات، وربّما تدوم أطول من ذلك مع محبوبة، وأكثر من ذلك مع عنصر جديد أو في المرّة الأولى، وكل شيء طال طولاً مفرطاً مع مارتا تييّث، لذلك لم أبلغ فأقيم علاقة أو صلة قربى بديئان ولا ببيثِنته الفظّ والمستبدّ، وإذا كنتُ لم أقمها، ولم أكتسبها، ولم أحصل عليها لحسن الحظّ، فلم يكن ذلك بإرادتينا، لا بإرادة مارتا ولا بإرادتي، وإن كان ساورني إحساس، يمكن فهمه أني اكتسبتُها هذه الليلة.

عزمتُ على الخروج مرّة أخرى إلى الشارع، وأقوم بنزهة سيراً على الأقدام، وأمشي لوقت، لأروّح عن نفسي، وأُتعب جسمي، وألا أظلّ، على

الأقلّ، محتبساً في مخدع بينا يكون الآخرون في مخدع مثله مثنى مثنى أو رباع. لا تخلو المدينة قطّ من السابلة، لكن عددهم تلك الساعات المتأخّرة من الليل الرطيب كان معدوداً، وهم فردان أو ثلاثة أفراد، كانوا يبدون خارجين لتوّهم من معهد إصلاحي، وعمّال سقاية الحدائق الذين يتحادثون بأصوات لا تحسب حساباً للنائمين، ويهدرون الماء، وكل شيء ظلّ مبلّلاً، والعاصفة قد تنفجر مرّة أخرى، كما توحي به السماء؛ ومتسوّلة عجوز جوّالة، وفريق صغير من الرجال والنساء الصخّابين الذين قد يكونون قادمين من حفلة في قاعة للاحتفالات، أو من ملهى ليلي، أو من عرس عازب، أو من سحب جوائز اليانصيب، أو من احتفال بذكرى سنوية ما. ابتعدتُ بعداً كافياً،واتّجهت صوب الغرب، لأني لم أُعجب بهذه المنطقة، وما إن صرتُ في شارع لابرِنْثيسا، ثمّ كينتانا حتّى سمعتُ صوت خطى خلفي، سمعتُها وأنا أعبر ثلاث وحدات من الأبنية في شارعين مختلفين، كان لديّ فائض من الوقت والمجال حتّى لا أسأل نفسي، وأيّاً يكن عابر السبيل، فهو يرى قفاي، وربّما كان يتعقّبني، لينقضّ عليّ في الظلام، وكانت تلك الليلة ملأى بالمخاطر والخوف، لكن شيئاً لن يحدث ما سمعتها من غير أن أعجلَ، فما كنتُ أريد أن أجري، وهكذا أتحت لهذه الخطى عند بداية وحدة البناء الرابعة أن تتقدّمني، إن كانت خطى أحد مسالم، لا يستطيع السير بعجلة كبيرة، فوقفتُ، لأنظر إلى واجهة مكتبة، وأخرجتُ نظّارتي، ووضعتُها على عيني، واغتنمتُ الفرصة، لأرقب بمؤخّر طرفي منتظراً وصوله متأهّباً، وسمعتُ الخطى المسمومة تقترب، لكنْ، لمّا يحنِ الحين، لمّا يحنْ، وما يزال كذلك: وتجاوزتني. تأمّلتُ الشكل الذي كان يبتعد من غير خفاء - والآن صرتُ أنا الذي يرى قفاه.، كان رجلاً في أواسط العمر، كما توحي به مشيته، ونموذج معطفه المصنوع من جِلْد الجمل. لم أستطع أن أرى في الليل أكثر ممّا رأيتُ، ومسّدتُ معطفي، وحفظتُ نظّارتي. وتابعتُ

سيري باتّجاه الجنوب الغربي عبر شارع روساليس، ثمّ بايلين الذي أنا أكثر إعجاباً به. في روساليس، كانت ثكنة مونتانا، حيث جرت معركة شرسة في اليوم الثالث لحربنا الأهلية منذ سنين كثيرة، والآن يقوم مقامها معبد مصري. سرتُ حتّى مستوى ساحة أورينته، حيث رأيتُ جوادين يتقدّمان في اتّجاه معاكس لاتّجاهي، ويلتزمان الرصيف، كيلا يعرقلا سير العربات القليلة التي يمكن أن تمرّ. كانا جوادين وفارساً وحيداً، أو كانا حصاناً وفرساً، وكان الرجل الذي ينتعل حذاء ذا رقبة طويلة، يمتطي الحصان بلون القرفة، وكانت الفرس بيضاء مُسرجة تسير بموازاته، ولربّما تأخّرت عنه مدى نصف جسمها أحياناً، كانا يسيران الهوينى، ويبدوان نحيلين، إنهما حصانا ركوب أندلسيّان، كانت سنابكهما الثمانية تدوّي على بلاط الشارع اللمّاع، إنّه دويٌّ قديم، دوي سنابك في المدينة أصبح شيئاً غير مألوف في هذه الأزمان الرائعة التي طردت رفيق الإنسان طِيْلة تاريخه كاملاً، ولم يكن نادراً سماعها في طفولتي تجرّ عربات جامعي الثياب المستعملة، أو عربات بعض الحرفيّيْن يوزّعون بضائعهم، أو يمتطيها رجال الشرطة، بمعاطفهم الكثيبة كمعاطف الروس، وقبّعاتهم الطويلة اللّيّنة، أو يستقلّها فارس ثري عائدٌ من مزرعته. كانت الحيوانات شيئاً شائعاً حتّى لدى سكّان المُدُن أيضاً، وأتذكّر أني كنتُ أرى أبقاراً متجمّعة في أقبية، كنتُ أراها من ارتفاع قامتي، وأنا طفل من النوافذ المشبّكة اللاصقة بأرضية المباقر، كما كانت تُسمّى هكذا حينئذ، مُطلِقةً رائحة نفّادة، رائحة أبقار وأحصنة وبغال وحمير، وكانت مألوفة رائحة روثها. لذلك أحسستُ بغرابة كبيرة وأنا بموازاة ساحة أورينته قبالة القصر الملكي الذي ما كان يقطنه أحد، لمّا التقيتُ الجوادين الضخمين، أحسستُ بنوع من الإحساس العجيب، على الرغم من ذهابي بعض الآحاد إلى سباق الخيل، لكنْ، لا تستوي رؤية الجياد تُستعرَض في حقل قبل السباق، ثمّ تنطلق جرياً على المضمار للفرجة، ورؤيتها وسط

المدينة فوق الإسفلت، وجانب الرصيف الذي يسير عليه الناس، حيوانات ضخمة، لمّاعة الأجسام، وغير مفهومة الآن، ذات أعناق عِراض، وجذوع وأطراف مُعضّلة، إنها حيوانات ذات ذاكرة بعيدة المدى، تُنمّي عادات يصعب اقتلاعها، فهي تعرف أن تهتدي إلى طريق العودة إلى البيت، إذا ما ضلّ عنه أصحابه، وتمتلك غريزة، لا تخيب في تمييز الصديق من العدوّ سواء أكان قريباً أم بعيداً، ولا تلتبس عليها قطّ الخطى المسالمة والخطى المسمومة، وتكتشف الخطر قبل وقوعه، خطر حتّى ما كنّا نتصوّره؛ كان الوقت متأخّراً جدّاً حتّى يكون ذاكما الحصانين في الشارع قرب ساحة أورينته، حقّاً كنتُ رأيتُ منذ سنوات ذات مرّة أو أخرى بعضها يمرّ ليلاً أو نهاراً في تلك المنطقة. لكني لم أرها فجراً - أو ربّما لم أكن تلك السّاعات المتأخّرة في شارع بايلين - ربّما كانتا مطيّتَيْن من مطايا القصر الملكي، وهما من مقتنيات الملك بالتالي، وإن كان لا يقيم في هذا البناء، أو ربّما كانا تابعين لقصر ليريا القريب جدّاً، هما حصانان أرستقراطيان على كل حال. رأيتُهما يمرّان معجباً بارتفاع قامتيهما وقِدَم عهدهما في الوجود، حصان يمتطيه فارس، أما الفرس، فكانت من غير فارس في الليل، وسُمع هدير رعد من بعيد، فأجفلت الفرس، وليس الحصان، وأبدتْ أنها ستشبّ، فوقفتْ على قائمتَيْها الخلفيّتَيْن للحظة، وكأنّها عفريت، ورفعت ساقَيْها وكأنّها تريد أن تهوي فوقي، وتسحق رأسي بسنبكَيْها العجيبَيْن، وتُرخي بثقل جسمها الضخم عليّ، وأموت موتاً رهيباً، موتاً مضحكاً. لم يدم التهديد طويلاً، فقد هدّأها الفارس فوراً بصوت واحد، وبإشارة واحدة؛ فرس في الليل، هذا ما يحسبه الكثيرون حتّى الإنكليز أنفسهم الذين تشير كلمتهم nightmare إلى هذا المعنى، وهي كلمة ترجمتها الصحيحة: "كابوس" لكنها حرفياً يبدو أنها تعني "فرس في الليل، أو فرس ليلية"، وليس كذلك، هذا ما درستُه في صباي أيضاً، والكلمة mare لها مصدران تبعاً لكونها

مفردة وحيدة، أو مقرونة بكلمة night (ليل)، فإذا كانت تشير إلى الفرس، فهي تأتي من الأنغلوسكسونية mere التي لها هذا المعنى نفسه، أما إذا كان معناها "كابوساً" فمصدرها mara إذا لم تخنّي الذاكرة، وتعني "الحضون incubo" أي الروح الشّرّيرة أو الشيطان، أو الرّئي الذي يجثم أو يرقد فوق النائم، ويسحق صدره، ويُسبّب له ضغط الكابوس، مقيماً معه علاقة جسدية. فإذا كان النائم ذكَراً، كانت الروح الشّرّيرة أنثى، وتسمى المحضون (Sucubo)، وتكون من تحت، وإذا كان النائم امرأة كانت الروح الشّرّيرة ذكَراً، فتسمّى حينئذ (حضوناً)، وتكون من فوق: فلأثقلْ على روحكَ غداً، ولأكنْ رصاصاً في جوفكَ، يودي بكَ إلى الخراب والعار والموت. ولعلّ الBanshee الذي يُنذر بأنينه وصياحه وأغانيه بالموت في إيرلندا، كان ينتمي إلى هذا الصنف، كنتُ التقيتُ في طريقي متسوّلة عجوزاً تائهة، ربّما كانت Banshee ما يزال يجهل أيّ بيت يقصد هذه الليلة، ليرفع عقيرته بالنحيب، ربّما كانت تسير صوب ما كان بيتي ذات مرّة، وأصبحت لا أقطنه اليوم، وبالتالي سأكون بمنجى، لكن ثيليا لن تكون كذلك، لأن ذلك البيت كان ما يزال بيتها، وهي الآن ليست فيه وحدها، كما قالت لي، وإنّما كانت تُتاجر بجسدها هناك. فكّرتُ في ذلك كله بسرعة قصوى، بينا كان الحصان والفرس يبتعدان مخلّفين وراءهما رائحتهما النفّاذة، ويحملان ضوضاءهما من عهد الطفولة إلى حيث لا أدري، والتّطيّر شكل من التفكير، شكل يُبرز التّداعيات، ويُنظّمها، هو إثارة ومرض، لكن كلّ تفكير، في الواقع، مريض، لذلك لا يُفرط أحد قطّ في التفكير، أو لا يحاول أحد تقريباً أن يصنع ذلك.

خرجتُ إلى إسفلت الشارع محاولاً أن ألمح سيّارة أجرة في كلا الاتّجاهين، فعبرتُ الشارع، ثمّ عبرتُهُ مرّة أخرى في الاتّجاه المعاكس، ومرّت عربتان، ثمّ سيّارة أجرة شاغرة، أوقفتُها ملحّاً، وكنتُ حسن الحظّ بذلك،

وقلتُ لسائق السّيّارة عنوان بيتي القديم، وقد أتى عليّ حين طويل، لم أذهب إليه، ولم أطلب إلى أحد أن يقلّني إليه، بيت كنتُ ألفتُه مدّة ثلاثة أعوام. ولمّا وجدتُ نفسي أمام بوّابته التي طالما دخلتُها خلال ليال، وغادرتُها خلال نُهَر كثيرة دامت تلك الأعوام. وتنبّهتُ إلى أني كنتُ ما أزال أحتفظ بالمفاتيح مربوطة بحلقتها، فمددتُ يدي إليها، وهناك عادات يصعب استئصالها.. وكان بإمكاني الدخول، إذا لم تكن غُيِّرتِ الأقفال، بإمكاني أن أفتح المصعد المعروف، وأصعد فيه حتّى الطابق الرابع، وأن أفتح هناك الباب الأيمن، وأتحقّق بأمّ عيني من أن مكروهاً لم يقع تلك الليلة، ولم يطف في المكان رئي ما، وأن ثيليا رويث كومندادور ما تزال حَيّة سالمة في سريرها سواء أكانت مُرافقة أم وحيدة - ولعلّ ديئان ما كان ليرغب في معرفة شيء آخر عدا ذلك، لو شك في شيء ما على البُعد في لندن.. قد كانت انقضت ساعة ونصف الساعة منذ انطلاقي إلى الشارع، مدّة مضاجعة أو مضاجعتَيْن اثنتَيْن، إذا كان يتخلّلها قلق شديد، ذلك ما كان يسمّيه الكلاسيكيون conticinio، وهو اصطلاح لاتيني يعني ساعة من الليل، يلتزم فيها الناس الصمت جميعاً باتّفاق مشترك - يوجد فيه السابقة con وإن كانت هذه الساعة غير موجود في مدريد، ولربّما كانت ثيليا بصحبة أحدهم، وصارت الآن وحيدة، وربّما انصرف الطبيب أو أيّاً يكنِ (الحضون) بعد أن قضى وطره، لأننا - الأرواح الذَّكَرية الشّرّيرة - ليس من عادتنا البقاء، لنرى الأثر الذي نخلّفه. وإذا لم يكن منصرفاً، فلسوف أخرج من شكوكي أخيراً حيال ثيليا وفكتوريا، وقد أرى الرجل، إن كان أشقر وذا قرنين ناتئين أم لا، إن كان شيئاً آخر، إن كان عريساً، وفي الأحوال كلها هو عريس ضرّ، وسوف ينتاب كلا العريسَيْن ذعر مُميت: العريس الذي ما يزال حينئذ زوجاً انبثق في منتصف الليل مستعيناً بمفتاحه، وقد فاجأه وهو في السرير مع مَن كانت ما تزال زوجة بيروقراطيّاً،

ولربّما خشي العشيق أو الزبون للحظات معدودات مشهداً هزليّاً أو تراجيديّاً، فيستر نفسه بالملاءات، وينظر إلى جيب معطفي، ليرى إن كنتُ أُخرج منه يداً، تحمل السلاح، فيموت موتاً أبعث على الإضحاك والرهبة. وكان مغرياً محاولة ذلك لأسباب شتّى جادّة وسخيفة. نظرتُ من الرصيف الآخر إلى فوق، إلى النافذتَيْن اللتَيْن كانتا نافذتي الشّقّة، لأنهما نافذتا بيتي حتّى عهد ليس بعيداً، هما نافذة المخدع ونافذة الصالون. بل كانت إحداهما في الواقع، باباً ينفتح على السطيحة الكبيرة، ولطالما تعشّينا فوق تلك السطيحة في الصيف مدّة ثلاثة أصياف من الزواج، كان كل شيء غارقاً في الظلمة، ولربّما أجرت ثيليا بعض التغيير منذ أن هجرتُها، ونقلتُ غرفة النوم إلى الجانب الخلفي الذي يطلّ على الفناء، لم أجد شيئاً يشير إلى وجود الحياة في البيت، كان بيت ناس نيام أو أموات، وكلهم في حالة سُبات، وما كان يُرى أيّ شكل يخلع أيّ ثوب أو يرتديه. وتردّدتُ، وسمعتُ ضوضاء زجاج وأصواتاً تترى ومخنوقة ليست بعيدة، ربّما كانت تُرتكَب جريمة سرقة في أحد المحّلات، إذ دقّ بعد ثوان قليلة جرس الإنذار، وهذا لم يمنع الزجاج من أن يتابع تحطّمه، أو اللصوص من الانهماك في السرقة، فنحن نعلم أن أجهزة الإنذار في مدريد تنطلق تلقائياً، ولا يأبه بها أحد، فهي غير مُجدية؛ لا شك في أن السرقة تتمّ على بُعد وحدات سكنية عدّة. صمتت صافرة الإنذار، وحلّ محلّها هدير رعد آخر، كان هذه المرّة جدّ قريب حتّى شرعت السماء تمطر فوراً قطرات ثخينة عل أوراق الشجر المتساقط على الأرض الرطبة، على الوحل الذي يشبه دماً في سبيله ليجفّ، أو شعراً أسود ملتصقاً، لمْ يكن أحد سواي في الشارع، ليبحث عن ملجأ واللصوص بعيدون عنّي، وربّما كانوا أنهوا مهمّتهم، فعبرتُ، واحتميت بظُلّة بوّابة البيت، ولمّا صرتُ هناك، لم أستطع تفادي تجريب مفتاحي القديم، فلم يجد مقاومة. حينئذ لم تكن

ثمّة حاجة إلى التفكير في أن أخطو الخطوات التي خطوتُها ألف مرّة، خطى يخطوها المرء تلقائيّاً أو يخطوها آليّاً، والمصعد يكون في الطوابق العليا دائماً، وليس في الطوابق السفلى قطّ، إذ يجيء أحد ما دائماً بعد آخر مَن يخرج من الخارجين، أحد من الطوّافين ليلاً أو أنا ذاتي وثيليا، هي كانت جدّ شابّة، ويسرّها أن تخرج ليلاً، وكنّا ندخل معاً مثل كل زوجين حقيقيين. وكنتُ أصعد الآن وحيداً ومنفعلاً وواضعاً قلبي في قبضة يدي، وخليّ البال في آن واحد، لأن التعمية تروّح عن النفس وتقلق، وأدخلتُ المفتاح في قفل باب الدخول بحرص كبير تحاشياً لكل ضوضاء، وكأنّي (برغلار) أو لصُّ أبنية يتسلّق ويتسلّل، وهكذا كان حالي تلك اللّحظة سوى أني لم أكن أسعى لسرقة شيء، وإنما كنتُ أسعى للحصول على معرفة إن كانت حَيّة، أو إن كانت هي هي فقط، وأهدّئ روحي بتلك المعرفة. لكنْ، إذا لم تكن حَيّة، وإذا لم تكن هي هي؟ إذا لم تكن حَيّة، فلا شيء يدعوني لأسير على رؤوس أصابع قدميّ، بل على العكس من ذلك، لكان ينبغي لي أن أشعل الأضواء، وأشعر بالضُرّ، وأصرخ من الألم والنّدم، وأحاول أن أُحييها بقبلاتي، وأقنط، وأُعلم طبيباً، وأُعلم الجيران، وأهتف إلى أبويها وإلى الشرطة، وأشرح قصّتي. ما كان يُسمَع شيء، ولم أسمع شيئاً داخل الشقّة، وأطبقتُ الباب ورائي بحذر كبير، وكنتُ أعرف هذا الباب جيّداً، فلطالما دخلتُ منه وثيليا نائمة، إذا عدت متأخّراً في ليال، لم نكن نخرج فيها معاً. كنتُ أستطيع السير في هذا البيت في الظلام، لقد كان بيتي، ويعرف المرء أن يقيس المسافات، ويعلم أين قِطَع الأثاث والعوائق والزوايا والنتوءات حتّى إنه يعلم في أيّة نقطة من المشي يصرُّ الخشب، إذا وُطئ. تقدّمتُ عبر هذا الممشى، ودخلتُ الصالون الذي كان فيه ثمّة ضياء يجيء من المصابيح، أو أحد النيونات الخارجيّة، أو السماء التي تبثّ وإن تكُ مُغمّة عاصفة، وكان ضجيج العاصفة يخمّد وقع خطاي، فكان من

الصعوبة بمكان أن تسمعها، أو يسمعاها مع تلك الرعود وذلك المطر الذي ينصبّ انصباباً فوق السطوح والسطيحات والأشجار والأوراق المتساقطة على الأرض. ويمكن للوهج أيضاً أن يُوقِظها، أو يُوقِظهما على شكلٍ مستقلّ عن خطاي المسالمة الخافتة، وعن الإحساس الباطني بوجود آخرين، يحسّ به المرء، وإن يكن نائماً، وليس كذلك ميّتاً. كنتُ أنا الروح الشيطانية الذَّكَرية والشبح الذي قدِم الآن لتعكير صفو أحلامها، أو لاكتشاف جثّتها، كنتُ أنا ولا أحد غيري، وربّما كنتُ غير مسالم جدّاً. لم تكن أشيائي في مكانها، إذ كنتُ أستعمل قسماً من الصالون مكتباً أحياناً، كيلا أظلّ ساعات طوالاً في المكان ذاته، إذا انكببتُ على العمل، كنتُ أكتب المسلسلات في الاستديو والخطب المكلّف بها في ركن من الصالة التي كان فيها شيء من الاتّساع، أمّا المنضدة التي كنتُ أستعملها، فأصبحت غير موجودة، ولا الآلة الطابعة بالتالي، ولا أوراقي ولا قلمي ولا مَنفضتي ولا كُتُب مراجعي، فلا حاجة لشيء من هذا بعد اليوم في هذا البيت. وما تبقّى بدا لي في الظلمة كسابق عهده، فلم تُجرِ فيه ثيليا تغييراً، ربّما لأنها ما كانت تملك نقوداً كافية لإحداث التغيير الذي ربّما كانت تهواه. إذا رجعنا إلى مكان نعرفه جيّداً، ينضغط الزمن الوسيط أو حتّى يمّحى ويُلغى للحظة، وكأنّنا لم نغادر المكان قطّ. إنها الفسحة الساكنة من الوقت ما يجعلنا نرحل في الزمن. وواتتني الرغبة في أن أجلس على مقعدي، وأدخّن، وأقرأ كتاباً. لكن ذلك غير ممكن، لأنني ما أزال على جهلي وحالة اضطرابي في صعود، وكذلك شعوري بالخطر وخوفي الليلي والحاجة الملحّة للتّحرّي والخوف من أن أعرف، والرغبة في طمأنة النفس، كان ينبغي لي أن أفكّ روابطي وأفكاري، وأبددّ تطيّري. وتجرّأتُ حينئذ على الدنوّ من البابين المنزلقين ذَوَي اللون الأبيض اللذين يصلان الصالون بالمخدع، وكنّا نُطبقهما دائماً كلّما اضطجعنا، وإن كان لا يوجد أحد قطّ

سوانا، لكنها حركة تُوحي بالحميمية والحياء من العالم الذي ما كان يرانا، وبذلك كنّا نعزل نفسينا عن سائر البيت كيما ننام ونتعانق وأعيننا مفتّحة. وكذلك كانا مُطبقين الآن أيضاً، وكان طبيعيّاً أن تحافظ ثيليا على عادتها سواء أكانت وحيدة أم مُرافقة، وسيكون في غاية الغرابة أن يلتفت الطبيب أو العشيق، فيُطبقهما خلفه بعد أن يغادر المخدع مخلّفاً غنيمته، عمله. وهذا ما جعلني أفكّر في أنّ شيئاً ربّما لم يحدث، وهذا التفكير أمدّني بالشجاعة، لأضع يدي على المقبض، وأفتح شقّاً ببطء شديد ناظراً من خلاله بلصق عيني به، فلم أر شيئاً، لأن الظلمة كانت أحلكَ في المخدع، إذ كانت ثيليا أسدلت الستارة المضلّعة إسدالاً كاملاً مغتنمة فرصة عدم وجودي، فهي كانت ترغب فيها مُسدَلَة، وأنا أرغب فيها مرفوعة، وتوصّلنا إلى اتّفاق وسط بأن تكون مطبقة مع ترك فرجة، فلا تتأذّى هي من ضوء الصباح، وأستطيع أنا أن أعلم إن طلع الصباح، أو لم يطلع إذا استيقظتُ، كان شائعاً أن أأرق خلال الليل، فما كنتُ أنام نوماً هانئاً ولا متواصلاً، ورحتُ أسحب البابين نحو الطرفين، وما أزال أسحب حتّى فُتح الباب كاملاً، ولم أكن واثقاً برغبتي في فتحه، فالحركات أسرع من الإرادة، أسرع من نعمٍ أو لا، وربّما، وبينما كل شيء تواصل أو زال، فلا بدّ لنا من أن نعطي الزمن مضموناً، الزمن الذي يضغط ويتابع جريانه من غير انتظار لنا، فنحن نسير أبطأ منه حتّى تأتي ساعة من الدهر لا نستطيع فيها أن نظلّ قائلين: "لا أدري، هذا لا يعنيني، سنرى فيما بعد". رغبتُ في رؤية ثيليا وحيدة في السرير، وكأنّنا لم نفترق قطّ، ولم نُعرض عن بعضنا، أن أرى وجهها نائمة، وهو وجه أتذكّره جيّداً، واضعة ذراعها الأيسر تحت المخدّة، وهكذا كانت تنام وهي تتنفّس تنفّساً هادئاً. لم ألمح حركة ولم أسمع رِكْزاً، وانتظرت إلى أن يضيء ضوء الصالون الخافت الذي تجود به السماء الهائجة والشارع الذي يجلده المطر، داخل المخدع إضاءةً ضعيفة، وإلى أنْ تعتاد عيناي

ظلمته، لأميّز شيئاً. رأيتُ بقعة الملاءات البيضاء، وكانت أوّل شيء استطعتُ أن أميِّزه، كما قد تكون هي رأت، أو هما رأيا بقعة معطفي البيضاء لو استيقظا تلك اللحظة، وتحرّيا الفراغ أمامهما. ولقد وقفتُ في وقت لاحق بعيد أمام حجرة طفل، وكان الطفل هو الذي رآني، وكان مضى من اليقظة إلى النوم، وليس العكس، ولمّا صارت عيناي أكثر اعتياداً للظلمة، لمحتُ شكلين على سرير الزوجية، أو كتلتَيْن تحت الأغطية، كانت ثليا راقدة على جانب السرير الأيمن، أما الجانب الذي يخصّني، فلم أكن أنا فيه، وإنما رجل آخر، فالأماكن ذاتها يحتلّها أشخاص مختلفون، وهذا يحدث كل آن، ليس فقط في الزمن الذي نضطرّ إلى أن نعيشه، ولا في أثناء حلول أحد محلّنا حلولاً واعياً أو دقيقاً أو مفروضاً، ولا في أثناء الاغتصاب، وإنما مدى القرون أيضاً في هذا الفضاء الساكن. فبيوت الذين يمضون أو يموتون يحتلّها أحياء أو وافدون جدد، يحتلّون مخادعهم وحجرات حمّاماتهم وأسرّتهم، يحتلّها ناس ينسون أو يجهلون ما حدث في هذه الأمكنة، في وقت لم يكونوا وُلدوا فيه، أو لمّا كانوا أطفالاً يعيشون زمنهم اللامجدي. فما أكثر الأشياء التي تحدث من غير أن يعلم بها المرء أو يتذكّرها: لا يوجد سجلّ لشيء تقريباً، لا للأفكار ولا للحركات ولا للأحلام والقسوة والإهانة، لا سجلّ للكلمات التي قيلت أو سُمعت، ثمّ تُنكَر أو يُساء فهمها أو تُحوَّر، ولا للوعود التي قُطعَت، ولا يأبه بها أحد حتّى ولا الذين قُطعَت لهم، كل شيء يُنسَى ويسقط بالتقادم، وكل ما يُصنَع على انفراد ولا يُسجّل، وكل ما لا يُصنع على انفراد تقريباً، وإنما بمرأى ومسمع، فما أقلّ ما يبقى من كلّ فرد، وما أقلّ ما له ثبات! وهذا القليل ما أكثر ما يُسكَت عنه! وما لا يُسكَت عنه، يُتذكَّر منه بعدئذ جزء ضئيل فقط، ولمدّة قصيرة من الزمن، فالذاكرة الفردية لا تُنقَل نقلاً، ولا يهتمّ بها مَن يتلقّاها، وإنما يصنع ذاكرته الخاصّة، ويمتلكها. كلُّ زمن عَبَث، وليس زمن

الطفل فحسب، أو كل زمن مثل زمنه. وكل ما يحدث، وكل ما يبعث على الحماس أو يؤلم في الزمن يتجلّى للحظة واحدة فقط، ثمّ يضيع، وكل شيء زلق كالثلج المتماسك، كحلم ثيليا والرجل الذي يحتلّ موضعي، هذه الساعة، بل هذه اللحظة ذاتها. فقد تلاشى هذا الحلم إلى الأبد أمام عينَيّ ذاتيهما، وإن لم أكن مَن جعله يتلاشى، على الرغم من وجودي: وإنما هو برق تلاه رعد أشدّ من الرعود السابقات، أضاء البيت بغتة، أضاء الصالون والمخدع وطيفي الساكن الواقف لابساً معطفاً، وذراعاي مبسوطان ممسكان بالبابين الأبيضين؛ وأضاء السرير، حيث انتفض فيه شكلان أو كتلتان، أو أنهما استيقظا معاً، وقد انتُزعا من نومهما، وثيليا تصرخ مثل ذلك الملك المذعور من رؤاه، وعيناها مفتّحتان جدّاً، ويداها على أذنيها، كيلا تسمع الرعد أو عواءها ذاته. نظرتُ إليها وحدها، نظرتُ إلى جذعها العاري كجذع مارتا تييّث، وإلى ثدييها الأبيضين المكتنزين اللذين كنتُ أهملتُهما، وها أنا ذا أهتمّ بهما مرّة أخرى هذه الليلة، إن كانت هي فيكتوريا أيضاً، فيكتوريا شارع الأخوَيْن بيكر. جعلني الوميض الشاحب أرى هذا، وأرى ثياباً مكوّمة على كرسي، هي يقيناً خليط من ثيابه وثيابها التي خُلعت في آن واحد، وربّما جعل كل منهما يخلع ثياب الآخر. ولم أرَ الرجل، لم أرَ وجهه، وإنما رأيتُه على شكل بقعة بيضاء فقط كالملاحف، ولم أرَ إن كان طبيباً أشقر ذا صدغين بارزين جدّاً، أو إن كان فرداً آخر، لم أره ولم ألمحه قطّ، أو أحداً ما معروفاً أو صديقاً كُرويبرِّث ديتورِّس مثلاً. (أو ديئان أو بيثِنْثه اللذين سألبث سنتَيْن ونصف السنة حتّى أعرف اسميهما وأسمع صوتيهما وأعرف وجهيهما). وربّما كان الشخص أنا ذاتي. واختفى الضياء قبل أن أستطيع رؤيته، وليس هذا فحسب، بل كان ينبغي لي أن أصرخ أيضاً، ربّما أصرخ محرّكاً قبضتيّ المرفوعتَيْن كَمَن يطالب بالثأر، وإن كنتُ لا أنشد أي ثأر، وأطبقتُ البابين الأبيضين، ودرت نصف دورة فزِعاً، وخرجتُ راكضاً

عبر عتمة الصالون والممشى مذعوراً من نفسي ذاتها، ومن الأثر الذي تركته - . كنتُ أعرف المكان، فلا يوجد ما يدعو إلى تعثّري بشيء، وإن كنتُ هارباً كروح يحملها الشيطان تبعاً لما يقال في لغتنا. كان بإمكاني بلوغ باب الدخول قبل أن يُدركا هما حقيقة الرجل ذي المعطف الذي تجسّس عليهما من عتبة الحجرة وسط العاصفة، وقبل أن يصحُوَا من الذعر الذي استيقظا عليه، ربّما فكّرا أنهما عانيا كابوساً مشتركاً كابوس الزوج نفسه أو الروح الشيطانية الذَّكَر الذي زارهما، ويشدّ الخناق عليهما حتّى ينتزع النوم المفزع منهما، كانا عاريَيْن، ولن يخرجا لملاحقتي، كانا عاريَيْن على الأقلّ من الخصر وما فوق، وهذا ما كنتُ رأيته على ضوء البرق. وكانا حافيَيْن، وكنتُ أستطيع بلوغ المصعد، وقد بلغتُه، كان ما يزال في الطابق نفسه، ونزلتُ فيه، واجتزتُ البوّابة، وضغطتُ على الزّرّ، ووصلتُ الشارع الذي يسقط فوقه وابل المطر الذي بلّلني في ثانية، بينما كنتُ أركُض، ووُفقّت إلى التفكير براحة في أن ثيليا ما تزال حيّة، وإن لم تكن وحيدة، وأنا لن أعرف أبداً إن كانت هي فيكتوريا أيضاً. وبينما كنتُ أولي هارباً، وأغادر وأنزل وأتبلّل وأركض، كان مسار تفكيري الرئيس يتّخذ اتّجاهاً آخر، خاصّة أني كنتُ أفكّر: "ما أقلّ ما بقي منّي في هذا البيت! وما أقلّ ما له ثبات!" كانت أغصان الأشجار تضطرب كأذرع غاضبة في عصيان مَدَني.

عبرتُ شارع لاكاستيانا إثر لويسا التي كنتُ قضيتُ فترة معيّنة وأنا أمعن النظر في ساقيها، فما كنتُ أشعر الآن بنفسي بائساً، وما كنتُ أخجل من النظر إليهما، ربّما لأني كنتُ أنظر بملء راحتي وبغياب عيون مرائية وشهود ممكنين. أو ربّما ما كنتُ أملك وسيلة أخرى، لمّا تبعتُها، غير أن أتبعها، وما كنتُ راغباً في شيء آخر سواه. وأيّ شيء أرغب فيه خير من ذلك؟ وتغلغلت في شوارع السفارات، حيث لا توجد عربات واقفة، يجلس فيها أشخاص ولا مأبونون ينتظرون على مقاعد بصبر واستسلام للمحتوم. طافت بأربع وحدات من الأبنية وتوقّفت عند بوّابة الخامسة التي كانت قصدها. وكان واضحاً من طريقة مشيها مذ خرجت من المحل أنها كانت تعلم جيّداً إلى أين هي ذاهبة، اتّجاه يعلمه دائماً مَن لا يسير في خطّين مستقيمين متعامدين، إذا كان يستطيع أن يقطعه عرضة، إنها طريقة في اختصار مسافة معروفة مسبقاً. كانت البوّابة أكثر تواضعاً وإهمالاً من مثيلاتها في شارع حسن ومنطقة راقية، بل لم تكن متواضعة جدّاً، وبالتالي لم تكن مُهمَلَة، وإنما كانت قديمة قليلاً فحسب، وتحتاج إلى ترميم. لم يكن في المنطقة حانات قريبة، أستطيع الجلوس فيها بانتظار خروجها ومراقبتها، مهما تلبث، فربّما كان البيت بيتها، فهي لن تخرج منه إذاً، بقية يومها، وإن بدا لي أنه ليس بيتها من الطريقة التي دخلت بها، فالمرء يبحث عادة عن المفاتيح في جيبه، أو في حقيبة اليد، إن كان امرأة خاصّة، إذا كانت لويسا أو مارتا تييّث. وتذكّرت كلمات لويسا الأخيرة مخاطبة ديثان

"أراكَ فيما بعد في البيت". ولقد فهمتُ منها أنها كانت تشير إلى كونده ديلاثيميرا، في الواقع كانت كلمات مبهمة، فكلمة /بيت/ وبما تعني أيضاً بيت لويسا الذي قد يكون هذا البيت عينه. وعزمتُ على الانتظار، وأمهلتُ نفسي نصف ساعة، كنتُ أعلم أنها قد تمتدّ حتّى ثلاثة أرباع الساعة، إن قضت الحاجة بذلك، فابتعدتُ بضع خطوات، واستندتُ إلى زاوية، كيلا أكون بمرأى كثيراً، ولكي أتمكّن من الاختفاء في ثانية، وأشعلتُ لفافة، ورحتُ أتسلّى بقراءة الصحيفة الأجنبية التي ابتعتُها، وخفّف عنّي أني كنتُ أستطيع فهمها، كانت صحيفة لاريبوبليكا الإيطالية، واللغتان الإيطالية والاسبانية قريبتان من بعضهما، وتسلّيتُ بأفكاري أيضاً. وانتظرتُ. انتظرتُ. كنتُ أقرأ مقالاً عن أزمة اللّعب في فريق جوفينتوس ديتورين، التي قد تكون عائدة إلى اتّساع نطاق المشجّعين المسيئين ونمُوّهم نموّاً مفرطاً في المدينة التي ينتمي إليها الفريق، أو أني كنتُ أفرطتُ في لعبة تشابه اللغتَيْن - بالحريّ كان ذلك السبب الذي جعلني أغفل، ولا أكون على يقظة، أو ربّما رأيتُ نفسي أنتظر أقلّ كثيراً ممّا كان متوقّعاً، فلم يبلغ الانتظار ربع ساعة، لذلك لم أكن محتاطاً، لمّا أرجعتُ البصر ناحية البوّابة للمرّة الحادية عشرة في هذه الدقائق الإحدى عشرة أو الثلاث عشرة دقيقة، فرأيتُ الباب مفتوحاً، بدلاً من أن يكون منفرجاً، وبدلاً من خروج الجيران المجهولين كان خرج خلال هذه المدّة القصيرة شخصان اثنان، ووجدتُ نفسي وجهاً لوجه ولويسا تيبّث تنظر إليّ بدهشة من مسافة قريبة، ووجدتُ نفسي إزاء وجه ونظرة أخرى أعرفها، كانت تنظر إليّ من علوّ أخفض كثيراً، من عُلوّ قامة طفل في الثانية من عمره: إنه الطفل أوخينيو الذي كان متدثّراً جيّداً، ويلبس قلنسوة من الجوخ مبطّنة، وذات رباط مزرّر يمرّ تحت الذقن ويحمل صدى من قلانس الطيّارين القدماء، وإن كانت ذات حرف من الأمام، وبالتالي هي قبّعة، وليست قلنسوة. كانت

تمسك به لويسا بيدها، وقد تخفّفت الآن من أحمالها، فما كانت تحمل باليد الأخرى سوى حقيبة اليد وأحد الكيسَيْن من عند آرماني، كانت تركت الكيس الآخر في ذلك البيت، ويحوي القميص أو التّنّورة هدية تيّيت إلى كنّته في ذكرى ميلادها، وكذلك الهديّة المبتاعة من المجمّع التجاري، أي لوليتا وربّما كانت هديّتها ذاتها، وهي شيء زهيد، يقتصر على كتاب في غلاف بسيط، أو هدية غريبة - وقناني البيرة والسجق والآيس كريم، ذلك كله كان يقيناً من أجل العشاء البسيط والسريع، ولم تستطيع ماريا فرناندث بيرا أن تبتاعه، إن كانت لبثت قسماً من الصباح، وقسماً آخر من المساء لرعاية الطفل، فتعهّدت أخت زوجها أن تجلب الأطعمة لها ولغيّرمو متى جاءت لتأخذ ابن أختها يتيمهم جميعاً.

صارا فوق رأسي الآن، صارا على بعد خطوتَيْن منّي، ربّما كانا خرجا بعد أن ألقيتُ نظرتي ما قبل الأخيرة، وأفسحتُ لهما المجال، ليسيرا من غير أن ألحظهما لانشغالي بالقراءة حول الشرّ ولعبة كرة القدم في إيطاليا: كانا على وشك أن يجتازا الناصية. أو ربّما كان الأمر أبسط من ذلك، فربّما كشفتُ عن نفسي لتعبي من التّحرّك في الظلام. وفكّرتُ إن كان الطفل سيتعرّف إليّ، فأنا لا أعلم كيف هي ذاكرة الأطفال الصغار، أو إن كانت تختلف من طفل لآخر، فقد انقضى أكثر من شهر على رؤيته لي، لكنّ الثابت أنه كان رآني طيلة فترة طويلة، وفي ليلة كانت كارثة عليه، كانت وداعاً لعالمه: رآني خلال عشاء لا ينتهي، مارس فيه دور الحارس على أمّه، ورفض أن يضطجع بسبب وجودي تحديداً. وقد كان سمع اسمي مرّات عدّة، كما كنتُ سمعتُ اسمه ("هيّا، أوخينيو، يا حبّي")، كانت قالت له مارتا في وقت ما، "هيّا إلى السرير أو أن فيكتور سوف يغضب"، ولم يكن صحيحاً أني كنت سأغضب، لكن صبري كان آخذاً بالنفاد). ثمّ رآني مرّة أخرى بعد انقطاع أحلام نومه البسيطة، لمّا فُتح باب المخدع الموارب،

واستند إلى شقّ الباب والمصّاصة في فمه والأرنب في يده من غير أن تتنبّه أمّه له، وكان وضع يده على ذراعي، وقدتُه من هناك مُخفياً عنه حاملة الثديَيْن أو الكنز الذي ما أزال أحتفظ به، وحائلاً بينه وبين وداعها، لمّا كنتُ ما أزال أجهل أن ذلك سيكون هلاك عالمه، وأنها المرّة الأخيرة التي سيراها فيها، ولو علمتُ ذلك، لسمحتُ له بالدخول، ولو كانت هي عريانة. - إيتّورا - قال الطفل مشيراً إليّ بسبّابته، قال ذلك مبتسماً وقد تذكّر اسمي، وأحسب أن ذلك أثار مشاعري قليلاً.

لبثت لويسا تبيّث ناظرة إليّ بفضول وإمعان، وقد صَحَتْ من الدهشة. حينئذ تنّبهتُ إلى مهزلة حضوري ومظهري حاملاً الصّحيفة الأجنبية بيدي، وواضعاً على الأرض الكيس الذي كان يحتوي على شريط الفيديو 101 مئة كلب وكلب دلماسي الذي ما كان يعنيني في شيء، وآيس - كريم كان أخذ يذوب يقيناً، وأدركتُ أني سأُبطئ أيضاً في العودة إلى البيت، كذلك كان حذائي مبلّلاً، وكان الماء يخفق فيه كلّما خطوتُ خطوة، كان صوتاً شبيهاً بالدوس على ظهر مركب.

- لكنْ، ماذا تبتغي؟ - قالت لي بأسى، وخاطبتْني الآن مباشرة من غير تردّد، كما يصنع الشبّان، وكما نصنع جميعاً إذا توجّهنا ذهنيّاً إلى أحدٍ ما، وإن لم يكنْ بغرض شتمه، ولا لعنه، ولا تمنّي الخراب والعار والموت له، ولا لإخضاعه لوطأة سِحْر.

وأجفلتُ، وربّما احمرّ وجهي قليلاً، كما احمرّ وجهها، لمّا أحاط بها بخار الثلاجة البارد، لكنني أحسستُ أيضاً بالسرور والراحة بوضع خاتمة للتّخفّي ونهاية السّرّ على الأقلّ إزاءها، فقد انزاحت منطقة كانت مظلمة عن لويسا الأخت.

- قولي لي: ماذا اخترتِ أخيراً: التّنّورة أم قميص النوم؟ - سألتُها وأنا

أتلفّتُ في آن واحد، لألقي نظرة إلى ما في داخل الكيس الذي كانت ما تزال تحتفظ به.

خاطبتُها مباشرة أيضاً، وليس لدي أدنى شك في ذلك. يلاحظ المرء متى يمكن للغضب أن يتحوّل إلى ضحك، فيقضي حياته ساعياً ليصفح عن الآخرين، ليس بالمعنى الكوميدي فقط، وإنما بأوسع معنى للكلمة. وهذا له صلة بتعبير آخر غامض: "وقع منّي موقعاً حسناً" (أو أن الغموض فيما يشير إليه)، وليفوز بألا تُحصى عليه أخطاؤه وظلمه وتعسّفه والعثرات التي يرتكبها، وخيبة أمل مَن كان يثق به، وخياناته الصغرى، وإهاناته الصغرى، يعرف المرء دائماً مَن سيصفح عنه، على الأقلّ خلال وقتٍ ما، ومَن سيتغاضى عِنه، أو (يطنّش عنه) حسب التعبير العاميّ الذي أخذ يبتعد عن الاستعمال، وكذلك الصيغ اللفظية تتلاشى وتختفي من اللغة. ربّما كانت لويسا طيّبة القلب ونشيطة وعملية، لكنها قد تصبح طائشة، إن لزم الأمر. رأيتُ ذلك فيها تلك اللحظة، ولم ألحظهُ من قبل في أثناء الغداء، لكنها لم تكن تعيرني اهتماماً تقريباً، فقد جعلها صهرها وأبوها مثارة قليلاً، الأوّل بتردّده الذي يمسّها مباشرة، والآخر بنظرته المضجرة والرجعيّة للحياة، إنه رجل من زمن آخر، ما كان يفهم كثيراً، ولا يحاول أن يفهم، وأصبح في عمر لا يسمح له بأن يُجري تغييراً، أو يبذل جهداً انسجاماً مع شخصيته أو كونه كبيراً، وكان ينبغي لي مع ذلك، أن ألمح حينئذ شيئاً من طبعها السمح والسهل ودفاعها الحثيث عن ديئان والعطف الذي كانت تحسّ به نحوه، وإن كانت لا توليه كثيراً من الودّ والتقدير، وشعورها بالواجب نحو الطفل واستعدادها لتقديم العون وتغيير عاداتها - أو قل حياتها - ورغبتها في الصلح بين الأشخاص القريبين منها، وصمتها في أثناء الجدال بين الرجلين الذي استاءت منه، وحاجتها إلى الوضوح وربّما إلى الانسجام، وقدرتها على تصوّر الجانب الأسوأ في موت الآخر انطلاقاً من فهمها الضئيل

("ما يُقلقنا ربمّا كان التفكير فيه"، كانت قالت، "ومعرفته"). لم تعرني اهتماماً، لكني كنتُ على الغداء مجرّد أجير ودخيل، ووجودي معهم كان غير لازم، وإنما جعله ممكناً غفلة تيبّث. أمّا الآن، فقد صرتُ أحداً ما، ليس فقط أن اسمي صار يعني الكثير في فم الطفل المتعثّر، بل اكتسبتُ فوراً أهمّيّة أخرى، ومرتبة أخرى إن شئنا القول. فأنا الآن الشخص الذي اصطفتْه أختها الكبرى، ولا حرج على لويسا في ألا تعلم أني كنتُ فُضلة، أو فُضالة الفضالة: صرتُ أحداً ما كانت مارتا شاطرتْه وصالاً حميماً في ساعات حياتها الأخيرة التي ما كان بالإمكان الظنّ أنها ستكون أخيرة، لكنها كانت كذلك، وهذه اللّحظة الأخيرة، كانت تحدّها إلى الأبد جزئياً. فنحن نرى حياتنا كلها على ضوء آخر شيء أو أحدثه عهداً، فتحسب الأمّ أنه كُتب عليها أن تكون أمّاً، والعانس عازباً، والقاتل قاتلاً، والضحيّة ضحية، والعاهرة عاهرة، إن كانت تعلم أنها قد تموت إبّان تعهّرها، وإن كانت هذه الكلمة سقطت من الاستعمال. مارتا لم تعلم ذلك، لكني أنا علمتُه. فأنا مَن يقصّ القصّة، ومَن يأخذ بقصّها، ومَن يسمح للآخرين بأن يتكلّموا، "كل مَن يتكلّم عنّي لا يعرفني، وإذا تكلّم اغتابني". وكذلك صار بإمكان لويسا أن تقصّ روايتها المتحيّزة والذاتية والخاطئة والزائفة عن عهد مراهقتها، وهذا امتياز لها، كما هو امتياز لي، فلا يوجد أحد يُكذِّبها، وفي هذا يكمن تفوّق الأحياء البائس وغرورنا المؤقّت. ولو كانت مارتا حاضرة، لكانت أنكرت بلا ريب ما قالته لويسا، أمّا هي، فكان حسبها أن تمعن النظر إلى فتى حتّى تثير حسد الأخت الصغرى، وتنطلق آليّة الشعور بالاغتصاب في العمل. كلا الأمرين يمكن له أن يكون صحيحاً، كما قد يصحّ القول: "أنا لم أسعَ إلى ذلك، ولم أُردْه" أو "لقد سعيتُ إلى ذلك، وأردتُهُ"، كل شيء يكون في الواقع، بشكل ما وبنقيضه، فلا يصنع أحد شيئاً وهو على قناعة بعدم عدالته، لذلك لا توجد عدالة، ولا تسود قطّ، كما قال (السُّهلي) في عرض

أفكاره غير المنتظمة: وجهةُ نظر المجتمع هي ليست وجهة نظر أحد، بل هي وجهة نظر الزمن، والزمن زَلِق كما هو الحلم والثلج المتماسك، ويسمح دائماً بالقول: "أنا لستُ ما كنتُ"، إنه أمر سهل ما وجد زمن.

لم تضحك، أو لم تضحك كثيراً، وإنما ابتسمت نصف ابتسامة مكبوتة، وعلمتْ أن لويسا أحسّتْ فوق إحساسها بالدهشة والاستياء، بالراحة أيضاً، فقد تبعتُها وتجسَّستُ عليها وأبديتُ اهتمامي بها، وتجشّمتُ العناء من أجلها، وراقبتُها، وأبديتُ رأيي بثوبها ومشترياتها. ألم تصطفني مارتا وأولي لويسا الآن جلّ اهتمامي؟ فما أفرحني بهذا الموت! وما أحزنني له! وما أحفاني به! "وما أسهل أن نغوي شخصاً أو يغوينا هو"، فكّرتُ، "وما أقلّ ما نتحقّق منه!" وشعرتُ بالثقة بنفسي وبطمأنينة، وزال الخجل والخوف عنّي، حتّى إني فكّرتُ فيما هو أعظم من ذلك، فكّرتُ فيما لم يخطر لي إطلاقاً منذ ثوانٍ قليلة سابقة: "إذا رفض ديئان العيش وابنه، وأبقتْه لويسا في بيتها، فلربمّا أصبح هذا الطفل ابني تقريباً، إن شئتُ، حينئذ لن أكون له ما حسبتُ أن أكون منذ البداية: ظلاً، أو (لا أحداً) من الناس، أو شكلاً غير معروف تقريباً راقبه مدّة لحظات معدودات من عتبة بابه، من غير أن يدري، ولن يدري أبداً بذلك، بالتالي لن يستطيع أن يتذكّره، فكلانا يرحل صوب تلاشيه ببطء، ولن أكون قفا الزمن، ولا متنه الأسود. أو سأكون كذلك حقّاً، لكنْ، ليس هكذا عفاراً قفاراً، وإنما تُضاف إلى ذلك أشياء أخرى، كأن أقوم جزئياً مقام عالمه الذي قُوّض وضاع، وأكون الإرث الخفي الذي يعوّض عن ليلة مشؤومة، والوجه الأبوي البديل، - ولن أكون المغتصب باختصار.. كلانا يسير صوب تلاشيه السير ذاته، لكنْ، على شكل أبطأ كثيراً، وبجهد أكبر أيضاً من أجل النسيان الذي ينتظرنا متربّصاً. وهكذا أستطيع أن أحدّثه ذات يوم عمّا كان عليه تلك الليلة". وفكّرتُ في أكثر من ذلك، فكّرتُ في لويسا ذاتها أيضاً:" ربمّا أكون الزوج الغائم الذي لمّا

يصل، والذي سيعينها على أن تظلّ زمناً طويلاً بين الأحياء المتقلّبين، في عالم من الرجال والدمى والصور والقصص المُختلَقة (والطائرات المتدلّية من فوق). يوجد أكثر من شيء يشدّنا إلى بعضنا البعض، فقد ربطنا كلانا رباط الحذاء ذاته.

- آه، حقّاً! - قالت مفكّرة ومُخفية بسمتها.، أو كنتَ في المحلّ أيضاً؟

- كانت التّنّورة تليق بكِ كثيراً. - قلتُ لها - حسن! كلا الغرضَيْن كان يليق بكِ، لكن التّنّورة كانت أليق.. ولم أُخفِ بسمتي، إذ كان ينبغي لي أن أقع منها موقعاً حسناً، فقد أصبحتُ أعزب مرّة أخرى منذ وقت ما.

- حقّاً! والآن ماذا نعمل؟ - قالت وكانت استردّت جِدَّها كاملاً، أو أنها أبرزت ضيقها، لكنها كانت ما تزال تشي بنفسها باستعمال صيغة الجمع، "ماذا نعمل"، وسط غضبها وجِدّها الصادقَيْن وغير الصادقَيْن، في آن واحد.

- فلنذهب إلى أحد الأمكنة، لنتكلّم بهدوء. - أجبتُها.

فنظرتْ إليّ بشكّ، لكنه كان شكّاً عابراً، ودام الخوف شيئاً قليلاً، أو هزمتْه الأسئلة الأخرى التي شرعتْ تطرحها، وطرحتْ عليّ سؤالاً، لم تستطع كتمه.

- والطفل؟ ينبغي لي أن أدعه في بيت مارتا، كنتُ على وشك أن أقوده إلى هناك الآن. أنتَ تعرف هذا البيت جيّداً من الداخل ومن الخارج، أليس كذلك؟ كانت الليلة التالية لموتها. كيف أمكنكَ ترك الطفل وحيداً؟

لمّا يصبح البيت في نظرها بيت إدواردو، ولا بيت أوخينيو، بلَ كان ما يزال بيت مارتا، فالمرء يُبطئ في التّخلّي عن عادته في استعمال جمل،

تسقط من الاستعمال، أو هي آخذة في السقوط ببطء. كان في سؤالها الأخير كثير من الجفاء، على الأصحّ، كان فيه رنّة من التعنيف، وقد نتأت شفتاها، فهي لم تكن تملك قدرة كبيرة على الغضب، بل كان لديها قدرة أكبر على البكاء. كان الطفل ما يزال ينظر إليّ بودّ، قد كان عرفني، ولا عليه أن يقول المزيد، ولا عليه أن يحتفي بي، وإنّما هم الراشدون الذين يحتفون. أقعيتُ حتّى مستوى قامته، ووضعتُ يدي على ظهره، فأراني قطعة شوكولا يمسك بها في يده. فكّرتُ في أنه قد يقول: "كولا". كان لوّث بها أصابعه وفمه. مكتبة t.me/ktabrwaya

- بإمكان الطفل أن يأتي معنا، ولمّا يتأخّر الوقت، يمكنكِ أن تقولي له إنكِ مكثتِ في البيت. - وأشرتُ إلى البوّابة التي أخفقتُ أيّما إخفاق في مراقبتها، وواتتني الجرأة أن أقترح على لويسا تعمية، وهو شيء يصعب تصوّره. ولم أجب عن سؤالها الأخير، وإنما عن سؤالها ما قبل الأخير. فأضفتُ: - يمكنك أن تدعيه في البيت الآخر، وأظلّ بانتظاركِ تحتُ. نعم، ذاك أنا مَن رأيتِ، كما أحسب، إذا كنتِ أنتِ مَن كان تلك الليلة في مخدع مارتا.

- أماتتْ وحيدة؟ - سألتْ بسرعة.

- لا، بل كنتُ إلى جانبها. - تابعتُ وأنا مقعٍ، وكنتُ أجيب من غير أن أرفع بصري.

- أتنبّهتْ إلى وضعها؟ أعلمتْ أنها ستموت؟

- لا، لم يخطر في رأسها ذلك في أيّة لحظة، ولم يخطر في رأسي أيضاً. بل كان موتاً خاطفاً جدّاً. - وما أدراني ماذا كان يخطر في رأسها، لكنني قلتُ ذلك، فأنا مَن يقصّ القصّة.

ولزمتْ لويسا الصمت. أخرجتُ حينئذ المنديل من جيب سترتي، ونزعتُ من يَدَي الطفل قطعة الشوكولا بمهارة وحذرٍ، كيلا يغضب، ونظفّتُ فمه وأصابعه الملوّثة.

- انظري، كم تلوّث! - علّقتُ.

- حقّاً. أعطتْه إيّاها زوج أخي. - أجابت لويسا. - ليأكلها في الطريق. ما أسوأ هذه الفكرة!

شرع الطفل بالاحتجاج، وآخر شيء كنتُ أرغب فيه أن أُثير بكاءه. فكان ينبغي لي أن أقع من خالته موقعاً حسناً.

- اسكتْ، ولا تبكِ، وانظر ماذا جلبتُ لكَ. - قلتُ له، وأخرجتُ من الكيس شريط الفيديو مائة كلب وكلب دلماسي. - أنا أعلم أنّه معجب بالصور المتحرّكة، فلديه صور تانتان، وقد شاركتُه النظر إليها. - شرحتُ الأمر للويسا؛ فهي لا تستطيع الافتراض قطّ أني لم أشترِ الشريط قصداً، وأني لم أفكّر بأيّ شكل في الطفل، ولا في أحد، وإنما هي مجرّد مصادفة. وهذا كان يساعدني على أن أقع منها موقعاً حسناً، وترى أني لستُ خسيساً. بحثتُ عن سلّة مهملات قريبة، وألقيتُ فيها ما بقي من الشوكولا وغلافها وصحيفة الجمهورية التي أمست تُزعجني، والكيس وقمع الآيس كريم الذي كان يسيل، فتلوّثت قليلاً، وأفدتُ من المنديل كيما أجفّف يدي، حتّى صار مقرّزاً، وألقيتُ به في السلّة أيضاً. وفكّرتُ: "ما أحسن حظّ شريط الكلاب الدلماسية!".

- يمكنكَ أن تغسل يَدَيْكَ. - قالت لويسا

- لا يهمّ.

لم نتكلّم في سيّارة الأجرة التي استقللناها بمبادرة منّي، وتحرّرت يداي مرّة أخرى، وفتحتُ الباب، وجلس الطفل في الوسط. إنه طفل هادئ، كان ينظر إلى غلاف الشريط مرّة بعد أخرى، كان يعرف الأشرطة، ويتصوّر ما تحتويه، وكان يشير إلى الكلاب الدلماسية ويقول:

- لاب! - وسرّني أنه لم يقلْ عاو - عاو - عاو.، ولا شيئاً آخر شبيهاً به، كما يصنع معظم الأطفال الصغار جدّاً حسب علمي.

سلكت سلوكاً حسناً خلال الطريق إلى كونده ديلاثيميرا. وتنبّهتُ إلى أن لويسا تييّث كانت تريد أن تفكّر وتكسب الوقت، وأن تعتاد تلك الرفقة غير المنتظرة، يقيناً كانت تعيد مشاهد، ساهمتُ فيها، ومشاهد لم أساهم فيها ليلتي مع مارتا والليلة التالية، لمّا كان ديئان ما يزال في لندن، وظلّت هي وأوخينيو على الأرجح، في البيت، في المخدع والسرير الذي وقع فيه الموت، ولم يقع الوقاع - لكنها لا تستطيع معرفة هذا - بل وقعت فيه تلك الكارثة، ولربّما بدّلت الأغطية، وهوّت الحجرة.

لقد كانت تلك الليلة عليها ليلة من الفزع والحزن والأفكار السيّئة والتّصوّرات، ولم أجرؤ إلا على النظر بمؤخّر الطرف إلى فخذيها، لمّا لاحظت أنها كانت تنظر إلى وجهي بمؤخّر الطرف، فقد كان بمرأى منها خلال الغداء، لكنها ما كانت تنظر إليه حينئذ تقريباً، وها أنا ألبس الآن وجهي هذا الذي افتقرتُ إليه حتّى ذلك الحين، ولستُ بعد (لا أحدَ) من الناس، ولستُ مجهولاً، لا تعرف اسمه أيضاً. واسمي فيكتور فرانش، وهكذا قدّمني تييّث للويسا، وليس رُوبِرِّث ديتورّس، إنه فيكتور فرانش سانس كاملاً، وإن كنتُ لا أستعمل الكنية الثانية: وكنتُ أدعى في إنكلترا مستر سانس .، والآن كانت تستطيع أن تتصوّرنا أنا ومارتا معاً، حتّى تستطيع أن تقرّر إن كنّا نُشكّل ثنائياً جيّداً، وإن كان يُعقَل أنها ستموت بين ذراعَيّ. وأنا أيضاً

كنتُ أريد أن أطرح عليها أسئلة، لكنها ليست كثيرة، فقد كنتُ صبوراً، ولم أفتح فمي إلا لأتوجّه إلى الصبيّ، وأؤكّد له:

- نعم هي كلاب، كلاب مرقّطة. - يقيناً ما كان يعرف كلمة "مرقّطة".

وودّعتُه عند باب بيته، أو بيت مارتا، وداعبتُ القبّعة، وكان يُفترض أن ديئان لن يلبث طويلاً حتّى يصل، كانت إلى هذا الحدّ أو ذاك الساعة التي اتّفق هو ولويسا على اللقاء فيها في البيت، كانت هتفت له إلى المكتب من شقّة زوج أخيها، لتعلم إلى متى سيظلّ الطفل في عهدتها، حسبما قالت لي.

وأجابها ديئان التالي: "أنا ذاهب إلى البيت، إن شئتِ، سأذهب فوراً، أحسبني سأكون هناك حوالي السابعة والنصف".

- إذا لم يكن وصل، فسوف أضطرّ إلى انتظاره. - قالت أمام البوّابة المعروفة في كوندة ديلاثيميرا. لا يوجد أحد فوقُ.

- أنا أنتظركِ في المقهى الخلفي، ما احتجتِ إلى الوقت. - قلتُ وأشرتُ على شكل مبهم إلى المؤسّسة ذات الاسم الروسي الكائنة خلف البناء المستقلّ. في الطوابقِ السفلى مكان ذو سُطيحة، تُستعمل صيفاً، كذلك فيه أيضاً مصبغة، أو ربّما كانت مكتبة أو الشيئين معاً.

- وإذا رغب في أن نتحادث مدّة؟ لعلّه يريد أن ينفّس عن نفسه قليلاً بحديثه إليّ بعد جدله ووالدي كما رأيتَ.

- سأنتظركِ ما احتجتِ إلى الوقت.

كانت على وشك أن تدخل البوّابة والطفل لمّا دارت نصف دورة - كانت كعبها مائلاً والأرض ما تزال رطبة - وأضافتْ مفكّرة.

- اعلمْ أنيّ سأحدّثه عنكَ إن عاجلاً أم آجلاً.

- لكنْ، ليس الآن، أليس كذلك؟ قلتُ.

- نعم، ليس الآن. فلربمّا أراد النزول والبحث عنكَ - قالت.، سأحاول ألا أبطئ. سأقول له إن لدي عملاً في البيت.

- يمكنكِ أن تقولي له الحقيقة أيضاً، إنكِ على موعد في الساعة الثامنة والنصف، لنقلْ. - ونظرتُ إلى ساعتي.

ونظرت إلى ساعتها، وأجابت.

- موافقة!

فكّرتُ في ذلك المقهى الذي لا أستطيع رؤية ديئان منه إن وصل، ولا يستطيع هو أن يراني منتظراً، اللهم إلا أن يدخل، ليتناول شيئاً قبل أن يصعد أو يشتري تبغاً، وهو أمر غير محتمل. انتظرتُ. وقد افتقدتُ الآن مقالاً جيّداً عن شيطنة كرة القَدَم، أنقّل به بصري .وفي التاسعة إلا ربعاً، ظهرت لويسا تييّث مصطحبة الحقيبة التي كانت تحتوي على القميص الداخليّ أو التّنّورة. كنتُ انتظرتُها ما ينوف على الساعة، فلعلّها تحدّثت طويلاً إلى ديئان أو أن هذا الأخير وصل متأخّراً. ولم أشكّ لحظةً واحدة أنها ستحنث بوعدها، ولا أن تمثُل وديئان من غير إعلام مسبق: ستُحدّثه عنّي، لكنْ، ليس الآن، وأنا كنتُ أصدّقها. ولمّا رأيتُها، شعرتُ بتعب مفاجئ، وإن زال التوتّر، إذ كنتُ شربتُ زجاجتَيْن من البيرة، وكنتُ قضيتُ سحابة نهاري خارج البيت، ولم أعرّج عليه خلاله، ولم أسمع مسجّل المكالمات الهاتفية، ولم أرَ البريد، ينبغي لي أن أستيقظ صباح اليوم التالي باكراً، وأذهب إلى بيت تييّث، وأتابع كتابة ما سوف يلقيه (أنتَ وحدكَ) عاجلاً على الجمهور، وكأنّه تفكيره الخاصّ الذي لا يصدّق أحد أنّه تفكيره. رغبتُ

في ألا تكون تلك الليلة ليلة طويلة. فلكل شيء أوان، وليستْ ليلة كليلة مارتا تييّث، ولا كليلة العاهرة فيكتوريا وثيليا، وقد رأى رأسي بأثر رجعي أنهما ليستا سواء: ليلتان محالتان مشؤومتان، لا نهاية لهما. وثيليا على وشك أن تتزوّج وتُنظّم شؤون حياتها.

- حسن! إلى أين نذهب؟ - سألتْني لويسا، وكان ظلام الليل قد عمّ. ووقفتُ عند الحاجز كأنّني رُوبيرِّث نفسه.

- ما رأيكِ لو ذهبنا إلى بيتي؟ - قلتُ. كنتُ أريد في تلك اللحظة أن أبدّل حذائي وجوربيّ أكثر من أي شيء في الدنيا. - أريد أن أبدّل الحذاء. - قلتُ لها وأريتُها حذائي الذي كان تغطّى ببقع بيض، لمّا جفّ خاصّة الفردة اليمنى، وكأنّها بقع غبار، أو على الأصحّ كلس. أمّا حذاؤها، فكان نظيفاً على الرغم من أنها سارت المسافة التي سرتُها، وعبر الشوارع ذاتها، فأضفتُ لمّا رأيتُ الشكّ على وجهها:

- في البيت أيضاً شريط مسجّل مارتا. لا أدري إن كانت فكرة حسنة أن تسمعيه.

- أأنتَ أخذتَ الشريط؟ - قالت وهي تضع أصبعيها على شفتيها. - ما كنتُ أعلم إن كانت مارتا تخلّصت منه، ولم أشأ البحث عنه في كيس القمامة الليلة الأولى، وإنما أغلقتُه وألقيتُه، كي لا ينتاب إدواردو الإغراء أيضاً متى وصل، وفوق ذلك كانت تنطلق منه روائح العفن. أو أخذتَ رَقْم الهاتف والعنوان أيضاً؟ ولأيّ سبب؟

- لنذهب إلى جهة ما، وسوف أجيبكِ عن الأسئلة كلها. - لكنّي أجبتُها عن شيء منها لأني قلتُ فوراً: - أخذتُ الورقة التي تحوي العنوان من

غير وعي منّي، كنتُ أنوي أن أنسخه، ولم أنسخه، ربمّا فكّرتُ في ضرورة أن أهتف إلى لندن، ثمّ لم أجرؤ، ولم أهتف. انظري: هي ما تزال معي. - وأخرجتُ المحفظة، وأريتُها الورقة الصفراء التي لم تُلقِ بها مارتا في حقيبة يدها، ولم تفقدها في الشارع، ولا هي طارت من النافذة المفتوحة، ولم يكنسها الكنّاسون. لم تنظر إليها لويسا، فأصبحت لا يعنيها أن تراها، أو أنها عدّتها زائدة، فهي كانت تعلم فحواها،

- هيّا نذهب إلى بيتي لحظة. ثمّ نخرج للعشاء قليلاً، إن شئتِ.

- لا. فلنذهب للعشاء أوّلاً، لا أريد أن أدخل بيت أحد، لا أعرفه.

- كما تشائين - قلتُ. - لكنْ، تذكري أنّ أباكِ نفسه مَنْ قدّمنا لبعضنا.. وكانت على وشك أن تبتسم مرّة أخرى، فكبحت نفسها، فقد كان ما يزال ينبغي لها أن تكون ثابتةً وجادّة.

ذهبنا إلى مطعم نيكولاس، وهو مطعم صغير يعرفني أصحابه. وهكذا، سوف ترى أن سلوكي ليس هروبيّاً أو مَخفيّاً دائماً. هنا يناديني أصحابه باسم فيكتور، والخادمة سينيور فرانش، لي فيه اسم وكنيةُ علاوة على وجه. وهناك استطعتُ أن أقصّ القصّة أخيراً، وأجبتُها عن أسئلتها، وقصصتُ عليها أشياء أخرى، لم تسألني عنها، ولا تستطيع أن تسألني، وهذا ما كنتُ أسعى إليه يقيناً: أن أخرج من الظلّ والعتمة، وأتخلّى عن الكتمان، والحفاظ على سرّ، وأنا أيضاً عندي رغباتٌ أحياناً في الوضوح، وربمّا الإنسجام أيضاً: حكيتُ. وحكيتُ. وعند الحكي لم يساورني إحساس بالخروج من وطأة السِّحْر الذي لمّا أخرج منه، وقد لا أخرج أبداً، لكني، نعم، أخذتُ أمزجه بسِحْر آخر أقلّ صلابة وأسلم. والحكي كالإقناع أو الإفهام أو الإيضاح سواء بسواء، وهكذا يصبح كل شيء ممكناً فهمه، حتّى أكثر الأشياء ضَعَة، وكل

شيء يمكن الصفح عنه، إذا كان هناك شيء يُصفَح عنه، ويمكن الإغضاء عن كل شيء أو تمثّله، أو حتّى الحنوّ عليه، وقد حدث هذا، وينبغي لنا أن نعايش الحدث، ما إن نعلم أنه حدث، وأن نبحث له عن مكان في ضميرنا، وفي ذاكرتنا، وهو لا يحول بيننا وبين متابعة الحياة لأنه قد حدث، وأننا نعلم ذلك. لذلك كان الحدث دائماً أقلّ خطراً من المخاوف والفروض والظنون والتّصوّرات والأحلام السّيّئة، التي لا نُسلكها في الواقع في سلك معرفتنا، وإنما نُبعدها بعد أن نعانيها، أو نعدّها مؤقّتة، لذلك تظلّ تثير الرعب خلافاً للأحداث التي تصبح أخفّ وطأةً بطبيعتها ذاتها، أي بالضبط لأنها أحداث. ونقول لأنفسنا حيال الأحداث: ما حدث قد حدث، وأعرف أنه حدث، ولا أملك الرجوع عنه، وينبغي لي أن أفسّر الأمر لنفسي، وأجعله ملكي، أو أجعل أحداً ما يُفسّره لي، والخير في أن يقصّه عليّ تحديداً مَن تولّى صنعه، لأنه هو مَن يعلم، لكنْ، يمكن للمرء أيضاً أن يقع موقعاً حسناً، وهذا هو الخطر. إنها قوّة التّمثّل كما أحسب: لذلك نجد متّهمين، لذلك نجد أعداء يغتالون ويُشنقون ويقتلون من غير أن يُتاح لهم النطق بكلمة، ولذلك نجد أصدقاء يُبعدون، ويقال "أنا لا أعرفكَ"، أو لا يُجاب عن رسائلهم كي لا يبينوا موقفهم، ويتمكّنوا من أن يقعوا موقعاً حسناً عاجلاً، إذا تكلّموا يغتابونني، والخير في ألا يتكلّموا، وإن كانوا عند السكوت لا يحامون عنّي.

ثمّ سألتُها بدوري، لم أسأل كثيراً، وإنما سألتُ عن بعض الأشياء بدافع الفضول فقط، سألتُها عمّن وصل البيت أوّلاً ومتى. ومَنِ اكتُشف ما سكت عنه خلال الليل، وكم لبث الطفل وحيداً، ومتى عُثر على ديئان في لندن، وكيف عثر عليه، وكم لبث هذا لا يعلم شيئاً منذ أن وقع الحدث، إلى أن استطاع معرفته، وكم دقيقة لبث حائراً؟ وكم دقيقة من وقته تحوّلت إلى شيء غريب طافٍ، متخيّل كفيلم بُدئ فيه في التلفاز أو في دار للسينما

قديماً؟ وكم أتى عليه من الوقت حتّى صار في اليمبوس أو بوّابات الجحيم؟
وراحت لويسا تجيبني من غير تقتير، ولا خوف، وقد كانت ساورتها حوالي تلك الأوقات بعض المخاوف، ولقد أعربتُ عن نفسي، وأوضحتُ لها، وجعلتُ نفسي مفهوماً، وربّما صفحتْ عنّي، إن كان هناك شيء يُصفَح عنه (تركتُ الطفل وحيداً، لكن الأسوأ من ذلك كان لو أخذتُهُ. وهذا ما قلتُه لها: لكان اعتقالاً له)، وجعلتُها تُشفق عليّ بلا ريب. - قضى الطفل وقت الصباح وحيداً فقط، أي منذ استيقاظه حتّى مجيء المساعدة التي تحمل مفتاح الشّقّة، وتُنظّف البيت عادة، وتعدّ شيئاً للغداء له ولمارتا وللزوج إذا تغدّى هذا الأخير في البيت، ثمّ تمكث خلال الساعات التي تقضيها الأمّ في المدرسة لإلقاء الدروس - وهي المدرسة ذاتها التي درستُ فيها، ودورها في الصباح بعض الأيّام، وفي المساء أيّاماً أخرى.. ما كان يبدو أن هذا الطفل تنبّه إلى موت مارتا، لأنه لا يستطيع أن يتعرّف إلى ما لم يعرفه من قبل، وما كان يعلم معنى الموت، وظلّ لا يعلمه فعلاً، ولا شك أنه ربط بين النوم وبين هذا الجسم الساكن واللامبالي بندائه وطلباته، وأنه لجأ إلى هذا الشكل الراقد، كيما يتبيّن الأمر ذلك الصباح. وربّما تسلّق السرير، وكشف الغطاء عن أمّه تبعاً لما تسمح به قواه لمواجهة ثقل اللحاف والملاءات، ولربّما لمسها، وساحت يداه في الاتّجاهات كلها، ولربّما ضربها. فمن عادة الأطفال الصغار أن يضربوا إذا غضبوا، ولا يأبه أحد بفعلهم هذا، ومارتا كانت ما تزال مارتا. لا ندري إن بكى أو صرخ غاضباً خلال مدّة طويلة من غير أن يسمعه أحد، أو آثر ألا يسمعه، لكن الثابت أنه تعب، وأحسّ بالجوع، فأكل من الطبق الهيّن الذي ارتجلتُه له، وشرب العصير، ثمّ راح يشاهد التلفاز، ليس تلفاز الصالون الذي تركتُه مفتوحاً على أجراس منتصف الليل لحظة انصرافي، وإنما تلفاز المخدع الذي لم أُطفئه أيضاً، وكان ما يزال ماك موري، وستانويك، يهيمان فيه متكلّمين

بلغة بديلة، أو بالكتابة، يُفترَض أنه كان يُؤثِرُ البقاء قرب أمّه النائمة، ولمّا يتخلّ عن الأمل في أن تستيقظ. وهكذا وجدته المساعِدَة البيتية عند الظهيرة مستلقياً عند قَدَم السرير قرب أمّه الساكنة المنتفخة الجسم، ناظراً إلى البرنامج الخالي من الصوت الذي قد تُقيّض له المصادفة بأن يحتوي شيئاً خاصّاً بالأطفال، إن واتاه الحظّ. لم تعرف هذه المُساعِدَة ماذا تصنع خلال دقائق معدودات - واضعة يديها فوق رأسها المغطّى بقبّعة ذات دبابيس، لمّا تخلعها بعد وصولها، وكذلك المعطف الذي كانت تلبسه، وطافت في ذهنها كالبرق لعنة الفوضى التي كان ينبغي لها أن تجد لها علاجاً، - . وهي ما كانت تعلم أن ديئان موجود في لندن، كما لم تتذكّر مارتا سفره اليوم السابق حتّى ساعة متأخّرة، فهتفتْ إلى المكتب، ولم تستطع أن تُكلِّم فِرّان، وإنما كلّمتْ على شكل هستيري سكرتيرته التي فهمتْ منها شيئاً قليلاً، أو لم تفهم شيئاً.

ثمّ بحثت عن هاتف الأخت لويسا التي كانت أوّل مَن وصل لاهثة إلى كونده ديلاثيميرا في سيّارة أجرة، وبعد عشر دقائق حضر الزميل الشريك في المكتب، جاء كيما يستوضح قليلاً بعد رسالة المُساعِدة المفكّكة والمشوّومة التي نقلتْها إليه السكرتيرة، وبحثوا جميعاً عن رَقْم الهاتف والعنوان في لندن عَبَثاً، واستدعوا طبيباً يعرفونه، راح يفحص الجثّة، ويُنذر بانتفاخها. - لم أسأل عن سبب الوفاة، لأنه ظلّ من غير أهمّيّة، والحياة نعيشها مرّة واحدة، مَن يدري، إن كان السبب سكتة دماغية، أو عَرَضاً فجائيّاً، أو احتشاء عضلة قلبية، أو توسّع الشريان الأبهر تشريحياً، أو تحطّم قشرة الكظر بالمكوّرات السحائية، أو جرعة عالية من شيء ما، أو نزيفاً داخلياً ناجماً عن لطمة سيّارة منذ أيّام سابقات، أو مرضاً يقتل سريعاً من غير إمهال ولا لجلجة ولا مقاومة، أبدتْها الميتة التي ماتت بين ذراعي، وكأنّها طفلة طيّعة، لا تُعارض. - ظل فِرّان مع الطبيب، وأخذتْ لويسا

الطفل إلى بيت أخيها غيرّمو، إذ ينبغي له أن يخرج من هنا بأسرع ما يُستطاع، كيما يشرع في النسيان، ولا يسأل، وذهبتْ، من ثمّ، لترى أباها، وتنقل إليه الخبر شخصيّاً، وطُلب إلى المُساعِدَة أن تنتظر، لكنْ، ألا تلمس شيئاً، ولا تسحب شيئاً، فقد كان ينبغي لهم أن يتابعوا البحث عن عنوان ديئان في لندن، وقبلت المُساعِدَة كارهة المدّة الضائعة من غير عمل في المطبخ مرتدية بدلة العمل، ثمّ يُراد منها أن تنكبَّ على العمل بسرعة، في حين يحتاج إلى ساعات. رافقت لويسا أباها تييّث إلى بيت ماريا فرناندث بيرا، ما إن استطاع الأب النهوض عن المقعد الذي تهاوى فوقه، أو على الأصحّ، انهار، لأنه كان جالساً. مُخفياً وجهه بين يَدَيْه النمشاوَيْن، باحثاً فيهما عن ملاذ، وما إن شرب الويسكي الذي صبّتْه له ابنته، وإن كان يشرب في الصباح، كما هي العادة في مدريد كل الوقت حتّى الغداء، وأرجّح أنها عقدت له شريط الحذاء جيّداً، كيلا يزلّ كما توحي به ساقاه اللتان خارتا بسبب النبأ، وربّما سار، كأنّه يسير على الثلج، وهو يعلو ويهبط في كل خطوة من قدميه الصغيرتَيْن جدّاً اللتَيْن تشبهان قَدَمَي راقص متقاعد. وبينا كانت لويسا في سبيلها إلى بيت أبيها، كانت ماريا فرناندث بيرا تبكي وتعانق الطفل من غير انقطاع، ومنذ أن جيء به، وحررّت إحدى يديها، وهتفت لزوجها في العمل، الذي عاد ولويسا معاً إلى شارع كونده ديلاثيميرا (أو أن غيرّمو ذهب فقط، ولويسا عادت)، حيث حضر طبيب آخر، هو طبيب شرْعي ذو سالفين طويلين، يعوّضان عن الصلع، حرّر شهادة وفاة، ثمّ اختفى الشريك فِرّان، وقد تأثّر تأثّراً كثيراً حسب قول المُساعِدَة، فنزل إلى الكافتريا ذات الطابع الروسي، ليتناول بعض الأقداح من البيرموث أو بعض البيرة. وذهبت لويسا لجَلْبه مرّة أخرى، ومنذ ذلك الحين، استُؤنفَ البحث المزدوج بدأب: بحث مادي عن الورقة التي تحتوي رَقْم هاتف ديئان وعنوانه في لندن، ويقع على عاتق لويسا وغيرّمو

والمُساعِدَة، وبحث تلفوني، يقع على عاتق الشريك الذي يحاول إيجاد التّجّار الإنكليز الذين يُفترض أن ديثان ينوي الاتّصال بهم خلال إقامته، لكن فِرّان كان لا يُحسن الكلام بالإنكليزية، بل كان ديثان يُحسنه، لذلك كان يسافر، لكنه لم يعثر على تجّار، وإنما علم أن التاجر الوحيد الذي أمكنه أن يتّصل به، لم يتلقّ أيّة أخبار عن شريكه، ويجهل إن كان في لندن. ثمّ شُرع بإجراء بعض الاتّصالات الهاتفية ببعض الأشخاص من الأصدقاء الحميمين، وكان لا بدّ لهم من إخفاء شكل الموت وظروفه، وليس سببه، عن أكبر عدد من الناس، وكان من الخير إعلام عدد ضئيل لحَصْر الأسئلة إلى أقصى مدى. ومع ذلك، مُلئ البيت بالأقرباء والجيران والأصدقاء وبعض هواة أمثالِ هذه المواقف من الطفيليّيْن الذين ينضمّون إلى العائلة - وكذلك الشّابّة ذات القفّاز البيج بلا ريب، لكنني لم أسأل عنها .، ثمّ حضر قاضٍ ذو لحية، ونُقل الجثمان أخيراً إلى جمعية دفن الموتى. رافقه بعضهم إلى هناك، ومنهم غيرمّو، ثمّ ماريا فرناندث بيرا، في حين استطاعت لويسا العودة إلى البيت، لتنضمّ إلى أبيها والطفل، وتحرّر هذا الأخير من العناق، وأودعت أباها في طريق العودة بيته بعد أن تناول مهدئاً، ومرّت ببيتها ذاته، وأخذت منه بعض الأغراض، وعادت والطفل أوخينيو الذي غلبه النعاس إلى كونده ديلاثيميرا حوالي الساعة الحادية عشرة ليلاً للمرّة الثالثة خلال اليوم: ذهبت لتنام هناك بدلاً من أن تنقل الطفل إيماناً منها أن من الخير لمَن كان يعيش في بيت المتوفىّ أن يواصل النوم والإقامة فيه منذ الليلة الأولى للوفاة، وإمّا العكس، فلن يرغب في العودة إليه لاحقاً، ولن يرغب في العودة إليه أبداً. وكان يُشاطرها هذا الاعتقاد أبوها الأكثر خبرة، وكانت طلبت مشورته حول الموضوع. وانصرفت المُساعِدَة وهي مستاءة أشدّ الاستياء حسب قول البوّاب، من غير أن يُصدر إليها أحد أمراً، أو يأبه بها أحد، ما عدا لويسا التي طلبت منها أن تُعيرها المفتاح.

وكان من المنتظر مع ذلك أن تحضر في اليوم التالي للتنظيف وتنظيم الفوضى، فقد أبدت تفهّماً. أضجعت لويسا الطفلَ المُنهَكَ، ترافقه المصّاصة والأرنب كالعادة، في حجرته، وكانت الوحيدة التي ظلّت سليمة، فلم يلمس أحد الطائرات، وإن كانوا نظروا إليها جميعاً بفضول، لمّا مرّوا بباب الحجرة. وتناولتْ لويسا مهدّئاً هي الأخرى أيضاً، وأطبقتْ كيس القمامة، وألقتْه، أو هذا ما صنعتْه في وقت تالٍ. بحثتْ من غير أملٍ وسطحيّاً عن العنوان المفقود بينا كانت تضع شيئاً من النظام في المخدع، فغيّرت سرير مارتا الذي لم يهتمّ أحد له، والمُساعِدَة تفتقر إلى حُسن المبادرة. ثمّ استلقتْ عليه، وسألتْ نفسها حينئذ عنّي، لمّا كانت ما تزال لا تعلم أني أنا أنا، وتذكّرت أن مارتا كانت قالت لها في المسجّل الآلي منذ ما ينوف قليلاً على أربع وعشرين ساعة ("لقيتُ رجلاً، لا أكاد أعرفه، وبدا لي جذّاباً، عرفته في أثناء حفلة كوكتيل، ثمّ تواعدنا على تناوُل القهوة في يوم آخر، وهو على صلة بكل صنف من الخَلْق، وهو مُطلّق، ويعمل في كتابة المسلسلات التلفزيونية إضافة إلى أشياء أخرى، ولسوف يأتي للعشاء في البيت، وإداواردو في لندن، ولستُ واثقة بما سيحدث، لكنْ، قد يكون خيراً، وأنا منرفزة" ولم تذكر لها الاسم، أيّ اسم، لم تذكر لها اسمي. وفكّرتْ في أختها، فكّرتْ في الأخت طويلاً، وهي مستلقية على سريرها في مخدعها، من غير أن تعي ما حدث لها، من غير أن تفهم تلاشيها المباغت جدّاً، وكأنّها أمست فجأة، لا تستطيع التمييز بين الحياة والموت، ولا تعرف الفرق بين أحد لا يُرى حالياً، وبين أحد أصبح لا يُرى قطّ، وإن رغبنا في رؤيته (فنحن لا نرى أحداً كل لحظة، ما عدا أنفسنا ذاتها، وعَلى شكل جزئي، نرى أذرعنا وأيدينا وسوقنا أيضاً). "لا أدري لِمَ أنا حَيّة وهي ميّتة؟! لا أدري معنى هذا ولا معنى ذاك؟!". والآن لا أفهم هذه المصطلحات فهماً جيّداً. وهذا ما فكّرتْ فيه، أو هذا عين ما فكّرتْ فيه،

لمّا كانت تقصّ عليّ. شغّلت التلفاز، ولم تستطع النوم طيلة مدّة طويلة، وإن كانت مُنهَكَة من الذهاب والإياب والمصيبة والألم، حتّى أنها لم تُزعج نفسها بمحاولة النوم، فقد كان الوقت ما يزال باكراً على دوامها، حتّى ولم تزعج نفسها بخَلْع ثيابها. كانت الساعة تجاوزت الثانية عشرة، لمّا رنّ الهاتف، وذُعرتْ عند سماعه، وتنبّهتْ حينئذ إلى خُلُوّ المسجّل الآلي من الشريط، أو تنبّهتْ مباشرة، لمّا رأتْ أن المسجّل جاهز، لكنه لا يعمل، وإنما يتابع الرنين فقط، رفعت السماعة قلقة راغبة في أن يكون ديئان، وخائفة من أن يكون هو مجرياً من لندن مكالمة روتينية إلى بيته، من غير أن يعلم شيئاً: وكانت المهاتفة من فِرّان الذي استطاع أن يُكلّم أحد عملائهم، ونقل هذا الأخير اسم الفندق المفقود واسمه ويلبراهام أوتيل. وهو لا يريد أن يهتف، وما كانت تواتيه الجرأة، فقد انقضت ساعات طوال، فلا يستطيع أن ينقل لصديقه ما حدث على شكل بارد، وهو كان من قبل متعثّراً، "أنا سأتولّى ذلك"، قالت له لويسا، "لكني واثقة بأنه سيرغب في مخابرتكَ، من ثمّ، ما إن يعلم أنكَ وصلتَ بعدي، ورأيتَ مارتا كما رأيتُها". "حسن! هذا أمر آخر، إن أراد أن يكلّمني"، أجاب فِرّان، "أمّا ما لا أشعر بالقدرة على الإتيان به، هو أن أُعلمه النبأ الآن بالهاتف، أوَ سوف تقولين له إنها لم تكن وحيدة؟"، "إن استطعتُ سأنتظر إلى أن يأتي هنا لأقول له، لكنْ، لا أحسبني قادرة، فلسوف يستجوبني، فهو يريد أن يعرف التفاصيل فوراً: كيف حدث ذلك؟ ولِمَ لم تهتف ما إن أحسّت بالمرض؟ لقد علم كثير من الناس بالأمر حتّى لا يمكن إخفاؤه، ولا بدّ له من أن يعرفه، ومن الخير أن يعرف". وهاتفت لويسا حينئذ الفندق الذي عثر عليه من غير إبطاء (ولم أسألها إن سألت عن مستر ديئان أودين أو مستر بيّستيرّوس)، إذاً، هو كان يعلم لمّا ركبت رَقْمه حوالي الساعة الواحدة فجراً من هاتف عامّ، وأغلقت الخطّ من غير كلام، لمّا سمعت في صوته ما يعادل نعم

بالإنكليزية، فقد كان عرف الخبر من لويسا حديثاً، وأكّده له شريكه، وكان ينبغي لحوالي عشرين ساعة من وقته أن تُصحَّح أو تُلغى أو يُعاد عدّها الآن، عشرون ساعة من الإقامة في لندن لا بدّ لها من أن تكون تحوّلت إلى شيء غريب طافٍ، أو مُتخيَّل، كما ستكون لي الصور التي أحفظها من ماك موري وستانويك يوم سأرى الفيلم كاملاً بكلام بديل، كما سيكون (للوحيد الأوحد) الجانب الذي رآه من دقّات أجراس منتصف الليل، في أثناء سهده متى عُرض عليه في شريط الفيديو، إذا حرصت الآنسة آنيتا على الحصول عليه، أو تلك المشاهد الأخرى من طيّاري السباتفاير والأشباح والملوك التي كنتُ رأيتُها ذات ليلة منذ عامين ونصف العام، ولمّا أحصل مرّة أخرى على أيّ من هذين الفيلمين اللذين كانا يعرضان في آن واحد، وما أزال أجهل إلى أيّ صنف ينتميان، وما أزال لا أفهمهما، ولذلك لم يُرفضا، ولم يُلغيا. ولربّما تحوّلت هذه الساعات العشرون عنده إلى نوع من السِّحْر أو الحلم الذي يجب أن يُشطَب من ذاكرتنا، وكأنّنا لم نعش هذه المدّة قطّ، وكأنّما كان ينبغي لنا أن نُعيد حكاية القصّة، أو نُعيد قراءة كتاب، وتحوّلت إلى زمن لا يُطاق، قد يصيبنا باليأس.

استلقت لويسا مرّة أخرى على السرير بعد أن أنجزت هذا النهار واجباً من الواجبات، آثرت أن تتولاه - فمن الصعب نقل خبر موت واقع، وتعزية أرمل من بعيد.. شاهدت التلفاز مدّة طويلة حتّى وافاها النوم الذي لا يمكن تفسيره، وكانت ما تزال لديها القوى، كيما تنهض مرّة أخرى، وتأخذ بخَلْع ثيابها من غير معونتي، ولا معونة أحد وكيف يمكن النوم بعد موتِ عزيزٍ علينا؟ ومع ذلك، ينتهي بنا الحال إلى أن ننام دائماً.: ودنت من النافذة، وهناك خلعت الكنزة من فوق رأسها، ثمّ رفعت يديها متصالبتَيْن إلى أضلاعها، وشدّت القميص الداخليّ إلى فوق، وخلعتْه بحركة واحدة - كاشفة عن إبطيها للحظة - على شكل ظلّ الكمّان المقلوبان

عالقين بذراعيها وناشبين بمعصميها، ظلّ ظلّها على الشكل مدى ثوان معدودات، وكأنّها مُتعَبَة من الجهد أو السعي خلال النهار - حركة إنسان محزون، لا يستطيع الكفّ عن التفكير، ويخلع ثيابه قطعةً قطعةً، ليُفكّر، ليستغرقه التفكير بين ثوب وآخر، ويحتاج إلى وقفة. - أو كأنّها نظرت بعد خَلْع الكنزة من خلف الستائر الشفيفة، ورأت شيئاً أو أحداً ما، ربّما رأتني وسيّارة الأجرة خلفي.

- إنه يبحث عنكَ. - أضافت بعد أن أتمّت قصّ الأحداث التي كنتُ أجهلها، أو كنتُ أخمّنها تخميناً فقط. - ولسوف أضطرّ إلى القول له إني لقيتُكَ.

- أعلم ذلك. - قلتُ، وذكرتُ لها حينئذ الجمل التي سمعتُها من غير إرادة منّي عند خروجي من المقبرة، وأقررتُ لها بحضوري هناك ذلك الصباح الذي رأيتُها فيه أوّل مرّة. وأفضيتُ إليها بالجمل التي سمعتُها ممّنْ كنتُ أجهلهم حسبما قلتُ لها: ولم أكن أشعر بالقدرة في نفسي بأن أنقل إليها النبأ، إن لم تكن على علم به، كنتُ أوثر أن تعلم كما علمتُ أنا من الشريط، وإن كانت سمعتُه في الواقع مباشرة. "أعُرِف شيءٌ عن الرجل؟" سأل رجل كان يسير أمامي، هذا ما قلتُه: وأجابت المرأة التي كانت تسير إلى جانبه. "لم يُعلَم شيء. لكنهم لم يصنعوا شيئاً غير أن بدؤوا البداية، وإدواردو على استعداد للقائه كما يبدو". لم يكونا مجهولين تماماً، واسمهما بيِنْتْه وإينيس، وكنتُ على وشك أن أصبح شريكاً للرجل في مضاجعة مارتا.

لم يبقَ أحد في المطعم غيرنا، وتظاهر أصحابه بلطف أنهم سيُقفلون الصندوق، ويُجرون الحساب، وكنتُ دفعتُ الحساب من قبلُ. كنّا أكلنا كلّ ما قُدِّم لنا من غير تدقيق فيه تقريباً، ورفعت لويسا المنشفة إلى

شفتيها على شكل آلي لآخر مرّة، ثمّ وضعتها على المائدة بعد الحلوى التي جيء بها بعد إبطاء. ولم تشأ أن تشرب قهوة، وإنما عصير الكمّثرى.

- حقّاً. - قالت - أحسب الناس كلهم علموا بجليّة الأمر، ما عدا أبي، لحسن الحظّ. وأنا واثقة بأنه لن يعرف أبداً.

- أريدكِ أن تسمعي الشريط قبل أن تُكلّمي صهركِ. - قلتُ لها، - فيه شيء ربّما لا تعرفينه، ولا يعرفه هو بلا ريب، ولذلك أخذتُه معي فعلاً، أيعنيكِ أن نُعرِّج على بيتي لهنيهة؟ وبعد ذلك، أرافقكِ في سيّارة أجرة. وتوقّفتُ، ثمّ أضفتُ. - والآن صرتِ تعرفينني قليلاً. - "وربّما ستعرفينني أكثر كثيراً"، فكّرتُ.

نظرت لويسا بإمعان، وقد قطّبت حاجبيها، وكأنّها سمعتْ تفكيري، وكان يبدو أن الفضول والتعب والشك تتنازعها. والقصّ يتعب كثيراً.، وكان الأمران الآخران أضعف لديها. في الحقيقة، كانت تشبه مارتا خاصّة، إذا لم تكن شائهة الوجه، كما كانت يوم الدفن، كانت الصغرى، وإن كانت ستُمسي أكبر منها سنّاً، وربّما كانت أجمل وأقلّ تمرّداً على ما هُيّئ لها من حظّ، وقالت: - لا بأس! إذاً، فلنذهب فوراً، ولنُعجّل.

أنا كنتُ أعرف محتوى الشريط عن ظهر قلب، وما أزال أعرفه، أما هي، فلسوف تسمعه أوّل مرّة. لم تشأ أن تشرب شيئاً في البيت، وطلبتُ إليها أن تنتظر في الصالون ريثما أبدّل أخيراً في مخدعي حذائي وجوربي، وأشعر براحة لا نظير لها. جلستْ على المقعد الذي أشغله عادة لأقرأ وأدّخن، إذا كنتُ أفكّر. جلستُ على حرف المقعد مُلقية بالمعطف بشكل ما على ذراعيها كَمَنْ يريد أن يغادر، ما إن يصل المكان. كانت جالسة هكذا على حرف المقعد، لكنها ما لبثت أن انتصبت أكثر باتّجاه الخارج،

- وكأنّما تنتفض انتفاضاً - لمّا سمعت الصوت الأوّل الثابت والعجول والمريب قائلاً: "مارتا؟ ألستِ هنا؟ من قبل قطعتِ الخطّ، أليس كذلك؟ أتسمعين؟"، ثمّ ساد انقطاع ونقرة احتجاج باللسان: "أتسمعين؟ ما اللعبة التي تلعبينها؟ ألستِ هنا؟ لكني هتفتُ منذ قليل، ورفعتِ السماعة، أليس كذلك؟ افتحي الخطّ، يا وسخة؟" ولمّا أنهى هذا الصوت الذي كان يحلق ويعذّب، رسالته، أوقفتْ دوران الشريط، وقالتْ تُعلِمُني، لكنها كانت تتوجّه أيضاً إلى أعماق نفسها:

- هذا صوت بيثِنْته مينا، وهو أحد الأصدقاء، وكان أيضاً عريس أختي السابق، فقد قضتْ معه مدّة ما، قبل أن تتعرّف إلى إدواردو، وظلا بعد ذلك صديقين، وكثيراً ما يلتقي الأربعة معاً: هو وزوجه إينيس، وإدواردو ومارتا. لم يكن لدي أيّة فكرة عن تجديد علاقتها به على هذا الشكل، ولم تُكلّمني عنها قطّ. ما أكره هذا الرجل! ولزمت الصمت قليلاً. لقد أفلتَ منها استعمال الأزمنة الماضية، إذا أشرنا إلى الأموات حديثاً، فلا نلمح الفرق عاجلاً. حكّت صدغها بسبّابتها، وأضافت مفكّرة: - مَن يدري، إن كانت لم تقطع علاقتها به تماماً؟! ما أكبر هذه الحماقة!

- وهذه المناوبة، ما شأن زوجه بها؟ - سألتُها كيما أشبع فضولاً ثانويّاً، ربّما ما كان بمستطاعي إشباع الفضول الأكبر الذي ينشأ داخلي. - ماذا تعمل هذه؟

- لستُ واثقة من نوع عملها. أنا لا أعرفها كثيراً، يبدو لي أنها تعمل في محكمة. - أجابت لويسا. حينئذ قدّمتُ الشريط، ليبثّ رسالته الثانية التي سُمعَت تبدأ هكذا: "..... لا شيء"، كان يقول صوت المرأة الذي عرفتُه الآن على أنه صوت لويسا، لأني سمعتُه يتردّد الآن كثيراً وخلال سهرة كاملة، وبمختلف طبقاته، "اهتفي لي من كل بدّ، وقصّي عليّ كل شيء

من الألف إلى الياء"، وأغمضتْ لويسا عينيها قائلة: - هذا أنا لمّا أجبتُها عن الرسالة التي تركتْها في المسجّل مساء متحدّثة عن استقبالها الوشيك لكَ. ما أكبر ما انقضى من الوقت!

وأوقفتُ الشريط.

- وكيف حدَّثتْكِ عنّي؟

- آه، لم تكن أمورها موفّقة مع إدواردو، هي كانت تتشبّث بالأوهام أكثر من الوقائع، أو هذا ما كنتُ أحسبه حتّى هذه اللحظة. لكنْ، أإلى مستوى بيثِنْته مينا! ما أحمقها! - ردّدت بإنكار ونفور. - من جهة أخرى، كنّا نقصّ على بعضنا كل شيء، أو تقريباً كل شيء، وعلى الأغلب، كانت تقصّ عليّ الأوهام، وتسكت عن الوقائع. "أنا، إذاً، وهُم" فكّرتُ، "أو كنتُ كذلك قبل مجيئي كونده ديلاثيميرا، ثمّ بعد مجيئي أيضاً، ربّما كنتُ روحاً شيطانية ذكَرية وشبحاً، وما أزال"، - لئن لم يكن لهذا السلوك معنى كبير، فإننا لم نكن نحاكم بعضينا، ولا ننصح لبعضنا. وإنما كنّا نستمع كل واحدة منّا إلى الأخرى. هناك أشخاص يبدو للمرء أن كل ما يصنعونه حسن دائماً، ويقف إلى جانبهم، هذا هو كل شيء. - فركت لويسا صدغيها من غير أن تدري: "مارتا، قولي لإدواردو خطأ أن يقول "رسالة"، بل ينبغي له أن يقول "خطاب"، هذا ما كان يردّده صوت العجوز الذي ختم العبارة متأسّياً على نفسه بحذلقة: "يا لبؤسي!" - هذا أبي، يا لبؤسه حقّاً! يا لبؤسه!" - قالت لويسا .... كان يتصرّف تصرّفاً حسناً مع مارتا، وهي كانت تُوليه اهتماماً أكثر ممّا أفعل أنا.

فكانت تستمع إلى ما يقصّه عن نزاعاته التافهة مع زملائه، وعن دسائسه الصغيرة وامتيازاته في البلاط. ولكان كلّمها عنك فوراً ومرّات عدّة في اليوم.

إذ يبدو له عمل شخص ما في بيته طيلة أيّام عدّة حدثاً كبيراً، لذلك، كان سيرغب في أن نتعارف كيما تصوّره، من ثمّ، على خير ما يرام بصحبتك، ونستطيع إبداء الرأي متى قصّ علينا ذلك، يقصّ عليّ، بالطبع، وليس على ديئان. - لكنها لم تتنبّه إلى أن ذلك سيكون محالاً، سيكون محالاً أن يحكي تيبّث لمارتا عنّي، لأنني ما كنتُ أردتُ أن أعرف تيبّث، لو لم تمتْ مارتا. - "مارتا، هذا أنا فِرّان"، كانت الرسالة التالية، التي لم تعلّق عليها لويسا بشيء ولم تكن تتضمّن أدنى جدّة، استمعتُ إليها بصمت، ولم أوقف الشريط حتّى جاءت الرسالة التالية، أو خاتمة تلك الرسالة فقط، وكان الصوت يقول: "هكذا سنفعل ما يُقال لنا، ما يُراد منّا. قرّروا". والآن كنتُ على يقين أن هذا الصوت لم يكن الصوت السابق ذاته، وبالتالي لم يكن صوت لويسا، وإن كانت أصوات النساء تتشابه أكثر ممّا تتشابه أصوات الرجال. طلبت منّي لويسا أن أُرجِع الشريط، لتسمعه مرّة أخرى. ثمّ قالت: "لا أدري مَن صاحبه؟! لم أتعرّف إلى هذا الصوت، ولا أحسبني أعرفه، ولم أسمعه قطّ من قبل".

- إذاً، لا يُعلم إلى مَن يتوجّه بالخطاب، إن كان إلى ديئان أم إلى مارتا.

- لا أستطيع معرفة ذلك.

- والآن جاء دوري، فأنا صاحب الرسالة التالية. - عجّلتُ بالإعلان قبل أن تبدأ الرسالة أو الخطاب الذي أخجلني كثيراً، وهو غير كامل: "... إن ناسبكِ يمكننا اللقاء يوم الاثنين أو الثلاثاء، وإذا لم يكن، ينبغي تأجيله إلى أسبوع آخر، منذ الأربعاء سأكون منشغلاً". كيف أمكنني أن أقول "منشغلاً"، كما يقول منافق، ورحتُ أفكّر مرّة أخرى مستاء، كل مغازلة تبدو حقيرة، إذا نُظر إليها من الخارج، أو إذا تُذكِّرت، وكنتُ أراها الآن من الخارج وأتذكّرها، وما هو أسوأ من ذلك، أني ربّما كنتُ أغازل من جديد، لذلك، لا أستطيع

الآن أن أرى كلماتي وموقفي، لا من الخارج، ولا من الداخل، ولا أن أتذكّرها، نزن أحياناً كل كلمة حسب نوايانا المجهولة. "وما أطول ما انقضى من الزمن!" لم أوقف الشريط، وتركت لويسا صوتي المهذّب يجري من غير تعليق. ثمّ حلّ مرّة أخرى الزميم الكهربائي: "مرحباً، إدواردو، هذا أنا. اسمع: لا تنتظراني حتّى تبدأا العشاء"، حتّى إنه طلب أن يَدَعا له قليلاً من لحم فخذ الخنزير. وودّع بجفاء: "أترككم بخير، إلى اللقاء!" قال.

- هذا صوت بيثِنْته مينا أيضاً - قالت لويسا، - هم الأربعة يخرجون معاً كثيراً، أو بصحبة ناس آخرين. - واستعملت زمن الفعل المضارع مرّة أخرى، وقد أمسى غير موائم منذ ما ينوف عن شهر.

أوقفتُ الشريط، وقلتُ لها.

- بقيتْ رسالة أخرى، اسمعيها.

وانطلق حينئذ ذلك النحيب الحادّ والمتواصل الذي لا يمكن إخفاؤه، ويخاصم الكلمة وحتّى التفكير، لأنه يمنعهما، أو يقصيهما أكثر ممّا يحلّ محلّهما - بل يقيّدهما..، انطلق الصوت المكروب الذي وُفّق في أن جعل نفسه مفهوماً في هذا القول فقط: "... أرجوكِ... أرجوكِ..." ولم يكن يقولها كتضرّع حقيقي، يأمل أن يُحدث أثراً، بقدر ما هي تعزيمة، وكلمات طقسية ومتطيّرة خالية من المعنى، كلمات تنقذ وتزيل التهديد، يطلقها نحيب وقح وخبيث تقريباً، لا يختلف كثيراً عن ذلك النحيب الآخر الأسمى الذي تُطلقه امرأة شبح، كانت تصبّ اللعنة بشفتيها الشاحبتَيْن، وكأنّها تقرأ بصوت خفيض، ودموعها تجري على خدّيها: "هذي أنا زوجكِ التعسة التي لم تبتْ ساعة واحدة قطّ هانئة قربكَ، تملأ الآن نومكَ بالاضطراب"، كنتُ حتّى ذلك الحين سمعتُ الصوت مرّات كثيرة، لكني أسمعه أوّل مرّة إلى جانب أحد كان يسمعه هو أيضاً، لمّا خطر لي أن صوت الطفلة

هذه، أو صوت امرأة رُدّت طفلة، يمكن أن يكون صوت مارتا نفسها، مَن يدري؟! ربمّا هتفت لديئان منذ وقت، وهي في سفر، وكانت تتوسّل إليه في غيابه - وربمّا كان هو في البيت قرب الهاتف يسمعها تبكي من غير أن يجيب. .، وكانت سجّلت رجاءها وسط النحيب، أو ممتزجاً بالنحيب، وكأنّه نغمة من نغماته فحسب، سجّلت فيه ألمها الذي يستمع إليه الآن أختها ورجل مجهول - ربمّا الزوج الضبابي الرجراج الذي لمّا يجئ الأخت، - كما تركت لي ثيليا ذات مرّة ثلاث رسائل متتابعة، وفي خاتمة الرسالة الأخيرة منها ما كانت تستطيع النطق، ولا أن تتنفّس تقريباً. ولم أجرؤ على أن أردّ عليها حينئذ، وكان من الخير أن لم أفعل.

- من هو؟ صاحب الصوت؟ - سألتني لويسا فزعة. كان سؤالاً محالاً، وهو ثمرة الاضطراب والحزن المنقول بالعدوى، وأنا ما كان بمستطاعي معرفته وإن كنت صاحب الشريط المؤقت والعرضي (سارقاً أو مؤتمناً)، ولطالما سمعته مرّات كثيرة.

- أنا لا أستطيع معرفته - أجبتُها .، فكّرتُ أنكِ ربمّا تعرفين. إلى مَن تتضرّع هذه المرأة: أئلى ديئان؟ أم إلى مارتا؟ - وعبّرتُ عن شكّي مرّة أخرى.

- لا أدري. تتضرّع إلى ديئان يقيناً. تتضرّع إليه، أتوقّع. - قالت لويسا.

كانت مضطربة، بل كانت أشدّ اضطراباً ممّا كانت عليه، لمّا سمعت رسالة بيِئنْته مينا الأولى، بكشفها الفظّ. كانت تفرك صدغيها بقوّة أكبر، وكانت حركة، لتجلب هدوءاً، كانت تفتقر إليه، أو لتسيطر على نفسها. ثمّ تشجّعت، وأضافت:

- أنا أفكّر هكذا، لأن الصوت الضارع كان صوت امرأة. في الواقع، لا أدري شيئاً.

تردّدتُ إن كنتُ أذكر لها ما خطر في ذهني منذ قليل تلك اللحظة،

وقبل أن أعزم على صنع ذلك، كنتُ صنعتُه فعلاً، وقبل أن أعرف إن كان موائماً، أو أني كنتُ أريد أن أغرز في رأس لويسا طريقة تفكير، صارت عادة من عاداتي، طريقة السِّحْر التي هي من خفق لا يكفّ في التفكير (والزمن لا ينتظرنا):

- لا يمكن أن تكون مارتا؟

- مارتا؟ - هبّت لويسا فزعة. فليس سهلاً علينا نحن الذين نعيش وحيدين، أن نفكّر في أنفسنا هاتفين إلى هاتفنا ذاته، ولا في الآخرين الذين يهتفون إلى هواتفهم. لكني لم أعش وحيداً دائماً.

- نعم، ألا يمكن أن يكون الصوت صوت مارتا؟ وإلى ديئان وجّهت الرسالة، أو بالحريّ المكالمة الهاتفية، الحقيقة أنها لم تدع رسالة من أي نوع.

- أرْجِعِ الشريطَ مرّة أخرى، من فضلكَ. - قالت لي. والآن استوتْ في جلستها على المقعد، وليس على حرفه، وأصبحت لا تُبدي نفاد صبر كبير، ولا رغبة في الانصراف فوراً. وكان الليل البهيم مطبوعاً في عينيها المفتّحتَيْن جدّاً، وقد كان نادراً جدّاً أن يشغل مقعدي شخص آخر، وإذا كان امرأة، فهذا حسن. أرجعتُ الشريط، ورحنا نستمع إليه مرّة أخرى، وكان الصوت الضارع والباكي ينطلق جدّ مشوّه حتّى كان محالاً معرفة صوت مَن هو، وإن كان صوت أحد نعرفه، أعرفه أنا أو هي أو كلانا (وكنتُ أشاركها معرفة مارتا والطفل أيضاً فقط، والآن صار ديئان وتيبيّث)، علماً أني ما كنتُ لأعرف صوتي ذاته، وهو بهذا اليأس - لا أدري، يمكن أن يكون صوتها، لكني لا أصدِّق ذلك، ويمكن أن يكون أيضاً صوت أيٍّ كان، قد يكون صوت المرأة السابقة التي قالت: قرّروا.

- ما الحياة التي يسلكها ديئان؟ أتعرفين شيئاً عنها؟ - سألتُ.

والحقيقة أني كنتُ أسأل لأدعم الأسئلة التي تطرحها لويسا أكثر ممّا هو بدافع الفضول. ولم أكن فضوليّاً قطّ، ولم أشأ أن أعرف قطّ المزيد عن مارتا، فقد صارت ميّتة، والفضول لا يمسّ الأموات، ولا ينصبّ نحوهم، على الرغم من كثرة الأفلام والقصص والتراجم التي تستقصي بالضبط حيوات الذين أصبحوا غير أحياء، هي مجرّد تزجية وقت، فقد انقطعت الأسباب مع الأموات، ولا يمكن صُنع شيء في هذا المجال. وما كنتُ أريد معرفة المزيد عن ديئان أيضاً (ربمّا معرفة المزيد عن لويسا، لكن هذا أمر محتمل جدّاً، ولا يمثل الآن صعوبات). كنتُ أعلم في جوهر الأمر أني إذا تحقّقتُ ممّا كان ينبغي لي أن أتحقّق (إن كان يوجد شيء، لأتحقّق منه)، فلن أستطيع استئناف حياتي ونشاطي ببساطة، وكأنّ الرابطة التي قامت بين مارتا وبيني لم تنفصم قطّ، أو أنها ستُبطئ حتّى تنفصم زمناً طويلاً، زمناً طويلاً جدّاً، وربمّا أكون "مسكوناً haunted" إلى الأبد. وربمّا كنتُ أريد أن أقصّ فقط ما كنتُ قصصتُه مرّة واحدة هذه الليلة على لويسا في أثناء العشاء، أقصّ حكاية، وكأنّني أدفع ديناً، وإن يكن رمزياً، أو غير واجب الدفع، ولا يطلبه أحد، فلا يستطيع أحد أن يطالب بما لا يعلم أنه موجود، ولا يطالب مَن لا يعرفه، لا يطالب بما يجهل أنه حدث، أو أنه آخذ بالحدوث، وبالتّالي لا يستطيع أن يطالب بأن يتجلّى أو يكفّ. فلويسا ما كانت تعلم بوجودي منذ بضع ساعات خلت فقط. لأنّ مَن يقصّ هو صاحب القرار في صنع هذا الوجود، وحتّى فرضه. أمّا متى يكشف عن نفسه، أو ينمّ عنها، فذلك عادة إذا بلغ منه التعب الذي يجلبه الصمت والظلام مبلغاً كبيراً، وهو الشيء الوحيد الذي يحثُّ المرَء أحياناً حثّاً على قصّ الأحداث من غير أن يطلب ذلك منه أحد، ولا ينتظر ذلك منه أحد، ولا صلة لذلك بالشعور بالذنب ولا تأنيب الضمير ولا الندم، فلا يصنع أحد شيئاً، وهو يؤمن بأنه شيء حقير ساعة صنعه، إن أحسّ بالحاجة إلى

صنعه، ثمّ يلي ذلك الضيق والخوف فقط، وليس على شكل كبير، لكن الضيق أو الخوف أكبر من الندم، وإن التعب أكبر منهما جميعاً.

صالبتْ لويسا ساقيها، كان حذاؤها ما يزال نظيفاً، وكأنّها لم تسرْ به فوق الأرض المبلّلة مدّة طويلة.

- أتناولني الآن كأساً؟ .. قالت. - أشعر بشيء من العطش. - والآن ما كانت مستعجلة عجلة كبرى، وما كانت تشعر بالضيق في بيتي، وكنّا نرتبط كلانا بما كنّا نسمعه، نرتبط بشريط، كان يحوي صوتها وصوتي وسط أصوات أخرى، ما كنّا نفهمها فهماً كاملاً. وكان يُقرّبنا من بعضنا البعض أيضاً تعبنا، وما قصصناه على بعضنا، وما أفضى به كلّ منّا إلى الآخر وكأنّه مُقايضة، هي أشياء كانت تتكامل عَبَثاً، هي من بعدُ، وأنا من قبل، وهو شيء لا علاج له، حتّى ما كان يعنينا كثيراً: وعلى كل حال كان ماضياً، كان شيئاً قد كان حدث، لكنه انقطع عن الحدوث، كان يمكن له أن يتجلّى، لكنْ، قد كان كفّ، فنهضتُ، وذهبتُ إلى (البوفيه) لإعداد قدح من الويسكي، ونهضتْ هي أيضاً، ورافقتني إلى هناك، ولبثتْ مستندة إلى شقّ الباب على شكل أليف ناظرة إليّ وأنا أُخرِج الزجاجة والجليد وقدحاً وماء. هكذا يتابع الأزواج الكلام أحياناً، فيتبع القرين خطوات قرينه الآخر خلال البيت، بينا يكون هذا الأخير منهمكاً في الترتيب، أو تحضير العشاء، أو الكيّ أو جمع الأشياء، إنها منطقة مشتركة، لا تُعقد فيها المواعيد، ولا حاجة بالمرء إلى أن يجلس ليتكلم، وليقول، وليقصّ أشياء، وإنما يتواصل النشاط، وتتخللّه الكلمات، وإجراء الحسابات المطلوبة والحسابات المؤجلّة، وأنا على علم بذلك، لأني لم أكن أعيش وحيداً دائماً.

- حسن، سبقَ لي أن قلتُ لكَ إنهما لم يكونا على وفاق جيّد منذ مدّة

من الوقت. - أجابت لويسا وهي تستند إلى شقّ الباب. - أحسب ديئان يميل إلى الوقائع، لأن الرجال لا يتحمّلون الأوهام وحدها أمداً طويلاً. لكني لا أعلم شيئاً محدّداً. الحقيقة هي أني لستُ على ثبات من شيء أيضاً.

وسألتُ نفسي إن كانت تقول الصدق الآن، فقد كانت علّقت منذ قليل أنها ومارتا كانتا تقصّان على بعضهما البعض كل شيء، ولعلّ مارتا نفسها، لم تكن على ثبات من أي شيء، ولذلك سكتت أمام أختها، فمن الخير السكوت، إذا كان المرء ما يزال يستطيع أن يقول دائماً خير جواب: "لا أدري، هذا لا يعنيني، سنرى،" والعزاء عن الشك يمكن أن يمتدّ إلى الماضي أيضاً. ناولتُها كأس الويسكي، وصببتُ لنفسي كأساً من الغرابا. ما كانت تبدو كاذبة، لكنها قد تكون متحفّظة.

- بصحّتكِ! - قلتُ، وواتتني الشجاعة حينئذ، لأطلب منها شيئاً، لأجعلها حليفتي أكثر ممّا جعلتها حتّى الآن، فلا شيء يساوي طلب صنع المعروف لكسب الناس، لأن كل الناس يسرّهم أن يصنعوا المعروف. كان طلباً رزيناً ومسوّغاً، لكنْ، لا لوم عليها، إن لم تولنيه، لا تثريب على لويسا تييّث إن لم تُولني شيئاً. - أتصنعين لي معروفاً بألا تُحدِّثي ديئان عنّي، إلى أن أنجز العمل لوالدكِ؟ وسوف يُنجَز خلال أسبوع فقط. ألا يمكنكِ التّريّث حتّى الأسبوع القادم، وكأنّكِ لم تعرفيني قطّ حتّى ذلك الحين؟ أنا أؤثر أن أُنجز ما التزمتُ به، إضافة إلى أني أتقاسم الأجر وشريك لي، وإذا ما كشفني ديئان، فلسوف يصعب عليّ إنجازه. فلربّما أراد أن يمنعنيه، وسيكون بإمكانه أن يقصّ القصّة على والدكِ، ليبعدني عنه وعنكم جميعاً وعن مارتا.

شربت لويسا شيئاً يسيراً، ودندنت قِطَع الجليد في القدح، وخَطَت خطوة إلى الأمام، واستندت بيدها اليسرى إلى منصّة (البوفيه)، وصلّت إسوارتها، وكانت تمسك القدح باليد اليمنى، وقالت:

- كم الساعة الآن؟

كانت تحمل الساعة في يدها هذه، كأنّها عسراء، وكان السؤال بلاغياً لكسب الوقت، أو كانت تخشى أن تدلق الكأس، لو قلبت معصمها، كيما تنظر إليها:

- الواحدة، تقريباً. - أجبتُ. وكنتُ على وشك أن أسكب كأس الغرابا.

- تأخّر بي الوقت. سأذهب Voy a irme yendo."الفعل ذاته مكرّر ثلاث مرّات"، فكّرتُ، "ما أشد تلّون لغاتنا بالفروق، كما اللغات القديمة! Voy a irme yendo(*) - تدلّ على أنها لمّا تذهب، وأنها ستنتظر قليلاً، ستنتظر على الأقلّ حتّى تشرب نصف كأس الويسكي، وإن كانت ستشربه بسرعة كبيرة. لقد خامرتها العجلة، لأني طلبتُ منها شيئاً، ولا تريد أن تخاطر بأن أطلب منها شيئاً آخر. ولسوف تقول بعد وقت: سأذهب، ولسوف تقول في وقت تالٍ: أنا ذاهبة، حينئذ، وحينئذ فقط ستذهب حقّاً. وعدنا إلى الصالون بمبادرة منّي، فأنا خطوتُ الخطوات صوبه، وتبعتْني، وكأنّها قرينتي، وليست امرأة مجهولة. وظلّت واقفة، تستطلع كُتُبي وشرائطي بينا كانت تشرب بجرعات سريعة. كانت مغتمّة، فقد كان غمّها الشريط وأنا نفسي. وكانت تُوليني ظهرها:

- ألن تتمّهلي؟

والتفتتْ صوبي، ونظرت إليّ مواجهة، وكانت تجنّبتِ النظر إلى عيني منذ أن سألتني عن الساعة، وطُبع الآن في عينيها وجه الشخص الآخر، وجهي.

- بلى! أستطيع التّمهّل. - أجابتْ. - لكنْ، لا تخامركَ فكرة خاطئة، فلا

---

*) ثلاث حالات للفعل ir= ذهب. Voy= مضارع مفرد متكلّم... voy a irme= عبارة تدلّ على مستقبل قريب أو وشكان حدوث العمل: سأذهب عمّا قريب. Yendo= اسم الفاعل من ir لتوكيد المعنى: سأذهب عمّا قريب ذهاباً، أو أنا ذاهبة ذهاباً.

أحسب ديئان يريد أن يشقّ وجهكَ أو شيئاً من هذا القبيل. هذا لا يحدث في مثل سنّنا، ولم نبلغ هذه المستويات.

- آه، أحقّاً؟ - سألتُ أنا ببراءة، وربمّا بشيء من خيبة الأمل لانخفاض سويّة التّوتّر، والتذكير بأننا لسنا شباباً. - وماذا يريد، إذاً؟ ولمَ هو على استعداد كبير، ليلقاني؟ ماذا يريد؟ أيريد أن يَعرف؟ في هذه الحالة، يمكنكِ أن تقصّي عليه كلّ شيء، كل ما قصصتُهُ.

- سأقصّ عليه، سأقصّ ذلك كله عليه، فلا تبالِ. - قالت لويسا على مهلٍ. سأوفّر عليكَ تكرار البداية، إن شئتَ. أمّا متى أكلمه عنكَ، فيوم الاثنين، إن وافقتَ، لا أريد أن أخفي عنه ما هو ضروري مدّة طويلة أخرى. أدرك أن ذلك ليس سهلاً عليكَ. - كانت متفهّمة لوضعي وكانت تمنحني أكثر ممّا كنتُ أطلب.

- موافق على يوم الاثنين. لا أستطيع أن أؤجّل تسليم عملي إلى أبعد من ذلك اليوم. حسن، سوف يسلّمه والدكِ، هكذا أكون قد أنجزتُ عملي حقّاً. أشكر لكِ شكراً جزيلاً، لكنْ، ماذا يريد منّي حينئذ؟ لِمَ يبحث عنّي؟ سألتُ مرّة أخرى.

- أحسبه يريد أن يقصّ عليكَ شيئاً أكثر ممّا يريد أن يعرف. لا أدري ماذا سيقصّ، لأنه لم يقصّ عليّ شيئاً. لكنه ردّد أكثر من مرّة إنه يريد أن يلقى الرجل الذي كان ومارتا تلك الليلة، ليستعلم عن بعض الأشياء. ويريدكَ أن تعلم بعض الأشياء. ولا أدري ما هي. اسمعْ، سأذهب، فأنا متعبة. هو سيقول لكَ كل شيء يريد. "آه، فكّرتُ،" "هو الآخر يريد أن يقصّ. وهو أيضاً متعب، أتعبته ظلمته أيضاً".

- سجّلي رَقْم هاتفي. - قلتُ. - يمكنكِ أن تعطيه له منذ يوم الاثنين،

إن شئتِ. وهكذا لن يضطرّ إلى البحث عنه، ولا إلى طلبه من والدكِ. - سجّلتُهُ أنا نفسي على ورقة لاصقة ذات لون أصفر، فقد صار عندي الآن دفاتر صغيرة من هذا الصنف قرب الهاتف كالتي موجودة في البيوت كلها.

أخذتْ لويسا الورقة، وحفظتْها في جيبها. الآن، نعم، كانت تبدو مُنهكَة، فقد حلّ عليها كابوس اليوم كله، ربمّا كانت سئمت سأماً كبيراً كل شيء، سئمتْ أباها والطفل وديئان، وسئمتْني أنا نفسي، وأختها ذاتها حَيّة وميتةً،

وجلستْ على مقعدي مرّة أخرى، والقدح في يدها اليمنى، كأنّما تفتقد القوى، لتظلّ واقفة. وبيدها الأخرى غطّت وجهها، كما غطّتْه في المقبرة، وإن كانت الآن لا تبكي: كما يصنع أحياناً مَن أُصيبوا بالرعب، أو يحسّون بالخجل، ولا يريدون أن يَروا، ولا أن يُروا. لم أستطع تجنّب إنعام النظر في شفتيها - هاتَيْن الشفتين! - اللتَيْن لا تسترهما اليد. وإلى الآن لم تقل: "أنا ذاهبة"، لمّا تقلْ.

عملتُ إلى جانب تييّت بقيّة الأسبوع، وذهبتُ يوم الأحد ورُويبرِّت ديتورِت إلى سباق الخيل، وفكّرتُ أنني أصبحتُ أستطيع الآن أن أكافئَه على مساعيه، وأسدّد له الدَّين، وأقصّ عليه ما حدث لي مع امرأة مجهولة منذ ما ينوف عن شهر خلا، وقد وجد في القصّة تسليته، تسلية فقط، بمعنى ما، كان يتمنّاها لنفسه: ولو كانت القصّة قصّته، لكان أعلن عنها في كل مكان منذ البداية، ولكانت قصّةً هي في وسط الطريق بين المأساة والملهاة، وبين السخرية والقتامة، بين الموت الرهيب وبين الموت المضحك، وما هو غير فظّ، ولا سامٍ ولا ظريف ولا حزين، يمكن له أن يصبح أيّاً ممّا عددناه عند قَصّه، فالعالم منوط برُواته، وبسامعي القصّة أيضاً، الذين يكيّفونها أحياناً، وأنا نفسي ما كنتُ لأجرؤ على قَصّ قصّتي على رُويبرِّت بشكل مختلف عمّا قصصتُهُ بينا كان يجري السباقان الأوّليان قليلا الأهمّيّة، أي أقصّها بلهجة قاتمة ومرحة، من غير أن نجد مشكلة في أن نقطع الحديث لمراقبة خطوط نهاية السباق بمنظارِنا متنقّلين من المدرّجات إلى الملعب، ومن الملعب إلى الحانة، ومن هناك إلى شبابيك الرهان، ثمّ إلى المدرّجات مرّة أخرى، فلا شيء يُقَصّ مرَّتَيْن بالشكل ذاته، ولا بالكلمات ذاتها، ولا القاصّ يكون قاصّاً واحداً كل المرّات، وإن كان القاصّ الشخص ذاته. قصصتُ عليه القصّة شارد اللبّ، وبتنميق أيضاً كيما يُقدّرها قدرها، قصصتُها عليه على مرحلتين. فلا يمكنكَ أن تقصّ على رُويبرِّت سِحْراً، "لا تتخابثْ"، كان يقول من حين لآخر، "أماتت المرأة بين يديكَ؟" نعم،

هذا ما كان منه، ولا يمكن أن يكون شيئاً آخر، لقد ماتت المرأة بين ذراعيّ. "وفوق ذلك، لمّا تبلغ أن تضاجعها؟ خُرْياً لكَ"، قال بشيء من السرور لسوء حظّي. والحقيقة أني لم أضاجع، وربمّا كنتُ سيّئ الحظّ. "وكانت بنت تييّث أوراتي؟ لا تتخابثْ"، قال أيضاً كما أتذكّر. كان يستمع إليّ بسرور واضطراب، كما يحصل لنا إذا قرأنا في الصحف حول كارثة لا يمكن تجنّب الضحك منها، تصيب أحداً ما مجهولاً، يموت لابساً جوربيه، أو في محلّ حلاقة واضعاً مريلة كبيرة، أو في مبغى، أو في عيادة طبيب أسنان، أو وهو يأكل سمكاً، فيعترض حلقَه عَظْمٌ، كما يحدث للأطفال الذين لا تكون أمّهاتهم قربهم، ليُدخلنَ إصبعاً، وينقذنهم، الموت كتمثيلية أو مسرحية يُعلن عنها، هكذا تكلّمتُ عن ميّتتي، وأنا أسير في ملعب الخيل الذي طالما تردّد عليه تييّث حين لم يكن عجوزاً جدّاً، واقفاً أمام طاقات الرهان وفي البار وفي الملعب أو على المدرج واضعاً المنظار أمام عينيه، والجياد تتلَفّع أكثر فأكثر بالضباب المتزايد، كان شهراً من الضباب في مدريد في كل ساعة من الساعات، كما لم يُرَ مثله خلال قرن، وزادت حوادث السير، وحصل تأخّر في مواعيد الطائرات، وكانت الجياد تجري وكأنّهنّ بلا قوائم، بل رأينا أجسامها تمرّ مروراً، ورؤوسها الشبحية تتنافس السبق، وكأنّها قطع في دوّامة الخيل أيّام طفولتنا، فلم يكن لجيادنا الأولى قوائم، وإنما كان يخترقها سيخ طولاني، وكنّا نتشبّث بها بينا نطوف بها في دائرة من غير أن نتحرّك من مكاننا بسرعة متسارعة، وكأنّها تجري فوق الملعب أو العشب، ويتسارع إحساسنا بالدوار، إلى أن تنطلق الموسيقى، وتتناقص السرعة. بدأ الشهر الجديد جالباً معه الضباب، وكان الشهر السابق عليه جلب العواصف. كان رُوبيرِّث يرتدي معطفاً ذا حزام معقود بشدّة، كالذي يلبسه المعجبون بأنفسهم، أمّا أنا، فكنتُ ألبسه طليقاً، كلانا كان يلبس قفّازين من جِلْدٍ قاس، وكنّا نشبه حارسَيْن شخصيَّيْن، وما كان هو يخفي

اصطكاك أسنانه في أيّة لحظة، وكان يبدي الجانب الداخلي من شفتيه، إذا قلب الشفة العليا إلى فوق بضحكته المنحلّة. وكان ينظر باستياء إلى التجارب الأوّل الخالية من الأهمّيّة، وكان يسترق النظر إلى ما حوله بحثاً عن فريسة، أو عن معارف يُحيّيهم، أو يفيد منهم شيئاً، ولم أكن أكفّ في أثناء ذلك عن الحكي له، وكان أسرف في رش ماء الكولونيا. لكني لم أقصّ عليه القصّة الأخيرة، لم أحدّثه عن الأخت، ولا عمّا كنتُ أنتظره، فقد سدّدتُ له دَيني بقصّة الموت والمضاجعة التي لم تتمّ. ثمّ أعلمتُه أني ختمتُ كتابة الخطاب اليوم السابق، وسلّمتُه نسخة منه، فهو، على كل حال، سيُشاركني الربح الهزيل الذي كنّا ننتظر أوانَ قبضه. فأنا عملتُ باسمه.

- كيف طلع الخطاب؟ - سألني لمّا كان يطويه بطريقة سيّئة، ويحفظه في جيب المعطف من غير أن يُلقي عليه أدنى نظرة.

- باه! هو أشبه بالخطب الأخرى، يشبهها بالسآمة والتفاهة، ولن يلتفت إليه أحد هذه المرّة أيضاً متى ألقاه (أنتَ وحدكَ). لقد أرغمني تييّث على أن أكون امتثاليّاً وتقليديّاً جدّاً، وقيّد يدي، والحقيقة أني ما كنتُ أنوي أن أغيّر فيه شيئاً كبيراً، ولم تكن لديّ الجرأة على تغيير كبير، أنتَ تعلم أن المستفيد من العمل يفرض نفسه عليكَ، أو الصورة التي تُكوّنها عنه، إذا ظهر للجمهور، وساعة الكتابة لا يوجد مَن ينتزعها.

كنتُ عملت الأسبوع كلّه، وحتّى يوم السبت، مع تييّث الذي كان يزداد حماساً وثقة بنفسه، فكان يزورني، ويصحّح لي، ويُجري تفتيشاً عليّ، وينصح لي متبختراً لمعرفته بنفسية المستفيد النبيلة؛ كان سالياً هذه الأيّام بلا ريب، فقد كان لديه مشروع ومسؤوليات دولة ورجل أحدث سنّاً، كان يأتي في الأصباح، ويأتمر بأمره. كان يقاطعني أحياناً، ليكلّمني عن أشياء أخرى، عن أخبار الموتى في الصحف التي كان يدقّق فيها، بإمعان، وعن وضع

البلد الكارثي والمنهوب، وعن سخافات زملائه الأكثر شهرة، وتفاهاتهم، كان يدّخن غليوناً بصحبتي، أو يسرقني بعض السجائر، فكان يمسك بها بيد غير خبيرة، فيضعها بين الإبهام والسبّابة كأنّها فرشاة، أو قطعة طباشير، وكان يمصّ مصّات خائفة، ويحتقن وجهه قليلاً، إذا بلع الدخان، لكنه كان يُدخله جوفه، وكان يغيب لهنيهة لإعداد القهوة في المطبخ، وكان يُرغمني على التّوقّف في عزّ الصباح، ويصبّ لنفسه كأساً من خمر الأوبورتو، ويصبّ لي كأساً أخرى، وكان يُعيد قراءة صفحاتنا المختتمة، والمُوافَق عليها، وهو يمُسك الكأس الصغيرة بيده، ويُسجّل الإيقاع مع الخمر الراقي، وكان يضيف، أو كان يبدّلها بنقطة وفاصلة، وكان يؤثر علامة الترقيم هذه، "إنها تساعد على التّنفّس"، كان يقول، "وتحول دون انقطاع الخيط"، وكان الهاتف لا يرنّ تقريباً، فما كان يطلبه أحد، ولا يبحث عنه أحد، وإنما كنتُ أسمعه من حينٍ لآخر فقط يُكلّم بنته، أو كنّته، بل على الأصحّ، هو كان يهتف لهما إلى العمل، بحجج شتّى. حقّا كان وجوده هشّاً. في آخر يوم، وكان سبتاً، أوصلتُ إليه لمّا كنتُ ما أزال عنده، باقة كبيرة من أزهار بورغونيون، فما كان يرضى بأقلّ من ذلك، أرسلتُها من غير رسالة ما، وكنتُ أعلم أن ذلك الإكليل سيشغل ذهنه أيّاماً عدّة - أي حتّى تذبل الأزاهير - ويعينه على ألا يفتقدني متى اختُتمت مَهمتّي، ولا أظهر في البيت مرّة أخرى، لا يوم الأحد ولا الاثنين ولا الثلاثاء ولا أي يوم آخر. أدخلت الخادمُ العجوز الإكليلَ، ونقلتْه إلى الصالون ملفوفاً بالسلوفان، ووضعتْه على السجّادة، فنهض تييّث من فوره، لينظر إليه دَهِشاً، وكأنّه دابّة مجهولة.

- افتحيه! - قال للخادم باللهجة ذاتها التي كان الأباطرة الرومان يقولونها لعبد: "ذقْهُ!" أي ذقِ الطعام خشية أن يكون مسموماً؛ ولمّا نُزع السلوفان، وانسحبت الخادم (اختفت هذه وهي تطوي الغلاف بعناية للإفادة منه)، دار دورتَيْن أو ثلاث دورات حول الإكليل ناظراً إليه بتوجّس

وشكَ. - أزهار من مجهول! - كان يقول - أيّ شيطان عساه يُرسل إليّ أزهاراً؟ أرجع النظر إليها، يا فيكتور. أحقّاً لا توجد بطاقة في أيّ جانب منها؟ انظر جيّداً بين سوقها. هذا من أغرب الأمور، من أغرب الأمور. - وكان يحكّ ذقنه بفتحة الغليون المطفأ بينا كنتُ أبحث في الأرض عمّا كنتُ أعلمه غير موجود. أشار إليها بالسبّابة، كما كنتُ رأيتُه يشير إلى حذائه في المقبرة واضعاً إبهام اليد الأخرى تحت إبطه كأنّها عود حطب. كان ينوي أن يقول شيئاً، لكنه كان مضطرباً بإفراط، وكان يغمره الحماس، ولم يدنُ من الأزهار البتّة. جلس أخيراً بتثاقل كبير مُرخياً جسمه المتأرجح، وكان ينظر إليها على البساط كأنّها معجزة مبرزاً صدره، أما وجهه، فكان كالكرغل. - اليوم ليس عيد ميلادي، ولا عيد قدّيسي، ولا هو ذكرى لشيء أذكره، قال - ولا يمكن لها أن تكون من (البيت الملكي)، فلمّا نسلّم الخطاب. سوف أستطلع رأي مارتا ولويسا، فلربّما خطر لهما خاطر، ولسوف أهتف لمارتا، لكي أقصّ عليها القصّة، فهي تكون أحياناً حُرّة من الدروس مساءً، وفوق ذلك اليوم سبت، ولسوف تكون في البيت يقيناً. - وكان تهيّأ للنهوض، ليذهب إلى الهاتف، لكنه قطع الحركة فوراً، وتهاوى على المقعد مرّة أخرى، واستند برقبته إلى المسند، وكأنّ موجة ضخمة أفقدتْه صوابه، أو رأى رؤية سبّبت له إرهاقاً، أو ربّما علت بصره غشاوة، وكان مضطرّاً إلى رفعه، كيما يحول دون الإغماء. وسرعان ما أدرك وضعه، واعتذر إليّ، وما كان بحاجة إلى الاعتذار.. لا تحسبني مجنوناً أو فاقد الذاكرة، - قال لي - وإنما يصعب على المرء أن يعتاد الوضع فحسب. أليس كذلك؟ يصعب إدراك أن ما كان موجوداً صار غير موجود. وتوقّف، ثمّ أضاف فوراً: - لا أدري لِمَ أظلّ موجوداً، وقد غاب كثيرون؟ - ولم يسمح لنفسه بالمزيد. وقف مرّة أخرى مستنداً استناداً كبيراً إلى ذراعي المقعد، كيما يكتسب اندفاعاً، ودار دورة أخرى حول الإكليل بخطى حذرة، كان يرتدي ثيابه كاملة في بيته، وكأنّه يتأهّب

للخروج، وإن كان لا ينوي الخروج: فكان يضع ربطة العنق، ويرتدي الصدّار والسترة، وكان ينتعل شيئاً آخر سوى الحذاء الذي يخرج فيه إلى الشارع. وسمعته ذات صباح يهاجم هجوماً عنيفاً البناطيل المشمعيّة المقزّزة: "لا أفهم كيف يسمح السياسيون لأنفسهم أن تُؤخَذ لهم صور بهذا الزي"، قال، "بل أكثر من ذلك: لا أدري كيف تواتيهم الجرأة على لبس هذا الزّيّ حتّى ولو لم يرهم أحد. وفي الصيف لا يلبس هؤلاء الأفظاظ جوارب. لا أصدّق رداءة الذوق عندهم". كان نظيفاً وأنيقاً، كان يشبه إلى حدٍّ ما قطعة أثاث مُتقَنَة ومُزيَّنة قليلاً. رفع الغليون إلى فمه، وأضاف: - "وأخيراً! هذه الأزهار الغامضة. لا بدّ لنا من إجراء تحقيق، وينبغي لي أن أشكر عليها. فلنعد إلى العمل، أو أننا لن نُنجزه اليوم، يا صديقي فيكتور، ولا يسرّني أن أخلّ بوعودي." - وقادني ممسكاً بذراعي، لنعود إلى المكتب الغاصّ بالكُتُب واللوحات، والمضطرب والحيّ أيضاً، وحيث كنتُ على وشك أن أطبق الآلة الطابعة المحمولة والمفتوحة طيلة أسبوع. لم يهتف إلى لويسا تلك اللحظة، بل سيصنع ذلك في وقت آخر، كما سيهتف إلى أشخاص آخرين بحجّة هامّة. وفكّرتُ في أن له دافعاً على الأقلّ، لكي أبقى حتّى مجيء يوم الاثنين، ليذهب إلى القصر، ويُسلّم عملنا غير الدائم، أي عمله وعملي وعمل الوحيد وباسم رُويبِرّث، وإن كنتُ أرجّح أن لن يستقبله أحد هناك غير سيغورولا وسيغارّا، فالوحيد ليس على استعداد للاستقبال كثيراً. والوجود الهشّ منوط بكلّ يوم فيوم، وربّما كلّ وجود. فكان بمستطاعه أن يفترض فروضاً حول الأزهار طيلة أيّام آخرى، بل مدى الأسبوع كله لحسن الحظّ.

وخلت التجربة من الأهمّيّة أيضاً، ولم تربح حتّى ذلك الحين شيئاً، فمزّقنا البطاقات بغضب، وألقينا بها أرضاً باحتقار، ذلك أن رُويبِرّث لا يخرج من أيّة لعبة خالي الوفاض، وراح يقصّ عليّ قبائح طريفة عن امرأة مغفّلة، كانت تُرضي في الوقت الراهن نزواته، بينا كنّا ننظر إلى عرض

الخيول في الملعب استعداداً للجولة الجديدة - جولة في دائرة أيضاً، كما في الدوّامات - لمّا التفت عند سماعه اسمه كاملاً مسبوقاً بكلمة "سينيور"، (حتّى ذلك الحين لم نلتقِ أحداً ممّن نعرفه سوى الأميرال آلميرا بكنيته التي كتُبت عليه، وبصحبة زوجه البارعة الجمال، حتّى لم نجد الفيلسوف ذا اللحية والنظّارة، وما كان يغيب قطّ، فلربّما حجزه الضباب، أو أنه سيصل في الجولة الخامسة). التفت، بل قل التفتنا، وبدا عليه أنه لا يعرف المرأة التي كانت أطلقت الصيحة، ودنت منّي من غير تردّد، وهي تمدّ يدها، وتخاطبني باسمه على شكل محال: "سينيور رُويبِرِّث تورِّس"، اسم كان يبدو طويلاً جدّاً. وكانت تلك الآنسة آنيتا المعجبة بـ (سولوس)، ترافقها صديقة لها بطول قامتها وهيئتها. وكلتاهما اعتمرت قبّعة كأنّهما في آسكوت، ويندر اليوم أن نرى قبّعات، وقد صارت غير مليحة قليلاً، ولاحظتُ أن رُويبِرِّث لم يعجب بهذا التفصيل، وكذلك أنا إلى حدٍّ ما، وبهذا لا نختلف عن بعضنا، وإن كنّا نختلف في المعاملة والوسائل، وأبديتُ عدم اهتمامي من قبل.

- أقدّم لكَ السّيّد فيكتور فرانَش - قلتُ مشيراً إلى رُويبِرِّث. - الآنسة آنيتا.

- آنيتا بيرث آنطون - قالت هي. - وهذي لالي إحدى صديقاتي. - لقد جرّدتْ صديقتها من كنيتها، كما صنع (الوحيد) بها، في الواقع، هو لم يقدّمها لنا، ولم يكن يزن جمله علاوة على تعامله معنا من غير احترام.

- آمل ألا تعاني اليوم مشكلة في جوربيكِ. - مازحتُها فوراً، لأرى كيف يكون وقع المزحة عليها، فوجدتُها أكثر انشراحاً ممّا كانت عليه في العمل، وقد تلقّتْها على شكل رائع قائلة:

- أوّي! ما كان أكبر المزقة ذلك اليوم! - ووضعتْ يدها على فمها وهي

تضحك، وأضافت مبيّنة لصديقتها أكثر ممّا هو لرُوبِرِّت الحقيقي: - لكِ أن تتصوّري مزقاً رهيباً في جوربي، ولم يُتح لي الوقت لتبديلهما قبل أن ألتقي هذا السّيّد الذي استقبله الرئيس. وكان السّيّد سيُشرف على خطابه. حسن! حسن، حسن! ساء الوضع في أثناء الزيارة، حتّى صار جورباي خرقة متدلّية. - وقامت بحركة تشير بها إلى سقوط الجورب من مستوى التّنّورة التي كانت قصيرة وضيّقة. ولم تفُتْ رُوبِرِّت هذه الحركة، ولربمّا تصورّها شيئاً وسخاً. - لا تتصورّي مقدار الضيق، فقد صار الجوربان مزقاً، بمرأى منهم جميعاً، من غير أن يقول أحد كلمة. ربمّا كان المزق بسبب البلغم(*).

"بلغم"، كلمة صارت بالية، لكنها كانت تعمل في مكان بالٍ بطبيعته. كل يوم تزداد الكلمات التي لا يستعملها أحد، وتُهجَر بسرعة أكبر. نحّيتُها قليلاً، وقلت لها: - أنهيتُ الخطاب حقّاً، وسوف يحمله إليه السّيّد تييّث غداً. - سمعني رُوبِرِّت، وأدرك حقيقة الأمر حينئذ، وأفترض أن اهتمامه زاد بالفتاتَيْن الشّابّتَيْن، وإن لم يُبد مبادرات محدّدة، فكلّما تقدّم المرء في العمر، أُولع بملاحقة كل ما يتحرّك وعليه شيء من حلاوة. لكننا لو ظللنا الأربعة معاً لتساوى في ذلك، ولا لي (ربمّا كانت لقيطة)؛ وحول هذه النقطة لا يساورني شك. وخلاف ذلك، أرجّح ألا نتمتّع بصحبتهما أكثر من شوط واحد أو شوطين اثنين حتّى خمسة أشواط. ولا هما أيضاً ستتمتّعان بصحبتنا أطول من ذلك، وخير منه قضاء ليلة معاً مثنى مثنى أو رباع.

- كيف سيحمله غداً؟ - قالت الآنسة آنيتا وقد استعادت هيئتها المهنية للحظة. كانت تلك القبّعة الحمراء تبدو عليها كأنّها نكتة سمجة. - ألم تعلما بإلغاء اجتماع ستراسبورغ؟ أنا نفسي أصدرتُ أوامر أن يهتف للسّيّد تييّث لإعلامه بذلك. لا تقل لي إنّهم لم يهتفوا.

- ظللنا نعمل حتّى أمس، ولم أكن أعلم شيئاً. - أجبتُ بعد ثوان

---

*) أحد الطبائع الأربعة قديماً، أي البرودة التي تقود إلى الكسل والخمود.

معدودات. ولربّما نسي السّيّد تيبّث أن يُبلغني الخبر، فهو طاعن في السّنّ قليلاً. - ولقد شعرتُ بالأسى على تيبّث في البدء، لأنه سيضيع عليه الآن المجيء يوم الاثنين إلى القصر، وخطر لي أنه ربّما كان على علم، ولم يُخبرني، ليحتجزني أيّاماً أخرى في بيته، لينعم بصحبتي. ولسوف يُلقى بهذا النص في أحد الدروج إلى الأبد، وكلها نصوص كُتبت للمناسبات. لم أستسغ الفكرة، وإن كنت مجرّد كاتب أسود أو كاتب شبح، وفكّرتُ: "يا للعجوز المسكين! يعلم كيف يتدبّر أمره، ويعلم أنه يعيش يوماً فيوماً".

ذهبنا نحن الأربعة - إلى طاقات الرهان، وكانت يدي تحتكّ بذراع آنيتا حماية لها. وكان رُوبِرِّث متخلّفاً عنّا قليلاً، وقد اضطر إلى محادثة لالي التي كانت قبّعتها أكثر شذوذاً.

- آسفة، أن يذهب عملكَ سدى، - قالت آنيتا. - لكنْ، سيدفع لكَ أجركَ، سيدفع لكَ الأجر ذاته، فلا تتخلّ عن تقديم الفاتورة. - "هذا نظير مسلسلاتي التي لا يُخرجها أحد"، فكّرتُ، "مزيد من التمثيل. على الأقلّ، تُعقد معي عقود، ولستُ باطلاً عن العمل كآخرين كثيرين"، وسقط من الآنسة آنيتا برنامج السباق، فأقعيتُ، لألتقطه، وأقعت هي أيضاً ببطء، واغتنمتُ فرصة نهوضها، لأرتطم برأسها الذي ما يزال محمياً ارتطاماً خفيفاً (وكانت أبطأ منّي في نهوضها، لأن تنّورتها كانت في خطر)، وبذلك نُزعت القبعة. وأقعيتُ مرّة أخرى، لألتقطها، ودعكتُها بالأرض خفية للحظة، كيما أستطيع أن أبدي أسفي لتلوّثها كثيراً. فقالت: خرء! - ولا أدري إن كانت تجرؤ على قول ما قالتْه في القصر.

- آسف جدّاً! انظري كيف تلوّثتْ، فقد صارت مقرّزة، لكنْ، لا تهتمّي، أنا سأحفظها إلى أن نستطيع تنظيفها بشيء ما، ولسوف يبدأ السباق عمّا قريب. وفوق ذلك، أنت هكذا أجمل، وشعركِ مكشوف. - وكان حقّاً أنها

كذلك، لأن وجهها مدوّر لطيف، وشعرها أسود جميل، بيد أني ما كنتُ أطيق رؤية القبّعة على وجه خاصّ، وأنا مُوَسْوَسٌ من بعض الأشياء.

راهنّا جميعاً. هما راهنتا بمبالغ للهواة، ونحن بمبالغ أكبر، ولعلّهما فكّرتا في أنّنا ثريّان، وكنّا كذلك بمعنى ما في هذه الأزمنة الحاضرة، وكنتُ يقيناً أغنى من رُويبِرْت، إذ كانت بطالتي أقلّ، ولا أعيش على حساب أحد. قدّم هو النصيحة للمحرومة من شرف حمل كنيتها، ونفختُ أنا في أذن ربّة البلاط. وعدنا إلى المدّرجات حاملين بطاقاتنا، هما كانتا تمسكان ببطاقتيهما في أيديهما، كأنّهما شيء ثمين للغاية، وتخشيان أن تفقداه. أما نحن، فوضعناهما في جيب السترة، حيث يُوضَع المنديل بارزاً شيئاً قليلاً، كما هو منطقي، وأنا لم أحمل منديلاً قطّ على العكس من رُويبِرْت الذي كان يحمله دائماً بألوان حَيّة زاهية؛ كان فكَّ أزرار المعطف، ليحرّر عضلات صدره. شرعتُ أراه، كأنّه بلباس الحمّام، وكنّا خلعنا القفّازات، هما لم تجلبا مناظير، فاضطررنا إلى أن نعيرهما منظارينا تودّداً، وكان واضحاً أننا لن نظلّ بصحبتهما حتّى الشوط الخامس، وهو الأهم، فما كنّا نريد أن نتخلّى عنه، وأصبحنا لا نرى ولا نعلم شيئاً بوجود الضباب من غير مناظير، واختلط الأمر على لالي، فأعلنت عن ربح الحصان الذي لم يربح، فكانت تريد أن يغلب حصانها الذي راهنت عليه بمبلغ ضخم. وخسرنا جميعاً، ومزّقنا البطاقات بمزيج دقيق من الاحتقار والغضب، وقد تردّدتا هما قليلاً آملتَيْن بإعادة تصنيف لاحق غير منتظر يفيدان منه، وكان يلزمنا الآن الذهاب إلى البار قرب الملعب، ونخطو الخطى ذاتها طيلة ستّة أشواط، وبذلك يكمن السِّحْر بالانتظار نصف ساعة قبل كل محاولة تدوم قليلاً، لكنها تبقى في الذاكرة دائماً.

- وكيف أُلغيَ اجتماع ستراسبورغ؟ - سألتُ آنيتا وأنا أحمل زجاجة كوكا -

كولا بيدي. كنتُ ما أزال أصادر القبّعة، وكان ذلك إزعاجاً حقيقياً. - كانت فكرتي عنه أنه اجتماع هامّ، وأفترض أن روزنامة رئيسكِ ستكون مُعدّة بإتقان منذ وقت، وسيكون احتمال التغيير فيها ضئيلاً.

- نعم، وهو كذلك مبدئياً. لكن المسكين مُرهَق جدّاً حتّى لا يجد بين حين وآخر وسيلة سوى أن يلغي منها شيئاً بضربة واحدة. وهذا خير من التأجيل والتسويف ومحاولة القيام بتسويات مريبة؛ نعم، ذلك يؤدّي إلى الفوضى. - وأحسبها كانت تريد أن تقول (بشطبة قلم)، وإن كانت على الأغلب قوية، أو ربّما (بركلة واحدة)، وهذا أقلُّها احتمالاً.

- قد يحتجّ المتضرّرون. - قلتُ - سيشعرون بالضرّ الشديد أو التمييز. ألا تنجم عن هذه الأشياء حوادث دبلوماسية؟

نظرت إليّ بقلق وشبه انتقاد لي (قطّبت شفتيها المصبوغتين)، وأجابت بكبرياء:

- فليجلسوا على الخازوق. هو يقوم بأكثر ممّا ينبغي له. يتّصلون به من الجهات كلها بتعسّف كامل. لا يعلم، هؤلاء الخصي، أنه لا يوجد غير شخص واحد. - كانت بذيئة الكلام بذاءة كاملة، لكن الناس جميعاً تقريباً بذيئون هذه الأيّام.

- ألذلك يُسمّى الوحيد؟ أليس كذلك؟ - قلتُ. - ألستِ تسمّينه هكذا، أعني إذا أشرتِ إليه؟

أبدت تردّداً بسيطاً حيال السؤال، فما كان يسرّها أن تنتقل من فم إلى فم الألقاب التي تنبزه بها دائرة الناس الأقرب إليه.

- هذا يعني، يا سيّد رُوبِرّث ديتورّس، أنكَ تريد معرفة الكثير. - قالت،

ولم يستطع رُويبرِّث الحقيقي الموجود أبعد قليلاً عند الحاجز إلا أن يمطّ رقبته، لمّا سمع كنيته. لم يكن على علمٍ بشيء. والصديقة لالي كانت ثرثارة، كانت آلة لإطلاق الكلام الفارغ.

- لكني آمل ألا يكون حدث مكروه لرئيسكِ نتيجة إلغاء الخطاب.

كانت الآنسة آنيتا أكثر تحفّظاً حيال مشاعرها الخاصّة أكثر ممّا هي حيال حياة السُّهلي وعاداته. وأجابت عن هذا السؤال من غير إشكال.

- لا، لم يحدث مكروه. اسكتْ، ودقّ الخشب. - ولمست العيدان المخصّصة لتخليل الأسنان والموضوعة في وعاء من البورسلين على الحاجز. - ما يحدث هو أنه مُرهَق للغاية، ولا يحسب حساب قواه، ولا يتركه الناس بسلام، وهو يريد أن يُرضيهم جميعاً، وقد ساء نومه أخيراً. ولم يحدث له ذلك من قبلُ، وأصيب بالهزال بالطبع، وهو مُرهَق، وصار جِلْداً على عَظْم. نحن بانتظار أن تمرّ الغمّة، وقد حدث له ذلك كله الأسبوع الماضي خاصّة. يقول إنه شرع في التفكير عند النوم، فتحول الأفكار بينه وبين النوم، أو إنه يظلّ يفكّر وهو نائم، فتذهب عنه حينئذ، ويستيقظ.

- هكذا يكون الأرق عادة - أجبتُها عند نهاية الطريق. - إذا كانت وطأة التفكير أقوى من التعب والنوم. وإذا غلب التفكير النعاس، فأنّى للمرء أن ينام بعد ذلك؟

- أمّا أنا، فلم يحصل لي ذلك قطّ. - قالت آنيتا. حقّاً، هي كانت سليمة البَدَن، ولا أعجب أن يكون الوحيد الأوحد مسروراً ببقائها إلى جانبه.

- لكنْ، لا بّد لرئيسكِ من أن يتناول شيئاً. فهناك حبوب منوّمة، ولديه جيش من الأطّباء، كيما يصفها له.

- جرّب الأوّازين، أتعرفه؟ أوّازين ريلاخو، ربّما جاءت الكلمة من oasis

(واحة). - كنتُ أعرف دواء أوازيل ريلاكس، وأحسبها كانت تشير إلى هذا المهدّئ. - لكن الدواء ضعيف جدّاً، ولم يؤثّر فيه، وجُلبت له الآن قطرات من إيطاليا، كانت خيراً من سابقتها، وتُسمّى EN أو NE، ولا أدري معناها، تجعله ينام فوراً، لكنّه، في المقابل، يستيقظ قبل الأوان، وهكذا لا يُعلم إلى متى تدوم هذه الحالة. - "قبل الأوان" بدت لي تعبيراً مفرطاً في أمومته ربّما.

- سبق له أن بيّن لي شيئاً من هذا يوم لقيتُه. - قلتُ. - وفيما يفكّر؟ أبيّن لك ذلك؟ فهو لا تنقصه المشاغل، لكنه كان مشغولاً دائماً.

- يقول إنه يفكّر في نفسه، وإن لديه شكوكاً. وصرنا كلنا مثارين بهذا الوضع.

شكوك؟ حول ماذا؟

نفد صبر الآنسة آنيتا مرّة أخرى، وكانت ذات عبقرية.

- شكوك، ياخرء، شكوك. ما الفائدة إذا عرفنا حول ماذا تدور؟ أيبدو هذا قليلاً؟

- لا، بل يبدو لي كثيراً، خاصّة في مثل حالته. وماذا يصنع في أثناء الأرق؟ أيغتنم الفرصة ليعمل؟ من الخير أن يأخذ الأمر بهدوء، أقول ذلك، لأني أعاني الأرق أحياناً منذ سنوات.

- نعم، يا رجل، هو فوق ذلك، يعمل خارج أوقات العمل. - هذا ما قالته باللهجة ذاتها التي كان يستعملها (أنتَ وحدكَ) مع الرّسّام سيغورولا. كانت آنيتا ضحيّة التقليد، وكان طبيعيّاً أن تكون كذلك. - لا، بل يحاول أن يستريح، وإن لم ينم، فيستلقي، وبذلك تستريح ساقاه، ويقرأ ويشاهد التلفاز، وإن كانت الأقنية لا تبثّ كلها فجراً، ويرمي بالنرد أملاً بأن يضجر، ويوافيه النوم.

- النرد؟

- نعم، النرد. - وقامت آنيتا بإيماءة من يدها وكأنّها تحرّكها أوّلاً، ثمّ تنفخ عليها ثانياً، كما في لاس فيغاس، فلربّما كانت تشاهد السينما كثيراً: لاس فيغاس. آسكوت

- هيّا، أعطني القبّعة - أضافت. - سأغسلها بشيء من الماء، يا للعهر!
- لئن سمحت لنفسها بهذا التعبير، فذلك لأنها نسيت بلا ريب أن عهرها كان من صُنع يدي، فأعدتُها إليها، لأتخلّص منها، لكنْ، لم يُتَح لها الوقت كيما تطلب ماء.

- لسوف تتخرّب، إذا بلّلتها. - قلتُ.

- إيّه! هيّا بنا إلى الملعب، فقد أُخرجت الخيول منذ بعض الوقت.
- قال رُوبِرْت مقاطعاً للحظة شلال لالي المتدفّق.

لم تكن لدينا فسحة من الوقت، لنراها تُعرض، فقد اضطررنا إلى الجري للقيام بالرهان، كانت صفوف تقف أمام الطاقات كلها، وكان الملعب مكتظّاً بالناس، كما هي الملاعب كلها في مدريد في كل ساعة، إنها مدينة الضوضاء. وكانت المرأتان تنظران دهشتَيْن إلى الشاشات المكتوب عليها التسعيرة، من غير أن تفهما رَقْماً واحداً.

- اسمعي، يا آني. - قالت لها صديقتها. - أليس في الشوط الرابع ينبغي لكِ أن تقومي بالرهان الكبير؟

- أي، نعم، هذا حقّ، أحسنتِ، إذ ذكّرتني. أليس هذا الشوط الرابع؟

أجابت آنيتا، وفتحت حقيبتها بضيق فجائي (كانت أظفارها مَطليّة)، وأخرجتْ ورقة، كُتبَ عليها بعض الأرقام ورزمة ضخمة من الأوراق النقدية أيضاً. كانت تبدو أوراقاً جديدة خارجة لتوّها من دار العملة، وكانت ما

تزال ملفوفة بالشريط (كانت تُصنَع قبل حربنا الأهلية في إنكلترا: وكان محلا برادبري وويلكنسون في لندن ملتزمين بطبعها. ولقد شاهدت أوراقاً من العصر الجمهوري متقنة الصنع، وكان ملعب السباق قبل حربنا في لاكاستيّانا، وليس خارج المدينة كما هو الآن، ومنذ عقود عدّة، وكان ملعب ثارثويلا قديماً عريقاً). كان في يدها هذه المرّة مبلغ ضخم، ومن الصعب تقديره بالنظر، حتّى لو لم تكن الأوراق مَطويّة. ولم يكن هذا الرهان رهان هواة، وإنما رهان مَن تلقّى معلومة من مصدر رفيع، ويريد أن يُنظّم أموره قليلاً خلال العام، وشعرت بالقماءة بورقتي النقد المعدّتَيْن سلفاً للرهان. والآن كنّا أنا ورُويبِرِّث نبدو مبتدئين. جعلتها تقف أماي كالعادة، وفوق ذلك، كان يلائمني أن أصنع ذلك.

- أراهن بكل هذا المبلغ على الحصان رَقْم 9 الرابح. - قالت آنيتا لموظّف التذاكر - وأراهن بهذا أيضاً على الحصان نفسه. - وسلّمتْه مبلغاً آخر ضخماً منفرداً، وكان بلا ريب رهانها الخاصّ.

نظرت إلى تسعيرة الحصان، أو على الأصحّ، الفرس كونديسا ديمونتورو، ولم تكن مدرجة بين الخيول المرغوب فيها، وكانت ما تزال نسبة خسارتها إلى ربحها عالية جدّاً، لكنّا جعلناها تهبط بخطوتنا هذه. على كل حال، كان ينبغي لآنيتا المعدومة الخبرة أن تُقدّم رهانها أوّلاً، أخرجتُ ورقة نقدية ثالثة، وراهنت بها على زوج من الأحصنة، لم يكن بينهما الفرس رَقْم 9 ، كيلا يفتضح أمري كثيراً، لكني قلّدتُ الآنسة بالورقتَيْن المعدّتَيْن سابقاً، من غير أدنى تفكير.

- وسوف أقلّدكِ ..... قلتُ لها.

ولم يفت رُويبِرِّث شيء من هذا، على الرغم من السيل المتدفّق في

أذنه. وترك لالي (اللقيطة) تتابع ميلها، حذا هو حذونا، وراهن بأربع أوراق، أي ضعف المبلغ الذي راهنت به، وأخذ فارق النسبة يتضاءل بعد حقن الثقة التي حقنّاها بها.

حفظت الشّابّتان البطاقات في حقيبتيهنّ بحرص كبير، وتبادلتا النظر ضاحكتَيْن من الأمل، وغطّتا فوهيمها قليلاً، وقالت آنيتا لي:

- أنتَ تضع ثقتكَ بي، كما أرى.

- بالطبع، أو على الأصحّ، أضع ثقتي بهذا الصديق الذي راهن بمبالغ ضخمة، لا يمكن المخاطرة بها هكذا بحماقة. مَن هو؟ أهو مسموع الكلمة؟

- مسموع الكلمة جدّاً. - أجابت.

- ولِمَ لا يأتي الملعب؟

- ذلك أنه لا يستطيع المجيء دائماً. لكنه يأتي أحياناً.

أحجار نرد يلعب بها منفرداً، ورهانات جسورة، ولم أشأ أن أربط بين الشيئين كليهما، فإذا ربحنا، فلا مفرّ من أن يكون حدث (تسريب)، أي تلاعب كبير، لم يكن رُوبِرِّت مطّلعاً عليه. هي كانت تؤثر ألا تشرك (الوحيد) بممارسات، فيها غشّ. لكنْ، ما كان أجد أوراق النقد!

وتخلّينا عن المنظارين مرّة أخرى لصالح الفتاتَيْن، ما إن وطئنا المدرّجات. لم يتناقص الضباب، لكنه لم يزدد أيضاً. وكانت كتلة المشاهدين تُشاهَد متلاشية، وكانت تبدو كتلة بحقّ، وما كان يُرى أحد منها محدّداً بحدّ، ولم يبقَ على موعد السباق سوى دقائق معدودات، وكانت الخيول أخذت تدخل مقصوراتها. واستطعتُ أن أرى فارس (الكونديسا) بقعة حمراء وكذلك قبّعته، وقد يفيدني هذا في متابعة الجري بعد أن حُكم عليّ أن

أنظر بالعين المجرّدة، بسبب من أريحتّي الفيّاضة. ولسوف نتخلّص من المرأتَيْن في الشوط الخامس، وكان من الخير ألا نرى شيئاً.

- أحصلتِ له على شريط الفيديو؟ - عاجلتُ الآنسة آنيتا بسؤالي هذا.

- لمَن؟ وأيّ شريط؟ - أجابت. وبدت دهشتها وحيرتها صادقتين.

- لرئيسكِ. أمّا الشريط، فذلك الفيلم الذي تحدّثنا عنه. ألا تتذكّرين؟ لقد قصّ علينا كيف قضى ليلة من الأرق منذ شهر خلا، وكان يشاهد في التلفاز فيلماً كان بُدئ به، إنه دقّات أجراس منتصف الليل، وأنا مَن ذكّرتُه بالعنوان. كان أدرك القسم الثاني منه فقط، وقال إنه سيُسرّ لو رآه كاملاً ذات يوم، وكان متأثّراً جدّاً بما كان رآه وتابعه حتّى النهاية. هذا ما قصّه علينا.

- آه، نعم! - وأدركتْ آنيتا الأمر. - الحقيقة أني شُغلت لقلقنا على صحّة نومه، ولم يكن لنا مجال للتفكير بأيّة نزوة، وأنتَ تعلم ما يحدث، فهناك ألف قضية، يجب الاهتمام بها، وفوق ذلك، كان هو حزيناً. إذاً، لكَ أن تتصوّر ألا يفكّر أحد في شيء آخر. - تلجأ من حين لآخر إلى صيغة الجمع الذي لم يكن جمعاً جليلاً عظيماً، بل بالحريّ جمع متواضع، تذوب هي فيه، وربّما ضمّ ناساً آخرين، هم بلا ريب العائلة وسيغورولا وسيغارّا، وربّما أيضاً المرأة صاحب مِنفضة الريش والمكنسة التي اخترقت الصالون ببطء مكبّة على الممسحة وهي تدندن، إنها العجوز أو الجنّيّة Banshee. - ولا هو طلبه منّي مرّة أخرى، وهذا مؤكّد أيضاً. - أضافت وكأنّها تُسوّغ إهمالها. ولبثت مفكّرة للحظة، وقالت: - وإن كان لا ينبغي لي أن أنساه، لأنه ظريف، والآن صرتُ أتذكّر. تكلّم حينئذ عن "النوم المتحيّز" لأوّل مرّة، وهذا ما يردّده كثيراً هذه الأيّام، "لم يزرني النوم المنحاز هذه الليلة أيضاً، يا آنيتا"، قال لي ذات صباحين. كيف حدثت الأمور في الفيلم؟ أتتذكّر؟

مكتبة t.me/ktabrwaya

- حسن! حسب ظنّي، لم يجرِ شيء آخر غير ما يلي: الملك العجوز إنريكه IV لا يستطيع أن ينام، ويلوم النوم الذي يقصد أماكن كثيرة ما خلا القصر، وهو في متناول البسطاء والأشرار وحتّى الحيوانات.. أنا لا أتذكّر هذه المفردة الأخيرة، لكنْ، خطر لي أن أضمّها إلى ما سبق، لأننا كنّا في ملعب للخيول. - ويأبى في المقابل أن تحلّ بركته على رأسه المتوّج والمريض. وهذا الملك كان يُحتضر، ثمّ مات، يعذّبه ماضيه ومستقبله الذي لمّا يشتمل عليه. وخاطب النوم قائلاً: "آه منكَ، يا نوماً منحازاً". هذا كل شيء، إذا لم تخنّي الذاكرة، في الواقع، أتذكّر ما قاله رئيسها ذلك اليوم أكثر ممّا أتذكّر الفيلم الذي رأيتُه منذ سنوات بعيدة.

- أجل! أجل! - قالت - ربّما مرّت طواقم الخيل من هناك. هذا الفيلم مسؤولٌ عن أرقه الآن. ربّما كان من الخير أن تحصل على الشريط، ويراه كاملاً، وبذلك يحصل على القصّة كاملة، ويكفّ عن تذكّرها.

- ربّما! مَن يدري؟! حاولي أنتِ.

- شكراً على كل حال، لأنكَ ذكّرتنيه، لأني كنتُ نسيتُه نسياناً كاملاً، ما اسم عنوانه؟ وأخرجتْ بسرعة من حقيبة يدها الورقة ذاتها التي سجّلت عليها أرقام الرهان. - من فضلكَ، أمسك القبّعة.

- يبدو لي أنكِ سجّلت العنوان ذاك اليوم. - قلتُ وأنا أتلقّى مرّة أخرى القبّعة الوضيعة.

- هوّي! لكنْ، ما أدراكَ أين صارت تلك الورقة؟ قل لي.

- هو: دقّات أجراس منتصف الليل. - ردّدتُ عليها مرّة أخرى. - صُوّر في إسبانية، بل صُوّر قسم منه في مدريد نفسها. ليس صعباً الحصول عليه. سَيكون في هيئة التلفاز نسخة منه بالطبع.

- ها هي تنطلق! - صاحت لالي، وراحت تُشجّع فوراً. - اضربي، كونديِسا ديمونتورو، اضربي.... كان اسم الفرس طويلاً جدّاً من أجل التشجيع، كان ينبغي الاقتصار على اسم كونديسا عفاراً قفاراً.

حفظت الآنسة آنيتا الورقة على عجل قبل أن تستطيع كتابة العنوان، وأطبقت الحقيبة، ووضعتْ منظاري أمام عينيها الكحيلتين. وراحت تشجّع الفرس أيضاً، لكنها أسمتها مونتورو، وهو غير ملائم.

- اضربي، مونتورو، اضربي بقوّة. - قالت. - ربمّا كانت من هواة الفرجة على المصارعة الحُرّة أو الملاكمة.

لم أجد وسيلة، تمُكّنني من رؤية شيء، ومع ذلك، لم أفقد اهتمامي بالسباق، يدفعني إلى ذلك الفضول قدر ما راهنتُ عليه: كنتُ أريد أن أعلم إن كان تسريب الصديق قد أثمر، فربمّا كان خطيباً ضعيف الهوى مَن أمَدّ الآنسة بالمعلومات، فهذا الصنف من الشّابّات السليمات الأبدان يخضعنَ غالباً للحمقى، وهو شكل من التعويض عن استقامة طباعهنّ الشديدة، أو سذاجتهنّ. وقفنا جميعاً، ونظرتُ بمؤخّر طرفي إلى رُوبرِتْ الذي أشار إليّ أنه هو أيضاً لا يعلم شيئاً عن سير الأمور، فقد كان منظاره أيضاً بين يَدَيْن بيضاوَيْن، هكذا كانت تُسمّى الأيدي من قبل، إذا كانت لا تؤذي، إذا كان هناك أذى ما. واستطعتُ أن أميّز عند بداية خطّ النهاية بقعة فارسنا الحمراء. كانت الخيول جميعاً ما تزال تجري زرافات، ما عدا حصانين أو ثلاثة أحصنة كانت تخلّفت عنها من غير إمكانية لها في النجاح، ولم تكن أيّ منها (الكونديسا). وكنّا نحن - المتفرّجين - نطلق سُحُباً من البخار، آلاف السُّحُب من البخار، وكان هذا يزيد في صعوبة الرؤية. وسرعان ما نشب اشتباك وسقوط على الأرض، فتدحرج فارسان، ما لبثا أن نهضا، واعتمرا قبّعتيهما الملوّنتَيْن، وتابع أحد الجوادين الجري

من غير فارس، وانزلق الآخر على عشب الملعب باسطاً قائمتيه الأماميتَيْن مفتوحتَيْن، وكأنّه يتزلّج فوق الثلج الصلب الزلق، أما الثالث، فقد فزع، وخطا خطوتَيْن، أو ثلاث خطوات فنّيّة متردّدة قبل أن يشبّ وينهض كالغول، وهو يدور حول نفسه، كما فعلتْ تلك الفرس في شارع بايلنِ منذ عامين ونصف العام بينا كنتُ أقوم بنزهة ليلية، وأقلّب الأفكار حول فيكتوريا أو ثيليا وتجارتهما الجسدية، وربّما تجارتي ذاتها Mere، أو Mara، أسرعت الأفراس الأخرى لكي تخلّف الحادث وراءها بأقصى ما تستطيع، أو ترى نفسها ناشبة فيه، فانقطع خطّ السباق تلك اللحظة، وخرجت كل مطيّة منه، كما تستطيع، فبعضها اندفع خارج المضمار، وبعضها داخله، وفَقَدَ معظمها الاندفاع، أو ألجم اندفاعه أو غيّره. أما الفرس ذات البقعة الحمراء على متنها، فكانت الوحيدة التي تابعت تقدّمها من غير عوائق، وكانت تُحضر، وتُحضر إحضاراً، لا تبديل فيه حتّى لم يضطرّ الفارس إلى استعمال السوط: "تقدّمي، كونديسا، هيّا"، ودُهشتُ من نفسي وأنا أفكّر، فلم يكن من عادتي أن أهتف في الأماكن العامّة.

- تقدّمي، مونتورو، هيّا!"، - كانت الآنسة آنيتا تصيح بصوت جهوري، لقد وصلتْ، وصلتْ، وصلتْ! - كانت تردّد بحماسة. وفكّرتُ في أنه لن تحدث إعادة تصنيف، على الرغم من السقوط، وخروج عن القواعد محتمل، فإذا كان في ذلك مؤامرة، فقد أُنجزت بأكبر مخاطرة.

كانت الفتاتان تقفزان فرحاً، تعانقتا ثلاث مرّات، وهتفنا: "عاش الرَّقْم 9!" وسقط من لالي منظار رُوِيبِرِّث من غير أن تنتبه له، فالتقطه محزوناً، فقد تحطّمت إحدى عدستيه، لم يفه مع ذلك بكلمة، يقيناً كان غلبه السرور، فهو لا يخرج خالي الوفاض من لعبة من اللعب، ولم يخرج منها اليوم أيضاً. ورأيت الأميرال آلميرا من بعيد وهو يمزّق بطاقاته بسأم واضح،

وكذلك كان الفيلسوف الريبي الذي كان وصل من قبل، يمزّق أوراقه، والناس كلهم كانوا يُمزّقونها، وليس نحن. لقد تدبّرتُ أموري ذلك الشهر قليلاً، فما كان محتملاً أن أقبض أجر الخطاب.

- حسن! وداعاً! نحن ذاهبتان، لأننا مستعجلتان قليلاً. سُررتُ بكما سيّد رُوبِرّت ديتورّس، وسينيور فرانش، وشكراً لكما على رعايتكما.. قالت الآنسة آنيتا وهي تتودّع بسرعة منّا كلينا في آن واحد. كانت مستعجلة، كيما تقبض، وأحسب أنه سيطلب منها إبراز الهويّة نظراً لضخامة المبلغ. فأنا لم أربح مثله قطّ. وربّما لن تلبثا حتّى الشوط الخامس، فسوف يكون الصديق، أو الأحمق بانتظارهما للاحتفال بالربح. فقدتا اهتمامهما بنا. أعادت إليّ المنظار، وناولتها قبّعتها التي كانت بلون ثياب الفارس صاحب الفضل. رأيتُها تبتعد، ورأيتُ ساقيها الجميلتَيْن ذواتي الفخذين السمينين اللذين كانت التّنّورة القصيرة تسمح برؤية أصليهما، ولم يعانِ جورباها من مزق أو نسل في أثناء السباق، ولم تسجّل، آخر الأمر، عنوان الفيلم، فقد نسيته مرّة أخرى، وسيظلّ الوحيد من غير أن يراه كاملاً، وبالتالي سيظلّ يتذكّره، وسيجعله الأرق في أسوأ حال.

- اذهبا أنتما. - قال رُوبِرّت وهو يدفع حزام بناطيله بكلتا يَدَيْه مبرزاً صدره بينما كانتا تغيبان وسط الكتلة الساكنة. وهكذا كان كل ما قاله وداعاً لهما.

عزمنا على الذهاب للقبض في وقت آخر، فقد كان لنا مصلحة حقيقية في الشوط الخامس، وكنّا نريد أن نذهب فوراً إلى الملعب، لنرى جيّداً عن قربٍ أفضل الخيول، ولسوف نستطيع حضور السباق من غير أن نُشغَل

بأوجه الربح والخسارة، لأننا سنخرج على كل حال رابحين بفضلهما، بفضل الفتاتَيْن، واتّخذنا مكاناً جيّداً في البار، ومن هناك سنرى المبتدئين متى خرجنا، وكان الملعب الآن غاصّاً بالأشياء، لكنْ، مهما يحدث، فلن يجرؤوا على إلغاء الشوط الخامس، والرؤية لا تهمّ.

- أأمعنتَ النظر في الرزمة؟ - قلتُ لرُوبيرت.

- أحسبها مبلغاً ضخماً، من أين أتت به؟ إنها أوراق نقدية جديدة. أليس كذلك؟

- أوراق لم تلمسها يد.

- فلنخسأ نحن!

لا أدري إن كان ينوي أن يضيف شيئاً آخر، لكنْ، لم تُتح له الفرصة لذلك، لأننا شاهدنا فجأة رجلاً ذا وجه قرمزي وعروق ناتئةٍ يحطّم زجاجة إزاءنا تماماً في الجانب الآخر من الحاجز، وكان يمسك بها جيّداً من عنقها، ويُلوّح بها، وتطاير منها زبد البيرة، كأنّه البول. وأُتيح لنا الوقت، لنرى رجلاً آخر، يرتدي معطفاً من جِلْد الجمل يتّجه صوبه قابضاً على سكّين بيده، ويخطو خطواته المسمومة، لم نسمع الجانب اللفظي من الاشتباك. ففي مدريد، الناس كلهم يتكلّمون بصوت عال، حاول صاحب السّكّين أن يغرزه في بطن صاحب الزجاجة بدفعه من تحت إلى فوق، فلم يبلغ هدفه، ولم يتمزّق شيء، ولم يبلغ الزجاج الحادّ العنق أو القفا أيضاً، فقد كبح كلّ منهما يد الآخر المسلّحة باليد الأخرى الحُرّة، واغتنم رجال آخرون فرصة الاشتباك، كيما ينقضّوا عليهما من خلف، ويحيلوا بينهما، ويسكّنوهما (ولربّما أفاد أحد النّشّالين من الجلبة)، وتدخّل فوراً عناصر

الحَرَس المَدَني، وطلبوا بطاقات هويات كل مَن كان على الجانب الآخر من الحاجز، وقادوا المتخاصمين بعنف، وضربوهما بالهراوات، ورأيناهم يفدغون رأسيهما، ولبثنا، أنا ورُويبِرِّت، نحتسي جرعات من البيرة جرعة إثر أخرى، حدث ذلك كله بسرعة، وأخذ الضباب يزداد الآن.

كل شيء حدث سريعاً جدّاً يومي الاثنين والثلاثاء، كما يبدو عليه كل شيء، ما إن يحلّ أخيراً، حينئذ يتملّكنا إحساس بأن كل شيء اندفع اندفاعاً. وأنه كان قصير الأجل، وأن الانتظار كان ضئيلاً، وكان يمكن له أن يأتي بأخرة؛ وكل شيء يبدو لنا قليلاً، وينضغط ويتراءى لنا هزيلاً، ما إن ينقضي، ونشعر حينئذ أننا كنّا بحاجة إلى الوقت، وأن الحدث لم يدم مدّة كافية (فنحن كنّا ما نزال نتأمّله، كما ما نزال نتردّد حياله، وما أقلّ الرسائل والصور التي بقيت لي منه!)، إذا ما تمّت الأشياء، يصبح عدُّها ممكناً، وتكتسب رَقْماً، وإن كان ما حدث لي، لمّا يختتم، وربّما لن يُختَتم أبداً حتّى يوافيني الأجل، " وإذا ما لقيته يستريح، وأساهم في إنقاذه كما صنعت القرون الخوالي التي دفعت نصيبها له"، كما جاء في أحجيّة عام 1914 التافهة؛ وإلى أن يحين ذلك، هاكم يوماً آخر، ما أتعسه! هاكم يوماً آخر، ما أسعده! وحينئذ، حينئذ فقط أكفّ عن أن أكون خيط الاستمرار، خيط الحرير التائه، إذا ما انسحبت إرادتي متعبة، وأصبحت لا تريد أن تريد، حتّى لا تريد شيئاً، وحتّى لا يُقال: "لمّا يحنِ الحين، لمّا يحنْ". وإنما تصبح الغلبة للقول "أصبحتُ لا أطيق شيئاً آخر"، إذا توقفّتُ وعبرتُ فوق قفا الزمن أو متنه الأسود، حيث لا شكوك، ولا خطأ يقع، ولا جهد يُبذَل.

كل شيء جرى سريعاً جدّاً، لأن الناس ليسوا كلهم على وعي بأن الزمن الحاضر الذي فات حديثاً يتجلّى فوراً على أنه ماض سحيق: ولم يكن ديئان

كذلك، وقدّر بلا ريب أنه قضى مدّة طويلة جدّاً بانتظار أن يعلم ما علمه أخيراً من فم أخت زوجه لويسا في اليوم المحدّد أو الموعود، وقد تكرّمت هذه بأن تهتف لي يوم الاثنين عند حلول المساء، أو لمّا حلّ الليل، وكان ما يزال الضباب المشتّت يُخيّم هذه الأيّام - لتؤكّد لي أنها كلّمتْ ديئان عنّي، وقد كلّمتْه منذ قليل، وأنها كشفت القناع عنّي أمامه، وحولّتني إلى أحدٍ ما مع النتائج الممكنة كلها. أي أحد بوجه، وباسم وبوقائع أقرّ صاحبها بها، لتُعلمني بمكالمة هاتفية أخرى سأتلقّاها عاجلاً من الزوج والأرمل، ربّما هذه الليلة ذاتها، ما إن نغلق خطّينا، ويشغر خطي، أو في اليوم التالي لتأخّر الوقت، إن عزم ديئان على قضاء ساعات النوم في رعاية ما وصل إلى علمه أو اجتراره. وفهمتُ أن لويسا هتفتْ لي بعد أن أعلمتْه برَقْم هاتفي مباشرة، ربّما لتحميني مدّة دقائق معدودات، أو لتحول بينه وبين استعماله فور معرفته به. كانت في كونده ديلاثيميرا، وحدَّثتْه عنّي، فقد كانا التقيا كما يفعلان الأيّام الأخرى كلها، لسبب أو آخر، يتعلّق بالطفل، وهي تهتف لي الآن من البار ذي الطابع الروسي الموجود تحت، ما إن غادرت البيت خشية أن يعمل ديئان إلى استعمال الهاتف بينا هي كانت تنزل في المصعد، وتدور حول البناء، وتبحث عن البطاقة أو النقود، لتهتف، وتحذّرني، وإذا شئتَ، فإني أستطيع أن أُبقي المسجّل يعمل خلال الليل، إن كنتُ ما أزال في وضع لا أستطيع فيه مواجهة ذلك الصوت، مواجهة صوته، هذا ما قالتْه لي على شكل حانٍ.

- كيف تلقّى الخبر؟ سألتُها.

- أحسبه دُهش، لكنه أخفى دهشته جيّداً، ربّما كان يفكّر في شخص آخر، لكنْ، اسمع، - قالت - لم أكلّمه عن بيثنْته مينا، فقد بدا لي أن إعلامه بذلك إفراط في كشف، لا يُجدي، إنه صديقه، ولستُ أدري ماذا يجدي

إن علم أن أصبحنا لا نستطيع شيئاً. أقول لكَ ذلك، كيلا تذكره له أيَضاً، إن أردتَ. - ولزمتِ الصمت هنيهة، ثمّ أضافتْ بتجرّد - وإن كان يلزمكَ على الأغلب أن تذكره، هذا عائد لكَ، ولا يهمّني كثيراً ما يفكّر فيه الآن حول مارتا. في الواقع، لا أدري، إن كان ينبغي لي الاهتمام بحسن سمعتها، فلا يعلم المرء جيّداً ماذا يصنع حيال الأموات. وأنا مضطربة غاية الاضطراب.

"من قبل كان الناس يُكرمونهم، أو يُكرمون ذكراهم، على الأقلّ، ويذهبون إلى زيارة قبورهم محمّلين بالورود، وكانت صورهم تتصدّر البيوت"، فكّرتُ، "وكانوا يلتزمون الحِداد عليهم، ثمّ يتوقّف كل شيء بعد وقت، أو يتضاءل، لأن موت أحد ما كان يمسّ مجمل حيوات الآخرين العزيزين عليه، وبالتالي، لم يكن يوجد هذا الفاصل الكبير بين الحالتَين، وإنما كانتا ترتبطان ببعضهما، وما كانتا تثيران خوفاً كبيراً. أما اليوم، فيُنسون كأنّهم مصابون بالطاعون، اللهم، إن لم يُتّخذوا شعاراً، أو يُستعملون مزابل، تُلقى عليها الأخطاء؛ ويُحمَّلون مسؤولية الموقف المحزن الذي تركونا فيه، ويُبعدون غالباً، ولا يتلقّون غير الحنق واللوم من وَرَثَتهم، لأنهم رحلوا عاجلاً جدّاً، أو آجلاً جدّاً من غير أن يعدّوا لنا المكان، أو من غير أن يتركوه لنا حُرّاً، ويظلّون أسماء، لكنْ، ليسوا وجوهاً بعد، أسماء تُعزى إليها الخسّة والوضاعة والرعب، وهذا هو الاتّجاه والميل على الأغلب، فلا يستريحون حتّى حين يُنسَون".

- لا تبالي، لن أكلّمه عن بيتِنْته، إنْ كنتِ تؤثرينَ ذلك. إني أثق بحسن رأيكِ، ولا يكلّفني شيئاً، إن سكتُّ عنه. - قلتُ لها. - فأنا ما كنتُ أعلم بوجوده، لمّا ذهبتُ للعشاء في منزل أختكِ، وكان بالإمكان ألا أعلم شيئاً، لمّا انصرفتُ، ولكان ظلّ كل شيء على حاله. ولسوف أُلقي بهذا الشريط عاجلاً أم آجلاً، سأُلقي به هذا اليوم نفسه، فهو لا يساعد أحداً، ولا يفيد

منه أحد. ولا تنشغلي عليّ، فالغضب الذي يجتاح المرء لا يكفي كيما يُتَّهم عليه أحد، ولا الألم المحتمَل أيضاً، فلا يصنع أحد شيئاً، وهو على قناعة أنه عمل سوء. ذلك أن المرء لا يستطيع، في كثير من الأحيان، أن يحسب حساب الآخرين، فتُشلّ حركتنا، وأحياناً لا يستطيع أن يفكّر إلا في نفسه، وفي اللحظة ذاتها، وليس فيما آتٍ. - كنتُ في الحقيقة مثاراً أو خائفاً قليلاً، وربّما ما كنتُ أعلم ماذا أقول، فنحن نتكلّم أحياناً كثيرة من غير علْم. نتكلّم، لأن دورنا في الكلام قد حان، يدفعنا إلى ذلك الصمت، كما الحوار في المسرح، سوى أننا نرتجل الكلام دائماً ارتجالاً.

ساد صمت على الجانب الآخر من الخطّ الهاتفي، لكني لم أتابع، وكان لديّ صبر للانتظار. "الآخرون" فكّرتُ، "الآخرون لا خلاص منهم قطّ"، فكّرتُ بينا كنتُ أنتظر.

- اسمعْ منّي شيئاً. - قالت لويسا أخيراً - إذا اقترح عليكَ أن تلتقيا هذه الليلة ذاتها، فارفضِ العرض. هذا رأيي. فالخير في أن تلتقيا نهاراً شرط ألا يكون الطفل حاضراً، إذا رغبتَ في أن تلتقيا في البيت. ستأخذه ماريا زوج أخي صباحاً، ولن تعود به حتّى المساء، لأن دورها في رعايته غداً. سبق أن قلتُ لكَ إنّ ما يرغب فيه ديئان على وجه خاصّ، أن يقصّ عليكَ شيئاً، ومع ذلك أحسب من الخير أن يكون الموقف أشبه بالموقف الذي عشته، فهو الآن صار على علْم، فقد قصصتُ عليه كلّ ما قصصتَهُ عليّ، بأمانة كبيرة، وعرضتُ عليه إيضاحاتكَ. واستمعَ إليّ من غيرِ أن يقول شيئاً تقريباً. لكني أحسب أسوأ ما يراه أنكَ لم تُعلِمْه، ولم تعلِمْ أحداً، والحقيقة لا أعلم كيف ستلقاه. - وتوقّفت لويسا عن الكلام، ثمّ أضافت: - ألن تقصّ عليّ كيف كان اللقاء؟ - كان في صوتها شيء من الخوف، إذْ يُخيفنا أن نجعل شيئاً ينطلق. كانت تسدي إليّ النصائح، وتُبدي انشغالها عليّ، ربّما لأنها

كانت تراني مُداناً، فأنا سأكون مَن يُضطرّ إلى سماع اللوم، وتحمّل الغضب، وأقدّم كشف حساب. وليست مارتا هنا كيما تقاسمنيه.

- سوف تعلمين ذلك منه.

- بذلك سأعلم كيف كان ذلك منه، وليس منكَ أنتَ، وهو شيء مختلف.

كان ذلك منها باباً مفتوحاً، كيما نلتقي مرّة أخرى، ونتحادث مرّة أخرى، ونهتف لبعضنا بعضاً من جديد، ما أشقاني! وما أسعدني! هي خطوة تقود إلى خطوة أخرى ببراءة، ثمّ تتسمّم الخطى في النهاية، لا، ليس كذلك دائماً، وربّما ليست الخطى التي أخطوها صوب لويسا، ولا الخطى التي تخطوها هذه صوبي. ربّما لا تكون مسمومة هذه المرّة، نحن نفكّر، ونظلّ نفكّر حتّى نهاية أيّامنا. أغلقتُ الخطّ، أو أغلقنا الخطّ، وتهيّأتُ بانتظار المخابرة الهاتفية. ولم أمكثْ ساكناً قرب الهاتف، بل نهضتُ، وتحرّكتُ، وسعيتُ إلى الثلاجة، وفتحتُ زجاجة، وشربتُ جرعة، وعدتُ إلى الصالون، وقبضتُ على الشريط، لكي ألقي به، كما أعلنتُ للويسا، ولم أفعل، بل تركتُهُ حيث هو على رفّ، ولا موجب لإنجاز ما وُعد به دائماً، أو لا توجد فسحة من الوقت لذلك، وليس طويلاً أيّ انتظار متى انقضى. ورنّ الهاتف بعد ثلاث دقائق، وتركتُ المسجّل يجيب أوّلاً، فقد يكون ديثان، فكّرتُ باقتناع. ومع ذلك، سمعتُ صوت ثيليا التي شرعتْ بإيداع رسالة، والآن صرنا نُكلّم بعضنا، ونلتقي من حين لآخر، لكنّ محادثاتنا أصبحت تتكرّر نسبياً، وصارت الرابطة بيننا هاتفية بعد أن نسينا التعايش، لذلك لا توجد فيها إغراءات أخرى غير الإغراء اللفظي، يبدو أنها ستتزوّج مرّة أخرى عاجلاً، حينئذ سأكفّ عن إرسال الشيكات القانونية لها، وعن مَدّها بالمال نقداً، إذا ما التقينا، وسوف أصبح شريك زواج الزوج المثري بلا ريب، فهو صاحب مطعم راقٍ، وهذا ما أحسبه، إذ لا توجد خلّة إلا يمكن سدّها، وهذا

ما آمله. رفعتُ السمّاعة، وكلّمتُها، وها هو خطّي يُشغَل مرّة أخرى، وأكون بمنجى طيلة دقائق معدودات، دقائق قليلة، فهي كانت على وشك أن تُقفل، كانت تريد أن تقول لي شيئاً أصبحتُ أعرفه: الممثّل المفرط عليّ الذي أعمل له أحياناً ترك لي خمس رسائل في المسجّل، وهو يبحث عنّي بإلحاح شديد - وأنا ما كنتُ أرغب في أن يعثرَ عليّ ذلك اليوم - فما يزال يوجد ناس يحاولون معرفة مكاني من خلال ثيليا، وكأنّها ما تزال امرأتي، إذا لم يجدوا وسيلة للعثور عليّ (كما حاول فِرّان مع مارتا، لمّا كان ديئان في لندن، ولم يترك له عنوانه، وكنتُ شاهداً سماعياً متأخّراً)". وما نزال أنا وثيليا يعلم كل واحد منّا عن الآخر شيئاً قليلاً، والمرّة الأخيرة التي توجهّتْ فيها بأسئلة محدّدة إليّ، ربّما كانت منذ عامين ونصف عام، لمّا هتفتْ لي في اليوم التالي لزيارتي العارضة بيتها الذي كان بيتي، على الرغم من اقتراحها عليّ الليلة السابقة أن أهتف لها غداً، لنرى إن كنّا نتغدّى معاً، ونتكلّم حينئذ عمّا نشاء، وليس في الساعة الثالثة والنصف فجراً، كما كنتُ أحاول. هذا ما كانت قالته، لكنها لم تذكر في مخابرتها هذا اللقاء المحتمل، وإنما أحبّتْ أن تكلّمني عن شيء وحيد فقط، فسألتْني بجدّ كبير: "اسمعْ، فيكتور، أما تزال تحتفظ بمفاتيح البيت؟"، "كلا!" كذبتُ عليها، "ألقيتُ بها إلى القمامة في لحظة جنون ذات يوم من الغضب"، ولمَ؟ "أأنتَ واثق؟" قالت، "أأنتَ واثق بأنكَ لم تدخل البيت بها الليلة الفائتة؟" ولكان طبيعياً لو بلغ صياحي عنان السماء، وسألتُها إن كانت قد جُنّت. الأمر الأوّل أني هتفتُ إليها في ساعات عاصفة مقترحاً عليها أن ألقاها فوراً بعد صمت دام أشهراً، والأمر الآخر أن أحضر هناك، على الرغم من رفضها من غير إنذار أو قرع الجرس، كان بإمكاني أن أجيبها مُهاناً: "أأنتِ مجنونة؟ هذه ليست طريقتي". ومع ذلك، أجبتُ باقتضاب كبير، كيلا أشي بنفسي: "لا، لم أدخل. ماذا حدث؟ أنا لم أكن هناك". أُتقن

الكذب أحياناً، لكنْ، ليس دائماً، فما أزال أحتفظ بالمفاتيح، وإن كانت ستعمد إلى تغيير القفل ذلك اليوم نفسه من غير إبطاء. وما أزال أحتفظ بالشريط أيضاً، ولم أُلق به، وبحاملة ثديي مارتا تيبّث التي أخذتُها على غير إرادة منّي، وإني أتشمّمها من حين لآخر، وخلتُ الآن من رائحة أي شيء، وبالورقة الصفراء التي كُتب عليها: "ويلبراهام أوتِل"، وربمّا أنزل فيه المرّة القادمة، إن جئتُ لندن. وضاعت منّي في المقابل الرائحة التي خلّفتها مارتا، فالروائح لا تدوم طويلاً، ولا تُتذكّر، وإن كانت تتذكّر بوتيرة عالية أشياء أُخرى، من خلالها، إذا ما فاحت مرّة أخرى، ومن الصعب أن تتكرّر روائح الموتى. ولم تُلحّ ثيليا، وإنما اكتفت بالقول: "لا بأس!" ثمّ أقفلت. كما قلتُ أنا: "أنا أعلم ذلك. وإذا عاد إلى إزعاجكِ قولي له إنكِ لا تعرفين عنّي شيئاً" لمّا أبلغتْني بنفاد صبر الممثّل المفرط عليّ. ولم أُقفل الخطّ، وإنما أقفلناه كلانا، فنحن الآن في وئام من بعيد. وأنا لا أُسرّ بالحديث عن ثيليا عادة.

شربتُ من الزجاجة، وكنتُ أنوي أن أُشعل اللفافة، لكن غاز القدّاحة كان نفد، فبحثتُ عن كبريتة في مخدعي، ومن هناك، سمعتُ رنين الهاتف مرّة أخرى، وصلتُ قربه، لمّا كان المسجّل يُعلن بصوتي: "هذا صوت مُسجَّل. إذا أردتَ أن تودع رسالة، فأودِعْها، إن شئتَ بعد سماع الإشارة. وشكراً جزيلاً". هذا ما سمعه ديثان قبل أن يبدأ الكلام، أقول ذلك، لأن كلامه سُجّل في المسجّل: "أنا إدواردو ديثان، كلّمتُ لويسا، وأريد أن أكلّمكَ؛ الآن". وتنّبهتُ فوراً إلى أنه يخاطبني مباشرة من غير مجاملة، كما يكلّم المرء شخصاً ما يشعر نحوه بالتّفوّق، أو أن له عليه دَيناً، أو لَشَتَمَهُ ذهنياً على وجه خاصّ "أفترض أنكَ في البيت مقعياً، فمنذ ثوان معدودات، كنتَ تُجري اتّصالاً. انظرْ إن كنتَ ترفع السماعة". ثمّ توقّف، ليُفسح لي الوقت لرفعها، وانتهزتُ فرصة الوقت، فرفعتُها، وقلتُ ساخراً:

- نعم، كنتُ أتّصل. قلْ لي مَن أنتَ؟

- قلتُ لكَ مَن أنا منذ قليل. - أجاب الصوت الأجشّ على شكل استثنائي، والمثُار قليلاً، فربّما أُثير، لمّا كنتُ أجري اتّصالاً، وحاول هو دقّ الرَّقْم مرّات عدّة، أو لبث مدّة أطول، وكان في الصوت نغمة كأنّما يقول: "ذكرتُهُ لكَ منذ قليل، يا مغفّل"، ولا يهمّ إن كان محا الكلمة الأخيرة، لكنه لم يمحها من فكْره. ولربّما كان ينوي أن يظلّ يعاملني على أني أجير وموظّف بديل، كان صوته في الهاتف أعمق وأرصن من صوت بيثِنْته مينا شريكه في الضّماد، كان كالأصابع على الكونتر باص محافظاً على رصانته، وكاظماً غيظه جدّاً.

- معذرة! كنتُ في غرفة أخرى، ولم أسمع ما قد تكون قلتَهُ على الآلة حتّى الآن. - مَن أنتَ؟ - ولعلّي كذبتُ هذه المرّة على خير وجه، حتّى كانت الحقيقة تقترب كثيراً من الكذب.

- أنا إدواردو ديئان. كلّمتُ لويسا، وأريد أن أكلّمكَ الآن. - كرّر الكلمات ذاتها. ربّما كان يجرِّب النطق بها قبل أن يتّصل بي. - أيمكننا أن نلتقي غدّاً؟ - في الواقع، لم تكن الجملة سؤالاً، بل على الأصحّ، كانت بلاغاً. "يمكننا أن نلتقي غداً"، كَمَنْ يُسلّم بشيء من غير استشارة، ولا طلب.

- موافق. لكنْ، في أيّ ساعة؟ فأنا لديّ فترة حُرّة في الساعة الأخيرة من الصباح، وفترة أخرى بعد الغداء أيضاً.

- محال! - أجابني. - أنا مشغول كل النهار. خير لنا أن تأتيني في بيتي حوالي الساعة الحادية عشرة ليلاً؛ سيكون الطفل نائماً تلك الساعة. - ذلك كله كان أوامر من غير أدنى تزويق، ولا مجال لي سوى أن أرفض أو أطيع. - أنت تعرف الشّقّة. - أضاف.

- لا بأس! - قلتُ طائعاً. - إلى اللقاء غداً.

لكنه قد كان أغلق الخطّ. حدث كل شيء على عكس ما أوصتني به لويسا من أجل اللقاء. وساورني الإغراء بأن أهتف لها في هذا الوقت المتأخّر، لأُعلمها بإخفاقنا كلينا، وهكذا أجعله إخفاقاً لها فعلياً. لكنْ، كان من الخير لي ألا أخطو خطوات أخرى، إذا لم تكن مسوّغة تسويغاً تامّاً، (وقد ثبت أن كل مغازلة تافهة، وما هي غير تمويه لما هو غريزة). وكنتُ أؤثر أن تخطو هي الخطوات التي لا مسوّغ لها.

صرفتُ سيّارة الأجرة في كونده دلاثيميرا، كما صرفتها أوّل مرّة جئتُ بها إلى هنا، مع فارق أن المرّة الثانية كانت ليلاً. وصلتُ في الحادية عشرة إلا عشر دقائق مستبقاً الموعد قليلاً، ونظرتُ إلى فوق، فرأيتُ مشعشعة أضواء الصالون والمخدع التي سبق لي أن عرفتُها جيّداً، أما السطيحة، فكان الضوء من الداخل، وآثرتُ الانتظار حتّى حلول الموعد بدقّة خشية أن يكون ديثان ما يزال يُنِيم الطفل، وإن كان لا يوجد هذه الليلة ما يدعو الطفل إلى الصّمود والقيام بالحراسة، ولا ينبغي له أن يقاوم النّعاس مرّة أخرى، من أجل أيّة امرأة حتّى يصبح بالغاً، أو مراهقاً على الأقلّ. وأشعلتُ لفافة بعود الثقاب، ودنوتُ من الباب، ورحتُ أسير أمامه من جانب إلى آخر بهدوء، وقد قضيتُ ما ينوف عن أسبوع استعداداً لهذا اللقاء. كنتُ تناولتُ جرعة من الكوكائين عند خروجي من البيت، لأكون أكثر يقظة، ولأني كنتُ نمتُ نوماً مضطرباً، ولم يكن من عادتي تناوُل أي مخدّر، لكنّي كنتُ طلبتُ من رُويبِرِّث ربع غرام في أثناء السباق، فهو كان يتعاطاه على شكل دائم تقريباً ("أتريد سحبة" يقول لي أحياناً). إذ ينبغي للمرء أن يقوم بشيء غير مألوف، إذا كان يترّقب موقفاً غريباً، أو يترقّبه مفرطاً في غرابته عن حقّ. ولن يدوم مفعول المخدّر طويلاً، ولن أظلّ يقظاً جدّاً بعد مدّة ما،

وربّما يزول إذا أصبحت المحادثة محفوفة بالخطر، وفي وقت، أكون بأشدّ الحاجة إليه. دخّنتُ لفافتي وسط الضباب، وقذفتُ بعقبها على الأرض، وتهيّأتُ لطلب البوّاب الآلي، فرأيتُ تلك اللحظة المصعد يصل، ويخرج منه شكلان في الظلام، أشعلا ضوء البوّابة، وسارا باتّجاهي، لم أطلب البوّاب الآلي، وانتظرتُ إلى أن تقوم الفتاة ذات القفّاز البيج والخطى اللطيفة العاملة بالقوّة النابذة، بفتح الباب لي بعد أن تضغط الجرس الذي كلّفني جهداً العثور عليه في ساعات متأخّرة من الليل، منذ ليال كثيرة خلت، وكان يرافقها الشخص ذاته الذي كان أصبح لا يطيق المزيد، فأرسلتْ به إلى الخرء، والكلمات هي دائماً تقريباً بلاغية أو مفرطة أو مجازية، وبالتالي هي ليست صحيحة، هو، نعم، كان يطيق المزيد، وهي كانت تقف إلى جانبه، وترضى به، وها هما ما يزالان معاً، ويخرجان معاً بينا أنا داخل، هذه المرّة. كان الوضع معكوساً، ربّما كانت أكثر الجيران حركة، فلا تراها غير صاعدة هابطة، ربّما نظرت إليّ في هذه الساعات المتأخّرة على أني مستأجر آخر من مستأجري البناية، وقد عرفتْني، وقالت على شكل طبيعي باسمةً: "أهلاً، طاب ليلكَ!" وأجبتُها "طاب ليلكِ"، لكن الرجل الوسيم لم يُحيّني اليوم أيضاً، هو رجل نفور أو طائش اللّبّ، ربّما كان مأخوذاً بالقُبل التي تبادلاها في البيت، أو حتّى عند انتظار المصعد، والباب مفتوح، وإن لم يظلّ أحد منهما هذه المرّة، ولم ينفصلا عن بعضهما، بل خرجا معاً. ربّما كان يفكّر في السرير الذي انتقض، سرير مَن كانت خارجةً، وفي سريره الذي لم يُمسّ.

صعدتُ وضغطتُ الجرس، ففتح لي ديئان بسرعة، وكأنّه يتشوّق إلى وصولي، ويراقب رحلات المصعد من العين السّحْرية. كان بالقميص والبناطيل، لكنه كان يلبس ربطة عنق (وقد استرخت قليلاً) - كالزوج العائد من العمل منذ قليل، ولم يُتَح له الوقت إلا لخَلْع السترة. ولو كانت مارتا

حَيّة، لربّما كانت في المطبخ، ترتدي الصّدار، وتُفرغ الأطباق، فكّرتُ (وأنا كنتُ رأيتُها بالصّدار)، أو مُتنقّلة في البيت من غير توقّف، وهو يتبعها من حجرة إلى أخرى بينا يقصّ عليها شيئاً، أو يتحادثان، أو، يسألها، وأنا لم أعش وحيداً دائماً. أدخلني من غير أن يُحيّيني، وإن مَدّ لي يده اليسرى، وقال لي "اجلسْ"، وهو يشير إلى الصوفا، من حيث كان الطفل كنحلة، ينظر إلى تانتان وهدّوك في شريط الفيديو، ثمّ أغفى بعد معركة طويلة، خسرها في النهاية؛ وسألني ماذا أريد أن أشرب، فأجبتُه كأساً من الويسكي بالجليد وبالماء، إن كان ممكناً. لم يتغيّر شيء في البيت، أو هذا ما بدا لي، فالرجال لا يُغيّرون فيها قطّ، ولم أشأ أن أنظر باهتمام مفرط حياءً، كيلا أتذكّرها، أو أتمثّلها حاضرة في المكان عينه على الطاولة التي تناولنا العشاء عليها أنا ومارتا ببطء شديد. كان ما يزال صحن حلوى فارغاً، فيه ملعقة صغيرة ملوّثة، وموضوعاً فوق غطاء صغير، بحجم بشكير كبير: كان ديئان ما يزال يملك الطاقة والعزم، ليأكل جالساً ما تعدّ له المُساعِدَة الشّكّاءة، أو أخت زوجه وكنّة حميّة الخدومتَيْن، أمّا أنا، فلا أتناول غدائي أو عشائي في البيت قطّ، لكنّي إذا ما صنعتُ طعاماً ما، فإني آكله واقفاً، وفي المطبخ، وعلى عجل، وهذا علامة ضعف وخمول، وهو سيّئ للمعدة. رفع الصحن والغطاء الصغير قبل أن يصبّ الويسكي، وأنا لم أكن ذقتُ طعاماً غير شطيرة فرّوج من أحد مطاعم مكدونالد. ذلك أني أضعف إرادة، أو أن خادمي كسول، وليس لي أخت زوج ولا كنّة حميّ ولا طفل يثير الحزن، ويجعلني شريكاً في حزنه. رجع ديئان من البوفيه، وقدّم لي الويسكي وشمّر كُمّي قميصه - حركة فيها تهديد مبدئياً، أو هي عادة تقليدية فيه. - وصبّ لنفسه كأساً أخرى من غير ماء، ولمّا يجلس، بل ظلّ واقفاً مستنداً بمرفقه إلى رفّ وهو ينظر إليّ، وحاولتُ ألا أتهرّب من نظراته، حدث ذلك كله في صمت، والصمت محمود إذا كان أحد الملتزمين به

يقوم بأمور، وإن يكن إخراج زجاجات وبعض الأقداح، والإمساك بأحد الأقداح بيده. منذ دخولي، اتّجهت عيناي لا إرادياً صوب الممشى، صوب حجرة الطفل، المفتوح، سيكون نائماً، وهو يحلم الآن بوطأة والده فقط، أو ربّما بوطأة خالتيه الشّابّتَيْن ووطأة أمّه التي ستظلّ في شباب دائم، لكن وطأتها ستزداد خفّة، وصورتها غموضاً. وباغتني ديئان بالسؤال، إذا كنتُ أريد خلع المعطف الذي كنتُ ما أزال أرتديه، وقد تجعّدت أطرافه، وهذا ما جعلني أتخلّى عن كل أمل في أن اللقاء سيكون مسألة مدّة زمنية بسيطة. - فسلّمته المعطف واللفاع، فخرج وعلّقهما في القمرة التي كانا فيها ذات مرّة. وشعرتُ حينئذ بالبرد، فقد كنتُ أحتمي بالمعطف هذه الأيّام التي يسود فيها الضباب. وتذكّرتُ قبّعة السالاكوت التي كانت ترقد في القمرة، وكنتُ على وشك أن أسأله من أين جاء باسم تيوبالدو ديزغني - تونس ت عام 1930 ، لكني امتنعتُ، لأن تعليقاً كهذا يُشبه التّحرّش بالشيطان. ثمّ عاد إلى الصالون، واستند إلى الرّفّ مرّة أخرى، وراح ينظر إليّ بالنظرة ذاتها التي كان ينظر إليّ بها في المطعم، لمّا كففتُ عن أن أكون (لا أحد)، وكنّا كلانا يلتزم الصمت أيضاً، وكان الصمت محتملاً حينئذ، لأن الآخرين (لويسا وتييّث) كانا يتكلّمان، نظر إليّ بالتالي، وكأنّي لا أنطوي على سرّ في ظنّه، أو ربّما كان يقيسني، وكان يحاول يقيناً أن يراني الآن بعيني مارتا الحيّتَيْن، يحاول أن يتحرّى أين تكمن جاذبيتي وسِحْري، وأن يُدرك رغبة امرأته فيّ تلك الليلة، وبحثها عنّي. لم أجد تلك اللحظات عنده احتقاراً لي، ولا غضباً عليّ، ولا سخرية منّي حتّى ولا فضولاً، إذا شئنا الدّقّة، بل على الأصحّ، اختراقاً وإدراكاً، وكأنّه يقبض على شيء ما، أو يتثبّت منه، ويتولّى أمره من ارتفاع قامته؛ أمّا أنا، فكنتُ أراه كأنّه لقطة مرتفعة في السينما وأرسون ويلس المايسترو، وكانت عيناه التتاريّتان بلون البيرة تتحرّيان مرتابتَيْن، وتُرغمان المرء على متابعة الكلام - وإن كنتُ لم أبدأ

الكلام بعد - رافعاً ذقنه المنصّفة، وكأنّه ينتظر جواباً، وكانت الأخاديد أو الخيوط أو الغضون بادية جدّاً على جلده الخشبي الذي سيكون مستقبله قشرة شجرة، أو هو في سبيله، ليكون كذلك، أو سيصبح وجهه الذي ينضح تهديداً دِزجاً.

لكنه لمّا قال شيئاً آخر الأمر (وأوّل شيء قاله كان سؤالاً) تجلّى غيظ الليلة الفائتة على الهاتف، أو توتّرها، وكأنّه أبقى على ذلك الغيظ ملتهباً، لم يُمسّ خلال أربع وعشرين ساعة أو تزيد عليها منذ أن أغلق الهاتف، وكأنّه لم ينم قطّ، ولم يذهب إلى العمل، ولم يرَ أحداً في أثناء ذلك. وإنما اكتفى بالانتظار ليلاً ونهاراً، وهو يروح ويجيء من هذا الجانب إلى ذاك ناظراً من العين السِّحْرية، ضارباً بقبضة يده على راحة يده الأخرى، كما يفعل الملاكم قبل المباراة، أو كما كان يفعل الممثّل جاك بلانس بين لقطة وأخرى حسب رواية أحد منتجي السينما، كيلا يفقد التركيز وصفاء الذهن، بينا كان جورج ساندرز وهو ممثّل آخر مشهور عمل معه، يدخّن السجائر واضعاً يَدَيْه تحت نقرته التي كان يستند بها إلى الأرجوحة. وهما نهجان مختلفان بنتائجهما الباهرة لهما كليهما، أي للممثّل الهادئ، وللممثّل العصبي، علماً أن ساندورز انتحر في برشلونة تاركاً رسالة، أرسل بها العالم كله إلى المزبلة (إنه موت رهيب، موت فرد أجنبي، "ظلّوا أنتم هنا"، قال ...)، وأحسب بلانس ما يزال حيّاً، أو أنه عاش سنين طوالاً.

- إذاً، هي لم تمتْ وحيدة، أماتت وحيدة؟ - قال ديئان أخيراً، واحتسى من فوره جرعة من كأسه، وكأنّه يريد بهذه الحركة أن يغطّي فمه فوراً، ويبدو كأنّه لم يتكلّم، وكأنّ الجملة لم تصدر عن شخص، وإنما جاءت من التلفاز الذي كان مع ذلك مطفأ. ولم تسمح لي طريقته في طرح السؤال بأن أكون مطمئناً للجواب الذي كنتُ أؤثره.

- لا، لا، أنا كنتُ معها. وسبق للويسا أن أعلمتكَ بذلك. - أجبتُ، وشربتُ أنا أيضاً لأغطّي فمي بلا ريب، ولأستنفد دوري بسرعة قصوى.

- أتتذكّر آخر شيء قالته؟

"يا ربيّ، ومَن للطفل؟!". فكّرتُ.

- أبدت قلقها على الطفل - قلتُ.

مرّ ديئان بيده على خدّه، وكأنّه يفكّر ملياً على شكل مزيّف.

- آه، الطفل! قال. - هذا منطقي، وأنتَ لم تتصل بي حينئذ، ولم تُعلم أحداً. ذلك لم يخطر على ذهنكَ، هذا مفهوم. أليس كذلك؟

هنا كان يكمن فهمه الكبير، أو، ربّما كان يتظاهر بالفهم. فقد كان قضى مدّة طويلة من الوقت، كيما يتمكّن من استعمال السخرية.

- انظرْ، يا سيّدي! أنا، في الحقيقة، اتّصلتُ بكَ، لا أدري إن قالت لويسا ذلك، - كنتُ عزمت على الاستمرار في مخاطبته بتهذيب(*)، فما كنتُ أتوقّع أن أشتمه بالكلام، ولا بالتفكير، وبإمكاني دائماً أن أنتقل إلى الخطاب المباشر الذي لجأ إليه هو منذ البداية، إذا احتجتُ إلى ذلك. وكان عوناً لي أن استطعتُ الإشارة إلى لويسا. - عثرتُ على عنوانكَ، وهذا ما لا تعلمه، وكلّمتُ الفندق في لندن، على الرغم من تأخّر الوقت الشديد، فقيل لي إنه لا يوجد نزيل باسم ديئان، ولا يوجد حجز بهذا الاسم. وإنما خطر لي في وقت لاحق، أنكَ سُجِّلت بالكنية الثانية. فإذا كان للمرء كنيتان، يُعتمَد على الكنية الثانية في إنكلترا، ويحصلون على هذه - كما تعلم من البطاقة الشخصية أو التأشيرة. لكني لم أجرؤ على محاولة طلبكَ

---

*) أي بضمير الغائب، صيغة لا نظير لها في لغتنا.

بالكنية الثانية تلك الليلة. - كان بإمكاني أن أكذب، كان بإمكاني القول إني كنتُ أجهل هذه الكنية الثانية (ولا شيء يدعوني إلى معرفة الكنية الأولى)، ولكان محالاً عليّ بالتالي أن أحاول مرّة أخرى على كل حال، وبذلك كنتُ أبقيت نفسي مُعفى من تحّمل كلّ مسؤولية، ولأعفي كل امرئ من تحمّلها، لكني، في الواقع، كنتُ أتحمّلها، ولا يتحمّلها أحد آخر سوايَ، ربّما لهذا السبب قلتُ الحقيقة. - ماذا كان بإمكاني أن أقول لكَ. فكّرْ في الأمر قليلاً .... ماذا كان بإمكاني أن أقول. - ما كان يبدو مهتمّاً لوجودي مع مارتا (أنا كنتُ مَن أشرتُ إلى ذلك)، أو لعلّه أُتيح له الوقت لابتلاع الحادثة أكثر ممّا أُتيح له من أجل الفهم والسخرية، لذلك صار غضبه مخمداً، وهذا يعني أني لستُ بحاجة إلى قصّ ذلك، ولا تبيينه، فلا خطر من هذه الجهة.

- ماذا كان بإمكانكَ أن تقول لي؟ - ردّد. - نعم. ماذا كان بإمكانكَ أن تقول لو كان الاسم الذي طلبتَهُ اسمي المسجَّل به، ووصلوكَ بحجرتي تلك الليلة؟ فقد كنتُ فيها، ولكنتُ استمعتُ إليكَ. - لزمتُ الصمت. - ما أزال لا تعلم ذلك.

"هذا الرجل لم يُنقذنا"، فكّرتُ، "لم يُنقذني، ولم يُنقذها".

- كنتُ سأقوم بالمخابرة باسم مجهول - قلتُ. - على الأغلب، كنتُ سأقتصر على القول: "اتّصل ببيتكَ". وما كان ليجيبك أحَد هنا، ولكنت أُصبت بالذعر، ولكنت اتّصلت بأحد ما. أو ربّما كنتُ سأُغلق الخطّ قبل أن أتكلّم، وهذا ما صنعته الليلة التالية، لمّا سألت عن بيّستيّروس، وأجابني أحد ما، فأغلقتُ الخطّ من غير أن أقول شيئاً.

- أعلم ذلك، أحدٌ ما أجابكَ. - ردّد ديئان، ومرّ بيده مرّة أخرى على خدّه، وكأنّه كان يتحقّق هذه المرّة من حلاقة ذقنه، لكنه قد كان حلقها

حلاقة ناعمة جدّاً، وليس وسطاً. - وما كان لذلك أهمّيّة حينئذ، فقد كان فات الوقت. وكنتُ علمتُ لتوّي بكل ما حدث. ونزلت عليّ كارثتان بدلاً من كارثة واحدة، أو بدلاً ممّا لم يكن حتّى ذلك الحين سوى كارثة، حتّى لم تكن كارثة بحتة.

- ولِمَ لا تجلس؟ - قلتُ له. كنتُ أشعر بالقماءة حيال ذلك الرجل الطّوّال الواقف. - أنا لا أسمعكَ، ولا أفهمكَ.

- خير لي هكذا، فقد قضيتُ نهاري جالساً. - قال. - كان شَعر ذراعيه غزيراً، وكان يحكّ ذراعه الأيمن بأصابع اليد اليسرى الصلبة، ولعلّه أحسّ بالخدر فيه، باستناده إلى الرّفّ. - بالطبع، أنتَ تسمعني جيّداً، لكنّكَ، في الحقيقة، لا تفهمني. فأنتَ لا تعرف دوري، ولا أنا كنتُ أعرف دوركَ، وإنما كنتُ حتّى أمس أخمّنه تخميناً. دوركَ ودوري لا يتكاملان، ولا يتتامّان، ولا يحتاجان إلى ذلك، وإنما يتقاطعان، لا إراديّاً، أو على الأصحّ، دوركَ يتقاطع، وليس دوري، لأن دوري ما يزال يسلك مسار الجهل، ودورك يعترضه، وهناك أشياء ينبغي للمرء أن يعلمها فوراً، فلو اتّصلتُ بأحدٍ تلك الليلة، لكان اتّصل بي، أوعيتَ الآن؟

"نحن لا نطيق أن يكون أقرباؤنا على غير علْم بآلامنا"، فكّرتُ، "لا نطيق أن يظلّوا يؤمنون بما أصبح غير موجود، ولو لدقيقة واحدة. كأن يحسبونا متزوّجين، إذا صرنا أرامل، أو يحسبوا لنا آباء، إذا أمسينا يتامى، وبصحبة إذا هُجرنا، أو بصحّة إذا كنّا مرضى، كأنْ يحسبونا أحياء إذا متْنا، أو يحْسبونا أمواتاً، إذا كنّا ما نزال أحياء. لكنني لستُ أحد الأقرباء".

- أنا لا أفهمكَ. - قلتُ مرّة أخرى، والآن لم أكن على ثقة كبرى حقّاً.

لبث دقائق معدودات، ثمّ مرّ بيده على شَعره المسرّح مع فَرْق إلى

الجهة اليسرى، كَفَرْق طفل من الطراز القديم (ربّما كان فَرْقه لمّا كان طفلاً). ولمّا تكلّم مرّة أخرى، كان صوته ما يزال خشناً وصدئاً، وفيه بُحّة، وكأنّه يعاني عقابيل الربو، أو كأنّه خارج من خوذة، وقال ما يلي:

- لكنكَ ستفهمني، ستعلم ما حدث لي، لمّا كنتُ لا أعلم بموت مارتا، ستعلم ما صنعتُه، وما لم أصنعه، وما كنتُ على وشك أن أصنعه، وما حدث لي على كل حال. ولم يكن لكَ ذنب فيما حدث، ولستُ مسبّبه، ولم يكن لأحد ذنب فيه، فالأحداث تحدث، هذا هو كل شيء، وأنا على علْم بذلك، ربّما لسوء الحظّ، أو لحسنه، فلا يتدخّل أحد أحياناً، ولا يبحث عن شيء، ولا يريد شيئاً. لكنْ، يحدث أن تحدث للمرء هذه الأشياء، ويوجِد دائماً مَن يعترضها أحياناً من غير علْم، وفي معظم الأحيان من غير أن تُتاح له الفرصة، كيما يعلم، وفي ذلك، يستوي الأمران، ولا يحسب أحد هذا الحساب. وأنتَ تعرّضتَ لي من غير أن تعلم كيف، فأنتَ لا تعرفني، ولا أعني لكَ شيئاً. والآن يمكنكَ أن تعلم ذلك، ومن الخير أن تعلمه، ولسوف تفهمني. لن أطيل عليكَ، فلا تبالِ، لن تكون قصّتي طويلة، فأنا أقصّ بسرعة.

"آه، نعم! هو تتعبه ظلمته كثيراً"، فكّرتُ، "هو الآخر أيضاً يريد أن يخرج من وطأة السِّحْر، وهبّت عليه رياح العجلة. فعمّ يتحدّث؟ هو يقول ما قاله سولوس، إذ لا يموت أحد من تلقاء ذاته، ونحن لا نعلم بمَن يموت عادة، لأننا نمرّ قريباً منهم أو بعيداً عنهم، وبالطبع، نتابع مسار الجهل جميعاً، وهو المسار الوحيد، وأنا أيضاً قمتُ بتخمينات، عن أيّ موت يتحدّث؟ فكل شيء يرحل من غير توقّف، وعلى شكل متتابع، وأشياء تجرّ خلفها أشياء أخرى، نجهلها جميعاً، وعن أيّ موت يتحدّث؟".

- ذلك خير لي. فليس لديّ فائض من الوقت. - قلتُ، وهذه المرّة لم

يكن قولي صحيحاً مطلقاً. فكان ينتظرني في اليوم التالي المخرج الذي لا يُطاق، وما كنتُ لأتخلّى عن مخابرته، فهو سيؤمّن لي عملاً. وربّما سأتّصل أيضاً بلويسا، وهي خطوة مسوّغة، لأنها كانت طلبت منّي ذلك.

أمسك ديئان لوقت بجهاز التّحكّم عن بعد، وشغّل التلفاز، ومحا الصوت منه، في آن واحد. وطاف بالأقنية كلها بسرعة كبرى، وأغلقه مرّة أخرى، هي حركة آلية عصبية، حركة يقوم بها الرجل المتوحّد عادة، وكلّنا نصنع ذلك من حين لآخر، لنعلم كيف حال العالم في غيابنا الدائم.

- أنا لم أكن وحدي في لندن - قال حينئذ. وليس من الصعب تخيّل الأمر، وليس من الصعب أيضاً تخيّل أني كنتُ وحيداً، بل يمكن تخيّل الحالتَيْن معاً، فلا يعرف أحدٌ شيئاً عن ذلك. كان لي خليلة منذ ما يقرب من عام، وهي ممرّضة، تعمل في المشفى المحلّيّ المسمّى (مشفى النور) المجاور لنا. - وأشار على شكل غامض بيده المضطربة باتّجاه الخارج، باتّجاه السطيحة. - لم يكن في القضية شيء مميّز في البداية. وما من أحدٍ يعلم، كما سيكون وضعكَ ومارتا تلك الليلة الأولى، وما يزال لا يعلم أحد، وكان حظّكَ حسناً أو رديئاً، وبذلك لم تستطع العبور، ولم تبلغ غايتكَ، وما كنتُ أعلم شيئاً حتّى أمسِ، وإنما كانت لديّ شكوك وفرضيات. وهكذا، إذاً، التقيتُ إحدى الممرّضات ذات مرّة، وتبادلنا بعض الجمل في بار قريب، في مشرب للبيرة، ثمّ رأت ثمن كأسها يُدفَع من الجانب الآخر للحاجز، وتعالت الضحكات المشتركة، ضحكات زميلاتها ذات التأثير الكبير، ثمّ سرنا معاً لهنيهة ("خطوات بريئة"، فكّرتُ وأنا تحت وطأة فكرة السِّحْر وخفقان قلبي في ازدياد متواصل)، كانت أقدامنا تجري جنباً إلى جنب حتّى توقّفنا حيال إشارة ضوئية، وعند الإشارة، التقى وجهانا فجأة، وهكذا وجدتُ نفسي في بيتها ("وتخلع عنها جوربيها الأبيضين ذوي العقد

عند خطّ الدرز")، لم يكن في علاقتنا شيء مميّز، ولا شيء هام، وإنّما هي مناوشات حيال الروتين اليومي، إلى أن صارت الخطى تتكرّر على شكل غبيّ، من غير شهود، ومن غير تشجيع بالضحكات، ونشأت عادات على شكل غير محسوس، عادات بسيطة، لا هدف لها: بأن أهتف لها في الساعة الموعودة، وأشرب معها دائماً ذات المشروب ذاته، وأعلم من غير إرادة منّي مواعيد دوامها، وراء هذه الأشياء تكمن دلائل دائماً، ومعطيات لها معنى، في حين تكون خالية من القصد، ولا تعني شيئاً في نظر الشخص الآخر، لا تعني شيئاً أحياناً، لكن كل امرئ يفهمها كما يريد، ويقصّ قصّته الخاصّة، فلا توجد قصّتان متماثلتان، وإن عاشها الشخصان معاً. ("وفوق ذلك، لا تنتمي القصص فقط إلى مَن يشهدها، أو إلى مَن يخترعها، فما إن تُقصّ حتّى تمسي ملك كلّ امرئ، فتتردّد من فمٍ إلى فم، وتُبدّل، وتُغيّر، وكل منّا يأخذ بقَصّ قصّته"). وهكذا صرتُ أفرط في التّردّد على بيتها، وأصبح الوداع يطول أكثر فأكثر، وإن التكرار والعمل في السّرّ يحمّل الأشياء بالمعنى، وهو الجسد ما يمنحنا الثقة، وليست أيّة إيماءة أو كلمة، وتختلط حينئذ العادات بالحقوق، عادات تُسمّى مكتسبة، ويا للسخرية! حتّى لا يراعي المرء موعد عودته إلى بيته، بل يصبح طريق العودة بعد أيّام معدودات يمرّ بالبيت الذي يريد مغادرته، وتحتجزه أكثر ممّا هو محسوب مداعباتٌ وقُبَلٌ واحتجاجاتُ حبّ وبكاء، وأفترض أن المرء يُسَرّ ويُعجَب بأن يعلم نفسه محبوباً ("وفي العينين، يرتسم وجه الآخر: لبثتُ فترة طويلة جدّاً إلى جانبكَ، وأنا أُضجركَ").

أمسك ديئان عن الكلام، واقترب من المنضدة الصغيرة الواطئة، ليصبّ لنفسه كأساً أخرى من الويسكي، وكان يمعن في الشرب، كلّما تكلّم، وأصبح الآن لا يتكلّم ببطئه المعهود، وإنما كان يقصّ حقّاً بسرعة.

- أكانت تعلم زوجكَ بهذه العلاقة؟ - تجرّأتُ على أن أسأله، وقد أفدتُ من ضوضاء الجليد والسائل، لكني لم أجرؤ على تسميتها "مارتا" في حضوره. وعاد هو على وضعه قرب الرّفّ.

- لا! - أجاب. - لا! لا! - ويُجاب دائماً عن سؤالٍ معترض. - أعني لا أحسبها كانت تعلم، ولا أدري إن كانت تعلم .. وما كنّا نسأل بعضنا بعضاً، وإنما كنّا نقصّ على بعضنا ما كان ينبغي له أن يُقَصّ. وقد عملتُ من جهة أخرى كل ما أستطيع لئلا تعلم. وما إن استقرّت العادة حتّى أصبحتُ لا أسير وإيفا في شارع، ولا أسعى باحثاً عنها في ختام نوبتها، ولا أُخرجها بعد ذلك للعشاء، كما فعلت أوّل ليلة، أصبحت لا أصنع شيئاً من هذا، وإنما يتمّ كل شيء في بيتها، وقد حظرتُ عليها أن تهتف لي، وقد أبقيتُ المجال ذاته محظوراً عليها إزاء الآخرين حظراً تامّاً، وخاصّة أن تهتف لرفيقاتها. فقد كنتُ أعيش حياة، لا يمكنني أن أعرّضها للخطر، وما كنتُ راغباً في إطالة مدى هذه العلاقة، وإن طالت حقّاً. ("وأنا ينبغي لي الآن أن أتذكّر هذا الاسم"، فكّرتُ، إنه إيفا"). لا أدري إن كانت تعلم، ولا أحسبها كانت تعلم، لكن مارتا بَكَتْ في الأوقات الأخيرة ذات ليلتَيْن فوق المخدّة ظانّة نفسها تبكي في صمت، فلم أقل شيئاً في المرّة الأولى، وقد دام بكاؤها قليلاً، أمّا في المرّة الثانية، فسألتُها: "ما بكِ؟"، فأجابت: "ليس بي شيء، ليس بي شيء!" "لكنكِ تبكين"، قلت لها. "تنتابني أحياناً أفكار سيّئة ليلاً، تثير فيّ مخاوف". "أيّة مخاوف؟" قلتُ لها. "مخاوف لا يمكن السيطرة عليها"، قالت، "أخاف أن تصاب بمكروه، أن تصاب أنتَ أو الطفل أو أنا". "لكنْ، ماذا سيحدث لنا؟" قلتُ لها، "لا أدري، لا أدري! منذ مدّة وأنا متعبة، وأشعر بالضعف، لكن الأزمة ستمضي، وإذا كان المرء ضعيفاً، يرى كل شيء باللون الأسود، فلا تهتمّ، لأن هذه الأمور لا تحصل لي نهاراً". ولم أُولِها أهمّيّة كبيرة، لكنْ، مَن يدري؟! نعم، على الأغلب، كانت تعلم بطريقة ما، وهذا ما مهّد

لكَ، لكي تأتيها هنا. - ولبث ديئان ينظر إليّ رافعاً ذقنه، وكأنّه يطرح عليّ سؤالاً. لكنه لم يطرحه.

- لا أصدّق ذلك! - سمحتُ لنفسي بالقول، وأحسبه قولاً كبيراً. - هي كانت تتحدّث عنكَ كل الوقت على شكل طبيعي، ولا أُحسبها كانت خطّطت لشيء. ولما اتّصلتَ من لندن، وكلّمتَها، ما كنّا نفكّر حتّى ذلك الحين في شيء، وأنا على يقين، وسبق لكَ أن قلتَ ذلك، ثمّ حدث ما حدث.

- أنا لستُ أسألكَ، سبق لي أن استمعتُ إلى لويسا، لا أريد تفاصيل. - قال ديئان بغضب فجائي، وقد شدّ من قبضة يده على الكأس، من غير أن يبلغ أن يُبدي غضبه إبداءً تاماً. - ضع في ذهنكَ: أنا أقصّ عليكَ، وأنتَ ينبغي لكَ أن تسمعني فحسب. كان يمكن لهذا الرجل أن يكون عنيفاً مثل جاك بلانس.

- وضعتُه في ذهني جيّداً. تابعْ، أنا أسمعكَ.

بدا على ديئان الخجل قليلاً من ردّة فعله .. وخطا خمس خطوات أو ستّاً وهو يقرع الكأس بأظفاره القصيرة الصلبة، ليُبعد قصّته بلا ريب عن الفجاجة، ولئلا يُفسدها. وصرّ الخشب. ثمّ تابعَ الكلام، وتابعتُ الإصغاء، وقد صارت شفتاه أكثر نعومة، واختفت تقريباً من مجال رؤيتي.

- كان كل شيء ما يزال منتظَماً ضمن الحدود تلك الليلة، لمّا خابرتها. قد كانت قالت لي الممرّضة منذ ثلاثة أسابيع إنها حامل، فتصوّر! كنّا اتّخذنا الحيطة كل الحيطة، لكنْ، لا توجد ضمانات مُطلَقة. وفكّرتُ في أن الإهمال كان مُتعمَّداً، لأنني كنتُ أريد أن أتخلّى عن العادة المكتسَبة، عن الزيارات المعهودة، وعن الوداع الطويل، لم أكن راغباً في دفع مارتا إلى

مزيد من البكاء، أو أن أجعل لها أسباباً للمخاوف، وإن كانت تجهل كنهها.
وكانت علاقتي بإيفا تزداد صعوبة، فأنا نفسي لم أستطع الانفصال عنها، فالجسد يجذب كثيراً، مادام يستمرّ في الجذب، ومدّة عام ضئيلة، كيما تستنفد وتُصدّ. ولم أكنْ تخلّيتُ عنها، ولا خرجتُ من دنيا حياتها حتّى وجدتُ نفسي حيال هذا الحمل. وهي كانت ممرّضة، ولا مجال للشك حول حملها. فالنساء يتّجرنَ بأجسادهنّ، ويدبّرنها ببراعة، ولديهنّ هذه القدرة المفزعة على تحويلها، فينشأ لهنّ هذا الانتفاخ من تعاملهنّ مع أيّ رجل كان، حتّى مع أحطّ الرجال وأخسّهم. فتصوّر هذه القدرة لأجسادهنّ! (ge - licgan)، فكّرتُ، "ليس من السهل تحمّل ما يشير إليه، ومن الخير ألا يذكره")، شيء ما لم يكن موجوداً، وليس فقط أنه غير موجود الآن، وإنما يأخذ بالتّحوّل، ثمّ ينتهينَ إلى طرده متى أنجز مهمّته في جعلهنّ أمهّات، وتيسير رابطة لهنّ تبقى بقاءً دائماً تحت شكل آخر متبدّل أيضاً، لكنه منظور إلى مدى غير محدّد على الأقلّ، ويستمرّ في الحياة بعدهنّ، بالطبع. وتلك الرابطة في متناول أيديهنّ دائماً، وليس إطالة مداها فقط. وإنما هي العروة التي تشدّهنّ إلى العالم، ولقد تحقّقتُ من ذلك، فأنا لديّ طفل، ونظرتي إليه تختلف عن نظرة أمّه (تؤمن الأمّ أنه كان ينبغي لها أن تكون أمّاً، والعانس عازباً، والقاتل قاتلاً، والضحية ضحية. كلهم يؤمنون انطلاقاً من مواقفهم الشبحية"). طلبتُ منها أن تُجهض، فلم تقبل في البداية، وهدّدتني أنها ستُكلّم مارتا. فقلتُ لها إني سأُنكر كلّ شيء، حتّى أُنكر معرفتي بها ("أنا لا أعرفكِ، يا عجوز، ولا أعلم مَن أنتِ، ولم أركِ في حياتي"). وضحكتُ، فاليوم توجد وسائل لتحديد الأبوّة، لا تخيب، وهكذا هدّدتُها بالشيء الوحيد الذي ظلّ في يدي، بأني لن أراها مرّة أخرى في حياتي، ولن أحبّها. لا أقول ذلك تبجّحاً، لكنها كانت تحبّني كثيراً، في الواقع، كانت ستصنع كل شيء لإرضائي. لا أفهم معنى اتّخاذ

قرارات رجراجة أحياناً حيال شخص، ولا تجد مَن يُغيِّرها، كانت ستصنع كل شيء من أجلي، لكنها قبل أن تصنع ذلك، كان لها ينبغي أن تخوض جولة أخرى لترى إن كانت تجني منها شيئاً. - توقّف ديئان للحظة. وخطف منّي سيجارة، فقد كنتُ أضع علبة التبغ على المنضدة، وكان يدخّن لفافة إثر أخرى. وتناول علبة الكبريت، وتابع الكلام وهو يمسك بعود ثقاب بيده الكبيرة قبل أن يُشعلها. - ولم تجنِ شيئاً، وكما تعلم، تجعلنا العواطف ضعفاء، فنهلك بسببها (أو هو الإخلاص، والقرارات المتّخذة من غير مسوّغ). وهكذا رضختْ لي لقاء بعض الوعود البعيدة، وعزمنا على اغتنام فرصة عمل لي إلى لندن، وهي، لكونها ممرّضة، تعلم أن لندن ما تزال أضمن مكان من أجل هذه الأمور، وأسلمه. وهكذا سيكون بإمكاني أن أُرافقها. يبدو ذلك مضحكاً، وفكّرتُ أيضاً أننا سنتمكّن هناك من السير مرّة أخرى في الشوارع معاً، ونتعشّى في المطاعم، وإن بدا لي من الحكمة أن ننزل فندقين مختلفين، فبحثتُ لها عن فندق في سلون سكوير، وهو قريب من فندقي، وخير منه فعلاً. كانت إقامتي على حساب المؤسّسة، وقد أُضطرّ إلى استقبال بعض الزملاء في الفندق". وهكذا كانت إقامة كلّ منّا في جهة عين العقل. وأعطيتُها نقوداً، لتدفع نفقاتها ونفقات المشفى أيضاً، والرحلة لم تكلّفها سنتيماً واحداً. ولم يعلم أحد بوجودنا معاً، حتّى ولا رفيقاتها، وإلا لكانوا شُغلوا عليها كثيراً، وكلّفوها بأشياء. أخذتُها أوّل ليلة للعشاء في مطعم هندي ممتع جدّاً، لألهيها أقصى ما يمكنني عمّا كان ينتظرها اليوم التالي.

- مطعم بومباي برّاسوري، أنا أعرفه. - قلتُ، ولم أستطع تجنّب قوله.

- كيف عرفتَهُ؟ .. قال ديئان بقدرته على المفاجأة، وقد انبسطت فتحتا أنفه موحيتَيْن بالعنف، أو ربّما بالقسوة.

- أنتَ قلتَ ذلك لزوجكَ، لمّا هتفت لها، وعلّقتْ هي على قولكَ، وسألتني إن كنتُ أعرف المكان.

- لقد فهمتُ! آه، وتعرفه!

"تعشيّتُ ذات مرّتَيْن في قاعاته الضخمة المزيّنة على الطراز الكولونيالي"، فكّرتُ، "وتقف عازفة بيانو بثياب السهرة الحُمر إلى جانب خَدَم ورؤساء خَدَم يقدّمون فروض الاحترام، وفي سقفه مراوح ضخمة ذات أذرع، تدور صيفاً وشتاءً، وهو مكان استعراضِي غالٍ، بالقياس إلى المطاعم في إنكلترا، لكن دخوله ليس حكراً على أحد، يُقدَّم فيه عشاء صداقة أو احتفال أو تجارة أكثر ممّا هو عليه عشاء حميم أو غرامي، اللهم إلا إذا أُريد إغواء شابّة غرّة أو من طبقة دنيا أو "الزوجة أو العشيقة"، اللتَيْن لا تخرجان قطّ تقريباً، أو قطّ مطلقاً من البيت (الزوجة في كونده ديلاثيميرا مثل كل الليالي، وإنْ صاحبها هذه الليلة أحد ما على العشاء الذي كان غرامياً، والعشيقة في بيتها دائماً، لكنها اليوم في سفر مدفوع الأجر، ومُرغَمة عليه)، أحد ما قابل لأن يدهش قليلاً بالسيناريو، ويسكر على شكل مضحك، بكوكتيل وبيرة هندية ماركة بومباي سنسيت، وبومباي سكاي لاين، وبينك كاميليا، وبومباي بلو، أحد ما لا حاجة تحوج إلى نقله إلى مكان آخر وسيط قبل ركوب عربة أجرة ذات عجيزة ضخمة وبلوغ الفندق أو الشقّة، أحد ما لا داعي يدعو لأن يُكلّم بعد العشاء ذي التوابل اللاذعة، وإنما يُمسك برأسه باليَدَيْن، ويُقبّل، ويُعرّى، ويُلمَس، ويحاط باليَدَيْن، هذا الرأس المبتاع والهشّ بحركة، تشبه إلى حدّ بعيد عملية التتويج، أو الخنق، فكّرتُ في ذلك كله، وأنا أنظر خلال الظلمة إلى الطائرات في غرفة الطفل، ومارتا تييّث ما تزال مريضة، لكنها لمّا تمتْ، والطائرات ما تزال موجودة هنا في هذا الجانب، تحرس نومه بينما تستعدّ لمعركة متعبة، تقع خارج الزمن كل

ليلة، معركة مصغّرة شبحية، طائرات كسلى، ومعلّقة بالخيوط، وتأرجح تأرجح عطاله، أو ربّما تأرجحاً وقوراً، واقنط، ومتْ غداً".

- نعم، وأُعجبتُ به كثيراً. - قلتُ له - كنتُ فيه مرّتَين أو ثلاث مرّات منذ وقت!.

مكتبة t.me/ktabrwaya

- نعم، يُوصى بزيارته في كُتُب الدليل السياحي.. قال ديئان بثقة كبيرة، وكأنّه يعتذر. - إلى هناك أخذتُها، وشربنا، وضحكنا جدّاً، على الرغم ممّا سيأتي به الغد، ولم يكن الشرب سيّئاً لها، من أجل مقاربة النوم ليلاً، ولم يكن سيّئاً لي أيضاً. أنا سأُرافقها حتّى مدخل المشفى، ولسوف أنتظرها خارجه تحسّباً لنشوء مشاكل، أو إذا ساورها خوف، أنتظرها زوجين من الساعات، كما قالت لي. وإن كنّا لا نتوقّع نشوء شيء غير محسوب، هي كانت ممرّضة، وكانت تعلم كل ما يتعلّق بالموضوع. تنهار قوى الممرّضات كثيراً، وهذا منطقي، فلا تستوي حقّاً عملية، تُجرى لها، وعملية تجرى للآخرين. ودُهشتُ من أنها لم تُدخَل المشفى، لا من بعدُ، ولا من قبل حتّى ولا قبل ليلة واحدة أو ساعات عدّة، لكنها هي كانت تعرف خيراً منّي - وكانت قالت لي إنها أعدّت العدّة من عيادتها في إسبانيا، من مشفى لمشفى مع منحها بعض الميزات، كانت تؤكّد الكلام بالإنكليزية، كما كنتُ أؤكّد كلامي بها أيضاً.

- أنا درستُ فيلولوجية اللغة الإنكليزية. - قلتُ، وكان تعليقاً محالاً. لكن ديئان لم يأبه به، وقدّم لي (ويسكي) آخر، وجعلني أصبّ لنفسي، وتابع كأنّما يسمع شيئاً:

- رافقتُها تلك الليلة بعد العشاء في سيّارة أجرة حتّى الفندق، وآثرنا ألا يصعد أيٌّ منّا إلى حجرة الآخر، ففي جوفها شيء قد لا يكون موجوداً في

اليوم التالي، وكان من الخير ألا أفرط عليها بتذكيرها به. وهي لم يكن يبدو عليها التّأثّر، أو أنها كانت تُخفيه، وربّما ساعدها الكوكتيل على ذلك، بل كانت تبدو مسرورة، ودودة، وربّما عوّضتْها وعودي عمّا تبقّى. قبّلتْني عند باب فندقها بقبلة من تلك القبل التي هي - ماذا أسمّيها؟ - قبلة شكر أو قبلة حارّة، واقتنعتُ بأنها لن تحقد عليّ بسبب تلك الجرعة المرّة .. ثمّ سرتُ حتّى فندقي الذي لا يبعد عن فندقها سوى مسافة قصيرة، وهتفتُ حينئذ إلى مارتا، لأُثبتَ لها وصولي بسلام، ولأستعلم عن وضعها، فلم تقل لي إنها تتعشّى معكَ، ولا مع أيّ شخص آخر، وحسبتها وحيدة والطفل، حتّى وإن حسبتَ أنتَ الأمر غير مُعدّ من قبل، فقد كنتَ وقحاً - ظلّ ديئان واقفاً، ثمّ توقّف عن الكلام، ولبث ينظر إليّ، فرأيتُ شيئاً من القسوة في عينَيْه المستقيمتَيْن، وشحط عود الثقاب في النهاية، وأشعل اللفافة المسروقة، وكأنّه لا يريد أن يجنح إلى الطريق الثانية الممكنة لحديثنا، فقد كان نحّاها منذ البداية، وانطفأ حينئذ اللهب. - والحقيقة أني لم أنم تلك الليلة نوماً هانئاً، بل كان مضطرباً ومتقطّعاً، وعزوتُ ذلك إلى نفسي، وإلى إيفا، وليس إلى مارتا، وإن كان فكري منصبّاً عليهما كلتيهما - كان يحدث في لندن ما كان يحدث، لأنّ مارتا كانت على قيد الحياة، فهناك أمكنة تظلّ مشغولة طيلة حياة المرء، لذلك يعمل الناس كيفما استطاعوا على أن يجعلوها خالية فارغة، أو يستبدلوا فوراً من يرحلون. ("لم تنم نوماً هادئاً جدّاً في الجزيرة، لم تستطع أن تنام بهدوء ليلة واحدة من ليلتكَ في تلك الجزيرة"، فكّرتُ، "لكنْ، لم تبلغ مسمعيكَ أيضاً خفقةُ ملاءاتكَ التي لم أبلغ أن أحتكّ بها، ولا قرقعة صحونكَ الملأى باللحم الإيرلندي والآيس كريم، ولا دندنةُ كؤوسكَ الطافحة بالخمر الأحمر، ولا صفير النزع أيضاً، ولا قرع الغمّ ولا صرير المرض والانحطاط ولا زميم الخوف والندم، ولا همهمة الموت المتعب والمفترى عليه، وإنما كنتَ تسمع ضوضاء حركة السير التي

تجري عكس الاتّجاه عندنا، وضجيج الحافلات الحمر العالية جدّاً، والإثارة الليلية والمحادثات الصاخبة التي تجري بلغات شتّى في المطعم الهندي، وسط همهمات أخرى، لا أدري إن كانت هي الأخرى مميتة: وأنتَ تتكلّم عن عشيقتكَ، وعن إيفا بالماضي")، ليتني كنتُ علمتُ، ليتني علمتُ تلك الليلية ما كنتَ تعلمه! ("أنا علمتُ ما علمتُه، لأني شهدتُه، وعانيتُه، وأصابني بالذعر، ولم أستطع منعه، يا مغفّل. أنا شهدتُ ما شهدتُ، وأمسكتُ بها بين ذراعي، لكي تموت على خير ما يمكن، وما كان يلزمني أن أكون قربها". وخاطبتُه مرّة أخرى من غير كلفة، كما فعلتُ عند مدخل المطعم، لأشتمه في تفكيري كما ينبغي له، فقد أغاظتْني شكواه التي كان لها طعم التأنيب، لقد ذهب وإيفا لحلّ شؤونهما من غير علْم مارتا، فماذا يبتغي بعد؟") ودنا من المقعد الذي كان يتواءم والصوفا، وجلس على ذراعه الأيمن، وكأنّما زلّت قدمه فوق الثلج الزلق، فقد سبق لي أن رأيتُه ينزلق هكذا أو على شكل أفخم، حيال القبر المفتوح، ولوّثه التراب، لوّث المعطف. كان يبدو وهو جالساً هكذا طويلاً جدّاً، لم يصالب ساقيه، بل أبقاهما متوازيتَيْن، وبهذا الوضع، كنتُ أراه أكثر ضعفاً. - لو علمتُ، لكان تغيّر كل شيء في لندن، حتّى ما كنتُ سمحت لها بالذهاب إلى المشفى غداة اليوم التالي، ولما كان حدث شيء، ولكان لأوخينيو أخ وأمّ جديدة، ولِمَ لا يكون ذلك في مثل هذه الحالة؟ يحبّ المرء الأشياء والأشخاص تبعاً لما يملكه، أو لما لا يملكه، وتبعاً للفراغات التي تُخلّفها، وتتنوّع حوائجنا ورغباتنا بقدر ما نفقد منها، أو تتخلّى عنّا، أو تفلت من يدنا، ويمكن لمشاعرنا أيضاً أن تتّخذ - كما قلتُ لكَ - قرارات، لا قرار لها، وكل شيء يكمن جزئياً في أنها معلّقة بعدم مجاراتها، لما نحتاج إليه. - وها هو يأخذ يناقض نفسه حول المشاعر، أو أنه كان يتكلّم من قبلُ عن إيفا، والآن صار يتكلّم عن نفسه.

- سبق أن قلتُ لكَ، - قلتُ له، - لم أجرؤ على أن أهتف مرّتَيْن. فقد خانتني الشجاعة بعد أن كلّمتُ الحارس الذي لم يجد اسم ديئان بين النزلاء، وما كان يضمن لي أحد أيضاً أنه سيجد شخصاً باسم بيّستيّروس. في الواقع، لا أدري إن كنتُ بذلتُ جهداً كبيراً للتّحقّق من كنيتكَ.

- وكيف تحقّقتَ منهما؟. - سأل ديئان.

- وجدتُ رسائل فوق المنضدة، وبحثتُ في الرسالة الواردة من المصرف.

- حقّاً إنكَ ذو باع طويل، فلا يخطر للناس جميعاً ما خطر لكَ. - وأخذ يخاطبني بصيغة المجاملة، وهي علامة احترام فاجأتني، وتردّدٌ منه، جاء متأخّراً، أو أنني نقلتُ إليه ذلك بالعدوى، لكنه لم يلبث على ذلك سوى ثوانٍ، فصحَّح مساره بعد بعض الجمل: - أنا لا ألومكَ على شيء، وإنما أقصّ عليكَ فقط ما حدث لي، لأني لم أكن على علم في وقت مبكر، أقصّ عليكَ كيف قضيتُ تلك الساعات التي ظللتُ في أثنائها على اعتقاد خاطئ، ولم تكن ساعات قصيرة ... ولا أتّهمكَ أيضاً على تَركك الطفل وحيداً مثلاً، وإنّ أرملاً يشعر بالمرارة والحنق، لكان فعل ذلك: فلم يحدث له مكروه، ولسوف يكون تعسّفاً منّي لو عنّفتُكَ على ما كان يمكن له أن يقع، ولم يقع، فكل شيء مُعلَّق بالنتائج، وكل ما يدوم ولو ثانيةً واحدة من الزمن، والفعل ذاته ليس فعلاً، إلا بما ينجم عنه، والرصاصة ليست الرصاصة ذاتها، إذا لم تُصب الهدف، والطعنة ليست طعنة، إذا حادت عن مَضربها، يبدو أننا لا نملك شيئاً بين أيدينا، ونساق بالمقابل، وكأنّنا نسير عكس اتّجاهين، تغمرنا النوايا دائماً. وأسأل نفسي إن كانت هي ما يُعتدّ به، أو ما لا يُعتّد به عدلاً، وفي الواقع، لا نملك النوايا أحياناً، وربّما لا تملكها حضرتكَ.

("نعم، ولا، وربّما، وبينا ذلك كله تابع مساره أو ولّى. التعاسة في

ألا تعلم، ومع ذلك، ينبغي لكَ أن تعلم، فلا بدّ لنا من أن نعطي الزمن مضموناً، الزمن الذي يضغط ويتابع جريانه من غير انتظارٍ لنا، فنحن نسير أبطأ منه: التعاسة أن تقرّر من غير معرفة، وتتصرّف من غير معرفة، وإنما أن تُخمِّن تخميناً، وأكبر تعاسة وأكثرها شيوعاً أن تُخمِّن ما يأتي بعد، وترى الكارثة بالطبع على أنها كارثة صغرى، لكنها بمرأى من الناس جميعاً كلّ يوم، شيء ما نعتاده اعتياداً، ولا نأبه به كثيراً"). - أطفأ ديئان اللفافة، من غير أن يُدخنّها كلّها، ولمّا صنع ذلك، انزلق حتّى مكانه على المقعد، وصار الآن بمستواي تقريباً، وقد شمّر كُمَّي القميص إلى ذراعيه، وتخلخلت عقدة ربطة عنقه قليلاً، ولم يفقد بسبب ذلك تماسكه. - لكنْ، حدثت هنا أشياء - تابع، وأنا لم أكن على يقين بأنني كنتُ راغباً في سماع حكاية ذلك الحدث الأصم، فلا صلة له بي، لكن ذلك الرجل كان عازماً على أن يقصّه عليّ، فقد اختارني من أجل الاستماع إليه. نعم، ربّما كان له صلة بي، بدرجة ما. - أسأل نفسي إن كانت ستحدث كما حدثت، لو لم تكن أنتَ في هذا المخدع ومارتا. - وأشار بعنقه صوب الممشى الذي يقود إلى المخدع، وأنا كنتُ أعرف الطريق إليه. - لا أشير إلى موتها، وإنما إلى ما إن كانت ستهتف لأحد ما، لمّا أحسّت بالمرض. ربّما ما كانت لتهتف لي، كي لا تُثير الذعر فيّ، وأنا بعيد، لكنها ربّما كانت هتفت لأختها أو لصديق ما، أو لأحد الجيران، إلى طبيب، تطلب عوناً منه. وأسأل نفسي إن كان امتناعها عن مخابرة أحد، لكونها معكَ، وربّما كانت على ثقة بأن ما كانت تعانيه سيزول، وبذلك تستأنف الحفلة. ("أأنتَ مجنون؟ كيف أهتف له؟ لسوف يقتلني"، فكّرتُ، "هذا ما قالته مارتا تييّث، لمّا اقترحت عليها أن تُعلم هذا الرجل في لندن، ويحتمل أن يكون ديئان على صواب، فلربّما كانت هتفت إلى أحد ما، لو لم أكن معها. لكن هذا ما كان ليُنقذها، وإنما كان سيُنقذه هو من وطأة السِّحْر، أو من ظلمته. بسبب ما سوف يقوله").

تحدث أمور، وهذه حقيقة، لكنها تحدث دائماً لأحد ما، وليس لآخرين، ويشكو مَن يعانيها. ("حتّى إذا لم يوجد ما يزعزعنا، فليس بمستطاعنا أن نظلّ ساكنين في مكاننا، والشيء الوحيد المضمون هو ألا نقول شيئاً، ولا نصنع شيئاً قطّ، ومع هذا كله، قد يكون للجمود والصمت الآثار ذاتها، والنتائج عينها، أو مَن يدري؟ إن كان ما هو أسوأ منها، وكأنّما تنطلق من أنفاسنا المعهودة الأحقاد والرغبات التافهة والزوابع التي كان بإمكاننا أن نوفّرها على أنفسنا، والحلّ الوحيد أن ينقضي أجل كل شيء، فلا يوجد شيء)، والنتيجة سواء، فقد مسَّكَ ما مسَّني، ومسَّ كلتا المرأتَيْن بوجه خاصّ، ذهبتُ في اليوم التالي إلى المشفى مصطحباً إيفا. كان المشفى جيّداً، وكان كل ما فيه منظّماً، ولم يكن بعيداً عن فندقينا في منطقتي سلون سكوير، وسلون ستريت باتّجاه النهر. وأنتَ تعرف المنطقة يقيناً، فكل ما فيها جميل جدّاً ونظيف. لم أدخل معها، ولم تكن بحاجة إلى ذلك، وهذا ما كانت ترتئيه. وقلتُ لها إني سأنتظرها في مقهى قبالة المشفى، أقرأ الجريدة فيه، ولن أتحرّك منه خشية أن تحتاج إلى شيء طارئ، ولن ألبث أكثر من ساعتَيْن كحدّ أقصى، وربمّا أقلّ، وهذا ليس بالأمر الخطر، وكنتُ تخلّيتُ عن لقاء عمل إلى ما بعد الغداء، أمّا المواعيد الأخرى، فكان ما يزال لديّ فسحة من الوقت لها في اليوم التالي. كنّا سنمكث ثلاث ليال. ولن نعود حتّى الجمعة، كلّ منّا ببطاقته الخاصّة اللتَيْن ابتعناهما، كلّ منّا على حدة، وإن كانتا للرحلتَيْن نفسيهما، وكنّا نؤثر ألا نصنع شيئاً معاً. لمّا ودّعتُها وجدتُها شاحبة، ولاحظتُ الذعر على قسمات وجهها أوّل مرّة، ربمّا كانت نادمة. لكنْ، لات حين مندم! عانقتُها، وقبّلتُ وجنتيها، "سينقضي ذلك كله"، قلتُ لها، "سأظلّ أفكّر فيكِ الوقت كله، وسأظلّ هنا قريباً منكِ"، ورأيتُها تختفي بمعطفها الطويل واضعة منديلاً على رأسها بين الجمهور في الدهليز، والمشافي أكثر اكتظاظاً بالناس من الفنادق،

وكانت تنتعل حذاءً منخفض الكعب أقرب إلى أحذية الأطفال. ابتعتُ صحفاً إسبانية وإنكليزية عدّة، وجلستُ في المقهى. كان الصباح لطيفاً وبارداً، لكنه كان صاحياً تلك الفترة، ولن يدوم الصحو في لندن. حاولتُ ألا أفكّر فيها، وفي ما قد يحدث لها خلافاً لما كنتُ أعلنتُهُ لها، لكنني خلصتُ إلى الوفاء بوعدي على رغمي، وهذا ما فرض نفسه عليّ ذهنيّاً، وإن أكُ خلواً من التّصوّرات، فليس لديّ أيّة فكرة واضحة عمّا يحدث في هذه الحالات، وما كنتُ أريد أن يكون لديّ مثل هذه الفكرة، الحقيقة أني كنتُ أفكّر في الحالات المشابهة لها. حسن! فلندع الأمور تجري في أعنّتها. - رفع ديئان يده إلى جبهته، وفركها بأصابعه القاسية، وكأنّها تخزه، ثمّ وضعها على عينيه، ولمس قناة أنفه، وكأنّه يلمس موضع نظّارة، رُفعت عنه، لكنه ما كان يستعمل نظّارة. - لم أستطع الانتظار أكثر من ساعة طويلة، وما كنتُ أستطيع أن أظلّ هناك محاولاً قراءة صحف، ما كانت تعنيني في شيء. فنهضتُ، ودفعتُ ثمن ما استهلكتُ، عبرتُ الشارع ببطء، حتّى المشفى، ودخلتُ متردّداً ذلك الدهليز الغاصّ بالناس الذين ينتظرون فيه، أو الذين يعبرونه، ويدخلون ويخرجون كعشّ النمل، إنه عيادة ضخمة، ورأيتُ الممرّضات مثيلات إيفا مشغولات دائماً، فلربمّا شعرتُ هي كأنّها في بيتها وسطهنّ. فدنوتُ من نقطة الاستقبال، وسألتُ بلغتي الإنكليزية المقبولة: أين أستطيع انتظار إيفا غارثيا؟ قلتُ وقد تهجّيتُ الاسم، ستُجرى لها عملية جراحية، ولم أستطع الوصول من قبل لمرافقتها. وهنا كذبتُ. ("وينبغي لي الآن أيضاً أن أتذكّر هذه الكنية مقرونة بالاسم الأوّل"، فكّرتُ). كنتُ قلقاً ومضطرباً قليلاً، فما كنتُ أريد أن أصنع شيئاً، ولا أن أصحّح شيئاً، لكنْ، نعم، كنتُ راغباً في أن أظلّ قريباً، وفي أن تستطيع رؤيتي متى خرجتْ من حيث تخرج، وكان المشفى ذا طوابق عدّة. وسألتْني الممرّضة متى أُدخلت؟ فأجبتُها: من ساعة، فسألتْني إن كانت حالتها

إسعافية، فأجبتُها: لا، وإنما هو تدخّل جراحي اتُّفق عليه من قبل، وكان حُدّد لها موعد ذلك الصباح. "هذا محال تماماً"، أجابتْني بينا كانت تبحث في الحاسوب عن كنية غارثيا، كما أفترض. "لو حُدّد لها موعد من أجل العملية اليوم، لكانت أُدخلَت أمس، على كل حال"، قالت: "هو ليس تدخّلاً جراحياً كبيراً"، بيّنتُ لها. رفعت الممرّضة بصرها، وسألتْني عمّا كنتُ أخشى أن تسألنيه: أيّ نوع من الجراحة هو؟ لم أشأ ذِكْر الكلمة، فقلتُ: "قطع حمل"، وقد ترجمت العبارة حرفيّاً، وأنا لا أدري إن كان في الإنكليزية تورية أنسب، لكنها فهمت، وأجابت: "هذا محال. لو كان كذلك، لكانت أُدخلت أمس بلا ريب"، نظرتْ مرّة أخرى في الحاسوب، ولمست مفاتيحه، لترى أسماء المسجّلين في اليوم السابق، وخطر لي ما خطر لكَ، فقلتُ لها أن تبحث أيضاً عن كنية بايّه، كنيتها الثانية. إيفا غارثيا بايّه. "لا غارثيا ولا بايّه، ولا أمس ولا اليوم"، قالت من غير ذرّة من الشّك بعد أن استشارت الشاشة. "لا يوجد في المشفى أحد بهذين الاسمين". "أأنتِ واثقة؟" ألححتُ عليها. "تمام الثقة"، قالت لي ومحت من الشاشة قوائم الأسماء، وما كانت تنوي أن تتحرّى، ولن تقلب الصفحة. ولبثتْ تنظر إليّ. "وهل حضرتكَ زوجها؟" سألتْني. لا أدري إن كان سؤالها علامةً على شعور إنساني، أو ثرثرة مؤقّتة. وإذ لم تكن إيفا هنا، فسواء عليها أيّاً تكن بالنسبة لها. "نعم!"، قلتُ، "شكراً"، وانسحبتُ، ونظرتْ إليّ نظرة حيادية. ومكثتُ في الدهليز من غير أن أعرف ماذا أصنع، وأنا أرى الأطبّاء والممرّضات والمرضى والزوّار يمرّون، وسألتُ نفسي إن كانت إيفا لم تسجّل باسمها، لكنّ ذلك محال، فلسوف تُطلَب منها وثائق. ورأيتُ بعض الزوّار يختفون خلال باب، فتبعتُهم، فرأيتُ قاعة ضخمة، كانت تبدو قاعة انتظار. وكانت غاصّة جدّاً أيضاً، وكان الناس يجلسون على مقاعد مهترئة. فأطللتُ، وألقيتُ نظرة، وكنتُ مضطرباً، ورأيتُها حينئذ من بعيد، كانت إيفا تجلس

هناك، وقد خلعتُ معطفها ومنديلها، وخفّضتُ بصرها، ولمّا دنوتُ، رأيتُها تضع ساقاً فوق ساق، وتقرأ في مجّلة. كانت تبدو هادئة، ولربمّا كان حصل تأخير، لذلك لم تُسجّل حتّى الآن، فكّرتُ، لكنني فكّرتُ في أشياء أخرى كلّما كنتُ أدنو منها. كانت تقرأ مجلّة أسبوعية ملوّنة، ولم ترفع بصرها عنها حتّى صرتُ إلى جانبها، وقد احتكّ معطفي بها. ووضعتُ يدي على متنها. "ماذا تصنعين هنا؟ قلتُ لها"، وشككتُ في أن أضيف: "ألم تدخلي المشفى؟" لكنّي فكّرتُ أن ذلك قد يمنحها مخرجاً أسهل، أو يُغريها بقَصّ أكاذيب أخرى، فأجفلت فزعاً. كانت قد انقضت ساعة طويلة منذ أن افترقنا، وقد حسبتها دهراً، وأُزعجتْ، ووضعتْ يدها على ذراعي، وأطبقت المجلّة فوراً، وحاولتْ أن تنهض، فلم أدعها تفعل واضعاً يدي على كتفها، وجلستُ إلى جانبها، وأمسكتُ بها من معصمها بقوّة، وردّدتُ بغضب: "ماذا تصنعين هنا؟ قيل لي في الاستقبال إنكِ لستِ من نزلاء المشفى، ما معنى هذا كله؟" فنظرتُ إلى جهة أخرى نظرة، انقلبت زجاجية فجأة. "ألن تُجري عملية؟" قلتُ. فنفت بهزّة من رأسها، وتبلّلت عيناها، لكنهما لم تطفر الدموع منهما. "ألن يكون إجهاض؟ ألن يكون قطع حمل؟ ألن يحصل شيء؟" قلتُ. وأخذتِ المنديل عن المقعد المجاور، وشرعتْ تبكي وهي تغطّي وجهها. خرجنا من هناك فوراً مجتازين الدهليز بكل سرعة، وقدتُها ممسكاً بها من ذراعها، أكاد أجرّها جرّاً بخُطاي الواسعة. - توقّف ديئان، ليشرب جرعة، ويُغطّي فمه للحظة مرّة أخرى، وقد أتى عليه وقت، لم يشرب فيه.

"سهلٌ أن تعيش خادعاً أو مخدوعاً" فكّرتُ، "بل أقول أكثر من ذلك: الخديعة وضعنا الطبيعي. لا ينجو منها أحد، ولا يُعدّ أحد بسبب ذلك مغفّلاً، ولا ينبغي لنا أن نُعذّب أنفسنا، ولا ينبغي لنا أن نشعر بالمرارة". هذا ما كان قاله ديئان، وإن أضاف: "ومع ذلك، يبدو لنا أمراً لا يُطاق ما إن نعلم بها أخيراً".

- الحمل رابطة. - قلتُ.

- نعم، صحيح. إنه رابطة، - أجاب ديئان، - لا توجد أدنى رابطة، لأن ما كان يمكن أن يُوجَد، يكفّ عن أن يكون موجوداً، وربّما وُجدت، على العكس من ذلك، رابطة أقوى، ربّما يشدّنا إلى بعضنا البعض رفضُ ما يمكن أن يوجد، ويكون مشتركاً أكثر من القبول به، وإتمامه وتطوّره من غير عائق، فكلّ حرمان وكل إخفاق وكل انفصال أو نهاية هي أوثق رابطة، لأنها الندبة الصغيرة الدائمة كأنّها تذكار بالهجر أو النقص ("أو المنفى"، فكّرتُ)، وهذه الندبة تذكّرنا: "أنا صنعتُ هذا من أجلكَ، وأنتَ مدين لي به". بل نكون على اتّصال أيضاً بما يغيب عن النظر، وبالمُتخيَّل، وبما لا يحدث ("وربّما بالأموات أيضّاً")، فلو لم يعترني القلق، ولو لم أدخل المشفى، لكانت جاءت إيفا المقهى بعد ساعتَيْن شاحبة الوجه، ضعيفة المشية، كأنّها بطلة، اجتازت اختباراً، ولكنتُ عزّيتها عن ذلك حتّى آخر يوم في حياتي، ولكَ أن تخمِّن، لكَ أن تخمِّن أنها قد تضع في حقيبتها اليدوية قطعة من القطن مدمّاة، لتُرينها في لحظة غفلة، وتجعلني أشعر بثقل الدَّين، فالنساء يستخرجنَ الدم من كل مكان ("وأنا رأيتُ ذلك هنا في سلّة القمامة، في بيت زوجكَ مارتا تييّث، رأيتُ قطعة قطن، عليها قليل من دم، لمّا أصبحت ميّتة"). عدنا إلى فندقينا من غير أن ننطق بكلمة واحدة، وتركتُها عند فندقها حتّى إني لم أنزل من العربة، وإنما فتحت باب السّيّارة بصمت، وطردتُها. كنتُ أرغب في أن أظلّ وحيداً، فخرجتُ في نزهة ولشراء بعض الهدايا لمارتا وللطفل ("هي تعويض عن انتظار، أو عُراضة غزو، أو تهدئة ضمير مُعذّب، مَن يدري؟! وصلت كلها متأخّرة جدّاً") ما كنتُ أرغب في رؤية إيفا مرّة أخرى في حياتي، سأراها في طائرة العودة، لكنْ، لا يوجد سبب، كيما نجلس جنباً إلى جنب، وما كنتُ أريد أن أعرف شيئاً آخر عنها. وعدتُ إلى الفندق بعد أن أكلتُ يسيراً

من طعام، وتحدّثتُ في التجارة إلى أحد زملائي الذي كنتُ على موعد معه، وكنتُ عاجزاً عن الانتباه إلى ما يقوله، وكنتُ أجترّ ما أقول، ورحتُ أستذكر الأسابيع الثلاثة التي لبثتُ خلالها مخدوعاً، تذكّرتُ المناقشات والتهديد والتحضيرات والسفر، وما كان أغباني! فكّرتُ، ("ولا ينبغي لهذا الأمر أن يُؤلمنا كثيراً، وإنما هو زمن، يصبح طافياً أو وَهْمياً"). كانت هتفت لي إيفا ثلاث مرّات، ولم أردّ على هواتفها. ولم يخطر في ذهني أن أهتف إلى هنا، وكنتُ شديد الاضطراب حتّى أكلّم مارتا، وكنتُ أوثر الانتظار، وفي ساعة نحس شرعوا جميعاً يبحثون عنّي، إذ كنتَ أنتَ أخذتَ الورقة والعنوان، فلم يستطعْ أحد أن يعرف مكاني. ("أوه! كان ذلك من غير رغبة منّي، وعلى شكل لا إرادي، ومن غير وعي"). خرجتُ مرّة أخرى، ولم يهدأ اضطرابي، بل كان في تصاعد. ذهبتُ إلى مركز المدينة بالمترو، وقمتُ بنزهة مدّة أخرى، وابتعتُ هدايا أخرى، حماقات أخرى، ودخلتُ إحدى دور السينما في ليشستر سكوير، لم أكن أفهم فهماً كافياً، كيما أتابع الفيلم كاملاً، وكان تفكيري ينصبّ على أشياء أخرى، وكنتُ أجترّ ما بي، وخرجتُ والفيلم في منتصفه، ولم أعد إلى الفندق حتّى الثامنة والنصف، فوجدتُ إيفا بانتظاري في الدهليز، لا أدري كم كان مضى عليها من الوقت، وكانت تتصفّح مجلّة. فهبّت واقفة رافعة يديها قليلاً إلى مستوى صدرها، وكأنّها تتّقي ضربة، "دعني أكلّمكَ"، قالت لي، "أرجوكَ، أرجوكَ، دعني أكلّمكَ". لم تكن أكلتْ شيئاً خلال النهار، ولا أنا غير شيء يسير، وإنما قضتْ ذلك النهار محتبسة في حجرتها، كان في مشيتها ضعف، وعلى وجهها مساحب دمع، قلتُ لها إني سأستمع إليها، لكنّ سعيها سيكون عَبَثَاً. وبحثنا عن مكان قريب نتعشّى فيه، وكان الوقت تأخّر إلى حدّ ما في بريطانيا، فركبنا سيّارة أجرة، وقصدنا مطعم بومباي برّاسوري الذي يفتح أبوابه حتّى ساعات متأخّرة، ذلك كَمَن يضيع في مدينة جديدة، ويعود إلى المكان الوحِيد

الذي يعرفه. لكنْ، هذه المرّة من غير تزويق كلام، بل كان في عودتها إلى المكان ذاته انتقام منها، بسبب التكرار. كنتُ غرقت الليلة الفائتة في النوم جرّاء الجهد الكبير الذي بذلتُه. ولم نلتفت هذه المرّة إلى صاحبة البيان، ولا إلى الخَدَم الغريبين، ولا إلى السيناريو، وإنما طلبنا طعاماً، لمجرّد الطلب، في الواقع، كان يصعب علينا أن نذوق لقمة. ولكنا شربنا كوكتيلاً. شربتُ كأساً إثر أخرى، شربتُ حصّتي، وسكرتُ سُكراً شديداً بالكوكتيل وبالبيرة الهندية التي تخالط الجسم سريعاً، ولن يكون سهلاً عليّ النوم تلك الليلة. ولو علمتُ أن مارتا قد فارقت الحياة، لما أبغضتُ الممرِّضة بغضاً شديداً، بل لكنتُ صفحتُ عنها يقيناً، ولكانت ظلّت لي وحدها في الوقت الحالي. وأنتَ تعلم نحن أكثر فهماً، لما يظلّ ويبقى.

- عمّا تكلّمتُما؟ ماذا قالت لكَ؟

نهض ديئان، وكأنّما حرّكتْهُ أسئلتي، وعاد إلى وضعه الأوّل مستنداً إلى الرّفّ بمرفقه، وواقفاً وقفة ديكورية، فقد كان رجلاً ناحلاً وطويلاً. ازداد وجهه قتامة، وكانت تبدو ذقنه القويّة هاربة، واستشاطت عيناه بلون البيرة، كما بدتا، لمّا غادر المطعم من غير أن يدعه تييّث يدفع الحساب، لكن الجوّ خلا الآن من اللون المخضرّ لأيّة عاصفة، وإنما يسود ضوء كهربائي، والضباب ينتشر خارج البيت، وضوؤه في المدينة ضارب إلى الصفرة أو البياض أو الحمرة، حسب الحال.

- لم تقل شيئاً. وماذا كانت ستقول؟ حاولت تهدئتي، وشرحت لي، وحاولت أن تسوّغ ما لا يمكن تسويغه. وكأنّ الحبّ الذي نُوليه أحداً ما يسوّغ الأمور، هناك مَن يؤمن أن حدّة المشاعر ضمانة له، والمشاعر المهتاجة تُخطئ السبيل إلى التّصرّف السليم. ولو أني علمتُ ما كان يحدث هنا، لربّما كنتُ نظرتُ إلى الأمر هذه النظرة أيضاً. لكن الأخبار جاءتني متأخّرة.

- لا يوجد تصرّف سليم، ولا نعلم بوجوده قطّ. - تجرّأتُ على إبداء الرأي ربمّا على شكل غير موائم. فقد أخذ يزول عنّي أثر المخدّر، فلم أكن يقظاً جدّاً، على الأقلّ حيال نفسي.

- نعم، وأنا لا أستطيع أن أكون راضياً عن تصرّفي، ولا أنتَ عن تصرّفكَ.
- سلبني ديئان لفافة أخرى، أشعلها هذه المرّة من غير إبطاء، فسحب نَفَسَيْن متتاليَيْن، أرجّح أنه لم يكن مدخّناً، وكان يدخّن الآن، ليصاحب نشاطه القصصي بحركة فيزيقية. فَمَن يقصّ لا يتحرّك تقريباً، وهذا ما فكّرتُ فيه، وبذلك يكون كلامه كأنّه ذكرى، كان لديه أفكار، وما كان يعرف أن ينظّمها، لكنْ، مَن منّا يعرف أن ينظّمها؟! - وجهدتْ في أن تشرح طريقتها، طريقة تفكيرها، ولم تكن بحاجة إلى ذلك، فأنا كنتُ أعلم هذه الطريقة، كانت تراني أبتعد عنها، أو أحاول الابتعاد عنها، وما كانت تريد أن تفقدني، فساورها اليأس، ما إن تخيّلتْ ذلك، ففكّرتْ في أن تحمل، لكنْ، لم يكن سهلاً عليها، سبق لي أن قلتُ لكَ إني كنتُ محتاطاً لنفسي. ولم تكن تثق بجسدها ذاته، كيما تحتجزني، وعام واحد مدّة ضئيلة، لكن عامين يكفيان لإنهاكها، فتسلّم بالأمر. قالت إن قلبها كان ينفطر حين كانت تراني نافد الصبر، كيما أغادر بيتها، وأعود إلى بيتي. لم يكن الوضع كذلك في البداية، فكنتُ أحسّ بالأسى متى اضطُررتُ للذهاب، ويحتمل أني كنتُ حينئذ المُتعلّق بها، وكان يشقّ عليّ في الواقع أن أودّعها، وكان ذلك بعد قليل من معرفتي بها، لا أكاد أتذكّر الآن ("قُبَل مَن يذهب صوب الباب يقطفها ممّنْ يظلّ، تختلط مع قُبَل أوّل أمس قُبَل بعد غد، والليلة الافتتاحية المشهودة كانت ليلة وحيدة، ضاعت فوراً، وابتلعتْها الأسابيع والشهور المكرورة التي حلّت محلّها") هكذا كان وضعي، لكني لا أتذكّره. والآن صارت تراني مختلفاً مثاراً وجافّاً، قالت. وكأنّها تحوّلت بغتة إلى امرأة مجهولة. يبعث على الحيرة والحزن أن تتغيّر الأشياء كثيراً

من غير أن يتغيّر المرء حيالها ("أنا لا أعرفكَ، ولا أعرف مَن أنتَ، ولم أركَ في حياتي، لا تطلبْ منّي شيئاً، ولا تتملّقني، لأني أصبحتُ غير ما كنتُ، ولا أنتَ أيضاً ما كنتَ، هذا ما يُقال دائماً، يقال من قبلُ، ومن بعدُ")، ثمّ خطرت لها هذه المهزلة، ففكّرتْ في أن الإجهاض سيشدّنا إلى بعضنا بعضاً، فأُعجب بتضحيتها، وأُقدّر رفضها للحمل تقديراً كبيراً، ولمْ يكن هذا التفكير سيّئاً، ولكان الأمر كذلك يقيناً، لو كنتُ أكثر رزانة، ولو أتممتُ قراءة صحفي طائعاً من غير أن أتحرّك من المقهى، إذ كنتُ وعدتُها بألا أتحرّك من هناك إلا إذا احتاجت إليّ، ولبثتُ حقّاً ما يزيد عن ساعة متظاهراً بأني كنتُ أقرأ، لكني كنتُ أفكّر فيها، وفي يد الطبيب في جسمها، وفي أشباه ذلك، كانت ساعة طويلة عليّ جدّاً، وهي أيضاً كانت تقرأ مجلات، ولستُ أدري، إن كانت تفهمها.

"مَن يقصّ يعرف أن يسوّغ نفسه عادة"، فكّرتُ، "القَصّ هو والإقناع أو الإفهام أو التبيين سواء، وهكذا يصبح بالإمكان إدراك كل الأشياء حتّى أتفهها، ويمكن الصفح عن كل شيء، إن وجد ما يمكن الصفح عنه، ويمكن الإغضاء عن كل شيء، أو تمثّله، أو الإشفاقُ عليه. هذا ما يحدث وينبغي لنا أن نتعايش مع هذا الحدث، ما إن نعلم أنه حدث، ونبحث له عن مكان في ضميرنا، وفي ذاكرتنا، فلا يحول بيننا وبين متابعة الحياة، لأنه حدث، ولأننا نعلم حدوثه". وفكّرتُ أيضّاً "حتّى يستطيع المرء أن يقع موقعاً حسناً، إذا قصّ".

- أحسبني أفهم ما أحسستَ به، أحسب بإمكاني أن أفهمكَ. - قلتُ له.

- لمّا خرجنا من المطعم، هبّت عاصفة، تتخلّلها ريح، وكنتُ أسير مترنّحاً من الشرب، وهي أيضاً من يأسها أنْ رأت أعذارها ورجاءها لا تفيد شيئاً، ولا تثنيني، وقد اقتصرتُ على إجابتها بقسوة وسخرية، لأنها، في

الواقع، لم تحرّك مشاعري تلك اللحظة. ثمّ ... لكنْ، فات الوقت. - التزم ديئان الصمت، فلم أقل شيئاً هذه المرّة، ولم أطرح سؤالاً في أثناء صمته، ولو مستتراً. وكان وجهه حينئذ وجه منطوٍ على نفسه، يمكن أن نتوقّع منه كلّ تحوّل، أو أي تشوّه. وكانت عيناه النجلاوان مصوّبتَيْن نحوي، لكني لم أحسبهما تحطّان عليّ، وإنما تحفّان بي حفّاً، أو تمرّان من فوق رأسي، خفّض ذقنه المتمرّدة كأنّها سيف كليل. - كنتُ أكرهها - قال. كنتُ أكرهها، ومع ذلك، ما كنتُ لأكرهها هذا الكره، لو علمتُ، بل لربّما كنتُ تعاطفتُ وهزليّتها، ولصفحتُ عنها. مسكينة إيفا! مسكينة مارتا! - وكان الميل أو التّحوّل البادي يتّجه صوب الشفقة، ويرافق كلماته. - وتبلّلنا خلال ثوان قليلة، خرجنا إلى حرف الرصيف، لنركب سيّارة أجرة، فلم نجدها، وقد كان الوقت تأخّر قليلاً بالنسبة لبريطانيا، وما إن تمطر حتّى تختفي السّيّارات. وكان المترو يبدو مُغلَقاً، ولم نقترب منه كيما نتحقّق، وسرنا خطوات من غير اتّجاه محدّد ربّما مبتعدين عن اتّجاهنا الحقيقي، ومرّت سيّارة شاغرة، فلم تشأ الوقوف، لمّا رأتنا، فلربّما كانت خطواتنا الضعيفة توحي بعدم الثقة، وأحسبني كنتُ أترنّح كلّما وقفنا، ويعود إليّ التوازن كلّما سرنا. واحتميتُ كما استطعتُ بياقة معطفي المرفوعة، أما هي، فغطّت عَبَثاً رأسها بمنديل هدية منّي إليها، وظلّ ملتصقاً بشعرها المبلول، وبذلك لم تنفشه الريح على الأقلّ. أرادت أن تحتمي بظُلّة بناء، وننتظر، فأمسكتُ بها من معصمها، وسحبتُها، ولم أسمح لها بأن تحتمي. ولم يكن المطر قوياً كما الريح، بل كان يهطل طشّاً متناثراً، وكان الشارع خالياً. وقفتْ أمام الإشارة حافلة حمراء ذات طابقين، كانت في طريقها إلى المبيت في آخر رحلة لها، وكان مدخلها من غير باب دعوة للصعود، أفلتتْ إيفا منّي للحظة، وصعدتْها بقفزة واحدة، وتبعتُها، وصعدتُ أيضاً متشبّثاً بالقضيب المعدني، لمّا أقلعتْ، وما كنّا نبالي بأيّ اتّجاه سارت، فقد كانت رأت

هي فيها ملجأ. دفعتُ ثمن تذكرتَيْن للجابي الذي كان هندياً أو باكستانياً: "حتّى نهاية الخطّ"، قلتُ له، وهو أسهل شي أقوله. صعدنا الطابق الثاني الذي لم نجد فيه أحداً، وكان في الطابق السفلي راكبان فقط، أو هذا ما بدا لي عَرَضَاً بينا كنتُ أصعد السّلّم الحلزوني، وجعلتُ إيفا تصعده دفعاً. "أأنتِ حمقاء؟ أم مجنونة؟" قلتُ لها، "لا نعرف إلى أين تسير الحافلة"، "وما الفرق؟"، أجابتْ، "أيّ شيء خير من البقاء في الشارع وسط العاصفة. فإذا وجدنا منطقة حركة السير فيها أنشط، ننزل. وسنلقى هناك سيّارة، أو إذا خفّ المطر، فأنا مبلّلة. فماذا تبتغي؟ أتريد أن نصاب بالتهاب الرئة؟". جلستْ وهي تخلع المنديل، وتجفّف الشعر المبلّل قليلاً، وتنفشه، وأخرجتْ منديلاً ورقياً من حقيبتها، وجفّفت وجهها ويديها، كما استطاعت، وناولتْني منديلاً، فلم آخذه، ولم أجلس إلى جانبها، وإنما جلستُ وراءها، كما يجلس سوقيّ، لينكد مَن يقع ضحيتّه، وقد زادتْني الريح هياجاً، وأثارتها هي أيضاً شيئاً يسيراً، بل إن الريح تبعث على الجنون، إذ ما لبثتْ أن تجاسرت على إجابتي بألفاظ نابية. وكانت رائحة معطفينا رائحة صوف مبلول، رائحة مقرِّزة، كانت حركة السير مخلخلة، وكانت الحافلة ذات الطابقين تندفع سريعة تحت المطر شأنها ليلاً، مثيرة ضوضاء كقرقعة عظام عند المحطّات، أو أمام الإشارات الضوئية، وكانت تحتكّ من حين لآخر بأغصان الأشجار التي تيجانها بمستوانا، كأنّها فرقعة سياط حيناً، وحيناً آخر كنقرات على الطبل، إذا كانت الأغصان كثيرة ومتتالية، وتتحرّك كأذرع، أغضبتْها الريح عند هبوبها، "وأنا كنتُ أسأل نفسي دائماً كيف ستتحاشى أغصان الأشجار التي تطلع من الأرصفة، وترتطم بالنوافذ العالية، وكأنّها تريد أن تحتجّ على سرعتنا، وتنفذ، وتخدشنا" فكّرتُ، "ولا أدري إن كان هذا التفكير تفكيري أم تفكير مارتا تيّيت، أو على الأصحّ، كان مجرّد ذكرى"، كانت إيفا تنشر شعرها

المجعّد أمامي وكأنّه قطعة قماش، وسبق لي أن رأيتُها تصنع ذلك مرّات كثيرة، وهي تلبس البرنس خارجة من الحمّام، وما كانت تلتفت، بل أولَتْني متنها ("القفا")، وساورتْني فكرة في أنها تتّخذ منّي موقفاً مهيناً، ربّما كان تغييراً في التكتيك، وأصبحت لا تتوسّل، أو ربّما حسبت ما صنعتُه ليس شيئاً خطيراً، وكانت تحاول أن تلعب بورقة أخرى، لمّا لم تبقَ أوراق في يدها. ربّما كانت تفكّر أنني تماديتُ في انتقامي، وصار من حقّها الآن أن تُحاسبني على سخريتي منها، وسوء معاملتي لها ذلك النهار كله (كل شيء يتجعّد، أو يتلطّخ، أو يُساء علاجه). لذلك سمحتْ لنفسها بأن تُجيبني غاضبة، ولم أستطع تحمّل ذلك منها، وكانت فكرتي: أنّى لها هذه الجرأة؟ وكنتُ أفكّر فيها وبأشباهها. ("وأصعب شيء أن يتحوّل إلى ماضٍ مَن يتذكره المرء على أنه مستقبل قادم")، كنتُ سكرانَ، لكن السُّكْر لم يكن عذراً، يمكن للمرء أن يكون سكران بأشكال شتّى، كما يمكن له أن يكون ممسكاً عن الشرب. وما أقدمتُ عليه كان عملاً غير مخطّط له، لكنه كان إرادياً، وكان في ما كنتُ أنوي القيام به شيء من الوعي، لأنني فكّرتُ في أن أحداً لم يكن يراني، لا من الشارع، ولا من الطابق الأدنى، وإن كانت توجد مرآة دائرية محدّبة في الحافلات، يستطيع منها الجابي أن يرى ما يجري في الطابق الأعلى. لكنْ، للوصول إلى ذلك، ينبغي له أن ينظر إليها، وذلك الهندي أو الباكستاني ما كان ينظر إلى شيء في هذه الرحلة الأخيرة من العمل، ولسوف يكون متعباً، والتعب لا يبعث على الفضول. واليوم صارت تُوضَع في بعض الحافلات آلة تصوير لمراقبة هذا الطابق العلوي بدلاً من المرآة. لكن تلك الحافلة ذات الرَّقْم 15 أو 16 أو رَقْم آخر، كانت خالية منها، وأرجعتُ البصر كرّة أخرى، لكي أتحقّق منها، فلم أجدها، لذلك أعلم أني فكّرتُ في نفسي، وفيما يأتي بعد، وفي النتائج المحتملة ("فكّرتُ في الغد")، لذلك أيضاً أعلم أني كنتُ أعلم ما كنتُ أصنع، لمّا

وضعتُ يديّ على رأسها، وضغطت عليه من الجانبين بعنف شديد (ضغطتُ على وجنتي، وعلى صدغيّ، على صدغيّ البائسين)، ثبّتُها وضغطتُ، حائلاً بينها وبين أن تلتفت، وصارت خصلات شعرها الرطب والمقصوص تحت يدي (يدي الضخمتَيْن ذات الأصابع الجافية القاسية، أصابعي مثل مفاتيح البيانو)، لأنها الآن أرادت حقّاً أن تلتفت، وأصبحتْ لا تستطيع، كانت ما تزال تحسب للحظة أن هذا كان مبالغة منّي أو مزاحاً، وكان ما يزال لديها فسحة من الوقت، لتقول لي بغيظ: "آي! ماذا تصنع؟ اهدأ!"، ثمّ ما لبستْ أن أحسّت بأن الأمر جدّ، فقد ألحقتُ بها ضرراً، لا شك أني ألحقتُ بها ضرراً كبيراً بإبهاميّ في ثانيتَيْن من الوقت فقط. كان بمستطاعي أن أحطمّ صدغيها لو تابعت الضغط عليهما، لكني أنزلتُ يدي بسرعة حتّى عنقها ونقرتها المبلّلتَيْن أيضاً، لكي أمنعها من الصياح (رقبتها التسع عشرية التي تجري عليها شرائط، أو خيوط من الشعر الأسود الملتصق كأنّه دم في سبيله ليجفّ أو طين). وضغطتُ أيضاً على عنقها، وكان الضغط الشديد على صدغيها أفقدها الإحساس تقريباً. وكانت خارت قواها، ولم ألحظ مقاومة تقريباً من يديها اللتَيْن حاولتْ بهما أن تفكّ قبضة يدي من غير اقتناع ("كالأطفال الذين لا يقاومون الأمراض السريعة والعنيفة التي تجرفهم من غير أدنى جهد")، ولسوف تظلّ مَرمية على مقعد في حافلة لندنية، ستتابع سيرها الليلي في مواجهة الريح والمطر، أمّا أنا، فلسوف أنزل منها، فلا يوجد باب يحول بيني وبين النزول ("هو موت إنسان أجنبي، موت رهيب، وفي جزيرة")، ما كنتُ أرى وجهها، ما كنتُ أرى عينيها، وإنما أرى رقبتها وشعرها فحسب بينا كانت ستموت خلال مدّة بسيطة جدّاً (لا تختفي أناي الحاضرة فقط، وإنما مَن كنتُ، وليس أناي فحسب، وإنما ذاكرتي كلها، وكل ما أعرفه وتعلّمتُه وذكرياتي أيضاً، وكلّ ما رأيتُ، وألف شيء وشيء مرّت أمام عيني، ولا تهمّ أحداً، ولا

ينتفع بها أحد، وتصبح معدومة الجدوى إن متّ). لا أدري إن كانت فرملة الحافلة وهي تصرّ، ووقوفها زافرةً زفرةً كبيرةً، ما جعلني أكبح أصابعي، وكأنّ عملي مُعلّق بسير الحافلة، وهبوب الريح التي أصبحت لا تلطم ما أمسى ساكناً. أو ربّما كان الخوف أو الندم ظهر متزامناً والتّصرّف الذي يثيره، ("نعم، ولا، وربّما، وبينا استمرّ مريرها كلها، أو زالت"). أرخيتُ قبضتي فوراً، وسحبت يديّ، وخلّيت عنها فجأة من غير أن أنزع منها الحياة ("لكنْ، لمّا يحنِ الحين، لمّا يحنْ، أمَا وإنّ الحينَ لم يحنْ، فأستطيع أن أظلّ مفكّراً في المعركة اليومية، وناظراً إلى هذا المنظر الأجنبي، وأضع خططاً للمستقبل، ويمكن للمرء أن يظلّ مودّعاً")، ووضعتُهما في جيبي معطفي فوراً، وكأنّي أريد أن أخفي أو أمحو ما كانتا على وشك أن تصنعاه، ولم تصنعاه، فالأفعال ليست أفعالاً، إذا لم تدم مدّة كافية من الزمن، وهي منوطة بنتائجها ("خيط الاستمرارية غير المقطوع، خيطي الحريري الذي لمّا يُمَسّ، لكنه من غير توجيه: هاكم يوماً آخر، ما أتعسه! هاكم يوماً آخر، ما أسعده!") وظلّت إيفا على قيد الحياة بدلاً من أن تكون ميّتة، ("وأنا لا أدري مغزى هذا ولا ذاك، ولا أفهم الآن هذه الكلمات")، ونهضتُ ودرتُ لأراها مواجهة، ونظرتُ إليها من علوّ قامتي، وكان الإهمال جعل ساقيها شبه منفرجتَيْن، ورفعتُ رأسها الذي أُسيئَت معاملته، وأصابه الضرر، ونظرت إليّ للحظة، ورأيتُ مطبوعاً في عينيها وجهي والليل البهيم والضعف والحزن والإنهاك أكثر من انطباع الخوف أو المقاومة ("من غير السلوان الذي يجلبه عدم اليقين، سلوان قد لا يرتدّ أحياناً إلى الماضي، وإن بدا الحاضر الذي مضى حديثاً كأنّه ماضٍ سحيق") وكأنّها تحزن أن أكون من بين الأحياء مَن حاول قتلها، وأراد لها هذا القتل أكثر ممّا تحزن لموتها الذي كان وشيكاً، ورأتْه عن كثب. ("إنه احتقار الميّت لموته ذاته في مواجهة تفوّق الأحياء البائس، وغرورنا المؤقّت: لبثتُ فترة

جد طويلة إلى جانبكَ، يا بنيّ، يا حلو، وأنا أتعبكَ")، هبّت حينئذ تنزل الدرج ركضاً غير آبهة بكعبي حذائها العاليَيْن الذي انتعلتْه، لمّا جاءت لانتظاري في الفندق، وتتوسّل إليّ، هبطتْ السّلّم الحلزوني راكضة، وقفزتْ قبل أن تستأنف الحافلة سيرها، لا أدري أين كنّا، ولا في أي شارع، ولم أتبعها، وإنّما فتحت النافذة الصغيرة التي دخلت منها هبّة هواء مصحوبة بمطر متطاير، وأطللتُ لأراها وهي تقفز، ("وما أزال أرى العالم من علٍ")، وكانت الحافلة أقلعتْ، واكتسبتْ اندفاعاً، لمّا رأيت من النافذة الخلفية التي انتقلتُ إليها معطفها وحذاءها اللذين لم يكونا معطف طفل ولا حذاءه مُلقى على الإسفلت، ورأيتُها تحاول اجتياز الشارع مضطربة هاربة منّي، فقد كنتُ أستطيع أن ألحق بها، وأُجهز عليها، أو ربّما هاربة من الألم الذي أحسّتْ به، وعاينتْه. حاولت اجتيازه من غير أن تنظر، وكانت ما تزال تعيقها الحافلة التي انطلقتْ، لكنها لم تبلغ أن تجتازه، ولم تصل الرصيف الآخر، فقد صدمتْها سيّارة أجرة سوداء ذات عجيزة، وكانت تنطلق من الجانب الآخر، لأن حركة السير في لندن تجري عكس اتّجاه حركة سيرنا، وكانت من طراز أوستن، كأنّها خرتيت أو فيل، رأيتُها من النافذة الخلفية بأمّ عيني بينا كانت الحافلة تبتعد بي عنها، رأيتُ الصدمة الرهيبة، وكانت شديدة حتّى لم تدفع بها إلى فوق، وإنما باتّجاه مستقيم على مستوى ارتفاع مقدّمة السّيّارة التي صدمتْها، ورأيت كيف أن السّيّارة لم تستطع الفرملة حتّى بعد أن صدمتْها وإنما مرّت من فوقها بعد أن سقطتْ على رأسها. كانت ضربة مُميتة صاعقة، ولم تعلم بها حافلتي، ولم تشأ أن تعلم، بل تابعتْ سيرها مكتسبة تسارُعاً في كل متر، ربّما لم يسمعه السائق ولا الهندي النعسانين، أو ربّما سمعاه، وفكّرا في أنهما سيتأخّران جدّاً في إنهاء مهمتّهما، إن وجدا نفسيهما متورّطين في حادث سير، لم يرياه، ولم يكن لعربتهما شأن به. وآخر ما رأيتُ قبل أن تنعطف الحافلة، ويغيب

المشهد عنّي، كان سائق السّيّارة وراكبيها الذين وقفوا أخيراً، وفتحوا الأبواب، وهرعوا صوب الجثّة. كانت المرأة والرجل يحتميان من المطر بصحيفة، أمّا السائق، فكان يعلم أن المصاب أمسى جثّة، لأنه كان يحمل بيَدَيْه نوعاً من دثار، ليغطّيها به، ولسوف يغطّي الوجه أيضاً، وفكّرتُ في أنها لن تتبلّل بعد اليوم على الأقلّ (لكنْ، سيبدأ بالمقابل انطلاق رائحة التّفسّخ). أنا لم أصنع شيئاً، أي إني لم أنزل في المحطّة التالية، أو عند الإشارة الضوئية، كيما أرجع على عقبي، وأتحقّق ممّا كنتُ أعلمه، أو لأرافق جثّة إيفا ميّتة، وأساعد في إنجاز الإجراءات الرسمية. ولكنتُ صنعت ذلك، لو كنتُ أعلم ما كان حدث هنا منذ عشرين ساعة سابقة تقريباً، بيد أني كنتُ ما أزال على غير علْم بذلك، لكنْ، كلا! هذا غير صحيح، فما كنتُ لأنزل من الحافلة أيضاً، ولو علمتُ، بل لكنتُ نفضتُ يدي من الأمر. فأنا لم أقتلْها بالمعنى الدقيق، وإنما قتلتْها سيّارة أجرة، لكني كنتُ أسعى لهذا الموت، وكنتُ أريده منذ دقيقة سابقة، والآن صار الموت واقعة بإرادتي المضطربة، وإن لم يكن بيدي. ("لم تمتْ حتف أنفها"، فكّرتُ، "ومسألة موت أحد وبقاء الآخر حيّاً يجعله يحسّ كأنّه مجرم مدّة لحظة واحدة، أو مدى حياة كاملة، ويا لها من لعنة! والآن، لا بدّ لي من أن أتذكّر أيضاً هذا الاسم الذي لا أعرف وجه صاحبته: إيفا غارثيّا بايّه"). وربّما كانت تلك إرادتها إرضاء لإرادتي، كيلا تظلّ فائضة عن الحاجة. ("الإرادة التي تتنحّى جانباً، وتتعب، وإذا ما انسحبت، تجلب لنا الموت، وكأنّ العالم لا يطيق وجودنا، وهو على عجلة، كيما يطردنا"). وبينا كنتُ أبتعد تلك اللحظة، وأصبحت لا أرى شيئاً، فكّرتُ على وجه خاصّ أن أحداً لم يكن يعلم أنها كانت بصحبتي. فقد ابتعنا البطاقتَيْن، كلّ منّا على حدة، ونزلنا فندقين مختلفين، ولم تدخل المشفى لعدم وجود سبب لدخولها ("الجريمة أو قتل إنسان، تُرتكَب ببساطة وكأنّها رابطة تافهة

وسطحية - وهناك روابط أخرى - ترتبط بالجرائم التي نُسيَت، أو بتلك التي ليس لها ثبات، وبالجرائم التي تُحضّر، وبالجرائم التي تقع، وإنما كيلا تقع فحسب"). موتها كان موت سائحة من البرّ القارّي، لم تنظر هي الأخرى إلى الاتّجاه المناسب في لندن بعد أن نزلت من الحافلة، لم تنظر إلى الجهة اليسرى، وحاولت قَطْع الشارع ناسية اتّجاه حركة السير المعكوس. ("موت مضحك، موت غير متوقّع، موت مَن كان في مدينة مصادفة كَمَن تسحقه أو تحصد رأسه شجرة شقّتها صاعقة في جادّة كبيرة في أثناء العاصفة، ويحدث هذا أحياناً، ونكتفي بالقراءة عنه في الصحف، ونحن نضحك"). هي امرأة مجهولة الهوية، ولم يكن لها أدنى صلة بي، وألقيتُ ببطاقة الحافلة من النافذة الصغيرة، ولن يستذكر الباكستاني أني كنتُ دفعتُ ثمنها وتذكرتي، حتّى لن يكون لديه سبب، كيما يتذكّرها، وفوق ذلك، أنا لم أصنع شيئاً، ولم يصنع أحد شيئاً، بل كان مجرّد حادث سير، كان نكبة عليها، ها هو منديلها الذي تركتْه على المقعد، وما يزال مبلّلاً، وما تزال رائحتها تعبق به، وكذلك رائحة شعرها الأسود، ("تبقى رائحة الأموات حين لا يبقى منهم شيء. تبقى ما بقيت أجسامهم، وبعد غيابها أيضاً، وبعد أن تحتجب عن النظر، وبعد دفنها وتواريها: فلأكنْ رصاصاً في جوفكَ، ولأثقلَ على روحكَ الدامية المجرمة غداً"). حفظتُه في جيب معطفي، وما أزال أحتفظ به. لزم ديئان الصمت، ثمّ أضاف فوراً: - هذا ما حدث لي، ولا أدري إن كنتَ تفهمني. "وكل شيء ينتقل بالعدوى بسهولة بالغة، ويمكننا أن نقتنع بكل شيء، ويمكن لرأينا أن يُستصوَب دائماً، ويمكن لكل شيء أن يُقَصّ، إذا رافقه التمجيد أو المسوّغ أو السبب المخفّف، أو تمثيله ببساطة. والقَصّ ضرب من الكرم، وكل شيء يمكن له أن يحدث، وكل شيء يمكن الإفصاح عنه، والقبول به، ويمكن الخروج من كل شيء بسلام، وحتّى من غير ضرر. فلا يصنع أحد شيئاً وهو على

قناعة بعدم عدالته، ليس ساعة صنعه فحسب، بل ساعة قَصّه أيضاً. فما أغربها رسالة أو مهمّة هذه! وما يحدث لا يحدث تماماً، إذا لم يُكشَف النقاب عنه، أو يُقال، أو يُعلَم! ويمكن للوقائع أن تتحوّل في أثناء ذلك إلى فكرة فحسب، إلى ذكرى فقط، إلى لا شيء. لكنْ، مَن يقصّ في الواقع، يقصّ دائماً في وقت لاحق، وهذا ما يسمح له بأن يضيف، إن شاء، لينأى بنفسه: لكني خلّفتُ ورائي أناي القديمة، وأنا لستُ بعدُ مَن كنتُ، ولا ما كنتُ أيضاً، وأنا لا أعرفكَ، ولا أتعرّف إليكَ. وأنا لم أبحث عن ذلك، وما أردتُه. ومَن يستمع، يمكنه بدوره أن يستمع حتّى النهاية، بل يمكنه أن يقول ما كان دائماً خير جواب: لا أدري، هذا لا يعنيني، سننظر في الأمر").

- أحسبني أفهمكَ. ماذا جرى بعدُ؟ - قلتُ. - يجب عليّ أن أنصرف، وأنا ذاهب.

لم يكن ديئان تحرّك منذ مدّة من الزمن. ولمّا سألتُه هذا السؤال ضبط عقدة ربطة عنقه، وشرع يرخي كُمّي قميصه، وكأنّه يتأهّب للبس سترته، ويكون بذلك هو مَن يتأهّب للانصراف، في حين كان ينبغي لي أن أنصرف "أنا سأذهب"، فكّرتُ، "استمعتُ إليه حقّاً، ولن أنسى".

- نزلتُ عند إحدى الإشارات بعيداً عن موضع الحادث، وفي منطقة ما تزال حركة المرور فيها نشيطة، وقد خلت الحافلة من كل راكب، ورأيتُ ذلك بمؤخّر طرفي، لمّا ظهر لعيني الطابق الأدنى مدّة ثانية واحدة، كانت بين وقوفي على الدرجة الأخيرة من السّلّم وقفزتي إلى الشارع. وقفتُ على الرصيف وأنا على يقين من أن الجابي لم يتنبّه إلى ترجّل أحد من الحافلة، في مكان غير موائم. وعثرتُ من غير صعوبة على سيّارة أجرة، وذهبتُ إلى الفندق. وكفّ المطر عن الهطل مسافة الطريق. وهدأت الريح أيضاً،

وزال عنّي السُّكْر الناجم عن الكوكتيل الهندي، صعدتُ حجرتي، فلم أجد رسائل، وشغّلتُ التلفاز، ونظرت إليه دقائق معدودات، وأنا أقلّب الأقنية، ولم أكن أفهم شيئاً ممّا تقول تقريباً، وهكذا نهضتُ من السرير، ورفعتُ النافذة، واستندت إلى الإفريز بمرفقي، ولبثتُ أنظر منها مدّة طويلة، على الرغم من البرد، مدّة لا أدري كم دامت ("ينظر ديئان من النافذة المنزلقة الشتوية خلال الظلام المهيمن حينئذ على لندن، صوب الأبنية المحاذية أو صوب حجرات أخرى، معظمها مظلم في الفندق ذاته، صوب حجرة مسنّمة مضاءةٍ، تخصّ خادماً سوداء، وتخلع ثيابها بعد يوم عمل، تخلع العصابة والحذاء والجوربين والصدار والزّيّ الرسمي، ثمّ تغسل وجهها وإبطيها في مغسلة، فيرى حينئذ امرأة شبه كاسية، شبه عريانة، لكنه، خلافاً لي، لم يمسسْها، ولم يعانقها، ولا شأن له بها، امرأة تغتسل قبل أن تضطجع شيئاً يسيراً وعضواً عضواً على الطريقة البريطانية في مغاسل الغرف البريطانية البائسة التي ينبغي لشاغليها أن يخرجوا إلى الممرّ، ليتقاسموا الحمّام وشاغلي الطابق الآخرين. ولم يشمّ ديئان رائحتها من نافذتها البعيدة والعالية، لكنه قد يكون عرف رائحتها، فلربّما لقيها هذا اليوم أو هذا المساء، في هذا الممرّ أو عبر الدرج، وهو يخطو خطاه المسمومة. ويسمع رنين الهاتف في حجرته يتعالى، ويُفزع خلال الليل هذه الموظّفةَ التي شبه كاسية وشبه عارية، وسينبّهها إلى أنها ربّما كانت بمرأى، فتخطو خطوات وهي بالسراويل الداخلية وحاملة الثديَيْن على صدرها حتّى نافذتها، وتفتحها، وتطلّ للحظة وكأنّها تريد أن تتحقّق من أن أحداً على الأقلّ، لا يتسلّق صوبها، فتُغلقها، وتُسدل الستائر بحرص كبير، فلا ينبغي لأحد أن يراها وسط وحشتها أو تعبها أو انحطاط قواها، لا شبه كاسية ولا شبه عريانة ولا جالسة أيضاً عند قَدَم السرير، وكُمّا الزيّ الرسمي مقلوبان ناشبان بمعصميها، ولربّما شوهدت على هذا الوضع من غير أن

تتنبّه بينا كانت تمشّط شعرها، وتدندن بشيء لا يمكن معرفته، أو تدندن بنحيبها الجنائزي الكئيب كأنّها Banshee" أو جنّيّة ما تزال شابّة، دندنة الموت المتعب المفترى عليه، يُطلق نبوءته حول الماضي وكرّ الزمن الخالي من المنطق. لا أعلم ذلك كله، وهذا لا يعنيني وسنرى، أو على الأصحّ، لن نعرف شيئاً أبداً، ومارتا ميّتة، لن تعلم شيئاً عمّا حدث لزوجها في لندن تلك الليلة، بينا كانت تُنازع إلى جانبي، وإذا ما عاد بهداياه، لن تكون على قيد الحياة، لتستمع إليه، ولا لتتلقّى الهدايا، لتستمع إلى القصّة التي كان عزم على قَصّها عليها. ولربّما كانت قصّة مُختلقة ومختلفة جدّاً عمّا سمعته. والميّتة التي تنتابه وتترصّده وتتردّد إليه هي ميّتة أخرى، إنها ميّتته التي تقطن فكره، كما تقطن الميّتة فكري كخفقان لا يكفّ، لا في اليقظة ولا في النوم، امرأته التعسة وعشيقته التعسة تختلطان ببعضهما، وتسكنان كلاهما رأسينا، لنقصّ في الأماكن المريحة، مصارعتَيْن في مواجهة ذوبانهما وراغبتَيْن في أن تتجسّدا في الشيء الوحيد الذي ظلّ بحورتهما، حفاظاً على الفعالية والاتّصال بتكرار غير محدود، وانعكاس غير محدود، لما صنعتاه ذات مرّة، أو لما حدث ذات يوم: لا محدود، لكنه يزداد كلّ مرّة تعباً وضعفاً. وميّتته كميّتتي لا تسكن الماضي البعيد، ولم تكن متسلّطة ولا عدوّة، لكنّ درجة لا واقعيّتها في ازدياد). إلى أن رنّ الهاتف بعد عشرين ساعة. هناك أشياء ينبغي للمرء أن يعرفها فوراً، لئلا يظلّ دقيقة واحدة وهو يفكّر تفكيراً خاطئاً أنّ العالم ما يزال هو هو حيالها. ("العيش في الخديعة سهل، بل هو وضعنا الطبيعي"، فكّرتُ مرّة أخرى، "ولا ينبغي لنا في الواقع أن نألم كثيراً: ولسوف تظلّ تسمع صوت بيثْنته الذي يحلق، ولسوف تظلّ على اتّصال به").

- أنا ذاهب. - قلتُ الآن. قد كنتُ قلتُ هاتَيْن الكلمتَيْن مرّة أخرى في هذا البيت، لكنْ، ليس المرّة الأخيرة قطّ. فأنا لم أقلْ لأحد قطّ "أنا ذاهب"، لم أقلْ. وبينا كنتُ ألبس لفاعي ومعطفي قرب المدخل، نظرتُ

خفية صوب الممشى وصوب باب حجرة الطفل المظلمة، المفتوح، فما كنتُ أحسب ديئان سيُبقيه عنده. فلا بدّ له من أن يهتف غداً إلى مَن غدت الآن الأخت الكبرى والصغرى، نظرتُ إلى الساعة، وعلمتُ أن الوقت لم يفتْني كثيراً، ولربّما وجدتُ مسوّغاً أن أهتف لها هذه الليلة ذاتها عند عودتي إلى البيت، وأخطو خطوة ما تزال بريئة. فلربّما كنتُ بعد كل شيء الزوج المبهم الذي لمّا يأتِ، وأشكّل جانباً من عالمها من الأحياء الذين لا ثبات لهم. ويمكن لهذا الطفل أن يأتي إلينا، لأني لا أحسب ديئان سيحتفظ به، ولسوف ترافقه في هذه الحالة طائراته، وإن كانت تعود إلى طفولة الأب السعيدة، وأنا لم يكن عندي مثلها، فكم أغبطه! إنها مطاردات وقاذفات من الحربين العالميتَيْن الأولى والثانية مختلطة ببعضها البعض، بعضها من حرب كوريا، وبعضها الآخر من حربنا الأهلية، لمّا هاجمت مدريد، أو دافعت عنها منذ فترة بعيدة. فإذا ما انتهت الأشياء يصبح لها رَقْم. ويناط العالم حينئذ بقصّاصيه، لكنْ، لمدّة ضئيلة، وليس على شكل كامل، ولا يمكن لأحد الخروج من الظلمة خروجاً تامّاً، والآخرون لا ينتهي أمرهم أبداً، ثمّة دائماً أحدٌ ما يُطوى عنه سرّ. لن يعرف هذا الطفل أبداً ما قد حدث، ولسوف يُخفيه عنه أبوه وخالته، ولسوف أخفيه عنه أنا نفسي، ولا أهمّيّة لذلك، فما أكثر الأشياء التي تحدث من غير أن يعلم بها أحد، أو يتذكّرها أحد، أو أن كل شيء يُنسَى ويسقط بالتقادم. وما أقلّ ما يبقى من كل فرد في هذا الزمن العَبَثي كالثلج الزلق، وما أقلّ ما له ثبات، وما أكثر ما يُسكَت عن هذا القليل، وما لا يُسكَت عنه يُستذكَر منه فيما بعد جزءٌ ضئيل، ولمدّة بسيطة: أمّا نحن، فنرحل صوب تلاشينا ببطء، لنعبر من فوق متن هذا الزمن، أو قفاه، حيث لا يستطيع المرء أن يظلّ مفكّراً، ولا يستطيع أن يظلّ مودّعاً: فوداعاً، يا ضحكات، وداعاً، يا منغّصات. لن أراكِ بعد اليوم، ولن تريني، ووداعاً، يا عنفوان، ووداعاً، يا ذكريات".

مكتبة t.me/ktabrwaya

خابيير ماريّاس: روائي وقاصّ وكاتب تراجم ومترجم إسباني، وُلد في مدريد عام ١٩٥١، وعمل أستاذاً في جامعة أوكسفورد، وجامعات الولايات المتّحدة الأمريكية، وجامعات مدريد حالياً.

من مؤلّفاته الروائية: ممالك، والذئاب، وملك الزمان، والقرن، والإنسان العاطفي (نال عنها جائزة الرواية عام ١٩٨٦)، كل الأرواح (جائزة مدينة برشلونة)، وقلب أبيض جدّاً (جائزة النقد) (صدرت عن المتوسط أيضاً)، و«فكِّرْ فيّ غداً، أثناء المعركة» التي حصدتْ خمس جوائز خلال عام ونصف العام بعد نشرها، وطُبعت خمس طبعات في السنة الأولى بين نيسان وأيلول عام ١٩٩٤.

تُرجمت أعماله إلى الفرنسية، والإنكليزية (بريطانيا والولايات المتّحدة وأستراليا)، الألمانية والهولندية والإيطالية والبرتغالية والدانماركية واليونانية والنرويجية والرومانية والبولونية والسويدية والكورية.

المتوسط

«خابيير مارياس واحد من الكتاب الذين يجب أن يحصلوا على جائزة نوبل»

أورهان باموق

«مارياس هو واحد من أفضل الكتاب المعاصرين»

ج. م. كويتزي

«مارياس هو أفضل كاتب إسباني حتى اليوم»

روبرتو بولانو

«(مارياس) كاتب عظيم»

سلمان رشدي

t.me/ktabrwaya

